سلسلة العصبية القبلية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس




2007
عاصمة الثقافة العربية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس



دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجـوال: 070 91.77.73

بوزياني، الدراجي
دول الخوارج والعلويين / بوزياني الدراجي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 243ص؛ 23سم
ردمك: 978-9947-833-01-8
الإيداع القانوني:154-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 5-2007 دار الكتاب العربي


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

- إلى شهداء الجزائر الأبرار الذين قدموا أرواحهم من أجل قيام دولة جزائرية عزيزة مستقلة وموحدة.
- إلى المجاهدين المخلصين لهذه البلاد الطاهرة؛ الذين حققوا المعجزة وحرروا البلاد والعباد.
- إلى شباب الجزائر المستقلة الذين يضحون بكل غالٍ ورخيصٍ في سبيل وحدة الجزائر وازدهارها الثقافي والاقتصادي.
- إلى كل امرأة جزائرية حافظت على قيم شعبها وثوابت أمتها.
- إلى كل هؤلاء جميعا أهدي كتابي المتواضع هذا؛ راجيا من الله أن يكون لبنة جديدة تضاف إلى صرح بلادي الثقافي.

المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت ـ في إعداد هذه الدراسات ـ بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون ـ بعد تأمل عميق وتجربة واسعة ـ أن ظاهرة العصبية في بلاد

المغرب وقفت في طريق كل المحاولات الممهدة لقيام أي دولة قوية أو لاستقرار أي تنظيم مخالف للتنظيم القبلي؛ ذلك التنظيم الذي يفتقر – بدوره – للاستقرار والانضباط. وعليه فقد وضع نظريته ليساعد الدارسين لتاريخ هذه الديار على فهم السبب الكامن وراء التخلف السائد في بلاد المغرب؛ ذلك التخلف الذي منع كل تطور وتقدم نحو حياة جديدة فاضلة؛ كان ابن خلدون قد عرفها في بلدان أخرى. وإذا كان هناك من يشكك في موضوعية النظرية الخلدونية وصحة طرحها؛ فإن قراءتنا نحن للأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد المغرب تجعلنا أكثر قربا من التسليم بها وتصديق معظم ما جاء فيها.

وإذا كان ابن خلدون يصف ظاهرة اجتماعية سلبية كانت سائدة في عصره المظلم؛ ذلك العصر الذي تميز بالتراجع والانكماش في الميادين الحضارية كافة من: فكر وثقافة، أو صناعة وابتكار، أو عمران وبناء، أو سياسة مدنية، أو اقتصاد منظم؛ فإن تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية ما زالت متحكمة فينا، ومهيمنة علينا حتى في زمننا هذا؛ حيث ظلت الروح القبلية والنزعة للعصبية في أوج قوتها وعنفوانها؛ على الرغم من انتسابنا للقرن الواحد والعشرين، وعلى الرغم من قربنا من مراكز الحضارة الحديثة، وعلاقاتنا الوطيدة مع المجتمعات المدنية المتحضرة في العالم المتقدم.

ولما كان التاريخ ـ دوما ـ عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فأني وجدت من الضروري ـ هنا ـ معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم ـ أو على الأقل ـ التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين

والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها – مع كثرتها – تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد – بسهولة – من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام ديناً، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعاً إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها – في حقيقة الأمر – كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل

أمازيغية واستماتت في حمايتها؛ ثم الدولة الفاطمية التي نشأت بسواعد أبناء كتامة وصنهاجة. وعليه فلا شك في أن أي صراع حدث بين قبائل المغرب والدول القائمة في تلك الأثناء لا يعدو أن يكون محصورا في نطاق العصبية القبلية؛ كما لا يخرج عما ذكره ابن خلدون حول تطلع القبيلة ـ كل قبيلة ـ ورغبتها في الوصول إلى مرتبة الملك؛ كمرحلة طبيعية؛ تقتضي تطور السلطة في القبيلة من مرتبة الرئاسة إلى مرتبة أعلى وأسمى وهي الملك.

ولا تفوتني ـ قبل الختام ـ فرصة التنويه بالمجهود الكبير الذي بذل من طرف دار الكتاب العربي بالجزائر في نشر وطباعة هذا الكتاب ـ وغيره من الكتب التي أتممتها ـ بهذا الشكل الأنيق الجيد. وأخص بالذكر ـ هنا ـ مدير الدار السيد **محمد خير الجهماني**، وولديه: **مهند الجهماني، وفراس الجهماني**؛ بالإضافة إلى الآنسة الفنانة **لويزة الحسين**؛ التي لم تبخل ـ في كل مرة ـ بما حباها الله من إحساس مرهف كي تمنح كتابي لوحات معبرة بريشتها الذهبية.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4 ـ جوان ـ 2001م

مدخل

يتضح من عنوان هذا الكتاب؛ أن للموضوع شقين: أولهما يتعلق بنشأة الدولة وسقوطها؛ وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وأفولها؛ وذلك من خلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما. وستتم معالجة الشقين ــ ضمن هذا المجال ــ في سياق واحد؛ دون اللجوء إلى الفصل بينهما؛ لأنهما متكاملان، ويدوران ــ معا ــ في حلقة واحدة.

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة؛ سينساق الذهن ــ منذ الوهلة الأولى ــ نحو إيجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى عبر التاريخ؛ في المجتمعات الإنسانية عموما. ويبدو أن هذه الفكرة تحتل مكانة ذات إغراء وإثارة أكثر من مجرد الاكتفاء باستقراء وتتبع الطريقة التي قامت بها دولة ما؛ على أنقاض دولة أخرى. وعليه فبفضل هذه الدراسة، وما يليها ضمن هذه السلسلة؛ ستتضح الصورة عن الكيفية التي تنشأ أو تسقط بها الدولة. وهنا سيتحتم ــ في هذا السياق ــ الاعتماد على نظرية ابن خلدون؛ لكونه احتل مكانة مرموقة ومتقدمة بين المفسرين لنشأة الدولة بالمغرب الإسلامي بصورة خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة.

وكمـا هـو معـروف فنشـأة الدولـة ـ عمومـا ـ ليسـت سـوى خطـوة حدثـت بيـن خطـوات عديـدة سبقتهـا؛ ضمـن مسيـرة الإنسـان الطويلـة؛ عبـر الفتـرات التاريخيـة المختلفـة في سبيـل تحقيـق التمـدن والتحضـر. وهـذا مـا يمكـن استنتاجـه مـن خـلال الشواهـد الـتي تثبـت مواكبـة نشـأة الدولـة ـ في غالـب الأحيـان ـ للنشـاط العمـراني، والازدهـار الحضـاري. وبالمقابـل فقـد لوحـظ أن سقـوط الدولـة ينجـر عنـه ـ في جـل الحـالات ـ انهيـار عمـراني، وتقهقـر حضـاري.

فالـدارس لتاريـخ بـلاد المغـرب سيلاحـظ ـ حتمـا ـ مـا تعرضـت لـه هـذه البـلاد مـن تقلبـات؛ نتيجـة لطغيـان ظاهـرة اجتماعيـة مثيـرة للجـدل؛ تركـت بصماتهـا العميقـة في المسـار التطـوري للمجتمعـات المغربيـة، ومنعـت كـل نشـاط يهـدف إلى استقـرار الـدول في تلـك الديـار. وهـذه الظاهـرة تتمثـل في كثـرة القبائـل وتباينهـا، وتعـدد العصبيـات واختلافهـا. ويبـدو أن الـذي اكتشـف تأثيـر هـذه الظاهـرة قبـل غيـره هـو عبـد الرحمـن بـن خلـدون؛ ذلـك النابغـة الـذي خصـص فصـلا مستقـلا في مقدمتـه يشيـر فيـه إليهـا وهـو: "**فصـل في أن الأوطـان الكثيـرة القبائـل والعصائـب؛ قـل أن تستحكـم فيهـا دولـة**".[1]

---

[1] المقدمـة، ج: 2، ص: 646.

وقد برهن على رأيه – في هذا السياق – ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها – آنئذ – كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل – بعد ذلك – شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص: 647.**

فمـــا يمكـــن استنتاجـــه هنـــا.. هـــو أن للعصبيـــة أثـــرا كبيـــرا؛ عـــلى نشـــأة الـــدول وسقوطهـــا في هـــذه الديـــار. والدليـــل عـــلى ذلـــك يظهـــر مـــن خـــلال مـــا واجـــه المسلميـــن مـــن أحـــداث؛ عـــلى الرغـــم مـــن قوتهـــم، وتعـــدد جيوشهـــم، وصـــدق دعوتهـــم. حيـــث واجهتهـــم – في بـــلاد المغـــرب – صعوبـــات كثيـــرة؛ عرقلـــت مساعيهـــم؛ قصـــد ترسيـــخ سلطانهـــم، وتثبيـــت دعائـــم الدولـــة الإسلاميـــة. وربمـــا استعـــصى عليهـــم تحقيـــق ذلـــك الأمـــر؛ ولـــم يتمكنـــوا مـــن تمهيـــد البـــلاد إلا في عهـــد مـــوسى بـــن نصيـــر؛ كمـــا ذكـــر ابـــن خلـــدون. أمـــا عبـــد اللـــه المالـــكي، والرقيـــق القيـــرواني؛[1] فيجمعـــان عـــلى استقامـــة الأوضـــاع بإفريقيـــة في عهـــد حســـان بـــن النعمـــان. ومـــع هـــذا يبـــدو أن استتبـــاب الأمـــر لـــم يـــدم طويـــلا؛ حيـــث عـــادت الفتـــن، والحـــروب مـــن جديـــد؛ ودون توقـــف. ويرجـــع السبـــب في ذلـــك إلى العصبيـــة المهيمنـــة، والطابـــع القبـــلي؛ الـــذي يتميـــز بهمـــا المغـــرب. هـــذا بالإضافـــة إلى ظاهـــرة البـــداوة؛ المتفشيـــة في تلـــك الربـــوع؛ نظـــرا لكـــون الأمازيـــغ يعتبـــرون مـــن أهـــل العصبيـــات والأنســـاب؛ كمـــا يقـــول ابـــن خلـــدون ضمـــن "**فصـــل في أن المـــدن والأمصـــار بإفريقيـــة والمغـــرب قليلـــة**".[2]

---

[1] ريـــاض النفـــوس، ج: 1، ص: 57. وتاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 64.

[2] ((وأيضـــا فالصنائـــع بعيـــدة عـــن البربـــر؛ لأنهـــم أعـــرق في البـــداوة. والصنائـــع مـــن توابـــع الحضـــارة؛ وإنمـــا تتـــم المبـــاني بهـــا؛ فـــلا بـــد مـــن الحـــذق في تعلمهـــا؛ فلمـــا لـــم يكـــن للبربـــر انتحـــال لهـــا لـــم يكـــن لهـــم تشـــوف إلى المبـــاني؛ فضـــلا عـــن

وإذا كانت للبيزنطيين أثار بارزة ــ لا ينبغي نكرانها ــ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال فتحهم لإفريقية والمغرب. فإن هذا لا ينفي ــ في الحقيقة ــ جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ ــ في تلك الفترة ــ لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كَسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب ــ أيضا ــ إلى عرب القيروان، والعرب

المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ــ 990.

المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

وهكذا.. كان المغرب – في تلك الفترة – تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية، وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد ابن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[2] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 – 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 – 144.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 – 101. 107 — 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 – 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 — 157.

والشيعة.[1] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم. فأضحى المغرب الإسلامي ـ نتيجة لذلك كله ـ مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ـ طبعا ـ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

---

[1] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ـ 138. 146 ـ 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 ـ 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 ـ 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 ـــ 209.

ومن هنا.. تتضح الكيفية التي انتقلت بها عدوى عصبية القيسيين واليمنيين؛ إلى إفريقية والمغرب.. إذ انطلقت هذه الظاهرة الخطيرة من مكمنها؛ بتحريك وإثارة من قمة الدولة الأموية نفسها. وذلك أنه إذا كان بعض الفاتحين موبوءا بها دون وعي بمخاطرها؛ فإن خلفاء بنى أمية؛ مثل: يزيد بن عبد الملك ـ حكم من 101هـ(719م) إلى 105هـ(723م) ـ وهشام بن عبد الملك ـ حكم من 105هـ إلى 125هـ(742م). ساعدا على استفحال هذا الوباء؛ بتشجيعهما للعصبية، والتكتلات القبلية.

ولمَّا كان المغرب الإسلامي ـ منذ البداية ـ يعج بأهل اليمن؛ فقد أضحى القادمون الجدد؛ من أهل الشام، وشمال شبه الجزيرة؛ غير مرغوب فيهم. وبذلك تبادل الولاة ـ من الطرفين ـ اضطهاد الرعية التي لا تتحدر من سلسلة نسبهم؛ ولا تجمعهم وإياهم عصبية واحدة. وقد يكون بشر ابن صفوان الكلبي هو أول الولاة المنحازين إلى عصبيتهم. حيث أحاط نفسه بهم، وأبعد غيرهم. ولكنه عزل بعد موت يزيد بن عبد الملك. ولما تولى هشام بن عبد الملك الحكم؛ عين قيسيا متعصبا على إفريقية والمغرب، **(وهو عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي)**. فاضطهد أهل اليمن؛ من الكلبيين؛ الأمر الذي جعل أبا الخطار حسام

ابن ضرار الكلبي[1] يسارع في إرسال أبيات شعرية من نظمه إلى الخليفة هشام؛ ذكره فيها بمواقف الكلبيين من بني أمية. وفيها يقول:[2]

أفأتمْ بَنِي مَرْوَانَ قيساً دِمَاءَنَا
وَفِي اللهِ إنْ لمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ

كَأنكمْ لمْ تشْهَدُوا مَرْجَ رَاهِطٍ
ولَمْ تَعلمُوا مَنْ كَانَ ثمَّ لهُ الفَضْلُ

تعَامَيتمُ عَنا بِعَيْنٍ جَلِيةٍ
وَأنتمْ كذَا ما قدْ عَلِمْنا لنَا فِعْلُ

فاغتاظ الخليفة هشام من الوالي عبيدة بن عبد الرحمن؛ فعزله من منصبه؛ ولكنه عين قيسيا آخر؛ **(وهو عبيدة الله بن الحبحاب)**. فتمادى ــ هو الآخر ــ في لعبة العصبية الخطيرة؛ التي انجر عنها ــ في عهده ــ أحداث خطيرة للغاية؛ إذ نشبت ثورة الخوارج الكبرى؛ التي قادها ميسرة المطغري؛ تلك الثورة التي كادت أن تطيح الحكم العربي نهائيا في بلاد المغرب؛ كل ذلك جراء النزعة المتطرفة للعصبية، والنعرة المتشددة للقبلية.

---

[1] **أسندت إليه فيما بعد إمارة الأندلس؛ فأظهر فيها تعصبا شديدا لأهل عصبيته اليمنية. مما أودى به إلى التهلكة؛ بعد أن أشعل بلاد الأندلس بالفتن والحروب.**

[2] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 50.**

وهكـذا فمـن يحلـو لـه اللعـب بالنـار؛ يتعـرض للاحتـراق أحيانـا.. حيـث استفحلـت ظاهـرة العصبيـة القبليـة، وأخـذت تنخـر كيـان الدولـة الأمويـة نفسهـا. فانحـدرت بهـا تلـك الظاهـرة السلبيـة إلى مهـاوي السقـوط والاندثـار.[1] لأن خلفـاء تلـك الدولـة استهوتهـم اللعبـة، فغفلـوا عـن الأخطـار الـتي يمكـن للعصبيـة أن تفرزهـا، إذا مـا استهيـن بمفعولهـا العكـسي، وتأثيرهـا عـلى استقـرار دولتهـم وسلامتهـا؛ فلـم يكتشفـوا جوانبهـا السلبيـة؛ وانساقـوا خلـف إغرائهـا العابـر، وطمعـوا في بعـض الفوائـد الظرفيـة الزائفـة. وشـاءت الأقـدار أن تتسبـب ظاهـرة العصبيـة في تفكـك الدولـة؛ عندمـا تمـردت بعـض القبائـل، والعصبيـات؛ في الأطـراف النائيـة؛ حيـث أنشـأت دولا، وإمـارات خاصـة بهـا. مـن ذلـك مـا حـدث في المغـرب الإسـلامي مثـلا؛ إذ تمكـن زعمـاء بعـض القبائـل، والأحـزاب مـن إقامـة كيانـات، ودول مستقلـة؛ عـن الدولتيـن: الأمويـة، ثـم العباسيـة بعدهـا؛ وتبعـا لمـا تفرضـه المجتمعـات القبليـة؛ فقـد كانـت تلـك الكيانـات تستنـد ـ بدورهـا ـ إلى عصبيـة القبائـل الأمازيغيـة.

---

[1] **المفصـل في تاريـخ العـرب قبـل الإسـلام، ج: 1، ص 495. والعصبيـة القبليـة وأثرهـا في الشعـر الأمـوي، ص: 243. وفجـر الأندلـس، ص: 142. والمغـرب الإسـلامي، ص: 119.**

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات ــ منذ البداية ــ قصد تأليف دول وإمارات ــ هنا وهناك ــ ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلى مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ اللذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم ــ في هذه الحال ــ متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتحِ وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن

أهــم عوامــل فشلهمــا ــ عــلى مــا يبــدو ــ هــو العامــل الديــني؛ الــذي كــان في صــف الفاتحيــن.

وفي هــذا السيــاق تتــولى نظريــة ابــن خلــدون تعزيــز هــذا الاعتقــاد؛ وذلــك مــن خــلال مــا عرضــه ضمــن بعــض الفصــول مــن مقدمتــه مثــل: "**فصــل في أن العــرب لا يحصــل لهــم الملــك إلا بصبغــة دينيــة؛ مــن نبــوة أو ولايــة أو أثــر عظيــم؛ مــن الديــن عــلى الجملــة**". و"**فصــل في أن الــدول العامــة الاستيــلاء؛ العظيمــة الملــك؛ أصلهــا الديــن؛ إمــا مــن نبــوة، أو دعــوة حــق**". و"**فصــل في أن الدعــوة الدينيــة تزيــد الدولــة في أصلهــا قــوة؛ عــلى قــوة العصبيــة؛ الــتي كانــت لهــا؛ مــن عددهــا**". و"**فصــل في أن الدعــوة الدينيــة مــن غيــر عصبيــة لا تتــم**".[1] وعليــه فقــد فشلــت تلــك الكيانــات جميعهــا؛ في إنشــاء ملــك مستقــل وقاهــر. وتوقــف الحــال بهــا كلهــا في طــور المشيخــة والرئاســة؛ ذات السلطــات المحــدودة. غيــر أنــه حصــل لبعــض القبائــل الأخــرى أنهــا تمكنــت مــن إقامــة دول مستقلــة عــن الخلافــة الأمويــة، ثــم العباسيــة بعدهــا. ويعــود السبــب في ذلــك إلى مــا أصــاب عصبيــة بــني أميــة مــن وهــن؛ أدى إلى تــلاشي ظلهــا عــن بــلاد المغــرب. كمــا أن توافــر بعــض الشــروط الفعالــة؛ ساعــدت هي الأخــرى القبائــل عــلى إقامــة دول مستقلــة. مــن بينهــا العامــل الديــني أو المذهــبي؛ الــذي تمكنــت بعــض

---

[1] **المقدمــة، ج: 2، ص ص: 626. 636 ــ 642.**

القبائل من تحقيقه؛ الأمر الذي ساعد على تعزيز دور العصبية التي تنتمي إليها.

ولما كانت الدولة العباسية قد ورثت الأوضاع المتردية في بلاد المغرب ـ بعد سقوط الدولة الأموية ـ فقد تعذر عليها إعادة الكرة؛ وإخضاع الدول التي استقلت عن الخلافة من قبل. وهذا ـ طبعا ـ يعود إلى حداثة الدولة العباسية، وبداية عهدها من جهة؛ وإلى شدة العصبية الفياضة؛ التي تتميز بها القبائل المغربية؛ تلك العصبية التي جعلت منها قوة لا يستهان بها. هذا بالإضافة إلى العامل الديني؛ الذي أضحى يشد أفراد القبائل بعضهم إلى بعض. كما أن للعامل الجغرافي كلمته التي لا شك فيها في هذا الباب.

****

دول الخـــوارج

هــذه التسميــة (**الخــوارج**) لــم يطلقهــا أصحابهــا عــلى أنفسهــم؛ بــل سماهــم بهــا خصومهــم. لذلــك نجــد الإباضييــن في بــلاد المغــرب يستنكــرون إطــلاق هــذه التسميــة عليهــم.[1] وتعــود بدايــة ظهــور المذهــب الخــارجي إلى عهــد عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه. وبالتحديــد أثنــاء وقعــة صفيــن؛ أي حيــن رفضــت فئــة مــن المتقاتليــن نتيجــة التحكيــم؛ فخرجــوا عــن صــف عــلي، وفارقــوا صفــوف أنصــاره؛ معلنيــن العصيــان، ثــم دعــوا النــاس إلى خلعــه هــو ومعاويــة معــا. فاعتبرهــم أهــل السنــة ــ بسبــب ذلــك ــ خارجيــن عــن الصــف؛ وأسموهــم الخــوارج.[2]

---

[1] أنظـر: كتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، للدرجيــني، ج: 2، الصفحــات: **201** ومــا يليهــا. وكتــاب مختصــر تاريــخ الإباضيــة لسليمــان البــاروني، ص ص: **17 ــ 33**. وكتــاب الإباضيــة في موكــب التاريــخ، الحلقــة الثانيــة، ص ص: **21 ــ 23**. وكتــاب تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 2، ص ص: **337 ــ 400**.

[2] أمــا الشهرستــاني فيقــول: ((كــل مــن خــرج عــلى الإمــام الحــق الــذي اتفقــت الجماعــة عليــه يســمى خارجيــا؛ ســواء كــان الخــروج في أيــام الصحابــة عــلى الأئمــة الراشديــن، أو كــان بعدهــم عــلى التابعيــن بإحســان، والأئمــة في كــل زمــان... اعلــم أن أول مــن خــرج عــلى أميــر المؤمنيــن عــلي رضي الله عنــه جماعــة ممــن كــان معــه في حــرب صفيــن؛ وأشدهــم خروجــا عليــه ومروقــا في الديــن الأشعــث بــن قيــس الكنــدي، ومسعــر بــن فــدكي التميــمي، وزيــد بــن حصيــن الطــائي؛ حيــن قالــوا: "القــوم يدعوننــا إلى كتــاب اللــه، وأنــت تدعونــا إلى السيــف" حــتى قــال: "أنــا أعلــم مــا في كتــاب اللــه! انفــروا إلى بقيــة الأحــزاب! انفــروا إلى مــن يقــول: كــذب اللــه ورسولــه، وأنتــم تقولــون: صــدق اللــه

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: **((الأئمة من قريش))**؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: **((اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة))**. هذا وتباعدت ـ بمرور الوقت ـ الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتتتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها: الأزارقة؛

ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ـ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ـ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ـ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي آلفرد بل، ص ص: 140 ـ 150. وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ص: 256 ـ 265.

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ـ

نسبــة إلى نافــع بــن الأزرق؛ وهــم مــن غــلاة الخــوارج. ثــم النجــدات؛ أتبــاع نجــدة بــن عامــر. ثــم الإباضيــة؛ أتبــاع عبــد اللــه بــن إبــاض التميــمي؛ وهــم أقــرب الفئــات المذكــورة مــن المذاهــب السنيــة؛ فلــم يكونــوا متطرفيــن، ولا مغاليــن في أحكامهــم تجــاه المخالفيــن لمعتقدهــم مــن المسلميــن. ثــم الصفريــة؛ أصحــاب زيــاد ابــن الأصفــر، ويقتربــون مــن الإباضيــة في أحكامهــم ومواقفهــم.[1]

وترجــع بدايــة ظهــور المذهــب الخــارجي؛ في بــلاد المغــرب إلى أواخــر القــرن الأول وبدايــة القــرن الثــاني للهجــرة. حيــث انتقــل مــن المشــرق بواسطــة الخــوارج الهاربيــن مــن قمــع الأموييــن بالمشــرق؛ إذ وجــدوا في ديــار المغــرب النائيــة ملجــأ آمنــا لهــم؛ ومنهــم أبــو الخطــاب عبــد الأعــلى بــن السمــح المعافــري؛ ذلــك الداعيــة الإبــاضي اليمــني الأصــل.[2] وربمــا كــان مــن أولئــك الخــوارج أيضــا مــن كــان مندســا في صفــوف

فيمــا بعــد ــ عــن هــذه الفــرق الثمانيــة فــرق أخــرى كثيــرة منهــا: العوفيــة (العونيــة)، الصلتيــة، الميمونيــة، الحمزيــة، الخلفيــة، الأطرافيــة، الشعيبيــة، الحازميــة، الأخنسيــة، المعبديــة، الرشيديــة، الشيبانيــة، المكرميــة، المعلوميــة والمجهوليــة، البدعيــة، الحفصيــة، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138.

[1] يبــدو أن الصفريــة في بــلاد المغــرب كانــوا أشــد تطرفــا مــن صفريــة المشــرق. مــع استثنــاء واحــد يتمثــل في دولــة سجلماســة الــتي تميــزت بالتسامــح؛ وإن كــان ذلــك التسامــح بــدأت بــوادره انطلاقــا مــن حكــم مــدرار؛ الــذي أخــذ في التقــرب مــن بــني رستــم ومذهبهــم الإبــاضي.

[2] سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 57. طبقــات المشائــخ بالمغــرب، ج: 1، ص: 22. الفــرق الإسلاميــة لآلفــرد بــل، ص: 170. تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 3، ص: 3.

جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن الحبحاب.[1] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[2] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[3] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح

---

[1] **يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 114. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـ 299. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 58 ـ 59.**

[2] **ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:1، ص: 137. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: 3، ص: 265.**

[3] **قال المالكي: ((دخل عكرمة إفريقة وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: 1، ص: 146. وجاء في التعليق 8 من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((أورد الذهبي في تاريخ الإسلام (3: 160) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه أهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: 82 ـ 83.**

من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن خلدون.[1] وكما هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان يبديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ــ منذ البداية ــ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة

---

[1] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: **149**. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: **6**، ص ص: **210**. **267** ــ **268**.

122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ــ بعد مقتل ميسرة ــ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا ــ منذ البداية ــ خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينها هشا وظرفيا؛ فاستظلوا ــ سطحيا ــ بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية ــ وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين ــ فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم ــ في ذلك الوقت ــ بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر

---

[1] **أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 ــ 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 ــ 51.**

الكـــافي؛ ممـــا أضعـــف دوره في مساعـــدة العصبيـــات المتحالفـــة عـــلى تحقيـــق التلاحـــم المطلـــوب.

وحـــتى يسهـــل تفسيـــر تلـــك الأحـــداث؛ يستحســـن مراجعـــة نظريـــة ابـــن خلـــدون؛ الـــتي تقـــول بضـــرورة تحقيـــق شـــروط التركيـــب والمـــزج الصحيحيـــن؛ لـــكي يتحقـــق الالتحـــام الفعـــال بيـــن العصبيـــات المـــراد توحيدهـــا؛ **((لأن الاجتمـــاع والعصبيـــة بمثابـــة المـــزاج في المتكـــون؛ لا يصلـــح إذا تكافـــأت العناصـــر؛ فـــلا بـــد مـــن غلبـــة أحدهـــا؛ وإلا لـــم يتـــم التكويـــن. فهـــذا هـــو ســـر اشتـــراط الغلـــب في العصبيـــة)).**[1] ولمـــا كانـــت القبائـــل الأمازيغيـــة المتحالفـــة متساويـــة في قـــوة العصبيـــة؛ فقـــد تعـــذر عليهـــم تحقيـــق الوحـــدة والمـــزج والتلاحـــم؛ خاصـــة وأنهـــم لـــم يمتلكـــوا زمـــام الدعـــوة المذهبيـــة عـــلى أفضـــل وجـــه. وطبعـــا هـــذا شـــرط آخـــر يضعـــه ابـــن خلـــدون في نظريتـــه؛ إلى جانـــب شـــرط المـــزج والتركيـــب السابـــق الذكـــر.[2] وقـــد ثبـــت عجـــز تلـــك القبائـــل المتحالفـــة تحـــت

---

[1] المقدمـــة ، ج: 2، ص: 599.

[2] يقـــول ابـــن خلـــدون: ((أن الصبغـــة الدينيـــة تذهـــب التنافـــس والتحاســـد الـــذي في أهـــل العصبيـــة... واعتبـــر ذلـــك أيضـــا في دولـــة لمتونـــة ودولـــة الموحديـــن. فقـــد كـــان بالمغـــرب مـــن القبائـــل كثيـــر ممـــن يقاومهـــم في العـــدد والعصبيـــة أو يشـــف [أي يزيـــد] عليهـــم؛ إلا أن الاجتمـــاع الديـــني ضاعـــف قـــوة عصبيتهـــم بالاستبصـــار والاستماتـــة... واعتبـــر ذلـــك إذا حالـــت صبغـــة الديـــن وفســـدت؛ كيـــف ينتقـــض الأمـــر، ويصيـــر الغلـــب عـــلى نسبـــة العصبيـــة وحدهـــا دون زيـــادة الديـــن؛ فيغلـــب الدولـــة مـــن كـــان تحـــت يدهـــا مـــن العصائـــب المكافئـــة لهـــا أو الزائـــدة القـــوة عليهـــا؛ الذيـــن غلبتهـــم بمضاعفـــة الديـــن لقوتهـــا ولـــو كانـــوا أكثـــر عصبيـــة منهـــا وأشـــد بـــداوة. واعتبـــر هـــذا في الموحديـــن مـــع زناتـــة؛ لمـــا كانـــت زناتـــة أبـــدى [أي أشـــد بـــداوة]

قيادة خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[1] أما سبب تصنيفهما إلى صفرية وإباضية؛ فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية

من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ـ 638.

[1] أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ـ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.

الثائرة إلى صفرية وإباضية؛ تبعا لملاحظة سلوك كل فئة في القتال أمام خصومهم من المسلمين؛ ومدى ما يحرمونه على أنفسهم وما يحللونه.

وهكذا فبواسطة هاتين الفرقتين انتشرت ـ بعد ذلك ـ الثورات الطاحنة؛ عبر بلاد المغرب كلها. ثورات ظاهرها مذهبي وديني؛ أما مضمونها فيتميز بالعصبية والنزعة القبلية. وقد تمكن المذهبان المذكوران من تقسيم البلاد بينهما تقريبا؛ فانحازت قبائل: غمارة ومكناسة وبرغواطة وبنو يفرن ومغيلة وورفجومة، وبعض بطون صنهاجة، وبطون من زناتة؛ إلى الصفرية. أما: هوارة ونفوسة ولماية ولواتة، وبطون أخرى من زناتة؛ فقد انضمت إلى المذهب الإباضي.[1]

هذا وقد انجر عن تلك الانتماءات المذهبية قيام دول خارجية مستقلة في أقاصي البلاد؛ ترتكز على النظام القبلي، والروح المذهبية. منها: دولة برغواطة؛ التي نشأت في بدايتها ضمن الغطاء المذهبي الصفري، ثم دولة بني مدرار الصفرية، ثم دولة بني رستم الإباضية. وقد استطاعت هذه الدول الثلاث البقاء والصمود؛ أمام كل الاضطرابات التي اجتاحت المغرب الإسلامي آنذاك؛ متحدية ـ بذلك ـ سطوة الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية بعدها. كما استطاعت أيضا إضفاء

---

[1] **العبر، مج: 6، ص ص: 223 ـ 227. 246 ـ 248. 255 ـ 267. 286 ـ 287. 428 ـ 438.**

طابـع مذهـبي وديـني عـلى مؤسساتهـا؛ مـع شيء مـن التفـاوت فيمـا بينهـا.

غيـر أنـه مـن الضـروري ـ هنـا ـ التذكيـر؛ بكـون الـدول الثـلاث كـان يغلـب عليهـا الطابـع القبـلي؛ مصبوغـا بسمـات البـداوة المحـض؛ معـززة بمبـادئ مذهبيـة، وعقائديـة؛ منحتهـا نفحـة دينيـة متميـزة. علمـا بـأن دولـة بـني رستـم تفوقـت عـلى أختيهـا؛ في نظمهـا وفي سيادتهـا وفي نفوذهـا. إذ كانـت تتمتـع باستقلاليـة أوسـع منهمـا. حيـث كانـت دولـة برغواطـة تعلـن ولاءهـا للدولـة الأمويـة بالأندلـس.[1] أمـا إمـارة بـني مـدرار؛ فقـد صرحـت بالدعـوة لخلفـاء بـني العبـاس ببغـداد.[2] ومـع هـذا فقـد ظـل ذلـك الـولاء شكليـا؛ لا يؤثـر ولا يتأثـر. فالهـدف منـه هـو كسـب نـوع مـن الشرعيـة؛ قـد تساعـد عـلى الثبـات والاستقـرار. والـذي يحـث عـلى تخصيـص فقـرات للحديـث عـن تلـك الـدول؛ في هـذا المجـال؛ هـو مـا عـرف عـن منعتهـا، وتحديهـا للـدول الكبـرى آنئـذ. غيـر أن المعلومـات الضئيلـة الـتي أوردهـا المؤرخـون عنهـا لا تـفي بالحاجـة المطلوبـة. وسيبـقى أمرهـا مغلفـا بالغمـوض؛ مـا دامـت النصـوص التاريخيـة الكافيـة مفقـودة.

---

[1] **المغـرب، 135. وأعمـال الأعـلام، ق: 3، ص: 183. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 224. والعبـر، مج: 6، ص: 130.**

[2] **العبـر، مج: 6، ص: 268. وصبـح الأعـشى، ج: 5، ص: 165.**

وجملـــة القـــول؛ فهـــذه الـــدول نشـــأت في أعقـــاب الفشـــل الـــذي لحـــق بالقبائـــل الصفريـــة والإباضيـــة؛ أمـــام ولاة إفريقيـــة والمغـــرب؛ طـــوال الفتـــرة الزمنيـــة الممتـــدة مـــن عـــام 124هـــ(741م) إلى عام 144هـــ(761م)؛ حيـــث تفرقـــت ـــ نتيجـــة لذلـــك الفشـــل ـــ القبائـــل الأمازيغيـــة (الصفريـــة والإباضيـــة) في ربـــوع المغربيـــن: الأقـــصى والأوســـط؛ أيـــن تحصنـــوا في المناطـــق النائيـــة، وشيـــدوا دولهـــم الخاصـــة بهـــم.

****

1)ـ الدولة البرغواطية:

أدى فشل الصفرية والإباضية أمام الدولة الأموية ببلاد المغرب؛ إلى قيام الدولة الصفرية الأولى في أقصى البلاد؛ ممثلة ببرغواطة سنة 127هـ (744م). وذلك عندما لجأت فلولهم ـ مع طريف الصفري ـ إلى إقليم تامسنا (بمنطقة الدار البيضاء حاليا)؛ حيث ترأس بعض القبائل ـ هناك ـ من: مصمودة وزواغة وزناتة، وقبائل أخرى.[1] وبعد موته خلفه ابنه صالح؛ الذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. وبذلك يكون طريف وابنه صالح قد وصلا إلى مرتبة الرئاسة والسؤدد في قبائل متعددة؛ مع أنهما لا ينتميان إلى عصبيتهما. فكيف حصل ذلك؟

الإجابة على هذا توجد عند ابن خلدون؛ الذي ذكرها ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[2]

---

[1] وكانوا أحياء من قبائل كثيرة؛ ذكرهم البكري بقوله: ((وأن قبائل برغواطة الذين يدينون لهم؛ وهم على ملتهم: جراوة، وزواغة، والبرانس، وبنو أبي ناصر، ومنجصة، وبنو أبي نوح، وبنو واغمر، ومطغرة، وبنو يورغ، وبنو دمر، ومطماطة، وبنو وزكسينت؛ وعددهم ينتهي أزيد من عشرة آلاف فارس. وممن يدين لهم من المسلمين، وينضاف إلى مملكتهم زناتة الجبل، وبنو يليت، ونمالتة، وبنو واسينت، وبنو يفرن، وبنو وناغيت، وبنو النعمان، وبنو إفلوسة، وبنو كونة، وبنو يسكر، وأصادة، وركانة، وإيزمين، ومنادة، وماسينة، ورصانة، وترارتة؛ ومبلغ عددهم اثني عشر ألف فارس)). المغرب، ص ص: 140 ـ 141.

[2] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ـ أيضا ـ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

ـ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ـ المتواجدة بمنطقة تامسنا ـ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب جزيرة طريف ـ بالعدوة الأندلسية ـ إلى طريف هذا[2]. وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من

---

[1] **أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 181.**

[2] **المغرب، ص: 135.**

[3] **قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر؛ يسمى طريفا ويكنى أبا زُرَعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في**

أبرز القادة والأمراء الأمازيغ. أضف إلى ذلك كله ما للعامل الديني من أثر على الأوضاع؛ حيث كان للمذهب الصفري دوره في تعزيز اللحمة وشحن النفوس بالغيرة وروح التضحية. ذلك لأن الدين يزيل خلق التكبر والحسد والتنافس. وبمرور الوقت نسيت قبائل تامسنا نسب طريف الأول، وخفيت عن التابعين الكيفية التي وصل بها إلى الحكم. وهكذا أصبح منسوبا إليهم وفي عدادهم.

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ثمة من لا يضع الدولة البرغواطية في عداد الدول الصفرية أصلا؛ نظرا لكونها انحرفت عن تعاليم المذهب الصفري الخارجي نفسه؛ بل هناك من يتهم أمراءها بالارتداد عن الدين الإسلامي أيضا؛ حيث أجمعت المصادر التاريخية على ذلك تقريبا؛ تبعا لما يدعيه البرغواطيون من النبوة، وزعمهم بنزول الوحي على رابع أمرائهم (يونس)؛ الذي يقال أنه ابتدع النحلة البرغواطية، وألف ما أسماه قرآنا.[1] على أن بعض المؤرخين ينسبون ادعاء النبوة إلى جدّه صالح؛ ويقولون أنه هو الذي ابتكر هذه

أربعة مراكب؛ حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس؛ فيما يحاذي طنجة؛ وهو المعروف اليوم بجزيرة طريف؛ سميت باسمه لنزوله هنالك؛ فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيا ومالا كثيرا؛ ورجع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيان المغرب، ج: 2، ص: 5.

[1] المغرب، ص ص: 134 ـــ 141. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 223 ـ 227. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 182 ـ 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 ـ 435.

النحلـــة. أمـــا يونـــس فقـــد أظهرهـــا للعلـــن؛ بعـــد أن كانـــت تمـــارس في الخفـــاء.[1] وهـــذا طبعـــا يخرجـــه ـــ مـــع أتباعـــه ـــ مـــن صفـــوف المذهـــب الصفـــري الخـــارجي الإســـلامي. غيـــر أن نشـــأة الدولـــة البرغواطيـــة في بدايـــة عهدهـــا الأول ـــ كمـــا تشيـــر مصـــادر عديـــدة ـــ كانـــت صفريـــة المذهـــب؛ ولـــم يظهـــر عـــلى أصحابهـــا انحـــراف مـــا عـــن جوهـــر الديـــن الإســـلامي؛ ومـــا حـــدث مـــن انحـــراف لـــم يتـــم إلا في عهـــد أميـــر الدولـــة الرابـــع. لذلـــك وجـــدت هـــذه الدولـــة مكانـــا لهـــا في هـــذا المجـــال.

والـــذي يهـــم هنـــا؛ هـــو أنـــه لا سبيـــل إلى الشـــك في أن عامـــل العقيـــدة ـــ الممثـــل بالمذهـــب الصفـــري ـــ قـــد لعـــب دورا هامـــا في تعزيـــز التحالـــف القبـــلي، وفي التلاحـــم بيـــن أعضائـــه في بدايـــة الأمـــر؛ ممـــا ساعـــد عـــلى تشييـــد إمـــارة برغواطـــة. لكـــن هـــذا لا ينـــفي مـــا للعصبيـــة الأمازيغيـــة أيضـــا مـــن تأثيـــر في تقويـــة اللحمـــة وتماسكهـــا بيـــن القبائـــل. بحيـــث انبثـــق الأمـــر عـــلى شكـــل مـــن أشكـــال الرفـــض والمقاومـــة للعصبيـــة العربيـــة؛ الممثلـــة بالأموييـــن أولا، ثـــم العباسييـــن بعدهـــم. هـــذا كلـــه حـــث بعـــض العشائـــر والقبائـــل الأمازيغيـــة، وحفزهـــا عـــلى التحالـــف فيمـــا بينهـــا؛ ضمـــن عصبيـــة واحـــدة؛ لمواجهـــة التحـــدي الـــذي كانـــوا يعتقـــدون أنـــه يهددهـــم.

[1] المغـــرب، ص: 135.

وظهـــور النحلـــة البرغواطيـــة ــ فيمـــا بعـــد ــ بيـــن قبائـــل لا تعـــرف مـــن تعاليـــم الإســـلام الصحيحـــة إلا القليـــل منهـــا؛ ساعـــد عـــلى تكتلهـــا ضمـــن عصبيـــة موحـــدة وقويـــة؛ شحنـــت بمفاهيـــم خرافيـــة وطقـــوس مضللـــة، خاطئـــة. كمـــا أن تلـــك النحلـــة ليســـت بريئـــة مـــن النزعـــة الشعوبيـــة؛ الـــتي متنـــت اللحمـــة بيـــن العشائـــر الأمازيغيـــة، وزادتهـــا ارتباطـــا. ودلائـــل ذلـــك؛ تتجـــلى فيمـــا ورد مـــن نصـــوص تخـــص نحلتهـــم؛ تلـــك النصـــوص والطقـــوس الوثنيـــة الناطقـــة بالأمازيغيـــة.[1] الأمـــر الـــذي كـــان يمدهـــم بشحنـــات مـــن الزهـــو والافتخـــار الشعـــوبي. وبذلـــك اشتـــدت عصبيتهـــم واستفحلـــت؛ محققـــة لدولتهـــم البقـــاء، والاستمـــرار إلى عهـــد المرابطيـــن؛ المشكليـــن مـــن قبائـــل لمتونـــة ومسوفـــة؛ الذيـــن تمكنـــوا مـــن إسقـــاط الدولـــة البرغواطيـــة تمامـــا سنـــة 450هــ(1058م)؛ بفضـــل تفوقهـــم وامتيازهـــم في شـــدة العصبيـــة وتماسكهـــا؛ إلى جانـــب صـــدق وعنفـــوان التعاليـــم الدينيـــة المهيمنـــة عـــلى النفـــوس.

وثمـــة بعـــض الكتـــاب والمؤرخيـــن الأندلسييـــن والمغاربـــة ــ مثـــل ابـــن أبي زرع وابـــن الخطيـــب ــ ينسبـــون طريفـــا وابنـــه صالحـــا إلى أصـــول يهوديـــة؛ وتقـــول مصادرهـــم بـــأن صالحـــا ــ أو طريفـــا وربمـــا يونـــس في أقـــوال أخـــرى ــ قـــد قـــدم إلى بـــلاد المغـــرب مـــن بلـــدة شذونـــة؛ المتواجـــدة بـــوادي بربـــاط بالجنـــوب

---

[1] **أنظـــر مـــا أورده البكـــري في كتابـــه المغـــرب، ص ص: 139 ــ 140. وابـــن عـــذاري في البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 226 ــ 227.**

الغـــربي مـــن بـــلاد الأندلـــس؛ وعـــلى ذلـــك فقـــد ســـمي كـــل مـــن اتبعـــه ــ في بدايـــة الأمـــر ــ بربـــاطي؛ ومـــع الوقـــت حرفـــت التسميـــة تبعـــا لنطـــق النـــاس آنـــذاك؛ فقالـــوا في كـــل مـــن أتبـــع مذهـــب صالـــح الصفـــري برغـــواطي.[1] غيـــر أن عـــددا مـــن المؤرخيـــن يخالفـــون

---

[1] وعـــن صالـــح ونحلتـــه يقـــول ابـــن أبي زرع: ((وكـــان أصلـــه ــ لعنـــه اللـــه ــ مـــن بَربـــاط مـــن عمـــل شذونـــة مـــن بـــلاد الأندلـــس؛ فكـــان يقـــال مـــن تبعـــه ودخـــل في ديانتـــه بربـــاطي؛ فعربتـــه العـــرب، وقالـــوا برغـــواطي؛ فسمـــوا برغواطـــة. وكـــان صالـــح بـــن طريـــف الـــذي ادعى فيهـــم النبـــوة رجـــلا خبيثـــا يهـــودي الأصـــل؛ مـــن ولـــد شمعـــون بـــن يعقـــوب عليـــه الســـلام؛ نشـــأ ببربـــاط مـــن بـــلاد الأندلـــس، ثـــم رحـــل إلى المشـــرق؛ فقـــرأ عـــلى عبيـــد اللـــه المعتـــزلي القـــدَري، واشتغـــل بالسحـــر؛ فجمـــع منـــه فنونـــا كثيـــرة. وقـــدم المغـــرب فنـــزل بـــلاد تامسنـــا؛ فوجـــد بهـــا قبائـــل مـــن البربـــر هـــالا؛ فأظهـــر لهـــم الإســـلام والزهـــد والـــورع؛ فأخـــذ بعقولهـــم، واستمالهـــم بسحـــره ولسانـــه؛ وأراهـــم مـــن نوارجـــه [أي نميمتـــه] وتمويهاتـــه؛ فاستهواهـــم بذلـــك، وأقـــروا بفضلـــه، واعترفـــوا بولايتـــه؛ فقدمـــوه عـــلى أنفسهـــم، وصـــدروا عـــن رأيـــه في جميـــع أمورهـــم، ووقفـــوا عنـــد أمـــره ونهيـــه؛ فـــادعى النبـــوة، وتســـمى بصالـــح المؤمنيـــن. وقـــال لهـــم أنـــا صالـــح المؤمنيـــن الـــذي ذكـــره اللـــه في كتابـــه العزيـــز الـــذي أنزلـــه عـــلى محمـــد e؛ وشـــرع لهـــم الديانـــة الـــتي أخذوهـــا عنـــه وذلـــك في سنـــة خمـــس وعشريـــن ومائـــة... وأنهـــم يصومـــون شهـــر رجـــب، ويأكلـــون شهـــر رمضـــان، وفـــرض عليهـــم عشـــر صلـــوات: خمســـا بالليـــل، وخمســـا بالنهـــار؛ وإن الأضحيـــة واجبـــة عـــلى كـــل مسلـــم في الحـــادي والعشريـــن مـــن المحـــرم. وشـــرع لهـــم في الوضـــوء غســـل الســـرة والخاصرتيـــن. وصلاتهـــم إيمـــاء؛ لا سجـــود فيهـــا، ويسجـــدون في آخـــر ركعـــة خمـــس سجـــدات. ويقولـــون عنـــد الطعـــام والشـــراب: باســـم "ياكـــس"؛ وزعـــم أن تفسيـــره باســـم اللـــه. وأمرهـــم أن يخرجـــوا العشـــر مـــن جميـــع الثمـــار. وأبـــاح لهـــم أن يتـــزوج الرجـــل مـــن النســـاء مـــا شـــاء؛ ولا يتـــزوج مـــن بنـــات عمـــه؛ ويطلقـــون ويرجعـــون ألـــف مـــرة في اليـــوم. فـــلا تحـــرم عليهـــم المـــرأة بـــشيء مـــن ذلـــك. وأمرهـــم بقتـــل الســـارق حيـــث وجـــد؛ وزعـــم أنـــه لا يطهـــره مـــن ذنبـــه إلا السيـــف. وأمرهـــم بالديـــة مـــن البقـــر. وحـــرم عليهـــم رأس

هذا الرأي؛ من بينهم عبد الرحمن بن خلدون الذي يكذب الأخبار التي تنسب صالحا هذا إلى اليهود، أو ترجع موطنه الأول إلى بلدة برباط، أو تقول أنه ذهب إلى المشرق؛ أين تعلم السحر، أو تزعم أنه قرأ على عبيد الله المعتزلي؛ ثم عودته إلى المغرب؛ أين وجد قوما من زناتة جهلة... إلخ. ثم ينتهي إلى القول: ((**ذكر ذلك كله صاحب كتاب نظم الجوهر وغيره من النسابين للبربر. وهو من الأغاليط البينة. وليس القوم من زناتة؛ ويشهد لذلك كله موطنهم وجوارهم لإخوانهم المصامدة. وأما صالح بن طريف فمعروف منهم؛ وليس من غيرهم؛ ولا يتم التغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمه، دخيل في نسبه. سنة الله في عباده؛ وإنما الرجل في برغواطة؛ وهم شعب من شعوب المصامدة معروف**)).[1] ومع ذلك فما قاله ابن خلدون في هذا الأمر يحتاج إلى تمحيص وفحص؛ فهو عندما نسب برغواطة إلى المصامدة. وحين أرجع مصدر تلك الأخبار ـ المرفوضة

كل حيوان؛ والدجاجة مكروه أكلها؛ وقد وقتهم في الأوقات الديكة؛ وحرم عليهم ذبحها وأكلها؛ ومن ذبح ديكا وأكله أعتق رقبة... ووضع لهم قرآنا يقرؤونه في صلواتهم)). الأنيس المطرب، ص: 83. كما تكلم البكري أيضا عن بعض التفاصيل الأخرى تخص هذه النحلة. المغرب، ص ص: 135 ـ 140. وقد أشار إليها أيضا ابن عذاري وابن الخطيب. البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 225 ـ 227. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص : 182 ـ 183.

[1] العبر، مج: 6، ص: 435.

لديه ــ إلى صاحب كتاب نظم الجوهر وآخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[1] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب ــ وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون ــ وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكري.[2] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور ابن موسى بن هشام بن warديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى ابن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

---

[1] المغرب، ص: 135.

[2] العبر، مج: 6، ص ص: 428 ــ 432.

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[2] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ــ حسبما يبدو ــ جماعات من الصفرية الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] العبر، مج: 6، ص: 428.

الـذي نسبـت إليـه النحلـة البرغواطيـة. ويقـول ابـن خلـدون أن أول ظهـور لـه كـان في عهـد هشـام بـن عبـد الملـك.

أمـا مـا راج مـن مزاعـم تنسـب طريفـا أو صالحـا إلى اليهـود؛ يظهـر أنهـا لـم تكـن سـوى شكـل مـن أشكـال النبـز والشتيمـة.. والـذي عـزز تلـك الافتراضـات ـ حسبمـا يظهـر ـ هي أسمـاء أجدادهمـا مثـل: شمعـون ويعقـوب وإسحـاق؛ ثـم بعـض الإشـارات الأخـرى الـتي تتبعـث مـن معتقداتهـم وأساطيرهـم؛ الـتي وردت في قرآنهـم المزعـوم. وحـتى إن صـح نسبهـم لليهـود؛ فقـد يكـون ذلـك حصـل قبـل الفتـح؛ إذ يحتمـل أن يكـون طريـف قـد انحـدر مـن أسـرة كانـت تعتنـق ديانـة يهوديـة؛ قبـل أن يدخـل الإسـلام إلى ديـار المغـرب. وهـذا أمـر كـان موجـودا في تلـك الربـوع؛ إذ ذكـرت مصـادر تاريخيـة عديـدة اعتنـاق بعـض القبائـل الأمازيغيـة للديانـة اليهوديـة، إلى جانـب المسيحيـة في بـلاد المغـرب قبـل الفتـح الإسـلامي. وطبعـا فمـا المانـع مـن التسليـم بدخـول مـن كـان يهوديـا أو نصرانيـا إلى الإسـلام؛ ضمـن الأفـواج الـتي دخلـت فيـه مـن أتبـاع الديانـات الأخـرى؟

ـ حكومـــة إليـــاس بـــن صالـــح البرغـــواطي:

وتقــول بعــض المصـــادر أن صالحـــا استخلــف ابنـــه إليـــاس، ثـــم سافـــر إلى المشـــرق سنـــة 128هـ(745م). وذلـــك بعـــد أن أوصـــاه بإخفـــاء ديانتهـــم؛ حـــتى يقـــوى شأنهـــم؛ فيتســـنى لـــه ـ عندئـــذ ـ قتـــل المخالفيـــن. كمـــا أوصـــاه بـــأن يلتـــزم بمـــوالاة ملـــوك بـــني أميـــة في الأندلـــس. وتقــول بعــض الروايـــات أيضـــا أنـــه أخبـــره بموعـــد عودتـــه المقبلـــة؛ الـــتي حددهـــا بحلـــول عهـــد الملـــك السابـــع مـــن ملوكهـــم؛ حيـــث قـــال أنـــه سيظهـــر لهـــم في شخـــص المهـــدي؛ الـــذي يقتـــل الدجـــال، ويمـــلأ الأرض عـــدلا بعـــد أن تكـــون قـــد ملئـــت جـــورا. ثـــم قـــال لـــه: إن عيـــسى بـــن مريـــم عليـــه الســـلام سيكـــون مـــن بيـــن جنـــوده؛ إذ يصـــلي خلفـــه. ومـــن خـــلال مـــا جـــاء في بعـــض الروايـــات؛ تكـــون مـــدة حكـــم صالـــح قـــد دامـــت نحـــو ســـت سنيـــن. ولمـــا انتصـــب إليـــاس ملكـــا عـــلى قبائـــل برغواطـــة عمـــل بوصيـــة والـــده؛ فلـــم يظهـــر شيئـــا مـــن نحلـــة برغواطـــة؛ وتقـــول المصـــادر أنـــه كتمهـــا ولـــم يخـــض في شأنهـــا؛ وبالمقابـــل كـــان يظهـــر الإســـلام، ويتحـــلى بالعفـــاف والصـــلاح. وبـــقي في الحكـــم مـــا يقـــارب الخمسيـــن سنـــة.

ــ حكومــة يونــس بــن إليــاس البرغــواطي:

وبعــد مــوت إليــاس سنــة 176هــ(792م) خلفــه ولــده يونــس. فاتخــذ **شالــة** حاضــرة لملكــه. وهــو أول مــن أظهــر ديانتهــم المزعومــة؛ في أرجــح الأقــوال. وتــم ذلــك بعــد عودتــه مــن رحلــة الحــج.[1] غيــر أن بعضهــم ينســب إليــه تأسيــس النحلــة دون جــده صالــح.[2] وكــان يونــس هــذا شديــدا وفاتكــا؛ إذ أشعــل تلــك الجهــات الغربيــة حربــا وتدميــرا وتشريــدا للسكــان؛ مجبــرا

---

[1] قــال ابــن خلــدون: ((ورحــل يونــس إلى المشــرق وحــج؛ ولــم يحــج أحــد مــن أهــل بيتــه قبله أو بعده؛ وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه)). العبــر، مج: 6، ص: 430.

[2] نقــل البكــري قائــلا: (("قــال أبــو العبــاس فضــل بــن مفضّــل المذحــجي؛ أن يونــس القايــم بديــن برغواطــة أصلــه مــن شذونــة؛ مــن وادي بَربَــط. وكــان قــد رحــل إلى المشــرق في عــام واحــد مــع عبــاس بــن ناصــح، ويزيــد بــن سنــان الزنــاتي صاحــب الواصليــة، وبرغــوت بــن سعيــد التــراري، وجــدّ بــني عبــد الــرزاق (ويعرفــون ببــني وكيــل الصفريــة)، ومنــاد صاحــب المناديــة (المنســوب إليــه القلعــة المعروفــة بالمناديــة قريبــا مــن سجلماســة)، وآخــر ذهــب عــني اسمــه. فأربعــة منهــم فقهــوا في الديــن؛ وادعى ثلاثــة منهــم النبــوة؛ منهــم يونــس صاحــب برغواطــة". قــال: "وكــان يونــس شــرب دواء الحفــظ؛ فلقــن كــل مــا سمــع وحفظــه، وطلــب علــم النجــوم والكهانــة والجــانّ، ونظــر في الكــلام والجــدال؛ وأخــذ ذلــك عــن غيــلان؛ ثــم انصــرف يريــد الأندلــس؛ فنــزل بيــن هــؤلاء القــوم مــن زناتــة؛ فلمــا رأى جهلهــم استوطــن بلدهــم. وكــان يخبرهــم بأشيــاء قبــل كونهــا؛ ممــا تــدل عليــه النجــوم عندهــم؛ فتكــون عــلى مــا يقــول أو قريبــا منــه؛ فعظــم عندهــم. فلمــا رأى ذلــك منهــم، وعــرف ضعــف حلومهــم وسخافــة عقولهــم أظهــر ديانتــه، ودعــا إلى نبوتــه؛ وســمى مــن اتبعــه بربــطي؛ لمــا كــان مــن بربــط؛ ثــم أحالــوه بألسنتهــم وردّوه إلى لغتهــم؛ فقالــوا برغــواطي)). المغــرب، ص ص: 137 ــ 138.

الناس على إتباع نحلة جده.[1] ودام حكمه تسع وعشرة سنة؛ إذ توفي في عام 195هـ(810م). وهذا الرأي يخالف ما ذكره ابن خلدون؛ الذي يرى أنه حكم زهاء 44 سنة.

ـ حكومة أبي غفير معاذ بن يونس البرغواطي:

وبعد موت يونس تربعِ علىى سدة الحكم في دولة برغواطة ولده أبو غُفيْر معاذ بن يونس؛ فكانت وطأته على الناس شديدة؛ حيث تابع نهج أبيه في إبادة الخارجين عن ديانة أجداده. وقد شن حملات إبادة جماعية على الخارجين عن سلطانه والرافضين لنحلته؛ وأهم تلك الوقائع والحملات: موقعة مدينة **تيمغيسن**؛ وكانت من كبريات المدن؛ فهجم عليها هجمة إبادة ذات أبعاد وحشية؛ دامت رحاها ثمانية أيام كاملة؛ حيث بدأت بيوم الخميس؛ ولم تتوقف إلا في الخميس الموالي؛ وجاء في الأخبار أن أزقة المدينة ودورها أضحت مليئة بالدماء. وشن أيضا حملة أخرى في موضع يقال

---

[1] **وفي هذا يقول البكري: ((فتولى الأمر بعد أبيه؛ فاظهر ديانتهم، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها؛ حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة؛ حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه؛ وقتل منهم بموضع يقال له تَامْلُوكَافْ ـ وهو حجر نابت عالي في وسط السوق ـ سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا. وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد؛ ـ والوغد عندهم المنفرد الوحيد؛ الذي لا أخ له ولا ابن عم ـ)). المغرب، ص: 136.**

لــه **بَهْـت**؛ فأحــدث فيــه مــن القتــل والتمثيــل مــا لا حصــر لــه. وكانــت لــه كذلــك حــروب عظيمــة مــع الأدارســة؛[1] وقــد خســر في تلــك الحــروب كثيــرا مــن أتباعــه وأراضيــه؛ حــتى **شالــة** ــ عاصمــة دولتــه نفسهــا ــ سقطــت في أيــدي إدريــس بــن إدريــس؛ بالإضافــة إلى مناطــق واسعــة مــن تامسنــا.[2]

---

[1] أعمــال الأعــلام؛ ق: 3، ص: 186. دولــة الأدارســة، ص: 280.

[2] وأبــو غُفَيــر هــذا هــو الــذي جــاء ذكــره في القصيــدة الــتي قالهــا سعيــد بــن هشــام المصمــودي؛ يهجــو فيهــا برغواطــة؛ منهــا:

قِــفِي قَبْــل التَّفَــرق فَاخْبرينــَا
وقــُولي وَاخْبــِري خَبَراً مُبِينــَا
هُمُــومَ بَرَابِر خَسِــرُوا وَضَلّــُوا
وخَابُــوا لاَ سُقُوا مَــاءً مَعِينَــا
يَقُولُــونَ: النــَّبِيُّ أبــُو غَفِيــرٍ
فَأخْــزَى اللّــهُ أمَّ الكَاذِبِينَــــا
ألَمْ تَسْمَــعْ ولَمْ تَــرَ يَوْمَ بَهْــتٍ
عَــلَى آثَــارِ خَيْلِهِــمُ رَنِينَــــا
رَنِيــنَ البَاكِيَــاتِ بِهِــمْ ثُكَــالَى
وَعَاوِيَــةٍ وَمُسْقِطَــةٍ جَنِينَــــا
هُنَالِــكَ يُونُــسُ وَبَنُــو أبِيــهِ
يُوَالُــونَ البَــوَارَ مُعَظِّمِينَــــا
فَلَيْــسَ اليَــوْمَ رِدَّتُكُــمْ وَلَكِــنْ
لَيَــالِي كُنْتُــــمُ مُسْتَيْسِرِينَــــا

(يقصــد بكلمــة مستيسريــن أنهــم كانــوا مــن أتبــاع ميســرة المطغــري)

وبـــقي أبـــو غفيـــر في الحكـــم زهـــاء خمـــس وثلاثيـــن سنـــة؛ إذ تـــوفي في حـــدود عـــام 230هـ(844م) كمـــا ذكـــر ابـــن الخطيـــب. أمـــا ابـــن خلـــدون فيقـــول أنـــه حكـــم حـــوالي 29 سنـــة؛ إذ تـــوفي في أواخـــر المائـــة الثالثـــة. وتقـــول الأخبـــار أن لـــه أربـــع وأربعيـــن زوجـــة؛ ومـــن البنيـــن مثلهـــن وأزيـــد.[1]

ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبمـــوت أبي غفيـــر معـــاذ خلفـــه بعـــض الأمـــراء مـــن بينهـــم: أبـــو الأنصـــار عبـــد اللـــه بـــن محمـــد بـــن اليســـع؛ هـــذا وقـــد أثنـــت المصـــادر التاريخيـــة عليـــه، واعترفـــت بحســـن سياستـــه، وابتعـــاده عـــن سفـــك الدمـــاء. وتقـــول أنـــه لا يعتـــم إلا في وقـــت الحـــرب؛ وفي دولتـــه لا يعتـــم إلا الغربـــاء؛ وكـــان لباســـه الملاحـــف والسراويـــل؛ ولا يلبـــس القميـــص. ومـــن سياستـــه في الحـــرب؛ أنـــه

---

[1] **مـــن هنـــا بـــدأت أخبـــار المؤرخيـــن عـــن برغواطـــة تغيـــب وتضطـــرب؛ فابـــن الخطيـــب هنـــا يقـــول: ((وولي بعـــده [أي بعـــد أبي غفيـــر] ولـــده أبـــو حفـــص [عمـــر]. واستمـــرت دولـــة عمـــر بـــن معـــاذ إلى أن تـــوفي؛ وولي ولـــده اليســـع بـــن إسماعيـــل [هكـــذا يصبـــح عمـــر إسماعيـــلا]؛ فقـــام بديانتهـــم ينتظـــر ظهـــور جـــده الشيـــخ صالـــح؛ إذ كـــان سابـــع الأمـــراء مـــن بنيـــه. واتصـــل أمـــر اليســـع إلى سنـــة اثنتيـــن وخمسيـــن وأربعمائـــة. وظهـــر أمـــر اللمتونييـــن ودعوتهـــم إلى أســـاس مـــن فقـــه وديـــن؛ فجعلوهـــم جهـــادا قريبـــا وغزاهـــم الأميـــر أبـــو بكـــر بـــن عمـــر اللمتـــوني؛ فقتلهـــم قتـــلا ذريعـــا؛ حـــتى أسلمـــوا إسلامـــا جديـــدا. وكـــان آخـــر ملوكهـــم عيـــسى بـــن أبي الأنصـــار عبـــد اللـــه بـــن محمـــد بـــن اليســـع؛ وانقـــرض ملكهـــم. وقبيلهـــم اليـــوم قبيـــل ضعيـــف؛ لعـــب سيـــف الملثميـــن فيهـــم، ثـــم سيـــف المهـــدي بعـــده)). أعمـــال الأعـــلام، ق: 3، ص ص: 186 ـ 187.**

يبدي ـ في كل عام ـ أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء

---

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي ـ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ـ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ـ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ـ المعروف بالحقير ـ ومغرور بن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ـ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ـ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبي صلى الله علية وسلم بماية عام سوا". قال:

البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما آخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر ابن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت. أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

"وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقرؤونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد عليه السلام في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حينئذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ــ 136.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت – منذ نشأتها – إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو – بالطبع – شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي – في عهد المنصور بن أبي عامر – بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد.

وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

****

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ـ أو يونس ـ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان،

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 432 ـ 434.

وســورة ياجــوج وماجــوج، وســورة نمــرود؛ بالإضافــة إلى مــا كانــوا يشتغلــون بــه مــن طقــوس سحريــة، ومــا كانــوا يجيدونــه مــن تنجيــم ومعرفــة بالنجــوم..[1] وقــد أورد البكــري نصــا مترجمــا مــن الســورة المسمــاة بســورة أيــوب؛ وقــال أنهــا استفتــاح كتابهــم؛ وهي طويلــة. جــاء فيهــا: ((**بســم اللــه الــذي أرســل بــه اللــه كتابــه إلى النــاس؛ وهــو الــذي بيــن لهــم بــه أخبــاره. قالــوا علــم إبليــس القضيــة أبى اللــه ليــس يطيــق إبليــس؛ كمــا يعلــم اللــه ســل أي شيء؛ يغلــب الألســن في الأقولــة، ليــس يغلــب الألســن في الأقولــة إلا اللــه بقضائــه باللســان الــذي أرســل اللــه بالحــق إلى النــاس استقــام الحــق. أنظــر محمــدا (وعبــارة ذلــك بلسانهــم أيمــني مامــت؛ فمامــت محمــد). كــان حيــن عــاش استقــام النــاس كلهــم الذيــن صحبــوه؛ حــتى مــات ففســد النــاس. كــذب مــن يقــول أن الحــق يستقيــم وليــس ثــم رســول اللــه**)).[2] ومــن خــلال مــا ورد مــن أسمــاء لتلــك الســور ومــا تــوحي إليــه؛ يمكــن استشفــاف تأثيــر التــراث اليهــودي في ذلــك كلــه. وقــد يكــون هــذا مــن بيــن العوامــل الــتي أثــارت الشكــوك في يهوديتهــم؛ مــع أن الأثيــر الإســلامي متوفــر أيضــاً.

---

[1] **المغــرب، ص: 140. والعبــر، مج: 6، ص: 429.**

[2] **المغــرب، ص: 140.**

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ـ طيلة القرون التي عاشتها ـ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ـ من جهة أخرى ـ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: "**فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر**".

و"**فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها**".[1]

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ـ ولو بإيجاز ـ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي بها من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ـ بعض الشيء ـ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: **((من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود))**.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـ 589. 607 ـ 609.**

وهــذه العبــارة تــوحي للقــارئ باحتمــال اعتنــاق سقــوط للمذهــب الخــارجي. غيــر أن قــول ابــن حيــان هــذا قــد يكــون مــن قبيــل التشنيــع بسقــوط؛ وتذكيــر النــاس بأسلافــه الصفريــة. المهــم أن سقــوط وابنــه ــ حسبمــا جــاء في المصــادر ــ لا علاقــة لهمــا ببــدع الامــارات البرغواطيــة الأولى؛ وكــل مــا يربطهمــا ببرغواطــة هــو أنهمــا ينحــدران مــن أصــول عرقيــة برغواطيــة؛ كمــا أن جيشهمــا مكــون ــ في معظمــه ــ مــن شتــات قبيلــة برغواطــة.

ــ حكومــة سقــوط البرغــواطي:

تجمــع المصــادر عــلى أن هــذه الإمــارة نشــأت في سبتــة وطنجــة؛ بقيــادة سقــوط أو (سكــوت) بــن محمــد البرغــواطي، وبمساعــدة زميلــه أبي العطــاف رزق اللــه البرغــواطي أيضــا؛ والــذي كــان في طنجــة. وربمــا تكــون هــذه الإمــارة قــد بــدأت في الظهــور لأول مــرة؛ في شكــل ولايــة مــن ولايــات الدولــة الإدريسيــة الحموديــة الــتي كانــت قائمــة بمالقــة؛ ويرجــح أن ذلــك حصــل بعــد مقتــل الفــتى الصقلــبي نجــا في سنــة 434هــ(1042م)؛ الأمــر الــذي أبــقى سبتــة خاليــة مــن شخــص قــوي يتولاهــا. ولا يعــرف بالضبــط التاريــخ الــذي أصبــح فيــه سقــوط هــذا واليــا عليهــا.[1] وكــل مــا

[1] لقــد تضاربــت الأقــوال حــول التاريــخ الــذي ولي فيــه سقــوط بسبتــة. وقــد ذكــر ابــن بســام أن يحــيى بــن عــلي بــن حمــود هــو الــذي ولى سقــوط عــلى سبتــة؛ (المجلــد الثــاني مــن القســم الثــاني، ص: 657. أنظــر إلى مــا جــاء في التعليــق

عـــرف هـــو أن الـــذي ولي عـــلى سبتـــة وطنجـــة ــ بعـــد إدريـــس بـــن عـــلي بـــن حمـــود ــ هـــو الحســـن بـــن يحـــيى بـــن عـــلي؛ رفقـــة الـــوصي عليـــه المســـمى نجـــا الصقلـــبي. لـــذا يمكـــن إرجـــاع بدايـــة أمـــر هذيـــن البرغواطييـــن إلى الفتـــرة الزمنيـــة الـــتي تلـــت مقتـــل الفـــتى نجـــا؛ ذلـــك المملـــوك الصقلـــبي الـــذي طمـــع في اغتصـــاب عـــرش الحموديـــين؛ فاغتالـــه بعـــض جنـــوده؛ الذيـــن ينتمـــون أصـــلا إلى برغواطـــة؛ وهـــم كمـــا قيـــل: أخـــوال الأميـــر حســـن بـــن يحـــيى بـــن عـــلي بـــن حمـــود.[1]

وحسبمـــا يظهـــر فمنـــذ تلـــك الحادثـــة رجحـــت كفـــة سقـــوط مـــولى يحـــيى بـــن عـــلى بـــن حمـــود؛ ذلـــك المملـــوك الـــذي تركـــه يحـــيى في سبتـــة لأمـــر مـــا؛ عندمـــا قـــرر التوجـــه إلى مالقـــة.[2] ومـــرت فتـــرة مـــن

بالصفحـــة المواليـــة). بينمـــا الخبـــر المؤكـــد الـــذي ذكـــره ابـــن بســـام نفســـه؛ نقـــلا عـــن ابـــن حيـــان؛ واتفـــق فيـــه مـــع كثيـــر مـــن المؤرخيـــن (أنظـــر المجلـــد الأول مـــن القســـم الأول، ص: 481.) أن يحـــيى المعتـــلي أسنـــد ولايـــة سبتـــة ــ عندمـــا جـــاز للأندلـــس ــ إلى أخيـــه إدريـــس بـــن عـــلي؛ الـــذي كـــان ــ في عهـــد أبيهمـــا ــ واليـــا عـــلى مالقـــة. ولمـــا قتـــل يحـــيى بـــن عـــلي؛ خلفـــه أخـــوه إدريـــس المتأيـــد؛ الـــذي ولى الحســـن بـــن يحـــيى بسبتـــة؛ تحـــت وصايـــة الفـــتى نجـــا. (الكامـــل، ج: 7، ص: 288. والمعجـــب، ص: 61). ولمـــا تـــولى الحســـن بـــن يحـــيى مقاليـــد الخلافـــة بمالقـــة؛ تـــرك أمـــر سبتـــة في يـــد الفـــتى نجـــا. (الكامـــل، ج: 7، ص: 289. والمعجـــب، ص: 63). وعليـــه قـــد يعـــود ظهـــور سقـــوط إلى هـــذه الفتـــرة بالـــذات؛ خاصـــة بعـــد مقتـــل نجـــا.

[1] البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقـــول ابـــن عـــذاري: ((وكـــان سوَّجَّـــات [سقـــوط] مـــولى ليحـــيى بـــن عـــلي بـــن حمـــود؛ اشتـــراه مـــن رجـــل حـــداد مـــن ســـبي برغواطـــة وهـــو دون البلـــوغ؛ فحـــظي عنـــده؛ فلمـــا ســـار يحـــيى إلى الأندلـــس وخلـــف سوَّجَّـــات مـــولاه بسبتـــة؛ وجعـــل معـــه ناضـــرا عليـــه مـــولاه رزق اللـــه)). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 250. وهـــذا الخبـــر

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة

يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ــ المتقدم الذكر ــ ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [أنظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطعمه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شئونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ إلى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس بن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق؛ وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى ــ لأول وقته يومئذ ــ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 ــ 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر، مج: 4، ص: 334.

بالخصوص. والأمر المؤكد – بعد ذلك – أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك – بالفعل – سنة 453هـ(1061م)[2] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة

---

[1] وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما في يده)). المقدمة، ج: 2، ص: 872.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

الخضـــراء ضمـــن مملكتـــه؛ وقـــد تصاعـــد خلافهمـــا حـــتى وصـــل إلى الاقتتـــال في البحـــر ســنـــة 457هـــ(1064م).[1] وكـــان يشـــد أزره ابنـــه يحـــيى؛ الـــذي يقـــوم مقـــام وزيـــره، إذ هـــو المتصـــرف في شئـــون الدولـــة؛ خاصـــة بعـــد أن كبـــر سقـــوط، وبعـــد أن أثقلتـــه السنـــون. وظهـــر هـــذا مـــن خـــلال معارضتـــه لأبيـــه؛ حيـــن أراد مساعـــدة المرابطيـــن ضـــد قبائـــل غمـــارة [وعنـــد ابـــن بســـام زناتـــة]؛ فأقنعـــه بالعـــدول عـــن ذلـــك الأمـــر.[2] المهـــم أن

---

[1] قـــال ابـــن بســـام نقـــلا عـــن ابـــن حيـــان: ((كـــان سبـــب ذلـــك باعتقـــال عبـــاد لرجـــل مـــن تجـــار سبتـــة؛ في شـــيء حضـــره بحضرتـــه؛ فاعتـــدى عليـــه سقـــوت؛ فاعتقـــل لـــه عـــدة تجـــار؛ فنشـــأت لذلـــك بينهمـــا وحشـــة سنـــة سبـــع وخمسيـــن [وأربعمائـــة]؛ فامتطيـــا لهـــا ظهـــر اللجـــج؛ عـــلى مـــا بينهمـــا مـــن التطـــام اللجـــج؛ فتهافتـــا عـــلى القطيعـــة، واجتمعـــا عـــلى عقـــد البحـــر بينهمـــا؛ فتلفـــت فيـــه رؤوس وأمـــوال، وهلكـــت مـــن أجلهـــا نفـــوس رجـــال؛ يطـــول في صفتهـــا المقـــال؛ إلى أن أكمـــل عبـــاد مـــن أسطـــول أنشـــأه نحـــوا مـــن ثمانيـــن قطعـــة؛ فأجراهـــا إلى سبتـــة؛ فخـــرج عليهـــا أسطـــول لسقـــوت؛ فكـــان الظهـــور لابـــن عبـــاد؛ ثـــم افترقـــت الأساطيـــل؛ بعـــد حـــروب وسفـــك دمـــاء؛ وانقطـــع بحـــر الزقـــاق بينهمـــا مـــدة استهمـــا اجتـــرار منافعـــه فيهـــا. ثـــم يضيـــف ابـــن بســـام قائـــلا: ثـــم غلـــظ أمـــر سقـــوت؛ حـــتى أخـــاف القريـــب والنـــازح، واقتـــاد الحـــرون والجامـــح، وانبثـــت سرايـــاه في البحـــر والبـــر؛ فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ـــ 660.

[2] يقـــول ابـــن بســـام ((ودارت النوبـــة عـــلى سقـــوت بـــن محمـــد؛ فتطـــرف أميـــر المسلميـــن ـــ رحمـــه اللـــه ـــ بلـــده للفـــراغ ممـــن شـــذ عنـــه مـــن زناتـــة؛ وقـــد التفـــوا بأحـــد محـــاش الفتنـــة، ووألـــوا إلى موضـــع يعـــرف بالدمنـــة؛ فنـــزل بساحتهـــم أميـــر المسلميـــن؛ سنـــة إحـــدى وسبعيـــن [وأربعمائـــة]؛ عـــلى مقربـــة مـــن بـــلاد سقـــوت؛ فهـــم بالانحيـــاش إليـــه؛ فقـــد كـــان آل وآيـــل عليـــه؛ فنهـــاه حزبـــه الذميـــم السـعـي، وثنـــاه ابنـــه الفائـــل الـــرأي)). الذخيـــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقـــال أحمـــد الناصـــري: ((إلى أن استقـــل [سقـــوط] بالأمـــر، واقتعـــد كـــرسي عملهـــم [عمـــل الحموديـــين] بطنجـــة وسبتـــة؛ وأطاعتـــه قبائـــل غمـــارة؛ واتصلـــت أيـــام ولايتـــه إلى أن

جيـــش لمتونـــة ــ بعـــد انتهائـــه مـــن موقعـــة الدمنـــة ــ تحـــول إلى قتـــال سقـــوط؛ وذلـــك لمـــا شعـــروا منـــه مـــن بـــوادر العصيـــان، نظـــرا لرفضـــه الانضمـــام إليهـــم. ولمـــا علـــم سقـــوط بزحـــف المرابطيـــن إليـــه خـــرج وهـــو يقســـم: ((**ألاّ يسمـــع قـــرع طبلـــه في ملكـــه**)).[1] وكـــان سقـــوط هـــذا قـــد امتـــد حكمـــه حـــتى بلـــغ مـــن العمـــر عتيـــا؛ إذ ناهـــز التسعيـــن سنـــة كمـــا يقـــال. وقـــدر لـــه أن تكـــون نهايتـــه في سنـــة 471هــ(1078م)؛ خـــلال المعركـــة التي تقابـــل فيهـــا مـــع جيـــش المرابطيـــن الزاحـــف إلى طنجـــة؛ بقيـــادة صالـــح بـــن عمـــران. حيـــث ختمـــت الواقعـــة بمقتـــل سقـــوط؛ ودخـــول المرابطيـــن إلى طنجـــة.

كانـــت دولـــة المرابطيـــن؛ وتغلـــب يوســـف بـــن تاشفيـــن عـــلى بـــلاد المغـــرب؛ ونـــازل بـــلاد غمـــارة؛ فدعـــا الحاجـــب سكـــوت إلى مظاهرتـــه عليهـــم؛ فهـــم بالاجـــلاب معـــه، ومظاهرتـــه عـــلى عـــدوه؛ ثـــم ثنـــاه عـــن ذلـــك ابنـــه الفائـــل الـــرأي. فلمـــا فـــرغ يوســـف بـــن تاشفيـــن مـــن أهـــل الدمنـــة، وانقـــاد المغـــرب لطاعتـــه صـــرف عزمـــه إلى الحاجـــب سكـــوت)).الاستقصـــاء، ج: 2، ص ص: 30 ــ 31.

[1] مفاخـــر البربـــر، ص: 55. وقـــال أحمـــد الناصـــري أيضـــا: ((فلمـــا قربـــوا [المرابطـــون] مـــن طنجـــة بـــرز إليهـــم الحاجـــب سكـــوت بجموعـــه ــ وهـــو شيـــخ كبيـــر قـــد ناهـــز التسعيـــن سنـــة ــ وقـــال: "واللـــه لا يسمـــع أهـــل سبتـــة طبـــول اللمتـــوني وأنـــا حي أبـــدا". فالتـــقى الجمعـــان بـــوادي مـــنى مـــن أحـــواز طنجـــة؛ والتحـــم القتـــال؛ فقتـــل سكـــوت، وفضـــت جموعـــه، وســـار المرابطـــون إلى طنجـــة؛ فدخلوهـــا واستولـــوا عليهـــا. ولحـــق ضيـــاء الدولـــة يحـــيى بـــن سكـــوت بسبتـــة؛ فاعتصـــم بهـــا)). الاستقصـــاء، ج: 2، ص: 31.

ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة ـ بعد مقتل سقوط ـ سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر ؛ فإنه أضرم لججه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها ـ أيضا ـ من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن يخسروا المعركة

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 662. ومفاخر البربر، ص ص: 55 ـ 56.

[2] قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم

في بداية الأمر؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة ـ مرة أخرى ـ بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت

به مردة عفاريتها رجما؛ ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول؛ طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان ـ لأول ذلك اليوم ـ ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت ـ يومئذ ـ أن بخل على آخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالإحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين ـ رحمه الله ـ إحدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى أطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نُفَيْرٍ من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فأعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها؛ وَوُجِدَ فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز بن أمير المسلمين ـ رحمهما الله ـ فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 ـ 664.

ليلـــة بكاملهـــا. ويقــول صاحــب مفاخــر البربــر: أنـــه لمـــا مثـــل أمـــام المعــز بــن يوســف بـــن تاشفيـــن ((**فطلـــب منـــه المـــال؛ فقـــال لـــه: "ألخـــازن أبيـــك كنـــت نجمـــع المـــال؟" فحللـــه الحســـام، وحكـــم فيـــه الحمـــام**)).[1] وانتـــهى بذلـــك أمـــر ضيـــاء الدولـــة العـــز بـــن سقـــوط؛ إذ قتـــل في ربيـــع الآخـــر مـــن سنـــة 477هـــ(1084م). وبذلـــك انتهـــت دولـــة سقـــوط البرغـــواطي نهائيـــا.

****

[1] **مفاخــر البربــر، ص ص: 56 ــ 57.**

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

يبدو أن سبتة في عهد سقوط البرغواطي لم تكن في مستوى يؤهلها للقيام بدور ثقافي معين بين سكانها. وعلى الرغم من أنها كانت كرسيا لحكم بعض الأدارسة من الحموديين؛ إلا أنها لم تظهر أي دور ثقافي وعلمي يستحق التنويه. وإن كان البكري ـ الذي عاصر سقوطا ـ يقول عن سبتة: ((**ولم تزل دار علم**)).[1] ومع هذا فلا بد أن يكون للأندلس بعض الأثر في الحركة الثقافية بتلك المدينة، خاصة في بعض المنجزات الحضارية والعمرانية كالمساجد والحمامات. غير أنه سجل في الزمن الذي تلا عصر سقوط هذا؛ ازدهار علمي ملحوظ في سبتة؛ تلك المدينة التي أضحت مركز علم وثقافة مرموق في المغرب والأندلس.[2] أما عصر سقوط فيمكن أن يعبر عنه خطابه لابن جهور أمير قرطبة؛ الذي يقال أنه طلب فيه منه أن يرسل إليه قارئا للقرآن. وربما دل هذا على ندرة القراء في سبتة في تلك الأثناء.[3] كما أن

---

[1] المغرب، ص: 103.

[2] للتوسع في هذا الأمر يمكن الرجوع إلى كتاب المقري أزهار الرياض في أخبار عياض؛ ففيه ما يفيد.

[3] أورد ابن عذاري خبرا قال فيه: ((وذكر عن أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة أنه قال: "وردت علي من الكتب في يوم واحد كتاب من ابن صمادح صاحب المرية يطلب جارية عوادة، وكتاب من ابن عباد يطلب جارية زامرة، وكتاب من سواجات [سقوط] صاحب سبتة يطلب قارئا يقرأ القرآن". فوجه من طلبة قرطبة رجلا يعرف بعون الله بن نوح. وعجب أبو الوليد

الإشارة الساخرة التي أطلقها أبو الوليد الشقندي في رسالته التي يفاخر فيها ببلاد الأندلس والأندلسيين؛ تبرز صورة سقوط التي كانت في ذهن المثقفين آنئذ؛ وذلك حين قال لأبي يحيى بن المعلم الطنجي: ((**وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية** [يقصد دعوة الموحدين] **أبسقوط الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟**)).[1] ومع هذا لا سبيل إلى نكران أن بلاط ضياء الدولة يحيى ابن سقوط بسبتة احتضن ـ يوما ما ـ شاعرا مثل علي بن عبد الغني الحصري الضرير؛[2] صاحب القصيدة الذائعة الصيت التي يقول فيها:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ   أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقد اتصل هذا الشاعر الفحل ـ أثناء مقامه بسبتة وطنجة ـ بضياء الدولة يحيى بن سقوط

من ذلك وقال: "جاهل يطلب قارئا، وعلماء يطلبون الأباطيل")). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

[1] نفح الطيب، ج: 3، ص: 191.

[2] ذكره ابن بشكوال فقال: ((ذكره الحميدي وقال: " شاعر أديب رخّم الشعر؛ دخل الأندلس ولقي ملوكها؛ وشعره كثير، وأدبه موفور. وكان عالما بالقراءات وطرقها؛ وأقرأ الناس بالقرآن بسبتة وغيرها. أخبرنا عنه أبو القاسم بن صواب بقصيدته التي نظمها في قراء نافع؛ وهي مائتا بيت وتسعة أبيات. قال لقيته بمرسية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وتوفي بطنجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ـ 433.

البرغــواطي؛ حيــث كانــت لــه حظــوة عنــده؛ وهــذا مــا سجلــه ابــن بســام حيــن قــال: ((**وأفضــت الدولــة البرغواطيــة إلى الحاجــب المعــز ابنــه** [أي ابــن سقــوط] **شهــاب أفلاكهــا، وخيــرة أملاكهــا. هــبَّ الأدب ريحــا، ونفخــت دولتــه في أهلــه روحــا. أعــرض بــه الشعــراء وأطالــوا، ووجــدوا بــه السبيــل إلى المقــال فقالــوا. وممــن خيــم في ذراه، ونــال مــن الحــظ الجسيــم مــن دنيــاه؛ الحصــري الضريــر؛ فــإن لــه فيــه مــا اذهــل الناظــر عــن الرقــاد، وأغــنى المسافــر عــن الــزاد؛ والحاجــب يكحــل عينيــه بزينــة دنيــاه، ويفتــق لهاتــه بمواهبــه ولهــاه. وكــان** [يحــيى] **سهــل الجانــب للقصــاد، طلــق اليــد بالمواهــب الأفــراد**)).[1] لــذا فــلا يستبعــد أن يكــون بــلاط سقــوط ــ وخاصــة ابنــه ضيــاء الدولــة ــ قــد عــرف حركــة ثقافيــة ــ ولــو متواضعــة ــ إذ يكونــان قــد أرادا بذلــك تقليــد ملــوك الأندلــس والمغــرب.

****

[1] **الذخيــرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 661 ـــ 662. أنظر أيضا مفاخــر البربــر، ص: 55.**

2)ـ دولـــة بـــني مـــدرار:

تنســب هــذه الدولــة ــ أيضــا ــ إلى مدينــة سجلماســة ذات الموقــع القريــب مــن مدينــة تافيلالــت الحاليــة. ويبــدو أن هــذه الدولــة نشــأت قبــل تشييــد مدينــة سجلماســة[1] المنسوبــة إليهــا أصــلا؛ إذ كانــت عبــارة عــن إمــارة قبليــة؛ ذات طابــع بــدوي. وقــد سميــت ــ أيضــا ــ بدولــة بــني واســول؛ وهــو أحــد أجــداد بــني مــدرار. هــذا وقــد تباينــت الأخبــار ــ بعــض الــشيء ــ حــول بــدء قيامهــا؛ غيــر أن المهــم ــ هنــا ــ هــو أن هــذه الدولــة تأسســت في عــام 140هــ(757م)؛[2] بعــد أن تجمعــت فئــات مــن قبيلــة

---

[1] أنظــر رأي ابــن خلــدون في الكيفيــة الــتي يحــدث بهــا ذلــك النشــوء؛ ضمــن "فصــل في أن الــدول أقــدم مــن المــدن والأمصــار؛ وأنهــا إنمــا توجــد ثانيــة عــن الملــك" إذ يقــول: ((وبيانــه أن البنــاء واختطــاط المنــازل إنمــا هــو مــن منــازع الحضــارة التــي يدعــو إليهــا التــرف، والدعــة كمــا قدمنــاه؛ وذلــك متأخــر عــن البــداوة ومنازعهــا. وأيضــا فالمــدن والأمصــار ذات هياكــل وأجــرام عظيمــة، وبنــاء كبيــر؛ وهي موضوعــة للعمــوم، لا للخصــوص؛ فتحتــاج إلى اجتمــاع الأيــدي، وكثــرة التعــاون؛ وليســت مــن الأمــور الضروريــة للنــاس الــتي تعــم بهــا البلــوى؛ حــتى يكــون نزوعهــم إليهــا اضطــرارا؛ بــل لا بــد مــن إكراههــم عــلى ذلــك، وسوقهــم إليــه مضطريــن بعصــا الملــك؛ أو مرغبيــن في الثــواب والأجــر؛ الــذي لا يــفي بكثرتــه إلا الملــك والدولــة. فــلا بــد في تمصيــر الأمصــار، واختطــاط المــدن مــن الدولــة والملــك)). المقدمــة، ج: 3، ص ص: 965 ــ 966.

[2] أمــا البكــري فقــال أنهــم شرعــوا في بنــاء سجلماســة في عــام 104هــ؛ وهــذا لا يتطابــق مــع مــا أجمعــت عليــه بقيــة المصــادر. لــذا فالراجــح أن يكــون مــا ورد في المغــرب تحريفــا في النســخ. المغــرب، ص: 149.

مكناسة البترية؛[1] في تلك الربوع؛ التي هي ــ في حقيقة الأمر ــ تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن سعد؛ المعروف بالأسود.[2] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شرّ قتلة.[3]

---

[1] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى بن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

[2] نسبه ابن الخطيب إلى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (أنظر، أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج)). العبر، مج: 6، ص: 267.

[3] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم إن الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا إلى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد أن

وهكذا نرى كيف يتكرر بطش الصفرية بأمرائهم؛ فبعد قتل أمير الصفرية الأول (ميسرة)؛ بتدبير من أصحابه؛ يقتل أمير ثان ــ مرة أخرى ــ بواسطة أتباعه من الصفرية بسلجماسة.[1]

ــ حكومة أبي القاسم سمغون بن واسول المكناسي:

وبعد أن قتل الصفرية إمامهم عيسى بن يزيد؛ ولوا عليهم بدلا منه أبا القاسم سمغون بن واسول بن يزلان بن يزول المكناسي.[2] ويقول ابن خلدون أن أبا القاسم سمغون[3] هذا هو الذي حمل

طلوه بالعسل، وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل؛ فسمي ذلك الجبل جبل عيسى؛ وولوا بعده أبا الخطاب الصفري)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140.

[1] للتوسع في موضوع دولة مكناسة بسجلماسة يستحسن الرجوع إلى: كتاب المغرب، ص ص: 148 ــ 152. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 156 ــ 157. والعبر، مج: 6، ص ص: 267 ــ 273. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 149.

[2] وذكر ابن الخطيب أن أبا القاسم هذا هو الملقب بالمدرار. دخل جده الأندلس مع طارق ابن زياد. كما قال أنه كان حدادا من أهل الربض بقرطبة؛ فلجأ إلى سجلماسة؛ حيث تقرب من أبي الخطاب الصفري رئيس الصفرية فيها بسلاح صنعه بنفسه؛ فاستحسنه أبو الخطاب وقربه وقدمه على غيره. ولما توفي أبو الخطاب سنة 191هـ ولي مكانه.

[3] عرف ابن خلدون بأبي القاسم هذا بقوله: ((واجتمعوا بعده [أي بعد عيسى ابن يزيد الأسود] على كبيرهم أبي القاسم سمغون بن مصلات بن أبي يزول؛ كان أبوه سمغون من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين؛ وأخذ عن عكرمة مولى بن عباس؛ ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية؛ وهو [أبو القاسم] الذي بايع لعيسى بن يزيد؛ وحمل قومه على طاعته؛ فبايعوه من بعده)). العبر، مج: 6، ص ص: 267 ــ 268. أما البكري فيرى أن أبا القاسم هو الذي لقي عكرمة بإفريقية وسمع منه. المغرب، ص: 149.

قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[1] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ـ بعد عيسى ابن يزيد ـ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[2] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[3] والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[4]

---

[1] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى إلى ما كانت عليه العصبية من شدة وتأثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون أن عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140.

[3] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بانفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فأول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في مجلس عيسى: "السودان كلهم سراق حتى هذا؛ وأشار إلى عيسى؛ فأخذوه، وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى إلى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: 149.

[4] الفرق الإسلامية، ص: 170.

المهم أن سمغون عندما تربع على سرير الحكم أعلن بالدعوة للمنصور والمهدي العباسيَّيْن؛ مع أنه صفري المذهب. وقد بقي أبو القاسم في الحكم حتى توفي أثناء صلاة العشاء، وفي آخر ركعة منها؛ وذلك سنة 168هـ(784م). أما ابن الخطيب فيقول بأنه توفي في آخر ذي القعدة سنة 199هـ(814م). كما قال أنه هو الذي أمر ببناء السور الذي يحيط بمزارع النخيل.

ـ حكومة أبي المنتصر اليسع بن سمغون المكناسي:

ولما توفي أبو القاسم سمغون خلفه ولده أبو الوزير إلياس؛ ولكن حكمه لم يدم طويلا؛ إذ قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع؛ فخلعه وانتصب في مكانه سنة 174هـ(790م) في رواية، أو سنة 200هـ(815م) في رواية أخرى. وكان حكم أبي المنتصر اليسع متميزا عما سبقه؛ ذلك أن هذا الأمير اتصف بشدة الوطأة، وبميل إلى العناد، وحدة الطبع، والحرص على ملكه؛ وكان شغوفا بالضبط والقهر، جبارا في سلوكه. فتمكن بحزمه وعزمه من فرض الخمس على معادن درعة، وفتك بمن حوله من القبائل الأمازيغية.

ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

ـ حكومة مدرار بن اليسع المنتصر المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللذين يسمى

---

[1] **وعن هذا الأمير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان إباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها آخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء، وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.**

كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التميز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد ــ للمرة الثانية ــ إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه.

هـذا ولا يعـرف ــ بالضبـط ــ سبـب ذلـك الخـلاف بيـن الأخويـن. كمـا لا يعـرف إن كـان ميـل الرعيـة إلى ابـن تقيـة مبعثـه إلى صلاحـه وتقـواه، أم إلى سبـب آخـر؛ ربمـا تعلـق بالعصبيـة القبليـة الـتي تـرى في أروى بنـت عبـد الرحمـن بـن رستـم أنهـا مـن أسـرة ليسـت مكناسيـة منهـم. هـذا ولـم يطـل الزمـن بمـدرار بعـد تلـك الأحـداث حـتى مـات سنـة 253هـ(866م)؛ وقـد دام ملكـه كلـه زهـاء خمـس وأربعيـن سنـة. أمـا ولـده ميمـون بـن تقيـة فقـد بـقي في الحكـم حـتى تـوفي سنـة 263هـ(876م).

ــ حكومـة محمـد بـن ميمـون المكنـاسي:

وبمـوت ميمـون بـن تقيـة تـولى الحكـم مـن بعـده ولـده محمـد الـذي ــ كمـا قـال ابـن خلـدون ــ كـان متمذهبـا بالإباضيـة. وهنـا تبـرز إشـارة لمـا يمكـن أنـه حـدث مـن تحـول مذهـبي في عهـد الأميـر مـدرار. ويقـول ابـن الخطيـب أن محمـدا هـذا غـزا أرض القبلـة ــ أي الجنـوب ــ حيـث تغلـب عـلى "**تافلبالـت**" [ربمـا كانـت تابلبالـت الحاليـة القريبـة مـن بشـار]. هـذا وقـد تـوفي محمـد بـن ميمـون في سنـة 270هـ(883م). ومـع ذلـك فقـد كانـت أخبـار عهـد محمـد هـذا شحيحـة، وغيـر كافيـة لتحديـد صـورة واضحـة لهـا.

ـ حكومة اليسع بن مدرار المنتصر المكناسي:

وبعد محمد تولى مهام الحكم عمه اليسع بن مدرار المنتصر. وفي عهده ظهر عبيد الله الشيعي؛ حيث لجأ ـ مع ابنه أبي القاسم ـ إلى سجلماسة. ولما تدخل الخليفة العباسي المعتضد لدى اليسع ـ الذي كان معلنا بطاعة العباسيين مثل آبائه ـ فقد لبى طلب المعتضد وقبض عليهما وحبسهما. وكان هذا التصرف هو الحافز المباشر للداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي لكي يقوم بغزو سجلماسة، قصد إنقاذ سيده من محبسه؛ فتم له ذلك؛ بعد أن أطاح بحكم اليسع وقتله؛ وذلك في سنة 296هـ(908م). وقد دام حكم اليسع زهاء سبع وعشرين سنة. وعلى الرغم من طول مدة حكم اليسع؛ فإن عهده ـ بدوره ـ يكتنفه غموض كثيف.

ـ حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبل أن يخرج عبيد الله المهدي من سجلماسة نصب عليها واليا من قبله؛ وهو إبراهيم ابن غالب المزاتي؛ فظل مدة خمسين يوما ثم ثار عليه سكان سجلماسة سنة 298هـ(910م)؛ وقتلوه هو ومن معه من قبيلة كتامة. وبعدها نصبوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار؛ وميمون هذا كما يعتقد ابن خلدون: ليس هو ابن تقية المشار إليه سابقا. وكان يلقب بواسول؛

وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة.

وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من** قومه)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

ـ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية والانتماء؛ وذلك أنه ـ قبل عودته إلى إفريقية ـ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسَّاور أو (ساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: **((واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة**

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـــ 642.

[2] نفسه، ص: 638.

رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم؛ فولى عليها المعتز بن محمد)).[1] وحتى إن كان هذا التعليل صحيحا؛ فلا يمنع أن اختيار مكناسيا؛ من البيت المالك في سجلماسة يكون قد أراحه نفسيا. هذا وقد بقي المعتز في الحكم إلى أن توفي في عام 321هـ(933م). ثم تلاه بعد مماته ولده محمد بن المعتز الذي توفي بدوره في سنة 331هـ(942م). ثم خلفه ولده الصبي المنتصر سمغون؛ فتولت جدته تدبير شئونه؛ ولكن ابن عمه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر ثار ضده، وأخرجه من سجلماسة سنة 332هـ(943م).

ــ حكومة الشاكر محمد بن الفتح المكناسي:

انتقل محمد الشاكر ــ هذا ــ نقلة مخالفة تماما لما كان عليه أسلافه؛ إذ دعا إلى نفسه في المنابر؛ ثم تسمى بالشاكر، وتلقب بأمير المؤمنين؛ ثم سك سكة عرفت بالدراهم الشاكرية. ومع هذا فقد أبقى على الدعوة لبني العباس بغرض التمويه؛ كما يعتقد ابن خلدون؛ وأهم نقلة انتقلها هي تخليه عن المذهب الخارجي؛ حيث أخذ بالمذهب المالكي السني.[2] وتجمع المصادر أنه عرف بالعدل والصلاح؛ وذكر ابن حزم أنه:

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 146.

[2] المغرب، ص: 151. والعبر، مج: 6، ص: 270. أنظر كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ((رسائل ابن حزم الأندلسي) ج: 2، ص: 85.

((كـــان غايـــة في إظهـــار العـــدل، وتســـمى الشاكـــر لله، وإليـــه تنســـب المثاقيـــل الشاكريـــة)).[1] ويعتبـــر موقـــف الشاكـــر هـــذا كافيـــا لاستثـــارة الفاطمييـــن؛ الذيـــن شغلتهـــم ــ في البدايـــة ــ فتـــن بـــني أبي العافيـــة، وأبي يزيـــد مخلـــد ابـــن كيـــداد. ولمـــا استتـــب الأمـــر للدولـــة أرســـل المعـــز لديـــن اللـــه الفاطـــمي جيشـــا مـــن كتامـــة وصنهاجـــة إلى سجلماســـة؛ ووضـــع عـــلى رأس ذلـــك الجيـــش جوهـــر الكاتـــب (الصقـــلي)؛ فتغلـــب عليهـــا. وقـــد تمكـــن الشاكـــر ــ في بدايـــة الأمـــر ــ مـــن الإفـــلات واللجـــوء إلى حصـــن قريـــب مـــن سجلماســـة يســـمى تاسكـــرات؛ ولكـــن ســـوء حظـــه أوقعـــه في قبضـــة الفاطمييـــن؛ عندمـــا دخـــل سجلماســـة متنكـــرا؛ فعرفـــه رجـــل مـــن قبيلـــة مطغـــرة؛ فأخبـــر الفاطمييـــن عنـــه؛ الأمـــر الـــذي سهـــل القبـــض عليـــه؛ حيـــث نقلـــه جوهـــر معـــه إلى القيـــروان في سنـــة 347هــ(958م). أيـــن حبـــس في رقـــادة حـــتى مـــات في سجنـــه سنـــة 354هــ(965م). أمـــا سجلماســـة فقـــد أسنـــد جوهـــر الكاتـــب ولايتهـــا إلى مبـــادر بـــن زيـــري.

---

[1] **رسالـــة نقـــط العـــروس في تواريـــخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.**

ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:

ولما ضعف حال الفاطميين بالمغرب الأوسط، ومالت الكفة إلى فائدة بني أمية؛ ثار في سجلماسة أحد أبناء الشاكر؛ وتلقب بالمنتصر بالله؛ ولكن أخاه أبا محمد لم يمهله طويلا؛ إذ انتفض عليه وقتله سنة 352هـ(963م)؛ ثم استولى على الحكم وتلقب بالمعتز بالله.[1] وبقي في الحكم مدة من الزمن؛ حتى زحف إليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول سنة 366هـ(976م)؛ تبعا لتطور الأوضاع التي استفحل فيها أمر زناتة في المغربين الأوسط والأقصى؛ بحكم ما أصبحت عليه هذه القبيلة من قوة ونفوذ؛ بعد حلفها مع الدولة الأموية بالأندلس. وانتهت المعركة التي دارت أمام سجلماسة بين صاحبها المعتز وخزرون المغراوي بمقتل الأول واحتلال البلدة من طرف المغراويين؛ وبذلك سقطت دولة بني مدرار نهائيا؛ وغدت

---

[1] **يختتم ابن خلدون حديثه عن دولة مكناسة بسجلماسة فيقول: ((وأقام على ذلك مدة [يقصد بقوله هذا أبا محمد المعتز آخر أمرائهم] وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال؛ وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم؛ إلى أن زحف خزرون بن فلفول؛ من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة 366 هـ؛ وبرز إليه أبو محمد المعتز؛ فهزمه خزرون، وقتله، واستولى على بلده وذخيرته؛ وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح... وعقد لخزرون على سجلماسة؛ فأقام دعوة هشام بأنحائها؛ فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى. وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع؛ وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن)). العبر، مج: 6، ص ص: 271 ـــ 272.**

سجلماسة تحت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملة القول؛ فالشيخوخة بدأت تغزو دولة سجلماسة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعد فساد عصبية مكناسة في تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهذا السلوك مفعوله الخطير؛ الذي أضعف الدولة، وجعلها عرضة للاعتداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولة المكناسية الصفرية. ثم جاءت الضربة الثانية من قبل أبناء العم؛ أي من قوم ينتمون إلى مكناسة نفسها؛ ولكنهم في خدمة الشيعة الكتاميين؛ فزحفوا معهم إلى مركز عصبيتهم بسجلماسة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالة بن حبوس المكناسي؛ وذلك سنة 309هـ(921م). وهنا ظهر التفكك الذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانب كتامة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحاب سجلماسة.

ومع هذا فثمة بعض الإيجابيات لهذه الدولة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ـ قبل هرمها ـ تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكم تواجدها في الطريق التجاري الرابط بين غانة وشمال المغرب؛ نظرا لتوغلها جنوبا في الصحراء. وعلى الرغم من كونها صفرية المذهب، خارجية النزعة؛ فإنها ـ كسابقتها دولة برغواطة ـ كانت دولة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمراء الدولة؛ الذين كانوا يخطبون على منابرهم لبني العباس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ـ أيضا ـ لمبادئ الصفرية، والخوارج بصفة عامة.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ـ بعنفوانها ـ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة

الصفرية؛ تمكنت فعلا من تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي؛ ولكنها بقيت دولة بدوية؛ ذات حضارة محدودة. وربما وقف نظامها القبلي حجر عثرة أمام تطورها الحضاري.

ومع هذا لا تخلو هذه الدولة من بعض السمات؛ التي يمكن وضعها في سياق الحركة الحضارية والثقافية. فمثلا كان لها طابعها العمراني المتأثر بالذوق البدوي. وقد ذكر البكري أن البناءين بسجلماسة كانوا من اليهود.[1] ولما توطدت العلاقات بين هذه الدولة الصفرية والدولة الرستمية ـ بدءا بعهد مدرار ـ أضحى المظهر الحضاري والثقافي في سجلماسة أكثر شبها وقربا من تلك الدولة الإباضية القائمة في تيهرت. كما شرع بعض العلماء والأدباء الإباضيين يترددون على سجلماسة؛ بغرض نشر العلم، وبث الدعوة الإباضية. وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة ـ المتعطشين للعلم ـ ينتقلون من إفريقية إلى سجلماسة للتعلم فيها على مشاهير العلماء الإباضيين المقيمين بها.[2]

---

[1] **المغرب، ص ص: 149 ـــ 150.**

[2] **أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، ص: 193 وما بعدها. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني، ج: 1، ص ص: 109 ـــ 113. ج: 2، ص: 502.**

من ذلك ما أشار إليه أبو زكرياء حين ترجم لأبي الربيع سليمان بن زرقون؛ فقال أنه تعلم ــ مع أبي يزيد ابن كيداد ــ في سجلماسة؛ على عالم مشرقي اسمه ابن الجمع؛ قال عنه أنه من أهل الدعوة، وينتحل جميع الفرق؛ ويتمتع بعلم غزير ومعرفة وافرة. وقال أنه قدم إلى بلاد المغرب كتاجر؛ فلازمه ابن زرقون؛ الذي رافقه في رحلته إلى سجلماسة؛ وبقي معه حتى مات؛ فأوصى بكتبه إلى ابن زرقون.[1] ويدل خبر كهذا ــ طبعا ــ على وجود حركة علمية في سجلماسة؛ استقطبت بعض طلاب العلم من بعض جهات بالمغرب.

****

3)ــ الدولة الرستمية:

تأسست هذه الدولة في أعقاب الاضطرابات التي حدثت بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة؛ وبين ولاة القيروان من جهة أخرى. حيث التأمت القبائل الصفرية، والإباضية متجمعة؛ ضمن حلف واحد. ولكنها تفرقت ــ بعد ذلك ــ تبعا لتناقض المصالح القبلية الضيقة. فأخذت كل فرقة منها تعمل منفردة؛ ساعية لإقامة كيان ما؛ في

---

[1] **سير الأئمة وأخبارهم، ص: 193. أنظر الخبر نفسه ــ أيضا ــ في طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 109 ــ 110.**

شكــل دولـــة أو إمـــارة صغيـــرة. وهـــذا مـــا سعـــت إليـــه القبائـــل الصفريـــة؛ بالمغـــرب الأقـــصى والأوســـط؛ كبـــني يفـــرن بتلمســـان، وبرغواطـــة بتامسنـــا، ومكناســـة بسجلماســـة. أمـــا القبائـــل الإباضيـــة؛ كـــ: هـــوارة ونفوســـة وزناتـــة ولواتـــة ولمايـــة ومزاتـــة؛ فقـــد تمكنـــت هي الأخـــرى مـــن إنشـــاء إمـــارة في طرابلـــس سنـــة 140هـ(757م)؛ لكنهـــا سقطـــت عـــام 144هـ(761م)؛ تحـــت ضربـــات الجيـــش العبـــاسي؛ بقيـــادة محمـــد بـــن الأشعـــث. والعلـــة الـــتي عجلـــت بسقـــوط هـــذه الإمـــارة؛ هي العصبيـــة القبليـــة بتناقضاتهـــا؛ أي بعـــد نشـــوب خـــلافـــات بيـــن قبيلـــتي: هـــوارة وزناتـــة. حيـــث اتهمـــت هـــذه الأخيـــرة الأميـــر أبـــا الخطـــاب بالتحيـــز لقبيلـــة هـــوارة؛ فانسحـــب الزناتيـــون مـــن الميـــدان.[1] وهكـــذا سقطـــت تلـــك الإمـــارة الفتيـــة؛ نتيجـــة لقـــوة أعدائهـــا؛ مـــن جهـــة، وعبـــث العصبيـــة، والنخـــوة القبليـــة؛ مـــن جهـــة أخـــرى.

---

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: ، 1، ص: 72.**

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[1] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[2] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى

---

[1] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين ومائة هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو غيضة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لاشعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الدّف؛ شبهوه بالدّف لتربيعه)). المغرب، ص: **68**.

[2] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حَوْلَ تيهرت بساتينُ من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار. وهي شديدة البَرْدِ، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: "كم الشِّتَاءُ عندكم من شهر في السنة؟" قال: "ثلاثة عشر شهرا!". وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدة أولها (طويل):

فَرَاغُ الهَوَى شُغْلٌ وَمَحْيَا الهَوَى قَتْلُ
وَيَوْمُ الهَوَى حَوْلٌ وَبَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ وَرِسْلُ الهَوَى عَدَى
وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدٌ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ
سَقَى اللَّهُ تِيهَرْتَ المُنَا وَسُوَيْقَةً
بِسَاحَتِهَا غَيْثاً يَطِيبُ بِهِ المَحْلُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّارُ جَامِعَةٌ لَنَا
وَلَم يَجْتَمِعْ وَصْلٌ لَنَا لاَ وَلاَ شَمْلُ

تقــع إلى الغــرب منهــا؛ وتعــرف بتاقدمــت؛ ويفســر هــذا الاســم الصفــة الــتي كــان عليــه موقعهــا الجغــرافي؛ الــذي يظهــر في شكــل مربــع. وقــد يكــون بناؤهــا ــ حســب بعــض الروايــات ــ بــدأ بعــد قيــام الدولــة الرستميــة.[1] حيــث ترعرعــت الدولــة الرستميــة الإباضيــة ونمــت شيئــا فشيئــا داخلهــا. وقــد كانــت هــذه الإمــارة هي الدولــة المستقلــة الأولى في ربــوع المغــرب الأوســط. غيــر أنهــا لــم تظهــر في ثوبهــا الكامــل ســوى في سنــة

فَلَمَّا تَمَادَى العَيْــشُ وَانْشَقَّــتِ العَــصَى
تَدَاعَــتْ أَهَاضِيــبُ النَّوَى وَهْيَ تَنْهَــلُّ
سَــلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ نُطِــقْ يَــوْمَ بَيْنِنَــا
سَلاَمــاً وَلَكِــنْ فَارَقَــتْ وَبِهَــا ثُكْــلُ
وَمَــا هِيَ آمَــاقٌ تَفِيــضُ دُمُوعُهَــا
وَلَكِنَّهَــا الأَرْوَاحُ تَجْــرِي وَتَنْسَــلُّ)).

البيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 198 ـــ 199.

[1] ويصــف البكــري هــذه المدينــة بقولــه: ((ومدينــة تيهــرت مســورة؛ لهــا ثلاثــة أبــواب: بــاب الصبــا وبــاب المنــازل وبــاب الأندلــس وبــاب المطاحــن وغيرهــا [عــدَّ أربعــة أبــواب بــدلا مــن ثلاثــة]. وهي في سفــح جبــل يقــال لــه جــزُّول؛ ولهــا قصبــة مشرفــة عــلى الســوق؛ تســمى المعصومــة؛ وهي عــلى نهــر يأتيهــا مــن جهــة القبلــة؛ يســمى مينــا؛ وهــو في قبليهــا، ونهــر آخــر يجــري مــن عيــون تجتمــع تســمى تاتــُش؛ ومــن تاتــش شُــرب أهلهــا، وبساتينهــا؛ وهــو في شرقيهــا. وفيهــا جميــع الثمــار؛ وسفرجلهــا يفــوق سفرجــل الآفــاق حسنــا وطعمــا مشمــا؛ وسفرجلهــا يســمى بالفــارس. وهي شديــدة البــرد، كثيــرة الغيــوم والثلــج... ونظــر رجــل مــن أهــل تاهــرت إلى توقــد الشمــس بالحجــاز؛ فقــال احــرقي مــا شئــت؛ فــواللــه أنــك بتاهــرت لذليلــة. وهــذه تاهــرت الحديثــة وعــلى خمســة أميــال منهــا تاهــرت القديمــة؛ وهي حصــن لبرقجانــة؛ وهــو في شــرقي الحديثــة... وبقبليهــا لواتــة وهــوارة في قــرارات، وبغربيهــا زواغــة، وبجوفهــا مطماطــة وزناتــة ومكناســة؛ وقــد ذكرنــا أن بشرقيهــا حصــن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب، ص ص: 66 ــ 67.

160هـ(776م).[1] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ــ ولو شكلية ــ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام. وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ــ بعد أن مات بعلها في الحج ــ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الآباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ــ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ــ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[2]

---

[1] **ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة 161هـ تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب ابن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة154هـ. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 29 ــ 30.**

[2] **المقدمة، ج: 3، ص ص: 965 ــ 968.**

ومن الضروري التنبيه – هنا – إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها**".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 – 638.**

لما كانوا يعرفونه عن نسبه وفضله؛ فدخل ـ بهذا الاعتبار ـ في إطار أصحاب النصاب الملكي؛ لأنه منسوب إلى الأكاسرة، وكان عاملا لأبي الخطاب على القيروان في الدولة الإباضية الأولى. كما أن القبائل المتعددة العصبيات ـ التي شاركت في تشييد هذه الدولة ـ تكون قد اختارته؛ لكي تتجنب الصراع على السلطة فيما بينها؛ وخوفا من تأثير النزوات الهوجاء للعصبية الغاشمة. هذا بالإضافة إلى تأثير المذهب الإباضي؛ الذي يستوجب اختيار الأمير من أهل الصلاح والفضيلة؛ دون اعتبار لعروبته أو قريشيته.[1] وبذلك يمكن القول أن دولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل: لماية ولواتة ومزاتة وهوارة وزناتة؛ تلك القبائل التي تحالفت، وعززت عصبيتها بالتعاليم الدينية؛ التي ألفت بين القلوب، وأنارت العقول، ووحدت الصفوف، وأزالت علة التنافس، والحسد

---

[1] **ويمكن استشفاف ذلك كله من خلال النص الذي سجله أحد علمائهم وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر؛ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم؛ إذ قال: ((أن جماعة من المسلمين ـ من أهل النظر منهم ـ وجدوا في أنفسهم قوة، وأنسوا طاقة؛ فأرادوا التولية؛ فنظروا في عامة القبائل؛ فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين؛ كل يصلح للإمارة؛ فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم: "إن عبد الرحمن بن رستم الفارسي رضي الله عنه؛ ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الإمام أبي الخطاب رضي الله عنه. وقد عرض عليه المسلمون الإمامة؛ قبل تولية أبي الخطاب؛ فأعرض عنها، ودفعها عن نفسه، ولم يردها؛ ولا سيما وأنه ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير وتبدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.**

بيـــن النـــاس؛ فهذبـــت بذلـــك طيـــش العصبيـــة، وكبحـــت جموحهـــا؛ فامتلكـــت قـــوة وقـــدرة؛ حققـــت بهمـــا استقلالهـــا، وضمنـــت امتـــداد رقعتهـــا، واكتسبـــت هيبـــة واحتـــرام خصومهـــا.

كـــان إمـــام الإباضييـــن عبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم في غايـــة الصـــلاح والزهـــد وفي قمـــة المعرفـــة والعلـــم. ولـــه بعـــض المؤلفـــات منهـــا: تفسيـــر للقـــرآن الكريـــم، وديـــوان خطـــب، ورسائـــل إخوانيـــات. ومـــن علامـــات زهـــده وفضلـــه وتواضعـــه؛ أنـــه كـــان يقـــوم ببنـــاء داره بنفســـه، وبمعونـــة عبـــد لـــه. كمـــا أوردت المصـــادر أنـــه لمـــا وصلتـــه ــ في بدايـــة الدولـــة ــ ثلاثـــة أحمـــال مـــن المـــال؛ بعـــث بهـــا الإباضيـــون في المشـــرق؛ استشـــار أصحابـــه في أمرهـــا؛ فأشـــاروا بقبولهـــا؛ لحاجـــة الدولـــة والرعيـــة إليهـــا أنئـــذ. فعمـــل بمشورتهـــم وقبلهـــا، ثـــم فرقهـــا أمـــام الوفـــد المشـــرقي عـــلى فقـــراء المسلميـــن، وفي شـــراء الأسلحـــة الضروريـــة. ولمـــا وصلتـــه عشـــرة أحمـــال أخـــرى مـــن المـــال ــ بعـــد فتـــرة ــ مـــع وفـــد آخـــر؛ شـــاور أصحابـــه أيضـــا؛ فتركـــوا القـــرار لـــه. عندهـــا أرجـــع الأحمـــال إلى أصحابهـــا؛ بحجـــة أن أصحابهـــا أحـــوج إليهـــا مـــن الدولـــة؛ نظـــرا لاستغنائهـــا ومـــا وصلـــت إليـــه مـــن قـــوة.[1]

---

[1] **سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص ص: 83 ــ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.**

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، ثم عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**، وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ على العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فندين اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا.

وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر ـ في الأول ـ بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فندين من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: ((**هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا**)).[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فندين بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

ـ حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة، والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل

---

[1] السير، ص: 86. والطبقات، ج: 1، ص: 47.

[2] السير، ص: 86. والطبقات، ج:، 1، ص ص: 46 ــ 47.

بأنها دامت نحو أربعين سنة؛ أي أنه تولى الحكم سنة 168هـ(784م) ومات سنة 208هـ(823م)، وقائل أنها لم تتجاوز التسعة عشر سنة. غير أن سليمان الباروني يقول أنه حكم من عام 171هـ إلى عام 190هـ(805م) سنة وفاته.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب بدأت **العصبية** تتململ وتتحرك؛ استجابة لمقتضى طبيعتها المتصفة بالأنانية والغضب. وعلى الرغم من انتماء أم عبد الوهاب إلى القبيلة بني يفرن الزناتية؛ تلك القبيلة القوية النافذة؛ فإنه لم يستطع كسب ولاء كل عشائرها؛ إذ وقف في طريقه يزيد بن فندين اليفرني؛ ذلك الخصم العنيد، المتعصب لنفسه ولقبيلته. ونتيجة لهذا حدث ما يعرف لدى الإباضيين بالافتراق الأول بين الإباضيين. وقد تطور الخلاف بين الطرفين حتى وصل إلى استعمال السلاح، وسفك الدماء. وتكررت الفتن بينهما حتى اختتمت بمقتل يزيد بن فندين؛ في موقعة قتل فيها ما لا يقل عن اثني عشر ألفا.

وعرفت الجماعة المخالفة بعدة ألقاب منها: العمرية أو العمرانية؛ نسبة إلى عيسى بن عمير، والنجوية؛ لأنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان، والنكارة؛ لإنكارهم إمامة عبد الوهاب، والشغبية؛ بسبب شغبهم، والملحدة؛ لإلحادهم في أسماء الله الحسنى، والنكاث؛ لنكثهم البيعة بغير حجة شرعية.[1]

ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة في عهد الإمام عبد الوهاب؛ بل ثارت عليه أيضا فئة أخرى من قبيلة زناتة. وعلى الرغم من تبعيتهم للدولة الإباضية؛ إلا أنهم كانوا يتمذهبون بالواصلية (وهم أتباع طائفة من المعتزلة؛ ممن اعتنق مذهب واصل بن عطاء الغزال).[2] كما وضع أبو زكرياء في كتابه فصلا خصصه لهذه الفرقة؛ ولدورها في إثارة الفتنة وسط دولة بني رستم؛ وسرد الكيفية التي استطاعت بها هذه الفئة من زناتة الزج بالدولة في دوامة من الاضطرابات والفتن ـ مدة طويلة ـ قبل أن تتمكن من التغلب

---

[1] السير، ص ص: 88 ـ 100. والطبقات، ج: 1 ص ص: 47 ـ 56.

[2] وقد أشار البكري لهذه الفئة من الواصلية؛ المتواجدة بالقرب من تيهرت فقال: ((وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت؛ وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا؛ في بيوت كبيوت الأعراب؛ يحملونها)). المغرب، ص: 67. أنظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة تاهرت: 2، ص: 8.

عليهم؛ بمساعدة جماعة من نفوسة.[1] والقصة طويلة؛ ولكن خلاصتها في النهاية؛ انتهت بهزيمة الواصلية في مجالات الحرب، والمجادلات الكلامية. وعندها اختار أصحابها مهادنة الدولة. وثمة من يعتقد بأن محرك هذه الجماعة هو شيخ أوربة بأوليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي؛ المبايع لإدريس بن عبد الله؛ وكان ــ كما قال البكري ــ معتزليا. ومن جهة أخرى فقد ذكر الشهرستاني ــ في فصل الواصلية ــ أن فئة منهم

[1] وعن هذا يقول أبو زكرياء: ((وهم قوم من البربر؛ أكثرهم من قبائل زناتة؛ وذلك حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية؛ وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة؛ فبلغ الإمام ذلك؛ فاعتذر إليهم مرة بعد مرة؛ وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع، عظيم، بطل لا يقاوم له شيء؛ وهو ابن سيدهم، وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة؛ يذب من مذهبه؛ وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة؛ وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية، واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب؛ فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا جبالها؛ وهم أصحاب العمود؛ وأظهروا مخالفة الإمام ــ رضي الله عنه ــ فاعتذر إليهم؛ وخرج إليهم بعساكر كثيرة؛ فقاتلهم مرة بعد مرة. وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة؛ لا يدرك أحدا إلا قتله... فلما رأى الإمام ــ رضي الله عنه ــ ذلك، وأن حربهم جد؛ أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم؛ أن يبعثوا إليه جيشا نجيبا؛ يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة... واتفق رأيهم على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي [النفوسي الويغوي]، والآخر أيوب بن عباس، والثالث محمد بن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه؛ وقد قيل أن اسمه أبو محمد فارس...)). السير، ص:102.

متواجدة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني.[1] وإذا صح هذا فمعناه أن الواصلية تكون قد انتشرت انتشارا واسعا في المغرب الأوسط؛ ووصلت إلى أجزاء من المغرب الأقصى.

ولم تكن هزيمة ابن فندين اليفرني والزناتيين التابعين للواصلية ـ من بعده ـ هي خاتمة الثورات؛ بل انتفضت قبيلة هوارة إثرهما؛ بفعل الغيرة والنخوة وتأثير العصبية؛ إذ استفزهم تصرف الإمام عبد الوهاب؛ من أجل ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ التي تقدم إلى خطبتها أحد شيوخ هوارة؛ فخاف الإمام عبد الوهاب عاقبة تمتين أواصر القربى بين القبيلتين: (هوارة ولواتة) فسارع إلى مزاحمة شيخ هوارة؛ وعرض نفسه بديلا وخطيبا منافسا.[2] وبالطبع دخلت في الاعتبار المغريات المالية، والوعود الملوكية؛ فانتهت المنافسة بزواج الأمير عبد الوهاب من الفتاة. وكان هذا بمثابة إعلان حرب بين هوارة والإمام عبد الوهاب. وحدثت أيضا في عهد هذا الإمام فتن أخرى؛ قامت بها بعض العشائر البدوية من مزاتة وسدراتة وعشائر أخرى.

---

[1] **الملل والنحل، ج: 1، ص: 46.**

[2] **سيرة الأئمة الرستميين، ص: 22. الأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـــ 421. 430 ـــ 431. 491. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.**

والسبب ــ على ما يبدو ــ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ــ في قصة طويلة ــ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[1]

ــ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح ابن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ــ كما يبدو ــ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو 208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛

---

[1] **تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ــ 421. 431. 491 ــ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.**

فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية – بدقة – عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد.

ومـــع هـــذا فقـــد نشبـــت في عهـــد الإمـــام أفلـــح بعـــض التيـــارات المعارضـــة؛ مثـــل: الحركـــة الـــتي سماهـــا الإباضيـــون بالافتـــراق الثالـــث؛ وهي ــ في الحقيقـــة ــ معارضـــة مذهبيـــة سلميـــة؛ قادهـــا نفـــاث ابـــن نصـــر النفـــوسي؛ وإن كانـــت المصـــادر الإباضيـــة ترجـــع أسبابهـــا إلى عوامـــل سياسيـــة؛ وإلى الغيـــرة والحســـد نتيجـــة لاستحـــواذ بعضهـــم عـــلى المناصـــب في الدولـــة دون الآخريـــن.[1]

ــ حكومـــة أبي بكـــر بـــن أفلـــح:

وبعـــد وفـــاة الإمـــام أفلـــح سنـــة 140هــ تـــولى ولـــده أبـــو بكـــر الإمـــامـــة. وكانـــت مـــدة ولايتـــه قصيـــرة جـــدا؛ إذ لـــم يكمـــل حكمـــه السنتيـــن. وفي عهـــد هـــذا الإمـــام عرفـــت دولـــة بـــني رستـــم تحـــولا ملحوظـــا في مسارهـــا السيـــاسي. إذ أصبحـــت الدولـــة في قمـــة الثـــراء والازدهـــار؛ ممـــا ســـاق أصحابهـــا إلى الدخـــول في عهـــد جديـــد يتميـــز بالتـــرف الفائـــض والنعيـــم الواســـع. ومـــن الأمثلـــة عـــلى ذلـــك الثـــراء الـــذي كـــان متفشيـــا بيـــن رعايـــا الدولـــة أن أحدهـــم؛ وهـــو يبيـــب بـــن زغليـــن المـــزاتي كـــان يمتلـــك مـــن الإبـــل ثلاثيـــن ألفـــا، ومـــن الغنـــم ثلاثمائـــة ألفـــا، ومـــن الحميـــر اثـــني عشـــر ألفـــا. أمـــا ثـــروة الإمـــام أبي بكـــر بـــن أفلـــح فـــلا حصـــر لهـــا.

---

[1] **سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص ص: 138 ـــ 146. طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج: 1، ص ص: 77 ـــ 82.**

وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: "**فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون**". و"**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[1]

---

[1] ففي المثال الأول يقول ابن خلدون: ((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسْوَةَ قومه في

وهذا هو الذي حصل للرستميين؛ إذ وصل مؤسس دولتهم عبد الرحمن بن رستم إلى إقامة دولته بالكدِّ والجهد والمطالبة المضنية؛ فاقتصر ـ في حياته إذ ذاك ـ على الضروري من العيش. ولم يهنأ له بال، ولا استسلم للراحة ولا للدعة أو السكينة؛ حتى حقق أهدافه. ولما خلفه ابنه عبد الوهاب ضبط أمره، وحافظ على توازن ملكه؛ على الرغم من الثراء الذي بدأ يظهر عليه؛ ونظرا لكونه قد عاش في عهد والده؛ وعرف قيمة الجهود التي بذلها أبوه للوصول إلى ما هم عليه؛ فقد توازنت حياته، ولم يترك لنفسه العنان.

اكتساب المجد، وجباية المال، والمدافعة عن الحوزة والحماية... الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته...الطور الثالث: طور الفراغ والدَّعَةِ؛ لتحصيل ثمرات الملك؛ مما تَنْزِع طباع البشر إليه؛ من تحصل المال، وتخليد الآثار، وبعد الصيت... الطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بَنَى أوَّلُوه، سلماً لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدا للماضين من سلفه... الطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أوَّلُوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته... وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم، ويستولي عليها المرض المزمن؛ الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه بُرْءٌ؛ إلى أن تنقرض)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ـ 666.

ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ـ هو في ذاته ـ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ـ نتيجة لذلك ـ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه ترك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم.

ويبدو أنه تم ـ وفي عهد أبي بكر هذا ـ إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية ـ في أواخرها ـ نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية ـ بدءا بعهد أبي بكر هذا ـ في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

---

[1] **وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين، ص: 26.**

ـ حكومـــة أبي اليقظـــان محمـــد بـــن أفلـــح:

بويـــع أبـــو اليقظـــان بالإمامـــة سنـــة 241هــ خـــارج تيهـــرت؛ أثنـــاء الفتنـــة الـــتي تسبـــب فيهـــا أخـــوه أبـــو بكـــر. حـــدث ذلـــك بعـــد لجوئـــه إلى حصـــن لواتـــة المحـــاذي لتسلونـــت؛ أيـــن ينبـــع نهـــر مينـــا. ولمـــا ولي شئـــون الدولـــة عمـــل مـــن فـــوره إلى إخمـــاد الفتنـــة، وعقـــد صلحـــا مـــع بـــني مسالـــة الهوارييـــن الذيـــن تغلبـــوا علـــى تيهـــرت. هـــذا وقـــد لعبـــت نفوســـة دورا هامـــا في إعـــادة الميـــاه إلى مجاريهـــا، وتمهيـــد الأمـــر لعـــودة الدولـــة بقيـــادة أبي اليقظـــان. وبالفعـــل دخـــل إمـــام الإباضيـــة مـــن جديـــد إلى تيهـــرت؛ بغـــرض إصـــلاح مـــا تصـــدع، وعـــلاج مـــا أفســـده الدهـــر والعبـــاد.

ومـــع ذلـــك لـــم تجـــد إصلاحـــات أبي اليقظـــان في إنعـــاش هـــذه الدولـــة؛ لأن الـــداء أصبـــح مزمنـــا والعـــلاج مستحيـــلا. خاصـــة عندمـــا اتضح أن العامـــل الديـــني ــ هـــو بـــدوره ــ أخـــذ مفعولـــه يتـــلاشى ويضعـــف في حيـــاة تلـــك الدولـــة. كمـــا أصبحـــت عصبيـــة البيـــت المالـــك فاقـــدة لتلاحمهـــا وفاعليتهـــا. عندئـــذ بـــرز الوجـــه الآخـــر للعصبيـــة؛ كاشفـــا عـــن العيـــوب، والسلبيـــات الـــتي كبحهـــا الديـــن وضبـــط مفعولهـــا ومؤثراتهـــا مـــن قبـــل. غيـــر أن بـــوادر هـــذا الأمـــر السلـــبي بـــدأت ــ في الحقيقـــة ــ تظهـــر منـــذ عهـــد الأميـــر الثـــاني؛ ولكـــن الدولـــة كانـــت مازالـــت قويـــة بعصبيتهـــا، وبمذهبهـــا الديـــني. ولمـــا حـــل عهـــد أبي بكـــر أخـــذ التنافـــس، والتحاســـد يهيمنـــان علـــى كيـــان التحالـــف القبـــلي المسانـــد للدولـــة.

وهكـذا؛ أضحـت الخلافـات والمؤامـرات تحجـب ضـوء الشمـس؛ في سمـاء الدولـة الرستميـة؛ وشـرع أفـراد العائلـة المالكـة في حبـك المؤامرات ضـد بعضهـم بعضـا. ووصـل بهـم الحـال إلى سفـك دمـاء قرابتهـم وأهاليهـم. وبذلـك كتـب لهـذه الدولـة صـك فنائهـا واندثارهـا.

ــ حكومـة أبي حاتـم يوسـف بـن أبي اليقظـان:

لمـا تـوفي أبـو اليقظـان سنـة 281هـ(894م) ولي بعـده في منصـب الإمامـة ولـده أبـو حاتـم يوسـف. وكـان ــ حيـن تـوفي والـده ــ خـارج تيهـرت في مهمـة أسنـدت إليـه مـع جماعـة مـن قبيلـة زناتـة؛ تهـدف إلى حمايـة القوافـل التجاريـة. وعـلى الرغـم مـن غيابـه فقـد خرجـت العامـة في شـوارع تيهـرت هاتفـة باسمـه؛ نظـرا لمـا تخصـه بـه مـن حـب وإجـلال. ولكنـه لـم يبـق في منصبـه أكثـر مـن عـام حـتى بـدأت المصاعـب تظهـر بوجههـا القبيـح؛ إذ تحركـت بعـض المؤامـرات الـتي حاكهـا جماعـة مـن أصحـاب المصالـح؛ حيـث حرضـوا عليـه عمـه يعقـوب بـن أفلـح. فأغـروه بالملـك وواعـدوه بالوقـوف إلى جانبـه إن هـو ثـار عـلى ابـن أخيـه. وبالفعـل تحـرك يعقـوب محـاولا الاستيـلاء عـلى سـدة الحكـم. وظـل الصـراع بينهمـا يتصاعـد؛ وكـان النجـاح سجـالا بينهمـا؛ إلى أن قتـل أبي حاتـم غيلـة بأيـدي طـرف ثالـث في الأسـرة المالكـة؛ وهـم أبنـاء اليقظـان أخيـه مـن الأب في سنـة

294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ـ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ـ 45. 47 ـ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ـــ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

هذا عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة أما بخصوص إنجازاتها الحضارية والثقافية؛ فهي ـ خلافا للدولتين السابقتين ـ قد تميزت بالمآثر الحضارية، والإنجازات الثقافية والعمرانية؛ التي عرفت تطورا ملحوظا؛ بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي. وقد نافست تيهرت ـ في عهدها ـ حاضرة القيروان؛ في ميدان العلوم والعمران. حيث كانت ـ في ذلك الوقت ـ مركز إشعاع ثقافي، وحضاري انتشر نوره في ربوع المغرب كلها. ووصل أثره إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى؛ كبغداد، وقرطبة.[1]

[1] وفي هذا يقول ألفرد بل: ((وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية؛ وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في مسائل العقيدة والشريعة؛ وربما راود هؤلاء الأخيرين الأمل في أن يقنعوا علماء أهل السنة باعتناق نحلة الإباضية. ومن هذه الناحية كانت تاهرت ـ شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة ـ مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات. وأخذ شيوخ البربر في تلقي العلم بحماسة، وأسسوا مدرسة هم بدورهم. هنالك صارت تيهرت ـ بفضل حسن موقعها من الناحية الاقتصادية، وبفضل تسامح أئمتها ـ مدينة مزدهرة. وبفضل الزراعة، والتبادل التجاري خصوصا؛ صارت من أكبر أسواق المغرب... ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم؛ لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم؛ وهو ابن رستم وأهملوا العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم. ولهذا انهارت

وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله ابن محمد التميمي التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: ((**كان غاية**

هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ـ 150.

في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا ابن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها

وغصن شبابي في الغصون نضير

فقلـــت كمـــا قـــال النـــواسي قبلهـــا

((عزيـــز علينـــا أن نـــراك تســـيـــر))

فقلـــت جفـــاني يوســـف بن محمـــد

فطـــال عـــلي الليـــل وهـــو قـــصيـــر

أبا حاتـــم ما كان ما كـــان بغضـــة

ولكـــن أتـــت بعـــد الأمـــور أمـــــور

فأكرهـــني قـــوم خشيـــت عقابـــهـــم

فداريتهـــم، والدائـــرات تـــــدور

وأكـــرم عفـــو يؤثـــر الناس أمـــره

إذا مـــا عفـــا الإنســـان وهـــو قديـــر

كمـــا قـــال لـــه لمـــا مثـــل بيـــن يديـــه:

مـــاذَا يُدَبـــرُ رَبنـــا فِي أمْـــرِهِ

سُبحانـــهُ فِي أرْضـــهِ وَسمائِـــهِ

رَدَّ المُلـــوكَ إلَى مَحـــلِّ قرَارِهِـــمْ

مُسْتبْشِرِيـــنَ بِفضلِـــهِ وَعَطائِـــهِ

فتبَـــارَكَ اللـــهُ اللطِيـــفُ بِصُنعِـــهِ

مَا أغفـــلَ الثقليْـــنِ عَـــنْ نِعمَائِـــهِ

رَفَــعَ السمـــاءَ بـــلاَ عِمَـــادٍ بَيِـــنٍ

وَالبَحـــر أمْسَكـــهُ عَلَى أرْجائـــهِ

لـــوْلاَهُ فاضَ عَلَى العِبَـــادِ بمَوْجـــهِ

وَعَلى الجبَـــالِ الرَّاسِيَاتِ بمَائـــهِ

أخـــذَ البـــلاَدَ بِسيَفِـــهِ فاسْتسْلمَـــتْ

وَبعَدْلـــهِ وَبفضْلِـــهِ وَسَخائـــــهِ

ومـــن شعـــر أبي عبـــد الرحمـــن بكـــر بـــن حمـــاد الزنـــاتي في وصـــف البـــرد بتاهـــرت قولـــه:

مَـــا أخْشَـــنَ البَـــرْدَ وَرَيعَانـــهُ

وَأطـــرَفَ الشمْـــــسَ بتاهَـــرْتِ

تَبـــــدُو مِنَ الغيـــمِ إذا مَا بَـــدَتْ

كأنهَـــا تنشَـــــرُ مِـــن تخـــــتِ

نَحْـــنُ فِي بَحْـــرٍ بَـــلاَ لجَّـــــةٍ

تَجْـــرِي بِنَا الرِّيـــحُ عَلَى السَّمْـــتِ

نفـــرَحُ بِالشَّمْـــسِ إذا مَـــا بَـــدَتْ

كفرْحَـــةِ الـــذمَّيِ بِالسَّـــبْـــــتِ

ويقول في تيهرت بعد تخريبها من طرف الفاطميين سنة 296هـ(908م)؛ وهي السنة نفسها التي توفي فيها ابن حماد. فقال:

زُرنا مَنازِلَ قومٍ لمْ يَزُورُونا
إنا لفِي غفلةٍ عَما يُقاسونا
لو يَنطِقونَ لقالوا: الزَّاد ويَحكَمُ
حَلَّ الرَّحِيلُ فمَا يَرْجُو المُقِيمِينا
الموْتُ أجْحَفَ بِالدُّنيا فخرَّبهَا
وَفعَلنا فِعْلَ قومٍ لاَ يَمُوتونا
فالآنَ فابكوا فقدْ حَقَّ البُكاءُ لكمْ
فالحامِلونَ لِعَرشِ اللهِ باكونا
مَاذَا عَسَى تنفعُ الدُّنيا مُجَمِّعِهَا
لوْ كانَ جَمَعَ فِيهَا كنزَ قارُونا

ثم ولده أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد؛ قال فيه ابن الفرضي: ((**عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي الشاعر؛ من أهل القيروان؛ يكنى أبا زيد؛ قدم الأندلس. حدث عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه وحديثه**)).[1] ويقول ابن الفرضي أنه توفي بقرطبة؛

---

[1] **تاريخ علماء الأندلس، ص: 268.**

بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَكيْتُ عَلَى الأحِبةِ إذْ توَلوْا
وَلوْ أنِّي هَلكتُ بَكوْا عَليا
فيا نسْلي بَقاؤُكَ كانَ ذُخراً
وَفقدِكَ قدْ كوَى الأكبادَ كيا
كفَى حُزناً بِأننِي مِنكَ خلوٌ
وَأنكَ ميتٌ وَبَقيتُ حيا
وَلمْ أكُ آيساً فيئسْتُ لمَّا
رَميتُ الترَابَ فوقكَ مِنْ يَدَيا
فليْتَ الخلقُ إذَ خلِقوا أطاعُوا
وَليتكَ لمْ تكُ يَا بَكرُ شيا
تسرُّ بِأشهرٍ تمْضِي سِرَاعاً
وَتطوَي فِي لياليهنَّ طيا
فلاَ تفرَحْ بدنيا ليسَ تبقَى
وَلاَ تأسفْ عَليهَا يَا بُنيا
فقدْ قطعَ البَقاءَ غرُوبَ شمسٍ
وَمَطلعها عَلِيٌّ يَا أخيا

وَلَيــسَ الهــمُّ يجلــوهُ نهـــــارٌ

تـــدُورُ لـــهُ الفرَاقــدُ وَالثرَيــــا

ورثـــاه بقصيـــدة أخــرى أيضـــا فقـــال:

وَهـــوَّنَ وَجـــدِي أننِي بكَ لاَحِـــقٌ

وَأنَّ بَقــائِي فِي الحيـــاةِ قليـــلُ

وَأنْ ليـــسَ يَبـــقَى لِلحَبيبُ حَبيبـــهُ

وَليـــسَ ببـــاقٍ لِلخلِيـــلُ خلِيـــلُ

وَلوْ أنَّ طولَ الحـــزْنِ مِما يَـــرُدُّهُ

للاَزَمـــنِي حـــزْنٌ عليـــهِ طوِيـــلُ

بلى رُبما دَارَتْ علَى القلبِ لوْعَـــة

فيرجعُهـــا صَبـــرٌ هنـــاكَ جمِيـــلٌ

تبـــدَّدَ مَا قدْ كـــانَ مِنـــكَ مُجمعـــاً

وَجللـــهُ رَمـــلٌ عليـــك مهيـــــلُ

فـــلاَ علَـــمٌ يُنبيـــكَ أيـــنَ مَحلـــهُ

وَلاَ جَـــدَثٌ يُشـــفَى عليـــهِ غلِيـــلُ

خلاَ أعْظـــمٍ قدْ بـــدِّدَتْ وَمَفاصِـــلٍ

تمِيـــلُ بها الأرْيـــاحُ حَيثُ تمِيـــلُ

وممـــن ينســب ــ أيضــا ــ إلى تيهــرت مــن العلمــاء والأدبــاء: أبــو العبــاس الفضــل بــن نصــر التاهــرتي؛ وكــان مــن علمــاء الشافعيــة؛ وتــوفي بالقيــروان سنــة 344هــ(955م)؛ وهــو مــن الشعــراء كذلــك؛ ومــن شعــره:

بلـــغَ الوُشـــاةُ عَـــلَيَّ حَيـــثُ أرَادُوا
وَاللــــهُ يَسْألهـــمْ وَمَـــا قـــدْ كــــادُوا

وَاللــــهُ يَعلـــمُ أنـــنِي مَا قلـــتُ مَـــا
قـــالَ الوُشـــاةُ تأفكـــاً وَأعـــادُوا

فهـــبِ الوُشـــاةُ أتـــوْا بأمـــرٍ بَيـــنٍ
أيـــنَ الكِـــرَامُ أبدَّلـــوا أمْ بـــادُوا

عفوُ الملـــوكِ عَنِ الذُّنوبِ مدَائـــحٌ
مَدَحـــوا نفوسَهـــمُ بهـــا فأجـــادُوا

ولمـــا وصـــل إليـــه خبـــر ــ غيـــر مؤكـــد ــ بوفـــاة ابنـــه في جزيـــرة شقـــر؛ قـــال:

فلـــوْ كَافتقـــادِ الناسِ قبـــلِي بَيْنهـــمْ
أتِيـــحَ لهُ مُـــوْتٌ وَأضمَـــرَهُ قبـــرُ

إذَنْ لصَبَرْتُ النفــسَ ثمَّ احتسبتــهُ
لِيعظــمَ لِي مِنْ بَعدِ ميتتِــهِ الأجــرُ
ولَكِنْ طــوَتْ عنِّي المَقادِيرُ أمــرَهُ
فمالِي بهِ مِنذُ انتــآى شخصُهُ خبــرُ
فرَحْمتــكَ اللهــمَّ قــدْ بَلــغَ الأسَى
نِهاية مَجهودِي وَقدْ غلِــبَ الصَّبــرُ

كمــا كــان جــل أئمــة الدولــة ــ أنفسهــم ــ مــن العلمــاء والأدبــاء. فمؤســس الدولــة عبــد الرحمــن بــن رستــم؛ يعتبــر مــن كبــار علمــاء الإباضيــة، كمــا كــان ولوعــا بأشغــال العمــارة، ويباشرهــا بنفســه؛ وإن اعتبــر مــا ينجــزه منهــا بسيــط المظهــر. أمــا ولــده عبــد الوهــاب فقــد عــرف بتبحــره في العلــوم، وولعــه الشديــد بالكتــب؛ إذ تقــول المصــادر أنــه بعــث إلى المشــرق ألــف دينــار لشــراء الكتــب؛ فأرسلــت إليــه الكتــب الــتي قــدرت بأربعيــن حمــلا. ويقــال أنــه كــان ضليعــا في العلــوم الشرعيــة وعلــم الفرائــض والتنجيــم. أمــا ولــده الإمــام أبــو سعيــد أفلــح فكــان ــ بــدوره ــ عالمــا جليــلا في علــوم وفنــون شــتى؛ ومــن شعــره قصيــدة في مــدح العلــم تصــل أبياتهــا إلى الأربعيــن؛ منهــا:

العلـــم أبقى لأهـــل العلـــم آثـــارا

يريـــك أشخاصهم روحا وأبكـــارا

حي وإن مات ذو علـــم وذو ورع

ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

وذو حيـــاة على جهل ومنقصـــة

كمَيِّت قد ثوى في الرمس أعصارا

للـــه عصبة أهل العلـــم إن لهـــم

فضلا على الناس غيابا وحضـــارا

وتقـــول المصـــادر أنـــه كـــان بتيهـــرت الرستميـــة مكتبـــة أسمهـــا المعصومـــة؛ تشتمـــل علـــى أزيـــد مـــن ثلاثمائـــة ألـــف مجلـــد؛ انتـــهى مصيرهـــا إلى النـــار الـــتي أشعلهـــا في معظـــم مجلداتها عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ عندمـــا افتتـــح تيهـــرت؛ ولـــم يأخـــذ منهـــا ســـوى مـــا يناســـب مذهبـــه؛ ومـــا وجـــد بهـــا مـــن كتـــب الرياضـــة والصنائـــع والفنـــون.[1] ولـــو بقيـــت هـــذه المكتبـــة لقدمـــت للباحثيـــن معلومـــات وافيـــة عـــن هـــذه الدولـــة الإباضيـــة.

---

[1] **وعـــن الآثـــار العمرانيـــة لـــدى الرستمييـــن؛ يقـــول شـــارل أندريـــه جوليـــان: ((واقتصـــر الباحثـــون ــ زمنـــا طويـــلا عنـــد تقييـــم فـــن بـــني رستـــم المعمـــاري ــ علـــى آثـــار سدراتـــة (قـــرب ورقلـــة) وهي المدينـــة الـــتي التجـأ إليهـــا أهـــل تاهـــرت عندمـــا استـــولى الفاطميـــون علـــى عاصمتهـــم سنـــة 911م. وتدلنـــا هـــذه الآثـــار علـــى أن فنهـــا المعمـــاري متصـــل بفـــن إفريقيـــة، وأن زخرفهـــا ينتســـب إلى زخـــرف أديـــرة الأقبـــاط، وان لهـــا عناصـــر معماريـــة متأثـــرة بالمبـــاني المصريـــة المعاصـــرة لهـــا؛**

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ــ حسبما يبدو ــ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما:

ــ أولا: **إمارة بني دمر**: وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ــ في الحقيقة ــ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة **هاز** وفي الجنوب الشرقي من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا

وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة **1941**م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على آثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: **1835** و **1841**م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار؛ كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 2، ص ص: 43 ــ 44.

يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ــ مذهبياً ــ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بموورور في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ــ كما يبدو ــ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة.

أما الإمارة الإباضية الثانية:

ــ فهي **إمارة بني مسالة الهواريين**: وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ــ أيضا ــ عند الحديث عن الفتنة التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ــ بالقرب من بلدة **يلل** ــ **بقلعة هوارة**. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛

بينمـــا ساعدتهـــم الظـــروف عـــلى إقامتهـــا ببـــلاد الأندلـــس؛ خـــلال الفتنـــة الـــتي أطاحـــت بالدولـــة الأمويـــة.

****

4)ـ دولـــة بـــني بـــرزال:

قامـــت هـــذه الدولـــة في بـــلاد الأندلـــس؛ وذلـــك بعـــد أن أعلـــن البرزاليـــون قيامهـــا في بلـــدة **قرمونـــة**؛ الـــتي اتخذوهـــا عاصمـــة لهـــم. هـــذا وقـــد نشـــأت هـــذه الإمـــارة الأمازيغيـــة ــ ذات المذهـــب الخـــارجي ــ بعـــد انهيـــار الدولـــة الأمويـــة، وانقســـام بـــلاد الأندلـــس بيـــن شلـــة مـــن الأمـــراء، وبعـــض القبائـــل العربيـــة والأمازيغيـــة، وجماعـــات مختلفـــة مـــن المـــولي والمماليـــك؛ وذلـــك في الفتـــرة المعروفـــة بعصـــر الطوائـــف. وكانـــت هـــذه الدولـــة إباضيـــة المذهـــب؛ حسبمـــا ذكـــر كـــل مـــن: ابـــن حيـــان وابـــن الخطيـــب.

ويرجـــع وجـــود بـــني بـــرزال في بـــلاد الأندلـــس إلى عهـــد المستنصـــر الحكـــم بـــن عبـــد الرحمـــن الأمـــوي ــ تـــولى مـــن عـــام 350هـــ (961م) إلى عـــام 366هــ(976م) ــ . وحـــدث ذلـــك بسبـــب وساطـــة قـــام بهـــا حليفهـــم؛ عامـــل الفاطمييـــن عـــلى المسيلـــة جعفـــر ابـــن عـــلي بـــن حمـــدون؛ بعـــد تمـــرده وهروبـــه إلى الأندلـــس؛ فاستـــأذن لهـــم مـــن الخليفـــة الأمـــوي في الانتقـــال إلى الأندلـــس؛ فـــأذن لهـــم مرحبـــا بمقدمهـــم؛

بغرض الاستعانة بهم في حروبه. ويبدو أن السبب الرئيس في ترحيب المستنصر بهم؛ هو ما عرف عنهم من عداوة وبغضاء يكنانهما للشيعة الفاطميين. وكما هو معروف؛ فهؤلاء الفاطميين هم أخطر المنافسين وأشدهم شراسة للدولة الأموية في تلك الأنحاء. ومنذ ذلك التاريخ أضحى البرزاليون جندا في خدمة الدولة الأموية. بل أصبحوا من أقرب المقربين إلى الخليفة؛ إذ كانت لهم حظوة خاصة، نظرا للثقة التي خصهم بها. ولما استبد المنصور ابن أبي عامر على الخليفة هشام؛ بالغ في تكريم البرزاليين مع الوافدين من أمراء القبائل الأمازيغية الأخرى؛ إذ قربهم إليه وخصهم بالإقطاعيات والقيادات.[1]

---

[1] **يقول ابن خلدون: ((ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على الخليفة هشام؛ وتوقع النكير من رجالات الدولة، وموالي الحكم؛ استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض عليهم الإحسان؛ فاعتز أمره واشتد أزره؛ حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه... فأضحوا له عصبة؛ وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن...؛ فولاه قرمونة وأعمالها؛ فلم يزل واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة؛ ووليها من بعده ابنه عبد الله)). العبر، مج: 7 ص: 112.**

وفي هذه الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[1] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون – بعدئذ – محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة

---

[1] ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان ابن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202 .203 . 206. 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 – 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 – 113.

من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[1] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول أخر؛ هو تثبيته والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ــ منذ تلك الفترة ــ قيام إمارتهم في كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: كـ: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي بن حمود على سبتة، والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ــ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

هـذا حـال بـني بـرزال يـوم ظهورهـم بالأندلـس. أمـا فيمـا يخـص أصولهـم؛ فالمصـادر تتفـق كلهـا عـلى أنهـم بطـن مـن بطـون بـني دمـر الزناتيين. وكانـت مواطنهـم الأولى في جبـل سـالات؛ بجهـات المسيلـة حاضـرة الـزاب آنئـذ. وكانـت أعدادهـم وافـرة، وسطوتهـم قاطعـة؛ ونفوذهـم واسعـا في تلـك الجهـات. كمـا كانـوا ــ كمـا يقـول ابـن خلـدون ــ نكاريـة مـن الخـوارج. ومـن أتبـاع أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد؛ حيـث ناصـروه وحمـوه حيـن ثـار عـلى الدولـة الفاطميـة. ولمـا ضاقـت بـه الحـال هـرب إليهـم في جبـل سـالات؛ فوفـروا لـه المـأوى والحمايـة بعـض الوقـت. ولكنهـم عـادوا إلى طاعـة الدولـة الفاطميـة عندمـا فشلـت مقاومتهـم، ويئسـوا مـن جـدوى المدافعـة؛ خاصـة بعـد مـوت أبـي يزيـد. ومنـذ ذلـك التاريـخ أضحـوا في خدمـة جعفـر بـن عـلي والي المسيلـة. ولمـا سـاءت علاقـة جعفـر بالدولـة الفاطميـة سنـة 360هـ(970م) انحـاز بنـو بـرزال إليـه وحالفـوه. لذلـك تكلـم في أمرهـم إلى الحكـم المستنصـر؛ فوافـق عـلى استدعائهـم إلى بـلاد الأندلـس؛ أيـن ألحقهـم بجنـده؛ مثلهـم مثـل بقيـة القبائـل الأمازيغيـة الـتي التحقـت بالدولـة الأمويـة.

وقد اشتهر من أمراء دولة بني برزال بالأندلس محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي.[1] ثم خلفه ـ في بعض الأقوال ـ ابنه إسحاق؛ الذي يقال أنه كان عظيم الشأن، عزيز الجانب، شديد الدهاء، حاد الذكاء.[2] أما تاريخ نشأة هذه الإمارة واستبداد أمرائها ـ بصفة نهائية ـ فيعود حسب جل المصادر إلى سنة 404هـ(1013م)؛ إذ تم ذلك بفضل العزيمة التي كان يتحلى بها كل فرد من

---

[1] وفيه أقوال كما سبق ذكره. أما ابن الخطيب فيقوا: ((وكان هذا الرئيس يلي باديس ـ من ملوك البرابرة ـ في جلالة الشأن، وقوة السلطان؛ بقية أمراء البرابر المسلطين في هذه الفتنة، وأعظم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جاشا على الخطوب المقلقة. وكان مشهورا بذخيرة عتيدة من صامت المال؛ لم يزل يجمعها؛ حائطا لها بالبخل الشديد، واستظهارا بها على الخطب العتيد... وتوفي رئيسهم [رئيس بني برزال] محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب، وخزين من الطعام؛ لم يجمعه أمير قبله في الفتنة. وصار أمره إلى ولده إسحاق)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 237.

[2] وهو كما يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان: ((ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه؛ وهو في حد الكهولة. كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية؛ يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئا من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة. وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهَبُ منه في فرط العصبية. وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد عن آفات الملوك الشائنة؛ مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب النكاريين من فرق الإباضية الخوارج؛ يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال؛ أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 237. وللتوسع أنظر أيضا البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 237 ـ 239. ودول الطوائف، ص ص: 146 ـ 149.

قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ـ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ـ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[1] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[2]

---

[1] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

[2] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور، والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ـ 238.

وثمة قول آخر يقولون فيه أنه تنازل عن قرمونة إلى ابن عباد نفسه.[1] ومن ذلك التاريخ المحدد بـ459 هـ(1066م)؛ انقرض ملك بني برزال من الأندلس. كما زال ذكرهم ـ كقبيلة ـ نهائيا في المغرب الأوسط. وبذلك يكون سقوط هذه الإمارة قد تم بفعل التطاحن بين القبائل، والطوائف المتكالبة على السلطان والملك في بلاد الأندلس. حيث ظل أمراء هذه الدولة في حروب وفتن؛ دارت بينهم وبين أبناء عمومتهم الأمازيغ وغيرهم؛ من المنافسين والطامعين؛ كـ: بني دمر في مورور، وبني عباد بإشبيلية؛ وبني حمود بمالقة، وبني الأفطس ببطليوس.

وجملة القول فقد جاءت نهاية الدولة البرزالية؛ كما تحل نهاية أي كيان اعتمد في حياته على المغامرات، والفتن، والمؤامرات. وهكذا انتهت بعد حروب ومعاناة وتقلبات. هذا وقد اندثرت تلك الإمارة دون أن تخلف وراءها أية مآثر حضارية تذكر؛ ولم تترك من التراث الثقافي ما يمكن نقله أو الحديث عنه. وعلى الرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية، والإنجازات الحضارية؛ فقد شحت تربتها من ثمرات الحضارة. لأنها لم تكن سوى إمارة قبلية؛ ذات طابع

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 113.**

عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق – هنا – إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة – في إيجاز – للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى مستوى الدولة ذات المؤسسات. وإن كانت تشكل شكلا من أشكال الإمارات ذات طابع القبلي حربي.

****

أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بد من الإشارة ــ في هذا المجال؛ ولو باقتضاب ــ إلى الكيانات الصفرية التي ترأسها بعض القادة الصفرية الثائرين؛ منهم: ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الهتوري الزناتي، وعكاشة بن أيوب الفزاري، وعبد الواحد بن يزيد الهوارى، وأبو قرة اليفرني، وعاصم بن جميل الورفجومي، وثابت بن وزيدون الصنهاجي، وعبد الملك بن سكرديد الصنهاجي؛ وغيرهم. ثم الحديث ــ أيضا ــ عن الكيانات الإباضية برئاسة: عبد الله بن مسعود التجيبي، والحارث بن تليد الحضرمي، وعبد الجبار بن قيس المرادي، وإسماعيل بن زياد النفوسي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، وأبي حاتم الملزوزي وآخرون. بالإضافة إلى الكيان الذي تزعمه أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ المنحرف عن المذهب الإباضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛ الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية ــ بعض الوقت ــ بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها ــ كما يبدو ــ لم تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا ــ بالضرورة ــ من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد

سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ــ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: **((من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد))**[2] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ــ يزيد بن عبد الملك ــ بُدّا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[3]

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر، مج: 4، ص: 403.

[2] قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ــ واليا عليها ــ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ أسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ــ أعني حرسه ــ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: "جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ــ لصلاة الصبح ــ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ــ 100.

[3] قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ــ فيما ذكر ــ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم إلى قراهم

ونتيجة لذلك استقام الحال – بعض الوقت – وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت – بعد ذاك – ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم الأمويين – نهائيا – في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب – الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) – حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان

ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تآمروا في أمره؛ فأجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على إفريقية")). تاريخ الأمم والملوك، ج: 8، ص: 167.

المغـرب مـن شحنـات مدمـرة.[1] ويبـدو أن الأوضـاع العامـة كانـت جاهـزة للانفجـار؛ ولـم يبـق سـوى الشـرارة الـتي ستشعـل الفتيـل.[2]

ونتيجـة لهـذا فقـد دخلـت بـلاد المغـرب عهـدا جديـدا قاتمـا؛ سـادت فيـه الثـورات، الـتي تسببـت في تقلـص نفـوذ الخلافـة الأمويـة، وتراجعـه. وأصبحـت البـلاد ـ منـذ ذلـك التاريـخ ـ مقسمـة بيـن القبائـل الأمازيغيـة المختلفـة؛ الـتي استطاعـت ـ في ظـل الوضـع المتـردي ـ الخـروج عـن نفـوذ الدولـة الأم؛

---

[1] **وفيـه يقـول ابـن عـذاري: ((ثـم إن عمـر بـن عبـد اللـه المـرادي ـ عامـل طنجـة ومـا والاهـا ـ أسـاء السيـرة، وتعـدى في الصدقـات والعشـر؛ وأراد تخميـس البربـر. وزعـم أنهـم فيء المسلميـن؛ وذلـك مـا لـم يرتكبـه عامـل قبلـه؛ وإنمـا كـان الـولاة يخمسـون مـن لـم يجـب للإسـلام. فكـان فعلـه الذميـم هـذا سببـا لنقـض البـلاد، ووقـوع الفتـن العظيمـة المؤديـة إلى كثيـر القتـل في العبـاد. نعـوذ باللـه مـن الظلـم؛ الـذي هـو وبـال عـلى أهلـه)). البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 51 ـ 52. أنظـر عـن هـذا ـ أيضـا ـــ تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 100. والكامـل لابـن الأثيـر، ج: 4، ص: 222. والعبـر، مج: 4، ص: 405.**

[2] **وقـد أشـار ابـن خلـدون إلى بعـض الأسبـاب الـتي شحنـت النفـوس، وأغضبـت النـاس مـن ولاة الدولـة الأمويـة؛ إذ قـال: ((ولمـا ولي عبيـد اللـه بـن الحبحـاب عـلى إفريقيـة؛ مـن قبـل هشـام بـن عبـد الملـك... استعمـل عمـر بـن عبـد اللـه المـرادي عـلى طنجـة والمغـرب الأقـصى، وابنـه إسماعيـل عـلى السـوس ومـا وراءه. واتصـل أمـر ولايتهـم، وسـاءت سيرتهـم في البربـر، ونقمـوا عليهـم أحوالهـم، ومـا كانـوا يطالبونهـم بـه مـن الوصائـف البربريـات، والأفريـة العسليـة الألـوان، وأنـواع طُـرف المغـرب؛ فكانـوا يتغالـون في جمعهـم ذلـك وانتحالـه. حـتى كانـت الصرمـة مـن الغنـم تستهلـك في الذبـح؛ لاتخـاذ الجلـود العسليـة مـن سخالهـا؛ ولا يوجـد فيهـا مـع ذلـك إلا الواحـد ومـا قـرب منـه. فكثـر عيثهـم بذلـك في أمـوال البربـر وجورهـم عليهـم)). العبـر، مج: 6، ص ص: 239 ـ 240.**

وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته ــ مجازا ــ إمارة مثل:

ــ **إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري**: يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر ابن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة ــ بعد

---

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير، وتكلف لهم ــ أو كلفوه ــ أكثر مما كان. فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

ذلــك ــ إلى أماكــن أخــرى في بــلاد المغــرب. وكانــت الفكــرة السائــدة الــتي فجــرت هــذه الثــورة مستمــدة مــن عقيــدة خارجيــة، وصفريــة بالــذات كمــا يقــال.

وانتصــب ميســرة المطغــري الصفــري قائــدا للقبائــل الأمازيغيــة الثائــرة؛ بــل يقــال أنــه بويــع بالخلافــة؛ ولكــن أنصــاره انتفضــوا عليــه، ثــم قتلــوه بعــد فتــرة قصيــرة؛ ربمــا حــدث لــه ذلــك العــزل، ثــم القتــل؛ بسبــب خروجــه عــن الضوابــط المتفــق عليهــا في تسيير شئونهــم؛ أو لعجــزه وضعــف كفاءتــه الحربيــة؛ خاصــة وأن انسحابــه أمــام جيــش القيــروان بالقــرب مــن طنجــة؛ دون سبــب مقنــع؛ قــد يجيــز مــا تعــرض لــه مــن عــزل. أمــا مــا تذكــره المصــادر التاريخيــة ــ دون تفسيــر أيضــا ــ عــن قتــل الصفريــة لميســرة؛ فربمــا حــدث ذلــك بسبــب رفضــه تــرك منصــب القيــادة. ويبــدو أن ضعــف موقفــه ــ أيضــا ــ جــاء مــن كــون قبيلتــه مطغــرة؛ لــم تكــن تمثــل القــوة الرئيسيــة الضاربــة في ذلــك الحلــف القبــلي الصفــري. وهــذا يتفــق مــع نظريــة ابــن خلــدون الــتي فسرهــا ضمــن: "**فصــل في أن الرياســة لا تــزال في نصابهــا المخصــوص مــن أهــل العصبيــة**".[1]

---

[1] **ويقــول فيهــا: ((أعلــم أن كــل حي أو بطــن مــن القبائــل ــ وإن كانــوا عصابــة واحــدة لنسبهــم العــام لهــم ــ ففيهــم أيضــا عصبيــات أخــرى لأنســاب خاصــة هي أشــد التحامــا مــن النســب العــام لهــم... والرياســة فيهــم إنمــا تكــون في نصــاب واحــد منهــم؛ ولا تكــون في الكــل. ولمــا كانــت الرياســة إنمــا بالغلــب؛ وجــب أن تكــون عصبيــة ذلــك النصــاب أقــوى مــن سائــر العصائــب؛ ليقــع الغلــب بهــا وتتــم**

ـ إمارة خالد بن حميد الهتوري الزناتي الصفري: وبعد أن قتل ثوار الصفرية قائدهم ميسرة المطغري في سنة 122هـ(739م)؛ أسندوا قيادتهم إلى خالد بن حميد الزناتي؛ الذي ينتمي إلى بطن من زناتة يسمى هتورة. فتولى أمرهم بجدارة واقتدار؛ إذ قادهم في معارك ضد الأمويين؛ برهن فيها على قدرات عسكرية كبيرة. افتتح انتصاراته بالهزيمة التي ألحقها بجيش الأمويين في الموقعة المسماة غزوة الأشراف.[1] وكانت تلك الهزيمة ضربة شديدة المفعول؛ بحيث هزت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأغضبته إلى أبعد الحدود؛ فلم يتمالك نفسه حين قال بعصبية عربية واضحة: **((والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشا**

الرياسة لأهلها... ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه؛ لما قلناه من سر الغلب؛ لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.

[1] قال ابن الأثير في ذلك: ((ثم التقى خالد بن حميد [الزناتي] ـ ومعه البربر ـ خالد بن حبيب [الفهري] ـ ومعه العرب وعسكر هشام ـ وكان بينهم قتال شديد صبرت فيه العرب؛ وظهر عليهم كمين من البربر؛ فانهزموا؛ وكره خالد بن حبيب [الفهري] أن ينهزم من البربر؛ فصبروا معه؛ فقتلوا جميعهم؛ وقتل في هذه الوقعة حماة العرب وفرسانها؛ فسميت وقعة الأشراف؛ فانتقضت البلاد، ومرج أمر الناس؛ وبلغ أهل الأندلس الخبر؛ فثاروا بأميرهم عقبة بن الحجاج؛ فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن؛ فاختلطت الأمور على ابن الحبحاب)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب للقيرواني، ص ص: 100 ــ 101.

أولـــه عندهـــم وآخـــره عنـــدي. ثـــم لا تركـــت حصـــنَ بربـــري إلا جعلـــت إلى جانبـــه خيمـــة قيـــسي أو تميـــمي)).[1]

وهكـــذا لا تخلـــو قولتـــه هـــذه ــ طبعـــا مـــن عاطفـــة ونزعـــة مفعمـــة برواســـب العصبيـــة العربيـــة المعهـــودة في بـــني أميـــة:

وكانـــت معركـــة الأشـــراف إشـــارة خطيـــرة لبـــني أميـــة؛ كـــان مـــن المفـــروض تداركهـــا بعـــلاج سليـــم يسمـــح بـــلأم الجـــراح وشفـــاء النفـــوس العليلـــة؛ ولكـــن غضـــب الخليفـــة لـــم يتـــرك لـــه مجـــالا لإصـــلاح مـــا فســـد. وعليـــه فيمكـــن اعتبـــار ردود أفعـــال الخليفـــة هشـــام بمثابـــة الخطـــوة الخطيـــرة؛ الـــتي أدت إلى خـــروج مناطـــق كثيـــرة مـــن بـــلاد المغـــرب ــ الأقـــصى والأوســـط ــ عـــن النفـــوذ الأمـــوي نهائيـــا. هـــذا بالإضافـــة إلى مـــا حـــدث مـــن عصيـــان في بـــلاد الأندلـــس. تلـــك الديـــار الـــتي ثـــار بهـــا ــ أيضـــا ــ جمـــع مـــن الأمازيـــغ ومـــن العـــرب كذلـــك؛ أولئـــك العـــرب الذيـــن كانـــت تتقاذفهـــم الصراعـــات القبليـــة؛ بيـــن يمنيـــة وقيسيـــة. الأمـــر الـــذي حـــال دون أن تتمكـــن أي عصبيـــة مـــن التغلـــب عـــلى العصبيـــات والقبائـــل الأخـــرى المنتشـــرة في ربـــوع الأندلـــس الواسعـــة.

---

[1] تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 111. والكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 223. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 54.

وهــذا يؤكــد مــا فســره ابــن خلــدون في الفقــرات السابقــة؛ الــتي تتكلــم عــن ضــرورة تغلــب أحــد العناصــر عــلى بقيــة العناصــر لــكي يتحقــق المــزاج في المتكــون.[1]

وحــتى الجيــش الــذي بعــث بــه الخليفــة الأمــوي هشــام بــن عبــد الملــك ــ بقيــادة كلثــوم بــن عيــاض القشيــري ــ سنــة 123هــ (740م)؛ بهــدف تأديــب الأمازيــغ؛ أضــحى ــ في حــد ذاتــه ــ عامــل فرقــة لصفــوف العــرب؛ أكثــر مــن أن يكــون عامــل وحــدة والتحــام. إذ بمجــرد وصــول طليعــة ذلــك الجيــش العــربي ــ الــتي كــان عــلى رأسهــا بلــج بــن بشــر القشيــري (ابــن عــم الوالي الجديــد كلثــوم بــن عيــاض القشيــري) ــ إلى القيــروان؛ حــتى انقســم النــاس بيــن عــرب استوطنــوا القيــروان مــن قبــل؛ وعــرب وفــدوا إليهــا حديثــا. فهــا هــو بلــج بــن بشــر يستفــز النــاس بعنجهيتــه، وبعصبيتــه القيسيــة الحمقــاء؛ حيــن أراد ــ بكــل صفاقــة وغــرور ــ إنــزال عساكــره في منــازل أهــل المدينــة. حيــث تفــوه بكــلام أغضبهــم ــ كمــا جــاء في المصــادر ــ فبعثــوا شكواهــم إلى حبيــب بــن أبي عبيــدة بــن عقبــة بــن نافــع الفهــري؛ الــذي كــان مرابطــا في مواجهــة الأمازيــغ بتلمســان. فكتــب إلى كلثــوم بــن عيــاض يقــول لــه: ((**إن ابــن عمــك السفيــه قــال كــذا وكــذا. فارحــل بعسكــرك عنهــم؛ وإلا حولنــا**

[1] أنظــر المقدمــة، ج: 2، ص ص: 598 ــ 599.

أعنـــة الخيـــل إليـــك)).[1] فســـارع كلثـــوم بـــن عيـــاض إلى الاعتـــذار لحبيـــب؛ وضـــرب لـــه موعـــدا في شلـــف. غيـــر أن كلثـــوم بـــن عيـــاض تمـــادى في سلوكـــه الخـــاطئ؛ إذ أن سكوتـــه عـــن حماقـــة بلـــج؛ شجعـــه عـــلى معـــاودة تهـــوره؛ حيـــن اشتبـــك ــ أيضـــا ــ مـــع حبيـــب عنـــد التقائهمـــا بشلـــف.[2] هـــذه هي العصبيـــة عندمـــا تصبـــح قاتلـــة ومدمـــرة. إذ انتـــهى الحـــال بالعـــرب إلى هزيمـــة أفظـــع مـــن الأولى؛ حيـــث كـــان الخـــلاف بينهـــم شديـــدا، والشنـــآن يقســـم صفوفهـــم؛ فـــلا يتفقـــون عـــل خطـــة، ولا يجتمعـــون عـــلى رأي سليـــم.[3]

---

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 54. أنظـــر أيضـــا الكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 123. والعبـــر، مج: 4، ص: 406.**

[2] **وقـــد أورد ابـــن عـــذاري نصـــا مهمـــا يشـــرح مـــا دار بيـــن الطرفيـــن. وهـــذا النـــص التاريـــخي يفســـر الحـــال المزريـــة؛ الـــتي أضـــحى عليهـــا العـــرب في ديـــار المغـــرب. فممـــا قالـــه: ((فاستخلـــف كلثـــوم عـــلى القيـــروان عبـــد الرحمـــن بـــن عقبـــة الغفـــاري؛ وســـار حـــتى وصـــل عسكـــر حبيـــب فرفضـــه، واستهـــان بـــه؛ وســـب بلـــج بـــن بشـــر لحبيـــب وتنقصـــه؛ وقـــال: "هـــذا الـــذي يحـــول أعنـــة الخيـــل إلينـــا"؛ فقـــام إليـــه عبـــد الرحمـــن بـــن حبيـــب؛ وقـــال: "يـــا بلـــج! هـــذا حبيـــب! فـــإذا شئـــت؛ فأعـــرض لـــه للمقابلـــة!" وصـــاح النـــاس: "الســـلاح! الســـلاح!" فمـــال أهـــل إفريقيـــة إلى ناحيـــة، ومعهـــم أهـــل مصـــر. ثـــم ســـعى بينهـــم في الصلـــح. فكـــان هـــذا الاختـــلاف سبـــب هلاكهـــم؛ مـــع ســـوء رأي كلثـــوم وبلـــج)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 54 ــ 55. أنظـــر أيضـــا تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 113.**

[3] **شـــرح ابـــن الأثيـــر مـــا جـــرى بقولـــه: ((وتقـــدم إليهـــم البربـــر مـــن طنجـــة؛ فقـــال لهـــم حبيـــب: "اجعلـــوا الرجالـــة للرجالـــة، والخيالـــة للخيالـــة؛ فلـــم يقبلـــوا منـــه؛ وتقـــدم كلثـــوم بالخيـــل؛ فقاتلـــه رجالـــة البربـــر فهزمـــوه؛ فعـــاد كلثـــوم منهزمـــا؛ ووهـــن النـــاس ذلـــك؛ ونشـــب القتـــال، وانكشفـــت خيالـــة البربـــر، وثبتـــت رجالتهـــا؛ واشتـــد القتـــال، وكثـــر البربـــر عليهـــم؛ فقتـــل كلثـــوم بـــن عيـــاض، وحبيـــب بـــن أبي عبيـــدة،**

وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج ابن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ــ بعد ذاك ــ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ــ في الشام ثم بغداد بعدئذ ــ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ــ منذئذ ــ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ــ من صفرية وإباضية ــ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة

ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر، وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

الأخيرة؛ التي لحقت بالجيش العربي؛ وانكشف للناس ما أضحى عليه العرب من ضعف وتفكك بسبب العصبية الهوجاء. كما ظهرت لهم عيوب الوالي الجديد كلثوم بن عياض؛ الذي لا رأي له ولا حكمة. وعليه فقد وجدوا أنفسهم ــ فجأة ــ بدون قائد عام؛ ينسق بين القيادات، ويرعى شئون العامة.

ــ إمارة عكاشة بن أيوب الفزاري الصفري:

ينتسب هذا الثائر الصفري إلى قبيلة عربية[1] ــ كما يظهر من اسمه ــ وهي قبيلة فزارة العدنانية القيسية. وكان في البداية أحد القادة الفرسان في جيش عبيد الله بن الحبحاب؛ إذ قدم معه إلى المغرب؛ ضمن جند الشام.[2] ولكنه انضم ــ رفقة أخيه ــ إلى الصفرية، ولا يعرف حتى الآن متى اعتنق مذهبهم؛ هل حدث ذلك بعد وصوله إلى إفريقية؛ أم جاء من المشرق بقناعاته الخارجية. المهم أنه أصبح بسهولة ــ في ظروف غامضة ــ قائدا وزعيما لفئة من الثوار الأمازيغ الصفرية. ومع هذا يبدو أنه كان أضعف من بقية الثوار الأمازيغ.

---

[1] أخطأ كثير من المؤرخين المحدثين حين نسبوه إلى زناتة؛ نظرا لقيادته لجماعة من زناتة.

[2] أنظر تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص: **114**.

وربما رجع السبب إلى ما تفرضه سنن العصبية؛ التي لا يستهويها سوى الانتساب المطلق إليها؛[1] ولما كان عكاشة من المنتسبين إلى العرب فقد قل أنصاره، وضعفت شوكته. غير أن عاملي: الدين والمذهب ساعداه ـ شيئا ما ـ في جمع بعض الفئات الزناتية الساخطة على الحكم الأموي. ومع ذلك لا يكفي العامل الديني والمذهبي وحده؛ إذ لا بد من توفر شرط العصبية؛ كما قال ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[2] المهم أنه انطلق بثورته في جهات قابس؛ منتهزا فرصة خروج كلثوم بن عياض بالجند إلى طنجة. وكان كلثوم قد استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وعقد لمسلمة بن سوادة القرشي لواء الحرب فيها. فبدأ عكاشة حركته بإرسال أخيه إلى (صبرة) قصد تعبئة عشائر زناتة ـ في تلك الجهات ـ والعمل على التغلب عليها.

---

[1] يقول ابن خلدون ضمن: "فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم" ((والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب؛ إنما هو ملصق لزيق؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم ألبته)). المقدمة، ج: 2، ص: 599.

[2] أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـ 642.

وبالفعل تمكن أخو عكاشة من جمع أعداد كبيرة من الزناتيين؛ الذين حاصر (**صبرة**) بهم؛ إلا أن عامل طرابلس صفوان بن مالك تفطن للخطر المداهم؛ فسارع إلى الخروج إليه؛ أين تمكن من التغلب عليه؛ وأجبره على الانهزام إلى حيث أخيه في جهات قابس. وكرد فعل غير مدروس خرج مسلمة بن سوادة في جيش من القيروان؛ قصد تأديب عكاشة الفزاري في قابس؛ ولما التقى الجمعان حلت الهزيمة بمسلمة بن سوادة؛ حيث قتل من أتباعه عدد كبير؛ فعاد إلى القيروان منهزما؛ وهناك عزله عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وكلف بدلا منه سعيد بن بجرة الغساني؛ فاختاروا التحصن خلف أسوار القيروان خوفا من عكاشة.[1]

وبقيت الحال – بين عكاشة وعمال الدولة الأموية في القيروان وطرابلس – متشنجة ومضطربة؛ اضطر فيها عكاشة إلى شن حرب عصابات عليهم – انتصر فيها حينا وانهزم حينا آخر – ومن نتائجها قتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ الذي وجهه لقتال عكاشة والي إفريقية الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي؛ الذي قدم إليها في سنة 124هـ(741م).[2]

---

[1] **فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـــ 295.**

[2] **نفسه، ص: 298.**

وكان حنظلة بن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر ــ في الأفق ــ قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد ابن يزيد الهواري ــ سيأتي الحديث عنه لاحقا ــ حيث اتفق معه عكاشة على التعاون والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه.

---

[1] قال في هذا ابن عبد الحكم: ((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد؛ فأخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة، ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 ــ 299.

وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد ــ حنظلة بن صفوان ــ في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فرّ؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[1] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

---

[1] اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والكامل، ج: 4، ص: 223.

ـ إمارة عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري:
كان ظهوره الأول في شرق طرابلس؛ حيث استنجد به عكاشة؛ في قتاله ضد عبد الرحمن بن عقبة. ولما انتصرا في الموقعة التي قتل فيها عبد الرحمن؛ اتفق الاثنان على الذهاب إلى المغرب الأوسط؛ لكي يبحثا عن أنصار جدد، ويحرضا الصفرية فيه على احتلال مركز الولاية الأموية بالقيروان. وبالفعل تمكن الاثنان من جمع أعداد كبيرة من المتحمسين للقضاء على الحكم الأموي وإزالته من ديار المغرب. وقبل انطلاق المتحالفين من منطلقهم في ناحية من نواحي الزاب؛ وضعوا خطة محكمة؛ ربما كانت كفيلة بنجاح مسعاهم ـ لو طبقت بدقة ـ إذ تقتضي الخطة أن يزحف جيشان إلى القيروان: الأول بقيادة عكاشة؛ من جهة الجنوب؛ والثاني بقيادة عبد الواحد؛ من الشمال؛ على أن يلتقيا في وقت واحد حول القيروان؛ وبذلك يكونان كماشة تنقض على عدوهما؛ فيعجز عن المقاومة ويسقط فريسة بين أيديهم.

وبالفعل انطلق عكاشة عبر السهول الممتدة جنوب الأوراس؛ في اتجاه تبسة وباجة ثم القيروان. أما عبد الواحد فقد زحف من الشمال؛ عبر المناطق الجبلية[1] الصعبة؛ التي كانت كفيلة بتعطيل حركته؛ كما أنه ـ بسعيه لجمع متطوعين جدد

[1] **تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 58.**

من القبائل الأمازيغية ـ زاد في ثقل حركته وبطء سيره. ولكنه استفاد إذ حقق نجاحات معتبرة؛ عندما التحق به عدد كبير من أبناء تلك القبائل. وقد ـ تمكن في خط سيره ـ من احتلال مدينة باجة؛ أين اشتبك ـ هناك ـ مع جيش القيروان مرات عديدة؛ حالف النصر فيها عبد الواحد. وبعدها انتقل عبد الواحد إلى تونس فدخلها منتصرا. وفي الأخير زحف إلى القيروان؛ حيث وصله خبر هزيمة حليفه عكاشة؛ بعد أن خالف الخطة المتفق عليها؛ إذ انتهز فرصة تعطل عبد الواحد؛ فسولت له نفسه الانفراد باحتلال القيروان؛ الأمر الذي سيساعده على التفوق عليه؛ وبذلك يمكنه تعديل الكفة؛ التي مالت إلى صالح حليفه ومنافسه عبد الواحد؛ بحكم امتلاكه لعامل العصبية الأمازيغية؛ تلك العصبية التي يفتقر إليها عكاشة.

وبعد سماع عبد الواحد بهزيمة عكاشة، والتأكد من مقتله؛ اضطر إلى خوض المعركة بجيشه منفردا. وبالفعل حدثت المعركة الكبرى الفاصلة؛ في موضع يبعد عن القيروان بثلاثة أميال تقريبا؛ يسمى (الأصنام). وكانت معركة مهولة؛ حالف النصر فيها حنظلة بن صفوان؛ حيث تمكن جيشه من قتل آلاف من الصفرية؛ بما فيهم عبد الواحد بن يزيد نفسه؛ وذلك في سنة 125هـ(742م).

هــذا وتجــدر الإشــارة أن أهــل القيــروان تمكنــوا مــن النصــر؛ بفضــل شعورهــم بوحــدة المصيــر، وبفضــل المجهــودات الــتي بذلهــا علمــاء المدينــة؛ حيــث كثفــوا نشاطهــم في الدعــوة إلى القتــال، وحــث النــاس عــلى المقاومــة، إذ حذروهــم مــن مغبــة الفرقــة أو التهــاون والخــذلان؛ كمــا ذكروهــم بمــا قــد يلحــق بهــم وبنسائهــم مــن طــرف الصفريــة؛ الذيــن يستحلــون ســبي المسلمــات، ويجيــزون استعبــاد الأبنــاء؛ كمــا يبيحــون سفــك دمــاء المسلميــن مــن أطفــال وشيــوخ. وبالفعــل حققــت دعوتهــم نجاحــات كبيــرة؛ إذ حميــت همــم النــاس؛ فكســروا أجفــان سيوفهــم؛ وخرجــوا للقتــال ومعهــم نساؤهــم يحرضــنهــم ويشحــذن هممهــم. ونتيجــة لتلــك العوامــل النفسيــة؛ تمكنــوا[1] مــن التغلــب عــلى الصفريــة؛ وفتكــوا بهــم فتكــا عظيمــا؛ عــلى الرغــم مــن قلــة عددهــم؛ وكثــرة أعــداد أعدائهــم.

ــ إمــارة ثابــت بــن وازيــدون الصنهــاجي الصفــري: لا يعــرف عــن هــذا الرجــل مــا يمكــن بــه تكويــن فكــرة واضحــة عنــه؛ إذ يكتنــف أخبــاره غمــوض كثيــف؛ ويبــدو أنــه كــان مــن أتبــاع عبــد الواحــد بــن يزيــد الهــواري الصفــري؛ ولــم تذكــر المصــادر التاريخيــة عنــه ســوى خبــر ثورتــه في باجــة، وتغلبــه عليهــا سنــة 130هــ(747م)؛ في أيــام عبــد الرحمــن بــن حبيــب

[1] **تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 119 ــ 122.**

الفهـري ــ الـذي عـزل حنظلـة وافتـك منـه القيـروان ــ وبعدهـا صمتـت المصـادر ــ نهائيـا ــ عـن الحديـث في شـأن ثابـت الصنهـاجي هـذا؛ ولـم تشـر إن كـان قـد فـر حيـا أم قتـل.

ــ إمـارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهـاصي الصفـري: لقـد تـرك هـذا الرجـل ــ وأخـوه المدعـو مكـرم ــ أثـرا سيئـا في تاريـخ إفريقيـة والمغـرب؛ نتيجـة للفظائـع وللوحشيـة الـتي ارتكبهـا هـو وأتباعـه مـن صفريـة ورفجومـة في القيـروان سنـة 138هـ(755م). ويقـول فيـه ابـن الأثيـر: ((**وكـان مقـدم ورفجومـة رجـلا اسمـه عاصـم بـن جميـل؛ وكـان قـد ادعى النبـوة والكهانـة؛ فبـدل الديـن، وزاد الصـلاة، وأسقـط ذكـر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلـم مـن الأذان... ودخـل عاصـم ومـن معـه القيـروان. فاستحلـت ورفجومـة المحرمـات؛ وسبـوا النسـاء والصبيـان؛ وربطـوا دوابهـم في الجامـع وأفسـدوا فيـه**)).[1] وذكـر ابـن خلـدون؛ اسـم رجـل آخـر كـان بيـن المرافقيـن لعاصـم بـن جميـل ــ في

---

[1] **الكامـل في التاريـخ، ج: 4، ص: 280. أمـا القيـرواني فيقـول: ((ودخلـت ورفجومـة القيـروان؛ فاستحلـوا المحـارم، وارتكبـوا العظائـم؛ نـزل عاصـم ــ بعسكـره ــ في الموضـع الـذي يسـمى (مصـلى روح) واستخلـف عـلى القيـروان عبـد الملـك بـن أبي الجعـد النفـزي... ولمـا حكمـت ورفجومـة عـلى القيـروان؛ قتلـوا مـن كـان بهـا مـن قريـش، وسامـوهـم العـذاب؛ وربطـوا دوابهـم في المسجـد الجامـع)). تاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 141.**

زحفـه إلى القيـروان. وقـال أنـه: يزيـد بـن سكـوم الولهـاصي.

ـ أميـر ولهاصـة يزيـد بن سكـوم الولهـاصي النفـزاوي.
ولا يوجـد مـا يفيـد عـن هـذا الرجـل؛ سـوى مـا ذكـره ابـن خلـدون؛ إذ قـال أنـه كـان يرافـق رئيـس ورفجومـة عاصـم بـن جميـل؛ حيـن غـزا القيـروان سنـة 138هـ.

ـ إمـارة عبـد الملـك بـن أبي الجعـد النفـزي الصفـري:
قـدم هـذا الرجـل مـع عاصـم بـن جميـل إلى القيـروان أيضـا في سنـة 138هـ؛ حيـث ولاه عليهـا؛ عنـد خروجـه لمطـاردة أعدائـه. ولمـا قتـل عاصـم أصبـح أمـر ورفجومـة بيـن يـدي عبـد الملـك بـن أبي الجعـد؛ فحكـم القيـروان بيـد مـن نـار وحديـد؛ وسـار عـلى نهـج عاصـم في العيـث والفسـاد وارتكـاب المحرمـات. وكانـت نهايتـه بواسطـة أبي الخطـاب عبـد الأعـلى الإبـاضي؛ الـذي استـاء ممـا سمعـه عـن عيـث ورفجومـة؛ ومـا قامـت بـه مـن فسـاد في القيـروان؛ فزحـف إليهـا، حيـث تغلـب عـلى القيـروان، وأخـرج ورفجومـة منهـا؛ بعـد أن قتـل عبـد الملـك بـن الجعـد، وفتـك بأتباعـه؛ مـن تلـك الفئـة الباغيـة سنـة 140هـ(757م).

ـ إمـــارة عبـــد الملـــك بن سكرديـــد الصنهـــاجي الصفـــري:
هكـــذا سمـــاه ابـــن عـــذاري؛ ولا يعـــرف عـــن هـــذا القائـــد الصفـــري؛ ســـوى أنـــه كـــان يقـــود ألفيـــن مـــن الصفريـــة؛ خـــلال حصارهـــم ـ ضمـــن الحلـــف الصفـــري الإبـــاضي ـ لعمـــر بـــن حفـــص بـــن قبيصـــة والي إفريقيـــة؛ بمدينـــة طبنـــة حاضـــرة الـــزاب في سنـــة 153هـ(770م). غيـــر أن ابـــن خلـــدون سمـــاه عبـــد اللـــه بـــن سكرديـــد؛ وقـــال أنـــه أحـــد أمـــراء الصفريـــة الصنهاجييـــن؛ ومـــن أتبـــاع ثابـــت ابـــن وازيـــدون الصنهـــاجي المذكـــور آنفـــا.

ـ إمـــارة أبي قـــرة بـــن دونـــاس اليفـــرني الصفـــري:
ينسبـــه بعضهـــم إلى مغيلـــة؛ غيـــر أن المحققيـــن مـــن المؤرخيـــن ينسبونـــه إلى بـــني يفـــرن.[1] وكـــان أول ظهـــور لهـــذا الرجـــل ـ في مســـرح الأحـــداث بشكـــل واضـــح ـ أثنـــاء زحـــف عبـــد الواحـــد بـــن يزيـــد الهـــوري إلى القيـــروان؛ حيـــث ذكـــرت الأخبـــار أن عبـــد الواحـــد جعلـــه عـــلى رأس مقدمـــة جيشـــه.[2] وإن كـــان ـ في الحقيقـــة ـ مـــن بيـــن زعمـــاء الصفريـــة؛ المتحالفيـــن في السابـــق مـــع ميســـرة المطغـــري؛ إلا أنـــه لـــم يلفـــت نظـــر المؤرخيـــن.

---

[1] **العبـــر، مج: 7، ص: 24.**

[2] **فتـــوح مصـــر والمغـــرب، ص: 299. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 58.**

ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري ـ مع عكاشة ـ إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب ـ مرة أخرى ـ دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد ـ عند ذلك ـ عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة ـ أو الخلافة ـ من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس – بجيشه المقدر بأربعين ألفا – مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص بن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص – بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي – مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه – أبي قرة – بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[2]

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143. والعبر، مج: 6، ص: 226. ومج: 7، ص: 25. ثم الكامل في التاريخ، م: 5، ص: 32. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

[2] إذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين – بالطبيعة الإنسانية – يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سؤدد وصاحبه متبوع؛ وليس له

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ـ أيضا ـ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ـ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ـ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[1] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة بشيء؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[2] ـ ثم نقلها عنه ابن عذاري ـ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما

عليهم قهر في أحكامه؛ ،وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة، ج: 2، ص 609.

[1] إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فأرسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"تصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 143.

[2] حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عادٍ [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ <u>ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ـ قبل ذلك ـ بالخلافة أربعين يوما.</u> [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه]])). تاريخ الأمم والملوك، ج: 9، ص: 284.

حدث في حصار طبنة؛ وما يمكن أن يكون حصل في القيروان. لأن أبا قرة ـ كما يبدو ـ قد اضطرته الظروف للعودة إلى نواحي تلمسان؛ بعد حصار طبنة.

ـ إمارة جرير بن مسعود المديوني الصفري:[1]

كان ظهوره الأول في سنة 153هـ(770م)؛ أثناء الحصار المضروب على عمر بن حفص بطبنة. ولما انفضت الجيوش المحاصرة لطبنة؛ انضم إلى صفوف أبي حاتم الملزوزي؛ في حربه ضد والي إفريقية بالقيروان. وعلى هذا ظهر من جديد في أيام أبي حاتم الملزوزي الإباضي؛ حيث استعان به هذا الأخير في مطاردة بعض القادة الثائرين ضد الإباضيين المتغلبين على القيروان؛ منهم: عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي. وكان أولئك الهاربون قد التحقوا بجيجل؛ حيث احتموا ببعض العشائر من كتامة. فانتصروا لهم؛ وتصدوا لجرير ابن مسعود الصفري؛ فهزموه وقتلوه في سنة 154هـ(770م).

---

[1] سماه الرقيق القيرواني: حريز بن مسعود المديوني. تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 148. أما ابن الأثير فسماه: مسعود الزناتي الإباضي. الكامل في التاريخ، ج" 5، ص: 32. أما ابن خلدون فسماه جرير بن مسعود؛ العبر، مج: 6، ص: 226. وفي موضع آخر قال: ((وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود؛ كان أميرا عليهم؛ وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 256.

ـ إمارة أبو زرجونة الورفجومي الصفري:
ظهر في عهد والي إفرقية يزيد بن حاتم بن المهلب؛ حيث ثار مع عشيرته ورفجومة ضد السلطة المركزية؛ فأرسل إليهم يزيد بن حاتم ـ والي إفريقية ـ قوة بقيادة ابن مجزأ المهلبي؛ ففشل في مواجهتهم؛ وقتل في المعركة عدد من جند القيروان. فعاود يزيد بن المهلب ـ في سنة 156هـ(772م) ـ إرسال قوة أخرى؛ على رأسها ولده المهلب، ويزيد بن العلاء بن سعيد بن مروان المهلبي؛ فتغلب على ورفجومة واجتثهم، وطارد مقاتليهم في كل جهة.[1] هذا ولم يعرف مصير أبي زرجونة الورفجومي بعد هذه الموقعة.

ـ إمارة عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري:
ظهر هذا الرجل في جبال ويلان بعمالة فاس؛ في العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة. وبذلك تكون الصفرية قد حولت ثوراتها وحروبها من إفريقية والقيروان؛ إلى ديار المغرب الأقصى؛ حيث توجد الدولة الإدريسية. ولم تأت المصادر بما يفيد عن هذا الثائر شيئا كافيا؛ أكثر من اسمه المقتضب، ومنطلق ثورته. حيث اكتفت معظم المصادر بالقول عنها: أنها انطلقت من جبل

[1] **تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ـــ 162.**

مديونة.[1] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه ـ ولو باحتشام ـ هو على بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري ـ الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء ـ ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياثة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ـ بنواحي مديونة ـ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ـ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ـ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة

---

[1] أنظر المغرب، ص: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص:47 ـ 48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 ـ 209. والعبر، مج: 4، ص: 30.

الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ ــ بعد ذلك ــ انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 212.

استطاعـوا ـ باعتدالهـم وثباتهـم ـ استقطـاب عـدد كبيـر مـن الأتبـاع والأنصـار؛ المنتميـن إلى مختلـف القبائـل في تلـك الجهـات. الأمـر الـذي ساعدهـم علـى تحقيـق شـروط الاستمـرار والـدوام؛ بفضـل بساطـة مذهبهـم الديـني والسيـاسي، وبفضـل مـا يدعـوا إليـه مـن مسـاواة بيـن النـاس كافـة؛ سـواء كانـوا مـن العـرب أو مـن الأمازيـغ أو أجنـاس أخـرى. وعليـه فقـد أضحـت المناطـق الجنوبيـة مـن إفريقيـة والمغـرب الأوسـط؛ مناطـق نفـوذ للإباضييـن؛ حيـث خضعـت ـ فيمـا بعـد ـ لنفـوذ الدولـة الإباضيـة الـتي قامـت بتيهـرت؛ نتيجـة لثـورات الإباضييـن المتتاليـة. وقـد تحقـق ذلـك كلـه بجهـود متواصلـة شـارك فيهـا عـدد مـن القـادة الإباضييـن، ومـن رؤسائهـم الثـوار. وتـم ذلـك خـلال فتـرة زمنيـة بـدأت بالعقـد الثالـث مـن القـرن الثـاني للهجـرة، وحـتى سنـة 160هـ(776م) سنـة قيـام الدولـة الرستميـة.

***

ـ إمـارة عبـد اللـه بـن مسعـود التجيـبي الإبـاضي:

ظهـر ـ لأول مـرة ـ اسـم هـذا الرجـل في مسـرح الأحـداث بالمغـرب؛ خـلال الفتـرة الـتي اغتصـب فيهـا عبـد الرحمـن بـن حبيـب ولايـة القيـروان؛ بعـد انقلابـه علـى والي إفريقيـة حنظلـة بـن صفـوان سنـة

126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[2] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[3] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه

---

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: **301**.

[2] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم، كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما أشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[3] الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: **33**.

الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

ـ إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:[1]
أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[2] أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون

---

[1] **يكتفي ابن الأثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.**

[2] **إذ يقول: ((وكان على الإباضية ــ حين اجتمعت ــ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ــ القسم الأول)، ص: 34. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا الحارث؛ فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي، ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 411.**

فيفهم من رواياتهم أن الحارث وعبد الجبار كانا يحكمان الناس حكما جماعيا. ومع هذا فهم يقدمون اسم الحارث على اسم عبد الجبار؛ إذ يكتبون في سياق الحديث: ((**الحارث وعبد الجبار**)).

أما نسبهما فيكتنفه بعض الغموض أيضا؛ لأن كلمتي: حضرمي، ومرادي؛ لا تعنيان ــ بالضرورة ــ الانتساب إلى حضرموت أو لقبيلة مراد اليمنية؛ إذ ربما كانت الكلمتان ترميان إلى الانتماء بالولاء لقبيلة من قبائل حضرموت أو لقبيلة مراد. المهم أن القيرواني يصرح بأنهما من الأمازيغ؛[1] ويسايره في ذلك ابن خلدون الذي يقول أنهما من هوارة.[2] أما سليمان الباروني فيقول: ((**والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه. وهما إخوان لأم أو أبنا خالة؛ وقبيلتهما هوارة**)).[3]

---

[1] يقول القيرواني: ((وخرج بناحية طرابلس رجلان؛ يقال لأحدهما عبد الجبار، والآخر الحارث؛ وهما من البربر؛ يدينان بدين الخوارج)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 128.

[2] يقول: ((وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث؛ من هوارة؛ وكانا يدينان برأي الإباضية... ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين [ومائة] فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). العبر، مج: 6، ص: 223.

[3] مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

ويتفق ـ أيضا ـ القيرواني وابن خلدون حول رواية مقتلهما؛ إذ يقولان أن عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما في سنة 131هـ(748م)؛ دون شرح للكيفية التي تم بها القتل.[1] وهذا الرأي يخالف رواية ابن عبد الحكم الذي يرى أنهما اقتتلا؛ فقتل بعضهما بعضا؛ بعد الفتنة التي نشبت بينهما.[2] أما بعض المراجع الإباضية؛ فتشير إلى دسيسة؛ قد يكون حبكها عبد الرحمن بن حبيب؛ فنجح فيها بتمكنه من قتل الأميرين غيلة.[3]ويبدو أن هذا الرأي يمكن تأييده؛ خاصة إذا اعتمد على ما أورده ابن عبد الحكم؛ حين ذكر أن عبد الرحمن بن حبيب أرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى قبيلة هوارة؛ لكسب أنصار في القبيلة التي

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 128 ـــ 129. والعبر، مج: 6، ص: 223.

[2] يقوا ابن عبد الحكم: ((واستفحل أمر عبد الجبار والحارث؛ ثم اختلف أمرهما؛ وتفاقم ما بينهما؛ فاقتتلا؛ فقتل عبد الجبار والحارث جميعا)). فتوح مصر والمغرب، ص: 302. أنظر أيضا كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[3] إذ يقول محمد علي دبوز: ((وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما؛ حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم؛ والمكان خال؛ فتظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات؛ فدخلوا عليهما فقتلوهما؛ ثم أدخلوا في كل واحد منهما سيفا، وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر؛ ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا؛ فقتل كل منهما صاحبه)). تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 413. وقد أورد الرواية نفسها صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة: 2، القسم: 1). ص ص: 46 ـ 47.

ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ــ كما يقول ابن عبد الحكم ــ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر ابن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دَغُوغَا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[1]

ــ إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي:

ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ــ هي الأخرى ــ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك

---

[1] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: 301 ــ 302.

يكمن في قصر الفترة الزمنية التي تولى فيها. المهم فقد ولي الإمامة في سنة 132هـ(749م)؛ أي بعد مقتل الحارث وعبد الجبار. ولم يمهله عبد الرحمن بن حبيب؛ حيث زحف نحوه؛ فالتقيا بجهات قابس؛ أين جرت موقعة بين إسماعيل بن زياد النفوسي؛ وجيش القيروان بقيادة شعيب بن عثمان؛[1] وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وهزيمة أنصاره الإباضيين. كان ذلك في سنة 132هـ؛ حيث لم تتجاوز فترة حكم إسماعيل بن زياد النفوسي أشهرا قليلة. وبعد ذلك تحول عبد الرحمن بن حبيب نحو سكان طرابلس؛ ففتك بهم، وسلط عليهم آلة القتل والانتقام بشكل فظيع.[2]

---

[1] قال ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن بقي في المعسكر ولم يشهد الموقعة. فتوح مصر والمغرب، ص: 302.

[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة؛ وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنه إحدى وثلاثين؛ فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). أما القيرواني فتكلم عن فتك عبد الرحمن بالخوارج دون ذكر إسماعيل بن زياد؛ حيث قال: ((وأوعب عبد الرحمن في قتل البربر؛ وامتحن الناس بهم وابتلاهم بقتل الرجال صبرا: يؤتى بالأسير من البربر؛ فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله. فابتلى جماعة من الناس؛ فما سلم منهم غير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم؛ أبى ذلك؛ وعصمه الله منه)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 129. وقد أشار ابن عذاري لهذه المجزرة؛ بأسلوب القيرواني نفسه، البيان المغرب، ج: 1، ص: 61.

ــ إمــارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافــري الإبــاضي:

ينســب هــذا الرجــل إلى قبيلــة معافــر الكهلانيــة اليمنيــة. نشــأ في المشــرق وكــان مــن دعــاة الإباضيــة بالشــام قبــل مجيئــه إلى المغــرب.[1] وقــد كــان مــن بيــن طلبــة العلــم الخمســة؛ الذيــن بعثــوا في سنــة 132هــ(749م)؛ مــن طــرف الإباضييــن في بــلاد المغــرب؛ بغــرض تلــقي العلــم في البصــرة؛ عــلى يــد شيــخ الإباضيــة في المشــرق أبي عبيــدة مسلــم بــن أبي كريمــة.[2] ولمــا عــادوا في سنــة 139هــ(756م)؛ محمليــن بعلــوم المذهــب الإبــاضي؛ بــادروا بإنشــاء دولتهــم الإباضيــة؛ حيــث بايعــوا أبــا الخطــاب عبــد الأعــلى إمامــا عــلى الإباضييــن في ديــار المغــرب. وكــان الإعــلان عــن هــذه الدولــة في سنــة 140هــ(757م)؛ خــارج طرابلــس ــ في بدايــة الأمــر ــ[3] في موضــع غــربي طرابلــس يقــال لــه (صيــاد). وقــد أشاعــوا أنهــم ينظــرون في خــلاف بيــن جماعتيــن عــلى قطعــة أرض. ويبــدو ــ مــن كــلام الرقيــق القيــرواني وابــن الأثيــر ــ أن منشــأ هــذه الدولــة تــم أيــام احتــلال ورفجومــة للقيــروان.[4]

---

[1] **سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 57. والفــرق الإسلاميــة لآلفــرد بــل، ص: 170.**

[2] **طلبــة العلــم الخمســة هــم: أبــو الخطــاب عبــد الأعــلى بــن السمــح المعافــري، وعبــد الرحمــن بــن رستــم الفــارسي، وعاصــم الســدراتي، وإسماعيــل بــن درار الغدامــسي، وأبــو داود القبــلي النفــزاوي.**

[3] **أنظــر كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 57. وكتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، ج:، 1، ص ص: 22 ــــ 23. ومختصــر تاريــخ الإباضيــة، ص: 33.**

[4] **وقــد كــان نــص ابــن الأثيــر أكثــر وضوحــا إذ قــال: ((فاتفــق أن رجــلا مــن الإباضيــة دخــل القيــروان؛ لحاجــة لــه؛ فــرأى ناســا مــن الورفجومييــن قــد أخــذوا**

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

امرأة قهرا ـ والناس ينظرون ـ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير إليهم عبد الملك ـ مقدم ورفجومة ـ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

ومع هذا لم يهنأ بشيء من الاستقرار والأمن؛ إذ تعرض مرارا عديدة لهجمات العباسيين القادمين من مصر. وكان النصر حليفه في كل مرة؛ حتى حلول عام 144هـ(761م)؛ العام الذي اشتبك فيه مع جيش العباسيين بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وكانت هذه المعركة هي الفاصلة؛ حيث تمكن ابن الأشعث ـ بفضل خدعة بارعة ـ من إيهام الإباضيين بأنه امتثل لأمر الخليفة العباسي بالعودة إلى مصر؛ فعاد؛ ولكنه بقي على مسافة أيام؛ ثم رجع مسرعا إلى جيش أبي الخطاب؛ الذي تفرق عنه عدد كبير من أنصاره. وكانت المعركة النهائية في صالح العباسيين؛ حيث قتل فيها أمير الإباضيين أبو الخطاب، وانكسر جيشه، وتشتت أنصاره.

حدث ذلك جراء العقلية القبلية البدوية، وتبعا لسلبيات العصبية القبلية المميتة؛ إذ تقول المصادر أن فئة كبيرة من جيش أبي الخطاب تفرقت عنه قبل وصول ابن الأشعث إلى برقة؛ وذلك عندما حل وقت حصاد الزرع؛ إذ فضل هؤلاء المقاتلون حصاد زرعهم على البقاء في الميدان؛ منتظرين موعد المعركة.[1] وثمة فئة أخرى انفضت وانسحبت

[1] يقول الدرجيني: ((فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه ـ وقد اجتمع على أبي الخطاب زهاء تسعين ألفا ـ ابتدرت الناس إلى مواطنهم؛ وذلك في زمان الحصاد؛ فقال لهم أبو الخطاب: يا قوم إن العرب أهل مكر وغدر؛ فلا تتفرقوا عن ملككم؛ حتى تستيقنوا

مـن الميـدان بفعـل النعـرة الهوجـاء والعصبيـة القبليـة؛ وذلـك عندمـا اختلفـت قبيلـة زناتـة مـع قبيلـة هـوارة؛ بسبـب قتيـل سقـط بينهمـا. فاتهمـت زناتـة أبـا الخطـاب بالتحيـز لهـوارة؛ فانفضـوا عنـه. ولـم يبـق مـع أبي الخطـاب العـدد الكـافي مـن المقاتليـن؛ كي يتصـدى بهـم للجيـش العبـاسي؛ فكانـت الهزيمـة الكبـرى الـتي أسقطـت إمـارة الإباضييـن بطرابلـس والقيـروان نهائيـا.[1]

برجـوع القـوم؛ وغلبـت عليـه العامـة؛ فـأذن لهـم باللحـاق بأهليهـم؛ فسـاروا وتفرقـوا عنـه)). طبقـات علمـاء المغـرب، ج: 1، ص: 33. أنظـر ــ أيضـا ــ كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص: 68.

[1] شـرح ابـن الأثيـر مـا جـرى بقولـه: ((ثـم إن جماعـة كثيـرة مـن المسـودة سيرهـم محمـد بـن الأشعـث الخـزاعي ــ أميـر مصـر للمنصـور ــ إلى طرابلـس؛ لقتـال أبي الخطـاب؛ وعليهـم أبـو الأحـوص عمـر بـن الأحـوص العجـلي؛ فخـرج إليهـم أبـو الخطـاب، وقاتلهـم وهزمهـم سنـة اثنيـن وأربعيـن؛ فعـادوا إلى مصـر؛ واستـولى أبـو الخطـاب عـلى سائـر إفريقيـة. فسيـر إليـه المنصـور محمـد بـن الأشعـث الخـزاعي أميـرا عـلى إفريقيـة؛ فسـار مـن مصـر سنـة ثـلاث وأربعيـن؛ فوصـل إليهـا في خمسيـن ألفـا؛ ووجـه معـه الأغلـب بـن سالـم التميـمي. وبلـغ أبـا الخطـاب مسيـره؛ فجمـع أصحابـه مـن كـل ناحيـة؛ فكثـر جمعـه وخافـه ابـن الأشعـث لكثـرة جموعـه؛ فتنازعـت زناتـة وهـوارة بسبـب قتيـل مـن زناتـة؛ فاتهمـت زناتـة أبـا الخطـاب بالميـل إليهـم؛ ففارقـه جماعـة منهـم؛ فقـوي جنـان ابـن الأشعـث، وسـار سيـرا رويـدا؛ ثـم أظهـر أن المنصـور قـد أمـره بالعـود، وعـاد إلى ورائـه ثلاثـة أيـام سيـرا بطيئـا؛ فوصلـت عيـون أبي الخطـاب؛ وأخبرتـه بعـوده؛ فتفـرق عنـه كثيـر مـن أصحابـه، وأمـن الباقـون؛ فعـاد ابـن الأشعـث وشجعـان عسكـره مجـدا؛ فصبـح أبـا الخطـاب وهـو غيـر متأهـب للحـرب؛ فوضعـوا السيـف في الخـوارج؛ واشتـد القتـال؛ فقتـل أبـو الخطـاب وعامـة أصحابـه في صفـر سنـة أربـع وأربعيـن ومائـة)). الكامـل في التاريـخ، ج: 4، ص: 281. ويتفـق ابـن عـذاري مـع ابـن الأثيـر في هـذه الروايـة، أنظـر البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 71 ــ 73.

ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن رستم ـ وهو بالقيروان ـ سارع إلى الخروج؛ طلبا للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

ـ **إمارة عاصم السدراتي الإباضي**: وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى ابن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما

---

[1] تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الأشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.

ذكرته تلك المصادر صحيحا؛ فكيف ـ إذن ـ يكون من بين قادة الإباضية الذين حاصروا عمر بن حفص سنة 153هـ(770م)؟[1]

ـ **إمارة أبي هريرة الزناتي الإباضي**: هكذا ورد اسمه دون تفصيل. ويبدو أنه كان زعيما لبطن من بطون زناتة في جهات طرابلس؛ ولما قتل أبي الخطاب؛ انتهز غفلة من ابن الأشعث؛ وهجم عليه؛ في ستة عشر ألفا؛ ولكن ابن الأشعث تدارك الأمر؛ وتمكن من صد هذه القوة، وقتل قائدها أبي هريرة الزناتي. وتم ذلك في السنة التي قتل فيها أبي الخطاب؛ وهي سنة 144هـ(761م). والذي يلفت النظر ـ هنا ـ أن المصادر الإباضية أغفلت ذكر أخبار أبي هريرة؛ ولم يشر إليه سوى محمد على دبوز في جملة مقتضبة.[2] وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخين السنيين؛ إذ تجاهل ذكره أكثرهم؛ ولم يتكلم عنه سوى: ابن الأثير، وابن عذاري؛

---

[1] **قال أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: ((ثم إن عاصما السدراتي مرض مرضا شديدا؛ وكان من خيار العسكر؛ وهو أحد الخمسة الحملة للعلم؛ وأشد شوكة على أهل القيروان. فسمع أهل القيروان بمرضه؛ وأنه اشتهى قثاة؛ فبعث أهل القيروان رجلا بياعا يبيع القثاء؛ فسموا منها قثاة، وأمروه أن لا يبيعها إلا لعاصم السدراتي... واشترى لعاصم أصحابه القثاة المسمومة وأتوه بها فأكلها؛ فقطعه السم فمات،؛ وهرب البياع حين باعها لهم)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 62.**

[2] **تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 19.**

في جملـــة قصيـــرة أيضـــا.[1]وقـــد يكـــون هـــذا القائـــد مـــن بيـــن الزناتييـــن الذيـــن انسحبـــوا غاضبيـــن عـــلى أبي الخطـــاب مـــن قبـــل؛ ولمـــا سمعـــوا بهجـــوم أبي الأشعـــث عـــادوا إلى المعركـــة؛ فوجـــدوا أن المبـــادرة خرجـــت مـــن أيديهـــم.

ـ إمـــارة عبـــد اللـــه بـــن حيـــان الزويـــلي الإبـــاضي: وهـــو ـ كمـــا يبـــدو ـ هـــواري النســـب. وكـــان في زمـــن أبي الخطـــاب رئيســـا في زويلـــة؛ فبعـــث ابـــن الأشعـــث جيشـــا إلى تلـــك الجهـــات سنـــة 145هـ(762م)؛ حيـــث افتتـــح ودان وزويلـــة؛ أيـــن قتـــل مـــن بهمـــا مـــن الإباضييـــن؛ ومـــن جملتهـــم عبـــد اللـــه بـــن حيـــان هـــذا.

ـ إمـــارة المســـور بـــن هـــانئ الزنـــاتي الإبـــاضي[2]: ذكـــره بعـــض المؤرخيـــن ضمـــن جيـــوش الصفريـــة والإباضيـــة؛ الذيـــن كانـــوا محاصريـــن لعمـــر بـــن حفـــص بطبنـــة في سنـــة 153هـ(770م)؛ إذ قالـــوا أنـــه كـــان يقـــود عشـــرة آلاف مقاتـــل مـــن زناتـــة؛ قدمـــوا معـــه مـــن شمـــال تيهـــرت. ومـــا عـــدا هـــذا؛ لا يوجـــد مـــا يمكـــن إضافتـــه مـــن أخبـــاره.

---

[1] الكامـــل في التاريـــخ، ج: 4، ص: 281. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 72.

[2] سمـــاه ابـــن عـــذاري: المصـــور ـ بالصـــاد ـ الزنـــاتي؛ دون الإشـــارة إلى مذهبـــه هـــل هـــو صفـــري أم إبـــاضي. البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 75. أمـــا ابـــن خلـــدون فقـــد سمـــاه المســـور ـ بالسيـــن ـ الزنـــاتي؛ ثـــم ذكـــر أنـــه إبـــاضي المذهـــب. العبـــر، مج: 4، ص: 413. أمـــا في مج: 4، ص: 226؛ فسمـــاه المســـور بـــن هـــانئ.

ـ إمـارة أبي حاتـم يعقـوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفـت الملزوزي المغيـلي المعروف بأبي قـادم:[1]

هكـذا سمـاه ابـن خلـدون؛ إذ نسبـه إلى قبيلـة ملـزوزة المنحـدرة عـن قبيلـة مغيلـة. أمـا المصـادر الأخـرى فقـد اكتفـت بالقليـل عنـد سـرد اسمـه؛ عـلى أن بعضهـم ينسبـه ـ بالـولاء ـ إلى قبيلـة كنـدة العربيـة.[2] ويقـول محمـد عـلي دبـوز أن أبـاه ـ أو أحـد أجـداده ـ انتقـل إلى طرابلـس؛ فانتسـب إلى قبيلـة هـوارة بالالتحـاق. المهـم أن بعـض الآراء تقـول أن أبـا حاتـم هـذا تـولى أمـر الإباضييـن في سنـة 145هـ(762م).[3] أي بعـد فتـرة مـن مقتـل أبي الخطـاب. إذ كـان يجمـع الصدقـات، ويبعـث بهـا إلى عبـد الرحمـن بـن رستـم؛ قبـل أن يتـولى ولايـة الظهـور؛ أي الولايـة المعلنـة للمـلأ. وهـذا يبعـث عـلى الاعتقـاد أنـه قـد ولي أمـر الإباضييـن سـرا في سنـة 151هـ(768م) أو قبلهـا.

---

[1] سمـاه أبـو زكريـاء يحـيى بـن أبي بكـر: أبـا حاتـم يعقـوب بـن لبيـب الملـزوزي. كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص: 73. أمـا الدرجيـني فسمـاه: أبـا حاتـم يعقـوب بـن لبيـب الملـزوزي الهـواري، ج: 1، ص: 36. أمـا سليمـان البـاروني فسمـاه: أبـا حاتـم يعقـوب بـن حبيـب، مختصر تاريخ الإباضيـة، ص: 34.

[2] الكامـل في التاريـخ، ج: 5، ص: 32. والعبـر، مج: 4، ص: 412.

[3] كتـاب سيـر الأئمـة وأخبارهـم، ص: 73. وفي كتـاب طبقـات المشائـخ بالمغـرب: ولي سنـة 154هـ. وفي مختصـر تاريـخ الإباضيـة في سنـة 154هـ.

هـذا وقـد سـمى أبـو زكريـاء ولايـة أبي حاتـم بولايـة الدفـاع. وذكـر أنـه بويـع خـارج طرابلـس؛ بالطريقـة السريـة ذاتهـا؛ الـتي تمـت في بيعـة أبـي الخطـاب مـن قبـل. إذ تظاهـروا أنهـم مجتمعـون مـن أجـل إصـلاح بيـن زوج وامرأتـه؛ بينمـا هـم ــ في الحقيقـة ــ يأتمـرون فيمـا بينهـم لإعـلان الإمامـة، والبيعـة للإمـام. ولكـن عيـون عامـل طرابلـس كشفـت أمرهـم؛ فحـاول إفسـاد مـا اجتمعـوا عليـه؛ عندهـا لـم يجـدوا أمامهـم بـدا مـن إعـلان العصيـان؛ وانطلقـوا إلى طرابلـس فاحتلوهـا وقتلـوا مـن بهـا مـن الجنـد. ثـم أمـر أبـو حاتـم أتباعـه بالزحـف نحـو إفريقيـة؛ وفي الطريـق التقـوا بجيـش القيـروان؛ زاحفـا في اتجاههـم؛ فاشتبكـوا معـه وهزمـوه.

وحسـب مـا يبـدو فهـذا الأمـر يكـون قـد تـم بعـد سنـوات مـن التاريـخ الـذي اتفـق فيـه الإباضيـون عـلى إمامـة أبي حاتـم. لأن ظهـوره بشكـل علـني ربمـا حـدث في سنـة 153هـ(770م)؛ وهي السنـة الـتي تحـرك فيهـا لحصـار القيـروان؛ منتهـزا فرصـة غيـاب الجنـد عنهـا؛ أي عندمـا لاحـظ أنهـم خرجـوا مـع والي إفريقيـة عمـر بـن حفـص؛ بهـدف بنـاء وتحصيـن عاصمـة الـزاب طبنـة.

ويظهر أن الفترة الزمنية الفاصلة بين مقتل أبي الخطاب، ومقتل أبي حاتم يكتنفها غموض كثيف. وهذا ما جعل المؤرخين يخلطون في السنوات التي تؤرخ للأحداث. وقد اعترف ابن عذاري بالخلل الحاصل في التحقق من الأحداث.[1]

والواقع أن الفترة الممتدة من 144هـ (761م) إلى 154هـ (770م)؛ كلها تحمل أخبارا مضطربة ومتناقضة. فهذا على سبيل المثال صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ـ حين تكلم عن بدء ولاية أبي حاتم ـ يقول أنها تمت في رجب من سنة 145هـ (762م)؛ ثم يضيف أن أبا حاتم بقي في طرابلس أربع سنين؛ وبعدها سكت عن ذكر التواريخ؛ حتى أن مقتل أبي حاتم لم يذكر تاريخه. أما صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب فقد اختلف مع أبي زكرياء في تاريخ بدء الولاية؛ الذي قال أنها تمت في رجب من سنة 154هـ(770م). أما باقي الأخبار فيبدو أنه نقلها عنه؛ دون إضافة شيء جديد. أما سليمان الباروني فيجعل تاريخ بدء الولاية في سنة 154هـ؛ ثم يحدد وفاة أبي حاتم بسنة 155هـ(771م).

---

[1] **إذ قال: ((ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151 إلى 153 بعدها سنة سنة: فأجملت أمرها هنا إجمالا مختصرا؛ يغني عن إعادتها في كل واحدة منها)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 76.**

ولكنه يعود فيشكك في صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ــ أيضا ــ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

---

[1] إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المؤرخين فضلا ــ عن ذلك ــ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الألوف من الفرسان. ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ــ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالأمر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).

[2] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ــ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ــ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ــ 413. ومج: 6، ص: 226.

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في حلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح

---

[1] **ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ــ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ــ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ــ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ــ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرائها شيء من الطعام؛**

عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد ابن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ (770م).

ـ إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي:
ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[1] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري سكت عن الحديث في

فدام الحصار ثمانية أشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 32.

[1] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فاتوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.**

مصيـــر هـــذا الثائـــر الإبـــاضي؛ ولـــم يذكـــر إن كـــان قتـــل أم لا. وحـــتى ابـــن الأثيـــر لـــم يشـــر إلى مصيـــره النهـــائي.

ـ إمـــارة صالـــح بـــن نصيـــر النفـــزي الإبـــاضي:[1] وكـــان مـــن رؤســـاء نفـــزاوة الإباضييـــن؛ إذ ثـــار مـــع قبيلتـــه سنـــة 161هــ (777م) عـــلى والي إفريقيـــة بالقيـــروان؛ داود بـــن يزيـــد بـــن حاتـــم ــ في حيـــاة والـــده يزيـــد الـــذي أقعـــده المـــرض ــ فأرســـل داود إليهـــم قـــوة لتأديبهـــم؛ بقيـــادة سليمـــان بـــن الصمـــة بـــن يزيـــد بـــن حبيـــب بـــن المهلـــب؛ في عشـــرة آلاف مـــن الجنـــد؛ ففتـــك بهـــم، وفـــرق جمعهـــم؛ غيـــر أن صالـــح بـــن نصيـــر ــ كمـــا يبـــدو ــ استطـــاع الإفـــلات؛[2] ولـــم يعـــرف مصيـــره بعدئـــذ.

ـ إمـــارة أيـــوب الهـــواري: أورد خبـــره ــ باقتضـــاب شديـــد ــ ابـــن الأثيـــر؛ إذ قـــال أنـــه ثـــار مـــع قبيلـــة ورفجومـــة في الـــزاب سنـــة 164هــ(780م)؛ خـــلال عهـــد يزيـــد بـــن حاتـــم؛ الـــذي سيـــر إليهـــم عسكـــرا كثيـــرا؛ بقيـــادة يزيـــد بـــن مجـــزأ المهلـــبي؛ حيـــث قتـــل في تلـــك الأحـــداث، وانهـــزم جيشـــه؛ كمـــا قتـــل فيهـــا أيضـــا المخـــارق عامـــل الـــزاب. فاسنـــد يزيـــد بـــن المهلـــب القيـــادة إلى العـــلا بـــن سعيـــد المهلـــبي؛ فتمكـــن مـــن دحـــر

---

[1] **سمـــاه ابـــن عـــذاري: نصيـــر بـــن صالـــح الإبـــاضي. البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 83.**

[2] **أنظـــر تاريـــخ إفريقيـــة والمغـــرب، ص: 169. والعبـــر مج: 6، ص: 228.**

ورفجومــة واستلحمهــم؛ حيــث تتبعهــم في كــل مكــان؛ حــتى قــضى عليهــم[1]. ولــم يذكــر ابــن الأثيــر مذهــب هــذا الرجــل؛ هــل هــو صفــري أم إبــاضي.؟ وكالعــادة بــقي مصيــر هــذا القائــد الثائــر غيــر معــروف.

وخلاصــة القــول ـ هنــا ـ أنــه حصــل ـ كمــا يبــدو ـ بعــض الالتبــاس؛ إذ أورد هــذه الروايــة ـ الرقيــق القيــروان ـ الــذي نســب أفعالهــا إلى ثائــر صفــري يســمى أبــا زرجونــة الورفجــومي؛ عــلى أن الأحــداث وقعــت في سنــة 156هــ(772م).[2] ولا يعــرف إن كانــت ثــورة أبــي أيــوب ـ هــذه ـ هــي ثــورة أبــي زرجونــة نفســه؛ أم يتعلــق الأمــر بثورتيــن مختلفتيــن؛ قادهمــا شخصــان متباينــان.

وبحلــول الربــع الأخيــر مــن القــرن الثــاني للهجــرة؛ أصبــح الوضــع السيــاسي في بــلاد المغــرب غيــر مــا كــان عليــه في السابــق. حيــث شهــدت هــذه الربــوع بعــض التحــولات الجوهريــة؛ صبغــت ثــورات الخــوارج ضــد حكــم العباسييــن بالمغــرب؛ بمفاهيــم جديــدة أعطــت شرعيــة لشكــل مــن أشكــال الاستقــلال للخــوارج؛ حيــث قامــت دولــة للصفريــة في أقــصي المغــرب، ودولــة للإباضيــة في المغــرب الأوســط. (بالإضافــة إلى دولــة برغواطــة المنحرفــة).

---

[1] **الكامــل في التاريــخ، ج: 5، ص: 33.**

[2] **تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص ص: 161 ـــ 162.**

وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة ـ من جديد ـ في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

***

ـ إمـــارة أبي يزيـــد مخلـــد بـــن كيـــداد اليفـــرني الزنـــاتي الملقـــب بصاحـــب الحمـــار: ظهـــر هـــذا الرجـــل في بـــلاد قسطيليـــة بالنـــواحي الجنوبيـــة مـــن إفريقيـــة؛ بعـــد سقـــوط الدولـــة الرستميـــة الإباضيـــة؛ وبعـــد أن التهمهـــا الفاطميـــون. وتتلمـــذ هـــذا الثائـــر الخـــارجي ـــ في صغـــره ببـــلاد قسطيليـــة ـــ عـــلى بعـــض النكاريـــة؛ منهـــم عبـــد الحميـــد بـــن عبـــد اللـــه الحميـــدي الحجـــري؛ الملقـــب بـــأبي عمـــار الأعـــمى؛ الـــذي قـــال عنـــه محمـــد الصنهـــاجي أنـــه كـــان مقدمـــا في الإباضيـــة، وقـــال فيـــه ابـــن خلـــدون أنـــه رأس النكاريـــة.[1] كمـــا تذكـــر مصـــادر الإباضييـــن أنـــه درس عـــلى بعـــض العلمـــاء في سجلماســـة. ونظـــرا لفقـــر أبي يزيـــد، وشـــدة حاجتـــه؛ فقـــد عمـــل في تعليـــم القـــرآن للصبيـــان؛ فكانـــت فرصـــة لـــه؛ كي يبـــث فيهـــم مذهـــب النكاريـــة.

وتقـــول المصـــادر التاريخيـــة أنـــه ذهـــب إلى الحـــج، وعـــاد في سنـــة 325هـ(926م)؛ حيـــث أخـــذ ـــ بعـــد عودتـــه ـــ في التشويـــش والمشاغبـــة وتأليـــب العامـــة عـــلى الحكـــام. فقبـــض عليـــه ابـــن فركـــان ـــ مقـــدم تـــوزر ـــ وأودعـــه السجـــن؛ بتهمـــة مـــا كـــان يدعـــو إليـــه مـــن تكفيـــر المسلميـــن، وســـبٍّ عـــلى كـــرم اللـــه وجهـــه؛ ومـــا كـــان يصـــرح بـــه مـــن وجـــوب الخـــروج عـــن السلطـــان. عـــلى أن أبـــا يزيـــد استطـــاع التخلـــص مـــن سجنـــه؛ إمـــا بتقديـــم بعـــض الأعـــذار؛ كمـــا جـــاء في قـــول؛ وإمـــا

---

[1] أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد، ص: 30. والعبـــر، مج: 7، ص: 27.

بالقـوة والتمـرد؛ حيـن تمكـن مـن الهـرب مـن سجنـه؛ بمساعـدة شيخـه أبي عمـار؛ وجماعـة مـن قبيلـة زناتـة؛ في قـول آخـر ذكـره ابـن خلـدون.[1] عندهـا اتجـه أبـو يزيـد ــ أولا ــ إلى وركـلا، ثـم التجـأ ــ بعـد ذلـك ــ إلى جبـل أوراس عنـد عشيـرة بـني كمـلان وهـم مـن هـوارة؛ وكانـوا عـلى مذهبـه.[2] ومنهـا أخـذ يتـردد مـرة عـلى بـني بـرزال جنـوب المسيلـة، ومـرة أخـرى عـلى بـني زنـداك المغراوييـن. وفي تلـك الأثنـاء أخـذ لـه أبـو عمـار البيعـة مـن القبائـل المنضويـة تحـت طاعتـه؛ فتلقـب بشيـخ المؤمنيـن.[3]

ولمـا أحـس بقـوة أنصـاره وصـدق طاعتهـم وانصياعهـم لأوامـره؛ أعلـن الثـورة عـلى الفاطمييـن؛ في عهـد ثـاني ملوكهـم أبـي القاسـم محمـد بـن عبيـد اللـه. وتمكـن ــ في البدايـة ــ مـن جمـع كتلـة قبليـة هامـة حولـه؛ وقـد تمكـن مـن تحقيـق ذلـك نظـرا لمـا كـان يظهـره ــ في البدايـة ــ مـن تديـن وورع وانسجـام مـع المذاهـب الأخـرى ــ سنيـة أم خارجيـة ــ تلـك المذاهـب المعاديـة للمذهـب الفاطـمي.[4] ومـن جهـة

---

[1] **العبـر، مج: 7، ص: 27.**

[2] **أخبـار ملـوك بـني عبيـد، ص: 30.**

[3] **البيـان المغـرب، ج: 1، ص: 217. والعبـر، مج: 7، ص: 28.**

[4] **قـال ابـن عـذاري: ((قـال ابـن سعـدون: "فبعـث اللـه عـلى أبي القاسـم الشيـعي مخلـد بـن كيـداد الخـارجي؛ فقهـره، وقتـل جنـده؛ وقـام المسلمـون معـه. وخـرج الفقهـاء والعبـاد مـع أبي يزيـد لحربـه"؛ وسماهـم ابـن سعـدون في كتابـه رَجُـلاً رَجُـلاً. "فركبـوا معـه؛ ونهضـوا إلى القيـروان؛ فدخلوهـا في صفـر العـام، [يقصـد عـام 332هـ] وأظهـر لأهلهـا خيـرا؛ وترحـم عـلى أبي بكـر وعمـر ــ رضي اللـه**

أخرى فقد استغل كراهية فئة عريضة من القبائل والعشائر في بلاد المغرب لحكام الدولة الفاطمية. أضف إلى ذلك كله؛ أن علماء المذاهب السنية في هذه الديار أشاعوا على الفاطميين صفات كريهة؛ وضعتهم في مصاف المخالفين لشرع الله، واتهمتهم بانتحال البدع والأكاذيب؛ بل اتهمتهم بالكفر أحيانا؛ كما كذبوا رواية انتسابهم إلى فاطمة البتول رضي الله عنها.[1]

عنهما ـ ودعا الناس إلى جهاد الشيعة؛ وأمرهم بقراءة مذهب مالك. فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وأزواجه؛ حتى ركزوا بنودهم عند الجامع؛ فلما كان يوم الجمعة؛ اجتمعوا بالمسجد الجامع، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح؛ ومعهم البنود والطبول... فلما اجتمع الناس، وحضر الإمام، وطلع إلى المنبر؛ خطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على جهاد الشيعة، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب؛ ثم لعن عبيد الله الشيعي وابنه؛ ثم نزل فخرج، وخرج الناس معه لقتال الشيعة الفجار؛ فلم يزل قاهرا لهم، غالبا عليهم، قاتلا لجنودهم؛ حتى لم يبق لهم من بلاد إفريقية إلا اليسير)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 217 ـ 218.

[1] أورد ابن عذاري بعض التهم التي وجهت إلى الفاطميين؛ منها نحلة التشريق الإلحادية؛ التي زعم أعداؤهم أنها صدرت عنهم وعن أنصارهم. وأورد أيضا موجزا لما خطه محمد بن سعدون بن علي في كتابه "تعزية أهل القيروان بما جرى على البلدان؛ من هيجان الفتن، وتقلب الأزمان" وكان هذا الكتاب مشحونا بالتهم والأوصاف الكريهة للفاطميين؛ الذين يسميهم العبيديين؛ وينكر نسبهم للرسول محمد صلى الله عليه وسلم. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 185 . 281 ـ 287.

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى ـ بحكم أنها قبيلته التي انحدر منها أبوه ـ بالإضافة إلى هوارة ـ وهي قبيلة أمه ـ ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا ـ بعد فترة ـ حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[1] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل

---

[1] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي الربيع: (("يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع أبو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 195.

الملــة، ويستبيــح الغنائــم والســبي فيهــم.[1] وعليــه فقــد أعتبــره الإباضيــون الوهبيــون نكاريــا ومخالفــا لمذهبهــم.[2] وصنفــوه ضمــن فئــات الخــوارج المتطرفيــن. ومــع هــذا فقــد كــان يــرى في نفســه الــوارث الشــرعي للــدعــوة الإباضيــة؛ بعــد سقــوط الدولــة الرستميــة. لــذا فقــد حــاول استعــادة مجــد الإباضييــن، والنهــوض بدولتهــم مــن جديــد؛ ولكنــه فشــل في الأخيــر.[3] وانتهــت حركتــه

---

[1] أجمعــت المصـــادر التاريخيــة كلهــا عــلى سمـــاح أبي يزيــد بسفــك دمــاء المسلميــن المنتميــن لغيــر مذهبــه؛ كمــا أجمعــت عــلى استباحتــه للمحرمــات، وتحريضــه عــلى سلــب أمــوال المسلميــن، وســبي نسائهــم واستعبــاد أطفالهــم. وهــذا نــص ـــ كعينــة ــ كتبــه أبــو زكريــاء ــ وهــو أحــد العلمــاء الإباضييــن ــ يصــف فيــه أبا يزيــد بصفــات تضعــه في مصــاف الكفــرة؛ إذ قــال: ((ثــم إن عــدو اللــه [يقصــد أبــا يزيــد] ســار يريــد القاســم بالقيــروان؛ وكــل قريــة ومدينــة مــر بهــا ــ في طريقــه ــ خربهــا، وسبــا ذريتهــا، وغنــم أموالهــا؛ كفعــل نافــع بــن الأزرق وغيــره مــن الخــوارج؛ بــل قــد زاد عليهــم وأربى... وذكــروا أنــه بــلــغ عـــدة مــا خـــرب عــلى يـــده ــ في إفريقيــة ــ ثلاثــون ألــف قريــة؛ لــم تعمــر إلى يومنــا هــذا. وفعــل في إفريقيــة مــن الفســوق والمعــاصي والفجــور مــا لــم يبلغنــا مثلــه عــن الفراعنــة والأكاســرة والقياصــرة والجبابــرة... وبلغنــا أنــه نــزل بالساحــل؛ فاخــذ أهــل عسكــره صبيتيــن؛ فجاءتــه أمهمــا تشــكو إليــه؛ فقالــت لــه: "يــا شيــخ؛ إن العزابــة سبــوا لي ابنتيــن؛ وهمــا حرتــان؛ وغصبوهمــا"؛ فلــم يجبهــا عــدو اللــه بجــواب؛ غيــر أنــه قــال: "هــل في إفريقيــة حــرة". فخافــت المــرأة عــلى نفسهــا؛ فهربــت ونجــت بنفسهــا)). كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص ص: 180 ــ 182.

[2] أنظــر كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص ص: 175 ــ 187. وكتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. فكلهــا تتبــرأ منــه، وتخرجــه مــن المذهــب الإبــاضي الوهــبي.

[3] وهــذا مــا جعــل أبــا القاســم بــن عبيــد اللــه يقــول: ((لقــد فتــح فيهــم [أي في الإباضييــن] بابــا؛ إلا أنه لم يحســن السيــرة)). كتاب سير الأئمــة وأخبارهــم؛ ص: 181.

بانتهـــاء حياتـــه؛ إذ قتـــل مسلوخـــا، وممثـــلا بـــه في سنـــة 335هـ(949م) بالمهديـــة.

وقـــد تمكـــن هـــذا الثائـــر الخـــارجي مـــن زعزعـــة أركـــان الدولـــة الفاطميـــة ــ بعـــض الوقـــت ــ حيـــث شغلهـــا بالفتـــن مـــدة مـــن الزمـــن؛ وكـــاد أن يطيـــح بأركانهـــا ويسقطهـــا نهائيـــا؛ لـــولا معاكســـة الأقـــدار لـــه.[1] وقـــد استنـــد أبـــو يزيـــد ــ في بديـــة أمـــره ــ إلى روح العصبيـــة الموغلـــة في نفـــوس أبنـــاء القبائـــل الزناتيـــة؛ ذات الطابـــع البـــدوي. كمـــا استطـــاع ــ بواسطـــة الدعـــوة الدينيـــة ــ أن يحقـــق التلاحـــم بيـــن القبائـــل السائـــرة خلفـــه؛ تبعـــا للقاعـــدة الـــتي تنـــص عـــلى تزايـــد قـــوة العصبيـــة؛ عندمـــا تعتمـــد عـــلى الدعـــوة الدينيـــة.[2]

---

[1] أنظـــر قصـــة أبي يزيـــد في كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص ص: 175 ــ 187. وكتـــاب أخبـــار ملـــوك بـــني عبيـــد وسيرتهـــم، ص ص: 29 ـــ 47. وكتـــاب الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص ص: 302 ـــ 311. وكتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج: 1، ص ص: 96 ــ 104. وكتـــاب البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. وكتـــاب العبـــر، مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. وكتـــاب اتعـــاظ الحنفـــا بأخبـــار الأئمـــة الفاطمييـــن الخلفـــا، ص ص: 109 ــ 125.

[2] يقـــول ابـــن خلـــدون في هـــذا: ((إن الصبغـــة الدينيـــة تذهـــب بالتنافـــس والتحاســـد الـــذي في أهـــل العصبيـــة؛ وتـــُفـــرِْد الوجهـــة إلى الحـــق. فـــإذا حصـــل لهـــم الاستبصـــار في أمرهـــم لـــم يقـــف لهـــم شـــيء؛ لأن الوجهـــة واحـــدة، والمطلـــوب متســـاو عندهـــم؛ وهـــم مستميتـــون عليـــه؛ وأهـــل الدولـــة الـــتي هـــم طـــالبـــوهـــا ـــ وإن كانـــوا أضعـــافـــهـــم ـــ فأغراضهـــم متباينـــة بالباطـــل؛ وتخاذلهـــم لتقيـــة المـــوت حاصـــل؛ فـــلا يقاومونهـــم؛ وإن كانـــوا أكثـــر منهـــم)). المقدمـــة، ج: 2، ص: 337.

غيــر أنــه عجــز عــن المحافظــة عــلى مكتسباتــه؛ بسبــب مــا كــان يصــدر عنــه مــن نــزوات؛ لــم يتمكــن مــن كبتهــا.[1] حيــث أدى الشــك في صــدق دعوتــه إلى نكســة؛ أثــرت عــلى حركتــه؛ فأخــذ العامــل الديــني يتــلاشى؛ بفعــل الشكــوك الــتي غــزت بعــض أنصاره؛ فضعــف تماسكهــم، وانحلــت وحدتهــم؛ بفســاد العصبيــة المناصــرة لــه وتفككهــا[2]، وافتــراق القبائــل المتحالفــة

---

[1] فممــا قالــه محمــد الصنهــاجي: ((وكــان أبــو يزيــد في أول أمــره يلبــس خشــن الثيــاب، ويمســك العصــا، ويســمى شيــخ المسلميــن؛ ثــم انتقــل عــن ذلــك، وركــب عتــاق الخيــل، ولبــس الديبــاج؛ وكــان يــرى الجمــع بيــن الأختيــن بملــك اليميــن، ويستبيــح نســاء المسلميــن ممــن خالفــه، ويسفــك الدمــاء. وكــان أصحابــه البربــر يقتلــون كــل مــن ظفــروا بــه مــن النــاس؛ كائنــا مــن كــان؛ عيثــا وعبثــا؛ خاصــة مــن خــرج مــن المهديــة عنــد حصارهــم إياهــا؛ فــرارا مــن الجــوع والحصــار؛ ويشقــون بطونهــم أحيانــا فتشــا عــن المــال؛ توهمــا منهــم أنهــم ابتلعــوه)). أخبــار ملــوك بــني عبيــد، ص: 31. وقــال أيضــا ابــن خلــدون: ((واستخــف أبــو يزيــد بالنــاس؛ بعــد قتــل ميســور؛ فلبــس الحريــر، وركــب الفــاره؛ ونكــر عليــه أصحابــه ذلــك، وكاتبــه بــه رؤساؤهــم مــن البــلاد... وعذلــه أبــو عمــار فيمــا أتــاه مــن الاستكثــار مــن الدنيــا؛ فتــاب وأقلــع؛ وعــاود لبــس الصــوف والتقشــف)). العبــر، مج: 7، ص ص: 30 ــ 31.

[2] ويشــرح ابــن خلــدون الكيفيــة الــتي تنكســر فيهــا العصبيــة؛ تبعــا لضعــف الصبغــة الدينيــة؛ يقولــه: ((واعتبــر ذلــك إذا حالــت صبغــة الديــن وفسدت؛ كيــف ينتقــض الأمــر، ويصيــر الغلــب عــلى نسبــة العصبيــة وحدهــا؛ دون زيــادة الديــن؛ فيغلــب الدولــة مــن كــان تحــت يدهــا مــن العصائــب المكافئــة لهــا أو الزائــدة القــوة عليهــا؛ الذيــن غلبتهــم بمضاعفــة الديــن لقوتهــا؛ ولــو كانــوا أكثــر عصبيــة منهــا وأشــد بــداوة)). المقدمــة، ج: 2، ص: 638.

معه؛ حيث عادت إلى سابق عهدها؛ عصبيات عديدة؛ تفرقها الأهواء والأطماع.[1]

وهنا تظهر الحاجة إلى العصبية، والدعوة الدينية معا. فغياب إحداهما؛ يخل باستقرار الأخرى. وهكذا أخمدت ثورة أبي يزيد؛ بواسطة عصبية أقوى من عصبيته؛ كانت هي الأخرى معززة بدعوة دينية تتمتع بفعالية وقدرة على تحقيق أهدافها. وربما عاد سبب فشله ـ في تحقيق هدفه ـ إلى ما لاقاه من خذلان، وتنكر من قبل حلفائه قبائل زناتة؛ وذلك بعد تخليهم عن مناصرته ومساندته؛ في أشد الظروف التي مرت به؛ حيث تركوه فريسة سهلة؛ بين براثن أعدائه. هذه هي العصبية القبلية؛ حين تظهر في زيها السلبي البشع.

فثورة أبي يزيد كانت ـ في الظاهر ـ ثورة خارجية المذهب؛ نشبت ـ بضراوة ـ ضد دولة شيعية المذهب؛ ومع هذا فتلك الثورة لا تخلو من نفحات العصبية القبلية ونزواتها؛ حيث كانت تلك الثورة تتغذى بشحنات من العصبية الأمازيغية الزناتية والهوارية؛ تلك العصبية المناهضة لتسلط قبائل كتامة، وقبائل صنهاجة؛ التي تستتر تحت ستار المذهب الشيعي. لأن الفكرة المذهبية ـ في الحقيقة ـ

---

[1] أنظر أخبار بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ـ 41. والكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 309 ـ 310. واتعاظ الحنفا، ص ص: 115. 116. والعبر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ــ 33

أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل ـ كقبيلة هوارة ـ في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ (953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم ـ في الظاهر ـ بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف ـ أيضا ـ بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تنكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز ـ بالمقابل ـ موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية.

---

[1] **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 48 ـ 49. والعبر، مج: 4، ص: 95. واتعاظ الحنفا، ص: 134.**

وهكــذا تبــددت أحــلام زناتــة؛ في إنشــاء دولــة قويــة وموحــدة بالمغــرب الإســلامي؛ بزعامــة أبي يزيــد. وبهــذا بــقي الحديــث عــن ثــورة أبي يزيــد في حــدود الكيــان الثائــر، المتمــرد؛ الــذي لــم يصــل إلى مرتبــة الدولــة؛ لأنــه ــ حتى وإن كــاد أبــو يزيــد أن يقــضي عــلى الدولــة الفاطميــة ــ لا يمكــن وضــع كيانــه في مصــاف الــدول؛ إذ لــم يكــن ســوى ثائــر؛ حالفــه الحــظ أحيانــا، وخانــه أحيانــا أخــرى.

ــ إمــارة أبي خزر يغــلي بن زلتــاف الوسيــاني الإبــاضي: وهــو مــن علمــاء الإباضيــة الوهبيــن المعتدليــن. وقــد قــام هــذا الرجــل ــ مــع رفيقــه وصنــوه في العلــم ــ **أبــي نــوح سعيــد بــن زنغيــل الوسيــاني** ــ بثــورة مضــادة للــدولــة الفاطميــة؛ وذلــك في بــلاد قسطيليــة أيضــا سنــة 358هــ(968م). أي بعــد ثــلاث وعشريــن سنــة ــ تقريبــا ــ مــن مقتــل أبي يزيــد مخلــد بــن كيــداد. وتقــول المصــادر أن السبــب في تلــك الثــورة كــان بدافــع الثــأر؛ وليــس بحافــز عقائــدي أو سيــاسي. وحــدث ذلــك بعــد إعــدام أحــد علمــاء الإباضيــة الأعيــان ــ ظلمــا كمــا يقــال ــ مــن طــرف سلطــان الدولــة الفاطميــة ــ آنــذاك ــ المعــز لديــن اللــه تميــم ابــن إسماعيــل.

وهــذه الحركــة الإباضيــة ــ في الحقيقــة ــ لــم تصــل إلى درجــة الثــورة العارمــة؛ إذ كانــت عبــارة عــن عصيــان وسخــط عــلى سلطــان الدولــة الفاطميــة؛ الــذي قتــل ــ كمــا يعتقــدون ــ ظلمــا أحــد علمائهــم؛ وهــو أبــو القاســم يزيــد بــن مخلــد الوسيــاني.[1]

والجديــر بالملاحظــة هنــا؛ أن جــل المصــادر التاريخيــة السنيــة صمتــت عــن هــذه الحركــة، ولــم تشــر إليهــا؛ وقــد يكــون ذلــك بسبــب عــدم أهميتهــا، ونظــرا لقلــة تأثيرهــا عــلى الدولــة الفاطميــة. ولــم تتكلــم عنهــا ســوى المصــادر الإباضيــة؛ الــتي أضفــت عليهــا ــ بدورهــا ــ صفــة العصيــان القبــلي؛ احتجاجــا عــلى قتــل أحــد الأعيــان المبجليــن في: قسطيليــة، وبــلاد ريــغ، ومنطقــة الــزاب. لــذا فقــد نهــض الساخطــون في تلــك الجهــات؛ وطالبــوا بالثــأر لأبي القاســم. ويقــال أن الذيــن اجتمعــوا للقتــال؛ مــن مزاتــة وحدهــا اثنــا عشــر ألــف فــارس؛ باستثنــاء الراجليــن؛ الذيــن كــان عددهــم أكثــر

---

[1] **يقــول أبــو زكريــاء في هــذا الموضــوع: ((ذكــر أبــو الربيــع سليمــان بــن يخلــف رضي الله عنــه ؛ أن أبــا القاســم رضي الله عنــه تحــدث مــع يهــودي؛ فجــرى بينهمــا كــلام في أمــر أبي تميــم [المعــز لديــن اللــه] فقــال لــه أبــو القاســم رضي الله عنــه ليــس بيننــا وبينــه إلا يسيــرا؛ فنقــوم عليــه؛ ونخرجــه مــن تلــك المدينــة ــ إن شــاء اللــه ــ يعــني مدينــة القيــروان. فلمــا افترقــا قــام اليهــودي مبــادرا؛ فبلــغ قولــه لأبي تميــم. وبلــغ المشائــخ ما قالــه أبــو القاســم لليهــودي؛ فأتــوه وعاتبــوه عــلى ذلــك ولامــوه. وقالــوا لــه: "لــو كنــت عــلى ذلــك؛ فمثلــك لا يفــشي ســره، ولا يهتــك ستــره؛ أحســن اللــه عزاءنــا فيــك")). سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص ص: 210 ــ 211. وذكــر الدرجيــني الروايــة نفسهــا في طبقــات المشائــخ بالمغــرب؛ ج: 1، ص: 124.**

مـــن ذلـــك.[1] ويقـــول أبـــو زكريـــاء أن جمـــوع الثائريـــن عقـــدوا لأبي خـــزر ولايـــة الدفـــاع؛ بهـــدف المطالبـــة بـــدم أبي القاســـم. عـــلى أن يعقـــدوا لـــه ــ بعـــد تحقيـــق هدفهـــم الأول ــ ولايـــة الظهـــور؛[2] أي الولايـــة المعلنـــة صراحـــة.

ويبـــدو أن أبـــا خـــزر لـــم يكـــن عـــلى درجـــة مـــن الحنكـــة العسكريـــة. ذلـــك لأنـــه تســـرع في زحفـــه نحـــو باغـــاي. ويقـــول أبـــو زكريـــاء أنـــه لـــم ينتظـــر إمـــدادات أصحابـــه كلهـــم؛ الممثليـــن في جمـــوع أهـــل الـــزاب وورجـــلان.[3] وعليـــه فلـــم يكـــن في وسعـــه الصمـــود أمـــام قـــوة الأعـــداء؛ إذ أنـــه بعـــد أن حاصـــر باغـــاي ــ بعـــض الوقـــت ــ بقـــوة مـــن قبيلـــة مزاتـــة؛ تلـــك القـــوة الـــتي كانـــت في معظمهـــا تتشكـــل مـــن طلبـــة العلـــم؛ انتـــهى الأمـــر بهـــم جميعـــا إلى الهزيمـــة والهـــرب.

---

[1] **سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 216. وطبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج: 1، ص: 124.**

[2] **قـــال أبـــو زكريـــاء: ((ثـــم إن الشيـــخ أبـــا خـــزر (رضي الله عنـــه) عقـــدوا لـــه الولايـــة عـــلى الدفـــاع والطلـــب بحـــق الشيـــخ رضي الله عنـــه فـــإن أدركـــوا حاجتهـــم عقـــدوا لـــه ولايـــة الظهـــور)). سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 216.**

[3] **يقـــول أبـــو زكريـــاء: ((لمـــا استنفـــر أهـــل الـــزاب وأريـــغ وورجـــلان؛ خرجـــوا في جمـــوع عظيمـــة؛ فخـــرج خـــزرون بـــن فلفـــول؛ فلمـــا وصـــل خـــزرون ــ ومـــن معـــه ــ إلى الموضـــع الـــذي يقـــال لـــه أفـــودان تطـــلا (أو أفـــوداد لكـــلا)؛ كـــان بينـــه وبيـــن باغـــاي مسافـــة قصيـــرة ــ فيمـــا قيـــل واللـــه أعلـــم ــ سمـــع بخبـــر الهزيمـــة فرجـــع)). سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 218.**

على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة — التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان — أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار.

وبذلك انبثقت في وسطهم — فجأة — علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت — بفعل عواملها السلبية — في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في الآفاق.[1] عندها لم يجد قائد الثورة أبو خزر وصاحبه أبو نوح أمامهما من وسيلة؛ إلا الهرب والاختفاء ؛ متنكرين في الصحراء وجبل نفوسة؛ انتظارا وطمعا في عفو السلطان؛ الذي عفا عنهما فيما بعد.

---

[1] **قال أبو زكرياء واصفا ما جرى في باغاي: ((وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاتة؛ يقال لهم بنو يليان؛ على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة — فكان بينهم وبين (بدنة) [أو يدبة] ضغائن ودحول [أي مخادعات] وثارات — فلما التحم القتال؛ تنحت بنو يليان، وانحازوا إلى ناحية، وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلفت لهم لتستولي على أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيائهم؛ وجعلوا في أنفسهم الهزيمة؛ وانهزم العسكر)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 217. وقد أورد القصة الدرجيني بأسلوب واضح ومفصل، أنظر طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 129 — 130.**

وبهـذا القـدر مـن المعلومـات ــ حـول دور العصبيـة القبليـة في تشييـد دول الخـوارج، وتحريـك كياناتهـم الثائـرة ببـلاد المغـرب والأندلـس ــ يمكـن إنهـاء هـذا الفصـل؛ علـى أن يتبعـه ــ لاحقـا ــ فصـل آخـر، يعالـج موضـوع نشـأة الدول العلويـة بتأثيـر العصبيـة القبليـة بهـذه الديـار أيضـا.

****

الــدول العلويــة

المقصــود بالــدول العلويــة هي تلــك الــدول الــتي أنشأهــا أحفــاد عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه، أو المنتسبــون إليــه مــن أهــل الشيعــة. وقــد يحــدث أن تكــون الدولــة علويــة النســب؛ ولكنهــا سنيــة المذهــب. وهــذا هــو الخــط الفاصــل بينهــا وبيــن الدولــة الشيعيــة؛ ذات المذهــب المخالــف للمذاهــب السنيــة؛ في الجوانــب الكلاميــة والفقهيــة. أمــا الجانــب السيــاسي؛ الــذي ينــص عــلى وجــوب إسنــاد الإمامــة إلى عائلــة عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه؛ فهــو متفــق عليــه؛ بيــن أنصــار النموذجيــن مــن هــذه الــدول. ولا يدخــل في هــذا المجــال الــدول الشيعيــة الــتي يحكمهــا أمــراء مــن غيــر العلوييــن؛ مثــل: بــني زيــري أمــراء إفريقيــة والمغــرب، وبــني أبي الحسيــن أمــراء صقليــة.

بــدأت الخلافــات السياسيــة تظهــر، وتنمــو بيــن المسلميــن؛ منــذ اليــوم الأول لوفــاة رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وسلــم. وكــان منطلقهــا؛ اختلافهــم في اختيــار خليفــة لــه. فأهــل يثــرب قالــوا بأنهــم أجــدر النــاس بمنصــب الخلافــة؛ لكونهــم أنصــار محمــد عليــه الصــلاة والســلام. ولكــن المهاجريــن تصــدوا لهــم؛ وأعطــوا لأنفسهــم الحــق في الخلافــة؛ كونهــم أهــل رســول اللــه، وأسبــق الخلــق إسلامــا.

ولما توصل الطرفان إلى الاتفاق؛ على أن تكون الخلافة في قريش؛ ظهر فريق ثالث ينادي بأحقية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بمنصب الخلافة؛ نظرا لكونه ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. ثم شرعت كل جماعة في نشر آرائها خفية وجهارا. وانجر عن ذلك كله حدوث بعض الفتن بين المسلمين؛ بدءا بالفتنة التي قتل خلالها عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ ثم الفتن الدامية الأخرى؛ المشتعلة بين علي بن أبي طالب وخصومه؛ في وقعة الجمل، ووقعة صفين وغيرهما.

وبعد تمام الغلبة للأمويين؛ لم يستسلم العلويون، ولا شيعتهم؛ بل ظلوا في صف المعارضة؛ حتى سقوط الدولة الأموية؛ تحت ضربات الهاشميين، وحلفائهم. ولكن خلافا جديدا ظهر بين أهل البيت؛ وذلك عندما استبد بنو العباس بالسلطة، وانفردوا بها دون بقية الهاشميين؛ من أبناء على بن أبي طالب. وعليه فقد ثار – نتيجة لذلك – العلويون وشيعتهم – مرات عديدة – بسبب إحساسهم بالظلم والغبن.[1]

---

[1] **وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر في مقدمته؛ طبقا لنظريته عن العصبية؛ فقال: ((وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب؛ بعصبية بني عبد مناف... ثم تلاشت عصبية بني أمية؛ بما أصابهم من الترف؛ فانقرضوا. وجاء بنو العباس؛ فغضوا أعِنَّة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين، وشردوهم؛ فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم؛ فاستبد عليهم**

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب – من شتات وتشرد في الآفاق – أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرِفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت – بإصرار أصحابها، وبصبرهم – مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

****

أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعاناً للعصبية التي لهم، وأمناً أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة المقدمة، ج: 2، ص: 865.

1)ـ الدولـــة الإدريسيـــة:

نشـأت الدولــة الإدريسيــة بواسطــة إدريــس بــن عبــد اللــه الكامــل ابــن الحســن المثــنى ابــن الحســن السبــط ابــن عــلي كــرم اللــه وجهــه.[1] وذلــك سنــة 172هــ (788م) ببلــدة وليــلي في المغــرب الأقــصى؛ حيــث تــم ذلــك في حمايــة قبيلــة أوربــة البرنسيــة. ولمــا كــان إدريــس مــن أهــل النصــاب الملــكي؛ فقــد انقــادت إليــه هــذه القبيلــة الأمازيغيــة بسهولــة ويســر؛ وذلــك حينمــا قبــل أعضاؤهــا بتوليــه الحكــم فيهــم؛ ملكــا وإمامــا. وقــد تعــزز انقيادهــم وتحقــق قبولهــم بــه نظــرا لأنــه حفيــد لرســول اللــه محمــد صــلى اللــه عليــه وسلــم.

وهكــذا تحقــق ـ أيضــا ـ مــا قــرره ابــن خلــدون؛ مــن أنــه يحــدث لأهــل النصــاب الملــكي؛ أن يقيــم أحدهــم دولــة؛ بفضــل عصبيــة أخــرى؛ غريبــة عنــه؛ فتغنيــه عــن الحاجــة إلى عصبيتــه الخاصــة.[2] وهكــذا.. فقيــام الدولــة الإدريسيــة ببــلاد المغــرب جــاء ـ إذن ـ كنتيجــة طبيعيــة لمــا وصلــت إليــه عصبيــة بــني هاشــم

---

[1] **أنظــر جمهــرة أنســاب العــرب لابــن حــزم، ص: 49.**

[2] **وذلــك بقولــه: ((لمــا انتبــذ الطالبيــون مــن المشــرق إلى القاصيــة، وابتعــدوا عــن مقــر الخلافــة، وسَمَــوْا إلى طلبهــا مــن أيــدي بــني العبــاس؛ بعــد أن استحكمــت الصبغــة لبــني عبــد منــاف. لبــني أميــة أولا، ثــم لبــني هاشــم؛ مــن بعدهــم. فخرجــوا بقاصيــة المغــرب، ودَعَــوْا لأنفسهــم، وقــام بأمرهــم البرابــرة؛ مــرة بعــد أخــرى؛ فأوربــة، ومغيلــة؛ للأدارســة. وكتامــة، وصنهاجــة، وهــوارة؛ للعبيدييــن. فشيــدوا دولهــم، ومهــدوا بعصائبهــم أمرهــم. واقتطعــوا مــن ممالــك العباسيين المغــرب كلــه، ثــم إفريقيــة)). المقدمــة، ج: 2، ص: 635.**

المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهنِ والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر ـ هنا ـ بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون ـ في تلك الجهات ـ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بمؤازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث ـ بالفعل ـ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

---

[1] **يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضهم ـ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ـ في خلافة الرشيد ـ وهبط على الأمان، ثم سُم ومات. وأما إدريس ففر إلى المغرب؛ ودخل إليه ـ في أيامه ـ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة 170هـ؛ واستوطن وليلي ـ وكانت أزلية ـ**

ـ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ـ عندما نزل عليهم ـ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[1] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه لهذا المذهب.[2] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر من: زناتة وزواغة ولواتة ولماية وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود،

وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[1] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب إليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو أن ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين أشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2، ص: 8.

[2] المغرب، ص: 118.

وبايعته طوعا؛ على السمع والطاعة؛ اعترافا منها بفضله ونبله، وتبركا بنسبه الشريف. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أنها وجدت فيه عاملا هاما؛ يساعدها في كبح أطماع ولاة القيروان.

هذا ولم يبق إدريس في موقف المنتظر بعد إعلان البيعة له؛ بل نهض إلى الغزو والجهاد بمجرد إحساسه باكتمال قوته. فزحف على بقايا اليهود والنصارى والوثنيين؛ في: قندلاوة وبهلوانة وفازاز وتامسنا وشالة وتادلة. ولما أخضع تلك الديار بقبائلها؛ اتجه شرقا؛ حيث فتح تلمسان صلحا؛ بعد أن خرج إليه محمد بن خزر بن صولات المغراوي؛ طالبا الأمان، ومقدما بيعته، وبيعة أعيان قبيله، ووجوه تلمسان.[1]

وهكذا أصبحت الدولة الإدريسية قوة يحسب حسابها. فأحس الخليفة العباسي ـ هارون الرشيد ـ بالخطر الذي يمثله إدريس؛ بوجوده على رأس تلك الدولة النائية؛ والتي تزداد قوة وثراء كلما مر الزمن. كما تشتد صلابة وحصانة مع مرور الأيام؛ بفضل تلك القبائل الأمازيغية الملتفة حولها، والحارسة على أمنها وأمن عدوه. ولما شعر بهول الموقف؛ قرر من فوره اللجوء إلى الأسلوب المتاح لديه؛ والأكثر أمانا له ولجيوشه. ويتمثل ذلك الأسلوب في الخديعة والاغتيال.

---

[1] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 7 ـ 8. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ـ 192. والعبر، مج: 4، ص: 24.

لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ــ منذ أيام الدولة الأموية ــ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ــ بمعاونة مساعديه ــ قصد وضع خطة لقتل إدريس ابن عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان بن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

---

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الأنس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ــ عن نفسه وعن الخليفة ــ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: "إنما جيتك وحملت

وتم ــ بالفعل ــ ما خطط له يحيى بن خالد؛ إذ قام حريز الجزري هذا ــ بفضل ما كان يتمتع به من دهاء ومكر ــ بتنفيذ الخطة بدقة

نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ــ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ــ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ــ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ــ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان بن حريز؛ فركب في طلبه ــ في جماعة من أصحابه ــ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: 120 ــ 121. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: 8 ــ 10. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 192 ــ 194.

ودهاء؛ حيث سافر إلى أقصى المغرب؛ ومثل أمام إديس في وليلي؛ مقدما نفسه كنصير للعلويين، ومظهرا تشيعه لأهل البيت. ولما كان إدريس – كما تقول بعض المصادر – يعرف عنه بعض الأخبار التي تفيد بأنه زيدي المذهب؛ فقد سهل أمر اقترابه منه؛ دون حذر أو شك فيه. وبذلك تمكن من اغتيال إدريس بن عبد الله؛ بعد أن كسب ثقته التامة. إذ يقال أنه ناوله سما؛ زعم أنه دواء ناجع لألم الأسنان. وربما يكون ما قدمه إليه هي زجاجة من الطيب المسموم؛ كما جاء في رواية ثانية. وثمة أيضا أقوال كثيرة أخرى لا تهم هنا. والخلاصة هي أن وفاة إدريس الأول حدثت بوليلي سنة 175هـ (791م)؛ بعد أن حكم الدولة ثلاثة أعوام ونصف. ولما مات إدريس؛ نصب رؤساء القبائل الفاعلة في الدولة راشدا وصيا على العرش. في انتظار اليوم الذي تلد فيه زوجة إدريس التي كانت حاملا آنئذ؛ حيث سيعرف عندئذ جنس المولود المنتظر؛ وعندها يقررون مصير الدولة بصفة نهائية.[1]

---

[1] **في هذا يقول ابن زرع: ((لم يكن لإدريس – حين وفاته – ولد؛ إلا وليدة تركها حبلى. – قال عبد الملك بن محمود الوراق – في كتاب المقباس – والبكري، والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة: " أن الإمام إدريس بن عبد الله — لما توفي – لم يترك ولدا مولودا؛ إلا أنه ترك جارية له – مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة – حاملا منه؛ في الشهر السابع من حملها. فجمع راشد رؤساء القبائل، ووجوه الناس – بعد فراغه**

ـ حكومـــة إدريـــس الثـــاني:

هـــذا ولـــم يحقـــق هـــارون الرشيـــد هدفـــه الأســـاسي؛ عـــلى الرغـــم مـــن كـــل مـــا حشـــده؛ مـــن تحرشـــات ومؤامـــرات؛ بغـــرض القضـــاء عـــلى الدولـــة الإدريسيـــة، والإطاحـــة بهـــا؛ خاصـــة بعـــد مقتـــل أميرهـــا ومؤسسهـــا إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه. إذ أنهـــا تمكنـــت من البقـــاء والاستمـــرار في الوجـــود؛ خاصـــة بعـــد ميـــلاد ولي العهـــد الـــذي ســـمي ـ أيضـــا ـ إدريســـا؛ تيمنـــا بأبيـــه وإحيـــاء لذكـــراه. بـــل ظهـــر ـ كذلـــك ـ أن هـــذه الدولـــة تعـــزز شأنهـــا، وشـــاع ذكرهـــا، وقـــوي ملكهـــا، واستفحـــل أمرهـــا في عهـــد إدريـــس بـــن إدريـــس؛ خاصـــة عندمـــا أضـــحى عاهـــل الدولـــة ـ هـــذه المـــرة ـ يجمـــع بيـــن عصبيتيـــن: الهاشميـــة والأمازيغيـــة. إذ أصبـــح لـــه فضـــل أبيـــه؛ بنسبـــه الشريـــف، إلى جانـــب مـــا لـــه مـــن لحمـــة وانتســـاب للأمازيـــغ؛ بحكـــم نســـب أمـــه؛ الـــتي ينسبهـــا بعضهـــم إلى قبيلـــة نفـــزة البترية؛ أو قبيلـــة أوربـــة البرنسيـــة كمـــا يـــرى آخـــرون. هـــذا وقـــد سهـــر الـــوصي عـــلى إدريـــس

مـــن دفـــن إدريـــس ـ فأخبرهـــم أن إدريـــس لـــم يتـــرك ولـــدا؛ إلا حمـــلا بجاريتـــه كنـــزة؛ وهي في الشهـــر السابـــع مـــن حملهـــا؛ فـــإن رأيتـــم أن تصبـــروا عـــلى الجاريـــة حـــتى تضـــع حملهـــا؛ فـــإن كـــان ذكـــرا ربينـــاه؛ فـــإذا بلـــغ مبلـــغ الرجـــال؛ بايعنـــاه تبركـــا بأهـــل البيـــت، وذريـــة رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم؛ وإن كانـــت جاريـــة؛ نظرتـــم لأنفسكـــم مـــن ترونـــه أهـــلا لذلـــك. فقالـــوا لـــه: " أيهـــا الشيـــخ المبـــارك؛ مالنـــا رأي إلا مـــا رأيـــت؛ فإنـــك عندنـــا عـــوض مـــن إدريـــس... حـــتى تضـــع هـــذه الجاريـــة)). الأنيـــس المطـــرب، ص: 10. أنظـــر أيضـــا: المغـــرب، ص: 122. وأعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص: 195.

وعلى ملكه ــ مولاه راشد ــ في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها ــ ولاة القيروان ــ والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائياً ــ بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد ــ شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي ــ أيضا ــ إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا ــ مرة أخرى ــ يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم.

---

[1] وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها إلى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْدِ أَرْدَيْتُ رَاشِداً
وَإنِّي بِأُخْرَى لابْنِ إدْرِيسَ رَاصِدُ
تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ
بِمَحْتُومَةٍ قَدْ هَيَّأَتْهَا المَكَايِدُ
وَتَاهَ أَخُو عَكٍّ بِمَهْلَكِ رَاشِدٍ
وَقَدْ كُنْت فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ

وعليه فقد توصل ابن الأغلب ــ والي العباسيين على القيروان ــ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ــ بعد فترة سيأتي ذكرها ــ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ــ مع مرور الوقت ــ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[1] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ــ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ــ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب، والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[2]

---

[1] كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فأنزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الأنيس المطرب، ص: 29.

[2] فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ــ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ــ فسر إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر؛ فاعتز بهم؛ لأنه

غير أن هذا السلوك أغضب شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ فطفح كيله في هذه المرة؛ وتململت عصبيته؛ خاصة أنه سبق أن استاء من تصرف إدريس الثاني؛ بعد أن رأى قبيلته وأهل عصبيته يفقدون ــ يوما بعد يوم ــ مواقعهم المتميزة؛ وأخذت حظوتهم السابقة في البلاط تتلاشى.

وذلك أنه بعد اتساع نفوذ الدولة، وانضمام قبائل أمازيغية عديدة (بترية وبرنسية) إليها؛ نال بعضهم حظوة عظيمة، وقربا ملحوظا في بلاط الإمام إدريس. فلم يستسغ شيخ أوربة هذا الأمر؛ ولكنه سكت على مضض. غير أنه رأى ــ مرة أخرى ــ تماديا؛ في ذلك السلوك الذي اعتبره مجحفا ومثيرا. فلم يتقبل ما شاهده من حظوة وعناية تلاقيهما وفود العرب؛ تلك الحظوة التي كانت في السابق موقوفة عليه، وعلى قومه لا غير. نظرا لكونهم أصحاب الفضل الأول في قيام الدولة.

كان فريدا بين البربر؛ ليس معه عربي؛ فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي؛ وكان من فرسان العرب وساداتهم؛ ولأبيه مصعب مأثرة عظيمة بإفريقية والأندلس، ومشاهد في غزو الروم كثيرة. واستقضا منهم عامر بن محمد ابن سعيد القيسي ــ من قيس غيلان ــ وكان رجلا صالحا ورعا فقيها؛ سمع مالكا وسفيان الثوري، وروى عنهم[ا] كثيرا؛ ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد؛ ثم جاز إلى العدوة؛ فوفد بها على إدريس؛ فيمن وفد عليه من العرب)). الأنيس المطرب، ص: 13.

وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان مصير شيخ أوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان ـ الثاني في الدولة ـ لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد ـ بنفسه ـ الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[2]

---

[1] المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.

[2] حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية

وبعد هذا تفاقمت عزلة أوربة، وازداد نفوذها ضعفا وفتورا. حدث ذلك ـ على الخصوص ـ بعد انتقال عاصمة الدولة من وليلي إلى مدينة فاس ـ الحاضرة الجديدة للدولة ـ وهي التي أنشأها إدريس الثاني لهذا الغرض؛ حتى تستوعب القبائل التابعة للدولة جميعها؛ خاصة وأن من القبائل ـ التي التحقت بخدمة الدولة الإدريسية ـ ما يفوق قبيلة أوربة عددا وعدة. فتعزز بهم مركز مدينة فاس، وازدهر العمران بها، وأينعت حضارتها، فغدت مصدر إشعاع حضاري وثقافي عظيم بالمغرب. وقد ساعدها مركزها المتميز، وموقعها الجيد، وثرواتها: المائية والفلاحية والمعدنية؛ على مضاهاة كبريات الحواضر الإسلامية آنئذ.[1]

بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب؛ لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد؛ فيركب صعبا من الأمر)). المقدمة، ج: 2، ص: 664.

[1] **أنظر الأنيس المطرب؛ ففيه عرض وافي لمدينة فاس.**

وعندما يئس الأغالبة من تفكيك وحدة القبائل المناصرة للأدارسة؛ وأحسوا بالعجز في القضاء على دولتهم؛ تحولوا إلى استعمال سلاح آخر؛ وهو سلاح الإشاعة، والحرب النفسية؛ إذ عملوا على بث الشك في انتساب إدريس الثاني إلى الهاشميين؛ وذلك بنشر إشاعة مفادها أنه ابن راشد الوصي؛ ولكن سعيهم هذا باء بالفشل أيضا.[1]

هذا وتوفي إدريس بن إدريس بوليلي سنة 213هـ (828م) مختنقا بحبة عنب؛ تسربت في مجرى الهواء بحلقومه.[2] وأولاد إدريس الثاني هم: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداود،

---

[1] ومما يدخل في سياق هذه الإشاعة الواهية؛ قول أحدهم؛ ويسمى محمد بن السمهري؛ يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس أمير بصرة وطنجة ونواحيهما:

قُـلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيـمِ طَنجَة عِـشْ بهَـا
لاَ يَحْسدَنَّـكَ فِي بِـلاَدِكَ حَاسِـدُ
مَنَّتْـكَ نَفْسـُكَ أنْ تَكـُونَ خَلِيفـَةَ
هَيْهَـاتَ هَـذا مِـنْ حَدِيثِـكَ بَـارِدُ
لَمَّـا رَأَيْتـُكَ لِلِّئَـامِ مُصَافِيـاً
أَيْقَنْـتُ حَقـًّا أنْ جَـدَّكَ رَاشِـدُ

وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: ((وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة؛ ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير؛ بالغض من إدريس، والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس؛ بما هو أوهن من خيوط العناكب)). العبر ، مج: 4، ص: 27.

[2] المغرب، ص: 123.

ويحـــيى، والحســـن، والحسيـــن، وعيـــسى، وعمـــر، وجعفـــر، وحمـــزة، والقاســـم.[1]

ـ حكومـــة محمـــد بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس:

ولمـــا تـــوفي إدريـــس الثـــاني خلفـــه ولـــده محمـــد؛ الـــذي قـــام بتقسيـــم مقاطعـــات الدولـــة بيـــن اخوتـــه؛ تبعـــا لوصيـــة جدتـــه كنـــزة أم إدريـــس. إذ أبـــقى لنفســـه حاضـــرة الدولـــة (مدينـــة فـــاس)؛ بينمـــا خـــص أخـــاه القاســـم بطنجـــة وبصـــرة ونواحيهمـــا، أمـــا صنهاجـــة وغمـــارة فكانتـــا مـــن نصيـــب أخيـــه عمـــر، وبـــلاد هـــوارة وتســـول وتـــازي لأخيـــه داود، وأغمـــات ونفيـــس والمصامـــدة ولمطـــة والســـوس الأقـــصى لعبـــد اللـــه، وأصيـــلا والعرائـــش وبـــلاد زواغـــة ليحـــيى، وشالـــة وســـلا وأزمـــور وتامسنـــا لعيـــسى، ووليـــلي وأعمالهـــا لحمـــزة.[2] أمـــا تلمســـان وبعـــض الجهـــات مـــن المغـــرب الأوســـط فكانـــت مـــن نصيـــب بـــني عمـــه سليمـــان بـــن

---

[1] الجمهـــرة، ص: 49. أمـــا البكـــري وابـــن أبي زرع فأسقطـــا اســـمي الحســـن والحسيـــن؛ وذكـــرا البقيـــة؛ وكـــان عددهـــم اثـــني عشـــر ولـــدا ذكـــرا هـــم: محمـــد وأحمـــد وعبيـــد اللـــه وعيـــسى وإدريـــس وجعفـــر وحمـــزة ويحـــيى وعبـــد اللـــه والقاســـم وداود وعمـــر. المغـــرب، ص ص: 123 ـ 124. الأنيـــس المطـــرب، ص: 27. وحـــتى ابـــن الخطيـــب ذكـــر أن عددهـــم اثنـــا عشـــرة؛ ولكنـــه لـــم يسمهـــم. أعمـــال الأعـــلام، ق: 3، ص: 202.

[2] أنظـــر المغـــرب، ص: 124. والأنيـــس المطـــرب، ص: 28. أعمـــال الأعـــلام، ق: 3، ص ص: 202 ـ 205.

والعبـــر، مج: 4، ص ص: 27 ـ 28.

عبـد اللـه.[1] وقـد نتـج عـن هـذا التصـرف بعـض المشاكـل؛ إذ شجـع بعـض اخوتـه عـلى المطالبـة بالمزيـد، ومحاولـة الاستبـداد بمـا تحـت أيديهـم. فأعلنـوا العصيـان والثـورة عليـه. عندهـا نشبـت الفتـن بينهـم؛ غيـر أن أخـاه عمـر بـقي وفيـا لـه؛ فكلفـه بمحاربـة إخوانـه العصـاة؛ فنفـذ لـه أمـره؛ ولمـا حقـق لـه مـا أراد؛ جـازاه خيـر الجـزاء؛ إذ ضـم إليـه ولايـات اخوتـه العاصيـن. وعمـر هـذا هـو جـد ملـوك بـني حمـود؛ الذيـن امتلكـوا الأندلـس بعـد سقـوط الدولـة الأمويـة. وكانـت وفـاة عمـر في عـام 220هـ (835م) ودفـن بفـاس. فأسنـد محمـد أعمـال أخيـه عمـر لولـده عـلي ابـن عمـر؛ ولـم تطـل الحيـاة بمحمـد هـو الآخـر؛ إذ التحـق بأخيـه عمـر سنـة 221هـ. وذكـر ابـن الخطيـب مـن أولاد محمـد بـن إدريـس ثلاثـة هـم: عـلي وإدريـس وعبـد اللـه.[2] أضـف إليهـم الأميـر يحـيى الـذي خلـف أخـاه عليـا فيمـا بعـد.

[1] **العبـر، مج: 4، ص: 28. غيـر أن ابـن الخطيـب يقـول أن الـذي ولي تلمسـان هـو حمـزة. والراجـح أنـه أخطـأ. أعمـال الأعـلام، ق: 3، ص: 205.**

[2] **أعمـال الأعـلام، ق: 3، ص: 207. يبـدو أن هنـاك أسمـاء أخـرى لـم يذكرهـا ابـن الخطيـب؛ وإلا فكيـف نفسـر تـولي مـن يـدعى يحـيى بـن محمـد بعـد أخيـه عـلي؟**

ـ حكومـــة ابـــني محمـــد: عـــلي ويحـــيى:

وخلـــف محمـــدا ـ بعـــد وفاتـــه ـ ابنـــه عـــليٌّ؛ وكـــان يلقـــب بحيـــدرة؛ تيمنـــا بجـــد العلويـيـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب كـــرم اللـــه وجهـــه. ونسبـــت المصـــادر لعـــلي هـــذا ـ عـــلى الرغـــم مـــن صغـــر سنـــه؛ إذ كـــان سنـــة عنـــد توليـــه تسعـــة سنـــوات وأربعـــة أشهـــر ـ النباهـــة والفطنـــة والذكـــاء؛ كمـــا يقـــال أن أيـــام حكمـــه مـــرت في هـــدوء وسكينـــة وهنـــاء.[1] ويرجـــح أن السمعـــة الحسنـــة الـــتي أضفيـــت عـــلى عهـــده؛ ترجـــع في الأســـاس إلى سهـــر القائميـــن عـــلى تسييـــر دولتـــه؛ مـــن رجـــال بـــلاط أبيـــه. هـــذا وتـــولى ـ بعـــد موتـــه سنـــة 234هــ (848م) ـ أمـــر الدولـــة أخـــوه يحـــيى بـــن محمـــد.[2] فقـــام بشئـــون الدولـــة عـــلى أحســـن وجـــه؛ إذ تجلـــت عظمـــة الدولـــة

---

[1] **قـــال فيـــه ابـــن خلـــدون: ((بعـــد أن استخلـــف ولـــده عليـــا ـ في مرضـــه ـ وهـــو ابـــن تســـع سنيـــن؛ فقـــام بأمـــره الأوليـــاء والحاشيـــة مـــن العـــرب وأوربـــة وسائـــر البربـــر وصنائـــع الدولـــة وبايعـــوه غلامـــا مترعـــا؛ وقامـــوا بأمـــره، وأحسنـــوا كفالتـــه وطاعتـــه؛ فكانـــت أيامـــه خيـــر أيـــام)). العبـــر، مج: 4، ص: 29.**

[2] **هنـــا يختلـــف المؤرخـــون حـــول مـــن تـــولى الحكـــم بعـــد عـــلي بـــن محمـــد. فالبكـــري وابـــن الخطيـــب يقـــولان بـــان الـــذي خلـــف عـــلي هـــو ابـــن أخيـــه يحـــيى بـــن يحـــيي ابـــن محمـــد. أمـــا ابـــن أبي زرع وابـــن خلـــدون فيريـــان أن الـــذي تـــولي الحكـــم هـــو يحـــيى بـــن محمـــد نفســـه. ومـــن جهـــة أخـــرى فقـــد تجاهـــل ابـــن عـــذاري تمامـــا ولايـــة عـــلي بـــن محمـــد؛ إذ انتقـــل مباشـــرة إلى أخيـــه يحـــيى. وبذلـــك تعتبـــر الفتـــرة الـــتي تلـــت مـــوت محمـــد بـــن إدريـــس سنـــة 221هــ؛ وحـــتى قيـــام حكومـــة يحـــيى ابـــن إدريـــس بـــن عمـــر بـــن إدريـــس سنـــة 292هــ شديـــدة الغمـــوض والإبهـــام. أنظـــر: المغـــرب، ص: 124. والبيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 211. والأنيـــس المطـــرب، ص: 29. وأعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص: 207. والعبـــر، 29.**

الإدريسية في عهده كما قيل.[1] حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحيى بن محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: ((**وهلك يحيى هذا سنة**....)).[2]

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ــ 30.

[2] العبر، مج: 4، ص: 30.

كما أن المصادر كلها خلت المصادر من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة ـ حسب قولهم ـ من عهد الدولة الإدريسية.

ـ حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى ابن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم ـ بعد ذلك ـ والد زوجته، وابن عمه عليٌّ بن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

ـ حكومـــة عـــلي بـــن عمـــر بـــن إدريـــس:

كـــان هـــذا الأميـــر يحكـــم بـــلاد الريـــف؛ ولمـــا ثـــار سكـــان فـــاس عـــلى أميرهـــم يحـــيى؛ استـــدعى أعيـــان الدولـــة عليـــا هـــذا ليتـــولى الحكـــم بفـــاس؛ فقـــدم إليهـــا في ظـــروف غامضـــة؛ حيـــث بويـــع مـــن طـــرف أهـــل الحـــل والعقـــد. ولـــم تشـــر المصـــادر المتوفـــرة إلى تاريـــخ ولايتـــه، ولا تاريـــخ سقـــوط حكمـــه. وكـــل مـــا ذكـــر هـــو أن الدولـــة في عهـــده مـــرت بمراحـــل حرجـــة ـ نتيجـــة لظـــروف خارجيـــة وداخليـــة ـ ســـادت فيهـــا الاضطرابـــات والفتـــن بيـــن الأميـــر عـــلي وبعـــض الثـــوار مـــن الصفريـــة؛ بقيـــادة عبـــد الـــرزاق الفهـــري الخـــارجي؛[1] الـــذي كـــان متمركـــزا بجبـــال ويـــلان بمديونـــة؛ جنـــوب فـــاس. فتغلـــب هـــذا الثائـــر الصفـــري عـــلى عـــلي بـــن عمـــر، وأخرجـــه مـــن فـــاس؛ ثـــم اضطـــره للفـــرار إلى بـــلاد أوربـــة. هـــذا ولـــم يتمكـــن عبـــد الـــرزاق الصفـــري مـــن الاستيـــلاء عـــلى عـــدوة القيروانييـــن؛ فاكتـــفى بعـــدوة الأندلسييـــن؛[2] حيـــث بـــقي فيهـــا إلى أن ظهـــر الأميـــر يحـــيى بـــن القاســـم. وهـــو كمـــا يظهـــر مـــن اسمـــه يتبـــع الفـــرع الثـــالـــث مـــن أبنـــاء إدريـــس؛ أي فـــرع القاســـم ابـــن إدريـــس.

---

[1] سبـــق الحديـــث عنـــه عنـــد التطـــرق للأمـــراء الثائريـــن مـــن الخـــوارج؛ في الفصـــل السابـــق.

[2] تبـــقى الفتـــرة الزمنيـــة الفاصلـــة مـــا بيـــن مـــوت عـــلي بـــن محمـــد؛ وتـــولي يحـــيى ابـــن إدريـــس بـــن عمـــر غامضـــة وغيـــر واضحـــة المعالـــم. والمصـــادر التاريخيـــة كلهـــا تتخلـــص مـــن الموضـــوع بجمـــل خاطفـــة لا تفيـــد.

ـ حكومة يحيى بن القاسم بن إدريس:

ولما انهزم علي بن عمر أمام عبد الرزاق الصفري؛ ودخول هذا الأخير عدوة الأندلسيين؛ أرسل أهل العدوة الأخرى في طلب يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس الملقب بالمقدام أو العدام؛[1] وقد تمكن هذا الأمير الحازم من استرجاع عدوة الأندلسيين؛ بعد أن طرد منها الخوارج. وشدد ـ من هناك ـ الضغط على أولئك الثوار الصفرية، ولاحقهم في معاقلهم، وكانت له معهم وقائع هامة؛ ولكنه لم يهنأ طويلا؛ إذ اغتاله شخص سمته المصادر ـ دون توضيح يذكر ـ بالربيع بن سليمان سنة 292هـ (904م). وبموته عاد عرش الدولة إلى أسرة عمر بن إدريس مرة أخرى؛ من خلال الأمير يحيى بن إدريس بن عمر. وعلى الرغم من الأحداث الكبرى التي عرفتها هذه الفترة ـ ولو كانت قصيرة ـ فإن المصادر التاريخية وقفت عاجزة عن تقديم شيء مهم للقارئ.

---

[1] يقول البكري وابن الخطيب: أنه عرف باسم العدام، أما ابن أبي زرع وابن عذاري فيسميانه العوام، أما ابن خلدون فيسميه الصرام. ويبدو أن الاسم تعرض للتحريف.

ـ حكومـــة يحـــيى بـــن إدريـــس بن عمـــر بن إدريـــس:

وهكــذا رجــع الحكــم في فــاس ـ مــن جديــد ـ إلى أســرة عمــر بــن إدريــس؛ وذلــك بعــد أن انتصــب يحــيى بــن إدريــس بــن عمــر بــن إدريــس صاحــب الريــف عــلى عــرش فــاس ســنــة 292هـ (904م). فقــام هــذا الأميــر بأمــر الدولــة خيــر قيــام.[1] وأعلنــت الخطبــة بطاعتــه في بــلاد المغــرب الأقــصى بكاملهــا. وتعتبــر المصــادر الأميــر يحــيى هــذا أفضــل بــني إدريــس شأنــا، وأوسعهــم ملكــا، وأهمهــم ذكــرا، وأعلاهــم قــدرا، وأزكاهــم عــدلا؛ نظــرا لسعــة علمــه، وفضــل أدبــه، وســداد فقهــه، وفصاحــة لسانــه، وصــواب حفظــه للحديــث الشريــف.[2] ومــع هــذا لــم يسعفــه الحــظ

---

[1] وفيــه يقــول ابــن خلــدون نقــلا عــن ابــن زرع بتصــرف: ((فملــك جميــع أعمــال الأدارســة، وخطــب لــه عــلى سائــر أعمــال المغــرب، وكــان أعــلى بــني إدريــس ملكــا وأعظمهــم سلطانــا؛ وكــان فقيهــا، عارفــا بالحديــث؛ ولــم يبلــغ أحــد مــن الأدارســة مبلغــه في السلطــان والدولــة. وفي أثنــاء ذلــك كلــه خلــص الملــك للشيعــة بإفريقيــة، وتغلبــوا عــلى الإسكنــدريــة، واختطــوا المهديــة ـ كمــا نذكــره في دولــة كتامــة ـ ثــم طمحــوا إلى ملــك المغــرب؛ وعقــدوا لمصالــة بــن حبــوس كبيــر مكناســة، وصاحــب تاهــرت عــلى محاربــة ملوكــه سنــة خمــس وثلاثمائــة؛ فزحــف إليــه في عساكــر مكناســة وكتامــة؛ وبــرز لمدافعتــه يحــيى بــن إدريــس صاحــب المغــرب بجموعــه مــن المغــرب، وأوليــاء الدولــة مــن أوربــة، وسائــر البرابــرة والمــوالي؛ فالتقــوا عــلى مكناســة، وكانــت الدبــرة عــلى يحــيى وقومــه؛ ورجــع إلى فــاس)). العبــر، مج: 4، ص: 31. الأنيــس المطــرب، ص: 48.

[2] كتــب البكــري: ((قــال عــلي النوفــلي: "كــان يشهــد مجلــس يحــيى بــن إدريــس العلمــاء والشعــراء؛ وكــان أبــو احمــد الشافــعي مــن جلسائــه، وممــن يتكلــم عنــده في العلــم؛ وكــان ينســخ لــه عــدة الوراقيــن، وينتجعــه النــاس مــن الأندلــس وغيرهــا؛ فيحســن إلى جميعهــم، وينصرفــون عنــه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة ابن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى إفريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثـرَتْ سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسي بن أبي العافية ــ صاحب تسول وبلاد تازا ــ قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد

وهكـذا ظهـر أنـه كمـا قامـت الدولـة الإدريسيـة بواسطـة عصبيـة قبيلـة أوربـة البرنسيـة؛ شـاءت لهـا الأقـدار أن تتفكـك، وتنهـار بواسطـة عصبيـة قبيلـة أخـرى منافسـة؛ وهي قبيلـة مكناسـة؛ الـتي انضمـت إلى حلـف: كتامـة وصنهاجـة؛ المسخـر لخدمـة الدولـة الفاطميـة. تـم ذلـك حيـن أرسـل عبيـد اللـه المهـدي قائـد جيوشـه؛ مصالـة بـن حبـوس بـن منـازل بـن بهلـول المكنـاسي إلى فـاس؛ بغـرض إخضاعهـا. فتمكـن مـن الانتصـار عـلى الأدارسـة ــ كمـا سبـق ذكـره ــ حيـث انتـزع بيعتهـم للمهـدي سنـة 305هـ (917م). ولكـن أضـاف بعـض الأشيـاء الـتي أوحـت بهـا إليـه عصبيتـه المكناسيـة؛ إذ استهوتـه فكـرة تقسيـم النفـوذ والسلطـان ــ في تلـك الديـار ــ بيـن الأدارسـة وأهـل عصبيتـه الممثليـن في قبيلـة مكناسـة. فبـادر ــ مـن فـوره ــ إلى منـح شيـخ مكناسـة ــ مـوسى بـن أبي العافيـة ابـن أبي باسـل بـن أبي الضحـاك المكنـاسي ــ

الظهـور بالمغـرب والاستبـداد فيـه؛ غمـره يحـيى بـن إدريـس الحسـني؛ بشرفـه وكرمـه ودينـه وعدلـه؛ وقطـع بـه عـلى كـل مـا يريـد؛ فكـان عـلى قلبـه منـه حمـلا ثقيـلا. فلمـا قـدم مصالـة المغـرب في كرتـه الثانيـة؛ وذلـك في سنـة تسـع وثـلاث مائـة؛ سـعى مـوسى بـن أبي العافيـة بيحـيى بـن إدريـس عنـده؛ حـتى وغـر صـدره عليـه؛ فعـزم مصالـة عـلى القبـض عليـه. فلمـا قـرب مـن مدينـة فـاس؛ خـرج إليـه الأميـر يحـيى بـن إدريـس ليسلـم عليـه ــ في قـوم مـن وجـوه عسكـره ــ فقبـض عليهـم مصالـة؛ وقيـد يحـيى بالحديـد. ودخـل مصالـة مدينـة فـاس؛ ويحـيى بـن إدريـس بيـن يديـه مقيـدا عـلى جمـل؛ فعذبـه بأنـواع مـن العـذاب؛ حـتى أخـرج إليـه جميـع أموالـه وذخائـره. فلمـا قبـض مصالـة الأمـوال أطلقـه ونفـاه إلى ناحيـة مدينـة أصيـلا)). الأنيـس المطـرب، ص ص: 48 ــ 49.

ما طلبه من نفوذ واسع خارج أسوار فاس. وفي المقابل حصر نفوذ الدولة الإدريسية داخل تلك الأسوار. وهنا اشتعل الصراع بين القبيلة الفتية؛ المتطلعة إلى الملك، وبين الدولة التي تسرب إليها الوهن والانحلال. فكان هذا الإجراء ــ المتخذ من طرف مصالة ــ يعتبر بمثابة الضوء الأخضر؛ الذي أطلق يد ابن عمه موسى بن العافية؛ لكي يتحرش بيحيى بن إدريس أمير الأدارسة. وعليه فقد وجد ابن أبي العافية فرصة مواتية لمواصلة استفزازه وتحرشه بالأدارسة. وذلك لأنه لم يقتنع بما حصل عليه من نفوذ وسلطات ورئاسة؛ إذ كان ــ في الحقيقة ــ يطلب مرتبة الملك نفسه؛ ذلك الملك الذي تسعى إليه كل عصبية تحس في ذاتها القدرة على الوصول إليه. فالعصبية المكناسية في هذه الحال ينطبق عليها ما جاء في مقدمة ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1]

---

[1] حيث يقول: ((ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها؛ طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإذا كافأتها، ومانعتها كانوا أقتالا وأنظارا؛ ولكل واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها الدولة. فإن أدركت الدولة في هَرَمِهَا ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجْمَعُ لها. وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل

وهكـذا استمـر مـوسى بـن العافيـة في إلحاحـه علـى ابـن عمـه مصالـة؛ حـتى حقـق لـه مآربـه كلهـا. حـدث ذلـك عندمـا قـدم في المـرة الثانيـة إلى غـرب البـلاد؛ أيـن قبـض علـى أميـر الدولـة الإدريسيـة يحـيى بـن إدريـس؛ في سنـة 309هـ (921م)؛ بخديعـة دبرهـا وأحكمهـا؛ ثـم سلـط عليـه صنوفـا مـن العـذاب والإهانـة. كمـا سلبـه ذخائـره وممتلكاتـه؛ وبعدهـا نفـاه إلى أصيـلا؛ حيـث سـاءت حالـه؛ واشتـدت عزلتـه؛ وتعاظمـت حاجتـه، وازداد فقـره؛ فخـرج منهـا إلى الريـف في رعايـة بـني عمـه الأدارسـة هنـاك؛ ولكنـه قـرر بعـد ذلـك التوجـه إلى إفريقيـة؛ طمعـا في استعطـاف السلطـان الفاطـمي؛ فاعتـرض طريقـه مـوسى ابـن العافيـة؛ وسجنـه عنـده زهـاء عشـر سنيـن، ثـم أطلـق سراحـه؛ فسـار إلى المهديـة ــ الـتي كانـت آنئـذ محاصـرة مـن قبـل أبي يزيـد صاحـب الحمـار ــ فمـات بهـا جوعـا وكمـدا سنـة 332هـ (943م).[1] أمـا فـاس فقـد ولى مصالـة عليهـا ريحـان بـن علـي الكتـامي؛ إلى أن قـام عليـه أميـر آخـر مـن أسـرة الأدارسـة.

العصبيـات انتظمتهـا الدولـة في أوليائهـا؛ تستظهـر بهـا علـى مـا يعـن مـن مقاصدهـا)). المقدمـة، ج: 2، ص: 610.

[1] المغـرب، ص: 126. والأنيـس المطـرب، ص: 49. والعبـر، مج: 4، ص: 32.

ـ حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي آخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[1] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاَّه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[2] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِيتُ حَجَّاماً وَلسْتُ بحَاجِمٍ

وَلَكنْ لِضَرْبِي فِي مكانِ المَحَاجِمِ

---

[1] يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.

[2] أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى بن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد ابن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام.

---

[1] **الأنيس المطرب، ص: 50. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 213. والعبر، مج: 4، ص: 32.**

ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فرّ منه.[1]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد بن حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[2] وذكر ابن حزم من ذرية

---

[1] **المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.**

[2] **رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الأدارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد ابن القاسم ـ أخي الحسن ـ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر**

الحسن الحجام: ((**القاسم بن محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري**)).[1]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسن الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تُجْدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: ((**وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض**)).[2]

ابن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ـــ 33.

[1] الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.

[2] المقدمة، ج: 2، ص: 666.

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ ــ وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع ــ إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن ــ كما سبق ذكره ــ وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص**".[1] وفي النهاية، وبعد مد

---

[1] حيث يقول: ((أما أعمار الدول ــ أيضا ــ وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة ــ في الغالب ــ لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من آية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو ــ في الغالب ــ ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم ــ بالملك والترفه ــ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون

وجــزر؛ خلــص الأمــر إلى سقــوط مــا بــقي مــن قـــلاع للصمــود في الدولـــة الإدريسيـــة؛ تحــت ثقــل الدولـــة الأمويـــة بالأندلـــس سنـــة 365هـــ (975م). ولكــن كيــف حـــدث كــل ذلـــك..؟

****

ـ عصــر التفكــك والشتـــات:

أخــذت الدولـــة الإدريسيـــة في التفكــك إلى أجـــزاء صغيـــرة، وأطـــراف منفصلـــة؛ اعتبـــارا مـــن تاريـــخ سقـــوط حكومـــة الحســـن الحجـــام؛ أي في بدايـــة العقـــد الثـــاني مـــن القـــرن الرابـــع الهجـــري ـ حيـــث غـــدت تشبـــه قطـــرة مـــن زئبـــق سقطـــت عـــلى مسطـــح؛ فتفتتـــت إلى جزيئـــات؛ تناثـــرت في كـــل الجهـــات. ومـــع هـــذا فقـــد بقيـــت خلايـــا تلـــك الدولـــة تنبـــض بالحيـــاة؛ وإن تفككـــت

عــلى رجــاء مــن مراجعــة الأحــوال الــتي كانــت للجيــل الأول؛ أو عــلى ظــن مــن وجودهــا فيهــم. وأمــا الجيــل الثالــث فينســون عهــد البــداوة والخشونــة كــأن لــم تكــن، ويفقــدون حــلاوة العــز والعصبيــة؛ بمــا هــم فيــه مــن ملكــة القهــر؛ ويبلــغ فيهــم التــرف غايتــه؛ بمــا تفنقــوه [أي تنعمــوا] مــن النعيــم، وغضــارة [أي النعمــة والسعــة] العيــش؛ فيصيــرون عيــالا عــلى الدولــة؛ ومــن جملــة النســاء والولــدان المحتاجيــن للمدافعــة عنهــم؛ وتسقــط العصبيــة بالجملــة... وهــذه الأجيــال الثلاثــة عمرهــا مائــة سنــة عــلى مــا مــر. ولا تعــدو الــدول ـ في الغالــب ـ هــذا العمــر؛ بتقريــب قبلــه أو بعــده؛ إلا إذا عــرض لهــا عــارض آخــر؛ مــن فقــدان المطالــب؛ فيكــون الهــرم حاصــلا مستوليــا؛ والطالــب لــم يحضرهــا؛ ولــو قــد جــاء الطالــب؛ لمــا وجــد مدافعــا. "فــإذا جــاء أجلهــم لا يستأخــرون ساعــة ولا يستقدمــون" [مــن الآيــة 61 مــن ســورة النحــل])). المقدمــة، ج: 2، ص ص: 655 ـــ 657.

لحمتها، وانشطرت كتلتها، وتناثرت أجزاء وأطرافا. وأضحت عبارة عن مجموعة من الكيانات التي تحكم المدن.. وإمارات مجهرية ذات طابع قبلي؛ موزعة عبر التراب المغربي كله؛ وكانت كلها تحظى بحماية ورعاية عجيبة من طرف القبائل المغربية المختلفة. وحدث ذلك خاصة في مناطق الساحل الشمالي للمغرب، وبلاد الريف، وجبال غمارة.

غير أنه برز من بين تلك الإمارات إمارتان إدريسيتان منفصلتان ومتنافستان: الأولى إمارة بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛[1] وكانت تحت قيادة إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس. وهو الذي بنى قلعة منيعة ليتحصن فيها مع أسرته وبني عمومته؛ وتسمى حجر النسر؛ وذلك في سنة 317هـ (929م)؛[2] وكانت هذه القلعة تربض على ذروة جبل شاهق صعب

---

[1] ذكر البكري أنهم: ((حسن وجنون [واسمه الحقيقي أحمد. ومعنى جنون بالأمازيغية القمر] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم. وكان محمد متخلفا في إخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه. وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون وحنون ابنا إبراهيم. واسم جنون [قنون] القاسم [وهو غير جنون الأول ابن محمد بن القاسم بن إدريس؛ الذي يسمى أحمد])). المغرب، ص ص: 128 ـ 129. أنظر أيضا الجمهرة، ص: 49.

[2] المغرب، ص: 127. واضطرب ابن خلدون في هذا الخبر؛ حيث ذكر ـ مرة ـ أن باني القلعة هو إبراهيم بن محمد؛ ـ ومرة أخرى ـ قال أن الذي بناها هو محمد بن إبراهيم بن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

المنـــال؛ في نـــواحي الريـــف بجبـــال غمـــارة. أمـــا الإمـــارة الثانيـــة فـــهي لبـــني عمـــر بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس؛ بقيـــادة أبي العيـــش[1] بـــن إدريـــس بـــن عمـــر بـــن إدريـــس؛[2] وقامـــت في جهـــات تيقيســـاس (تيكيســـاز) وسبتـــة وطنجـــة مـــن بـــلاد غمـــارة. وعـــلى هـــذا تكـــون قبيلـــة غمـــارة قـــد برهنـــت عـــلى أنهـــا مـــن أخلـــص قبائـــل المغـــرب لبـــني إدريـــس؛ حيـــث احتضنوهـــم، وآووهـــم في بلادهـــم، وأخلصـــوا الطاعـــة لهـــم جميعـــا؛ ســـواء كانـــوا مـــن بـــنى إبراهيـــم بـــن محمـــد بـــن القاســـم، أو مـــن بـــني عمـــر بـــن إدريـــس.[3]

---

[1] منعـــا لكـــل التبـــاس؛ مـــن الواجـــب التنبيـــه إلى أن اســـم أبي العيـــش مستعمـــل في عائلـــتي الأدارســـة وبـــني سليمـــان. وثمـــة عـــدد مـــن الأشخـــاص يسمـــون بهـــذا الاســـم.

[2] يقـــول البكـــرى: ((وأمـــا إدريـــس بـــن عمـــر بـــن إدريـــس فهـــو لبـــاب ولـــد عمـــر ابـــن إدريـــس؛ وبولـــده تكـــرر الأمـــر؛ إلى أن أكثرهـــم بنـــو محمـــد بـــن القاســـم. ومحمـــد بـــن إدريـــس بـــن عمـــر هـــو المعـــروف بابـــن ميالـــة؛ يكـــنى أبـــا العيـــش؛ ولـــم يـــزل مواليـــا للناصـــر عبـــد الرحمـــن رحمـــه اللـــه... وكـــان لإدريـــس بـــن عمـــر خمســـة مـــن الولـــد الذكـــور غيـــر هذيـــن [يقصـــد أبـــا العيـــش محمـــدا ويحـــيى الـــذي تـــولى الملـــك بفـــاس]؛ ولهـــم عقـــب كثيـــر)). ثـــم يضيـــف: ((وأمـــا أبـــو العيـــش بـــن عبيـــد اللـــه فولـــد حمـــودا ويحـــيى. فأمـــا يحـــيى فلـــه بنـــون بتازغـــدرا. وأمـــا حمـــود فولـــد القاســـم وعليـــا وفاطمـــة. فأمـــا عـــلي فـــولي الخلافـــة بالأندلـــس سنـــة سبـــع وأربعمائـــة)). المغـــرب، ص ص: 132 ــ 133.

[3] يقـــول ابـــن خلـــدون في هـــذا: ((واستـــولى ابـــن أبي العافيـــة عـــلى فـــاس، وأعمـــال المغـــرب؛ وأجـــلى الأدارســـة وأحجرهـــم بحصنهـــم حجـــر النســـر؛ وتحيـــزوا إلى جبـــال غمـــارة وبـــلاد الريـــف. وكـــان لغمـــارة في التمســـك بدعوتهـــم آثـــار ومقامـــات؛ واستجدوا بتلـــك الناحيـــة ملكـــا؛ توزعـــوه قطعـــا. كـــان أعظمهـــا لبـــني محمـــد هـــؤلاء، ولبـــني عمـــر بتيفيســـاس ونكـــور وبـــلاد الريـــف)). العبـــر، مج: 6، ص: 448.

غير أن موسى بن أبي العافية لم يكتف بما افتكه من أيدي الأدارسة؛ بل شحن عليهم بسعيه في مطاردتهم عبر البلاد المغربية كلها؛ إذ عمل جاهدا لتصفيتهم نهائيا، وإزالة وجودهم من تلك الديار؛ سواء كان ذلك بالقتل، أو بالنفي الأبدي.[1] حدث ذلك بعد أن تغلب موسى بن أبي العافية على معظم المغرب الأقصى؛ وبعض والأجزاء الغربية من المغرب الأوسط. وطارد الحسنيين في كل مكان؛ حتى أوشك أن يقضي على وجودهم نهائيا من تلك البلاد. ولم يفلت من مخالبه أو يتقي سطوته إلا الذين انحازوا إلى الريف؛ متحصنين بقلعة حجر النسر المنيعة؛ كما سبق قوله. وحتى هؤلاء حاول استئصالهم نهائيا لولا المعارضة التي واجهه بها أصحابه.[2]

---

[1] وصفت بعض المصادر والمراجع ما أحدثه ابن أبي العافية من مجازر في بلاد المغرب؛ كان الأدارسة من ضحاياها. وقال إسماعيل العربي؛ دون أن يشير إلى مصدره: ((وعقب ذلك؛ بدأ ابن أبي العافية في مطاردة الأدارسة وتقتيلهم جماعات وأفرادا؛ حتى أطلق على نهر فاس اسم النهر الأحمر؛ لغزارة الدماء ـ دماء الأدارسة خصوصا ـ التي سالت فيه)). كتاب دولة الأدارسة، ص: 154.

[2] قال في هذا ابن أبي زرع: ((واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب؛ وبايعه القبائل والأشياخ؛ فأجلا جميع الأدارسة من بلادهم، وأخرجهم من ديارهم، وملك مدينة أصيلا، ومدينة شالة وغيرها من بلادهم. وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر؛ مقهورين، مغلوبين؛ فانحصروا بها؛ وهي حصن منيع؛ بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس؛ طلع في عنان السحاب. فنزل عليهم ابن أبي العافية؛ واشتد عليهم الحصار؛ وأراد استيصالهم،

وذلــك أنــه لمــا حاصرهــم في قلعتهــم، وتمــادى في التضييــق عليهــم قصــد استئصالهــم نهائيــا؛ اعتــرض عليــه أصحابــه؛ ومنعــوه مــن تحقيــق رغبتــه في القضــاء ــ نهائيــا ــ عــلى الأدارســة. فعــاد إلى فــاس؛ بعــد أن تــرك حاميــة تقــدر بألــف فــارس لمراقبتهــم والتضييــق عليهــم. ولمــا عــاد إلى مركــز إمارتــه بفــاس؛ طــور زحفــه نحــو إمــارة بــني سليمــان بــن عبــد اللــه بتلمســان. تلــك الإمــارة الــتي كــان يقودهــا الحســن بــن أبــي العيــش عيــسى بــن إدريــس بــن محمــد بــن سليمــان الحســني.[1] وقــد كــان هــذا الأميــر ــ في تلــك

وقطــع دابرهــم؛ فعدلــه عــلى ذلــك رؤســاء المغــرب، وأكابــر أهــل دولتــه؛ وقالــوا لــه: "أتريــد أن تقطــع دابــر أهــل البيــت مــن المغــرب، وتقتلهــم أجمعيــن. هــذا شــيء لا نوافقــك عليــه، ولا نتركــك لــه"؛ فاستحيــا لذلــك وارتحــل عنهــم إلى مدينــة فــاس؛ وخلــف عليهــم قائــده أبــا الفتــح التســولي [في المغــرب والبيــان المغــرب ســمي أبــا قمــح] في ألــف فــارس؛ يمنعهــم مــن التصــرف؛ وذلــك في سنــة سبــع عشــرة وثلاثمائــة)). الأنيــس المطــرب: ص: 51. أنظــر أيضــا المغــرب، ص:128. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص: 214.

[1] وهــو مــن أبنــاء سليمــان؛ كمــا هــو واضــح مــن اسمــه؛ وبذلــك تكــون يــد ابــن أبي العافيــة قــد امتــدت حــتى إلى أبنــاء سليمــان. وكــان أبــو العيــش عيــسى هــو الــذي شيــد مدينــة جــراوة. وحــول هــذا يقــول لكــري: ((عيــسى أبــو العيــش بــن إدريــس بــن محمــد بــن سليمــان؛ هــو الــذي بنــا جــراوة؛ وكــان أميرهــا؛ وبهــا تــوفي)). المغــرب، ص: 77. ويضيــف ابــن عــذاري: ((أسسهــا أبــو العيــش في سنــة 257هـــ؛ ووليهــا بعــده ابنــه الحســن بــن أبي العيــش في سنــة 291هـــ؛ وخــرج منهــا إلى حصــن المنصــورة في سنــة 319هـــ؛ ثــم عــاد إليهــا في سنــة 323هـــ؛ ثــم انتقــل منهــا إلى تلمســان في سنــة 325هـــ)). ثــم يكمــل في موضــع لاحــق: ((فظهــر أمــر مــوسى مــن ذلــك الوقــت في العــدوة؛ وتجمــع إليــه كثيــر مــن قبائــل البربــر؛ وتغلــب عــلى مدينــة جــراوة؛ وأخــرج عنهــا الحســن بــن أبي العيــش بــن إدريــس

الأثناء ـ داخلا في طاعة الفاطميين؛ فحاصره ابن أبي العافية، وأخرجه من تلمسان، ومن جراوة في سنة 319هـ (931م)؛ واضطره للالتحاق بمدينة مليلة؛ حيث تحصن بها؛ إلى أن تحين الفرصة المواتية. وبعد ذلك توجه ابن أبي العافية إلى مدينة نكور؛ فاحتلها هي الأخرى سنة 320هـ (932م). وكان في هذه الأثناء؛ قد نقل بيعته من الفاطميين بإفريقية، إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي بالأندلس.

وتعتبر هذه الخطوة التي قام بها ابن أبي العافية هي بداية نهايته؛ إذ أرسل عبيد الله الشيعي جيشا فاطميا ـ في البداية ـ بقيادة حميد بن يصليتن أو يصلي (عمه هو مصالة). فتمكن من طرد موسى من فاس، وإجباره على التحصن في نواحي تسول. ولما لم تكن حملة يصلي حاسمة فقد جرد عبيد الله الشيعي جيشا آخر بقيادة

العلوي. ودارت بينهما محاربات ومواقعات. وبنى الحسن بن أبي العيش حصنا منيعا؛ بجبل بينه وبين جراوة أربعة أميال؛ وحوله قرى لمدغرة وبني يفرن وغيرهم من القبائل. وكان لأبي العيش أيضا وبنيه مدينة تلمسان وما والاها؛ يسكنها مثل زواغة ونفزة وغير ذلك. وفي ذلك يقول بكر بن حماد [كامل]:

سَائِلْ زُواغَةَ عن طعان سُيوفِه وَرماحه في العَارِضِ المُتَهَلِل
وديار نَفزة كَيفَ دَاسَ حَريمَها والخيلُ تمرغ في الوشيج الذبَّل
وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلَّة وسقىَ جَراوة من نَقِيع الحنظل)).

وجراوة في البيت الأخير؛ تعني القبيلة؛ وليست المدينة. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 ـ 200.

ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك – على الأخص – انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس – بفرعيهم – حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس.

---

[1] **اختلفت الأقوال – أيضا – حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، وآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.**

فكانـوا بذلـك يترصـدون الأحـداث، ويتربصـون حلـول الفـرص المناسبـة ــ مـن تلـك المواقـع المنيعـة ــ للانقضـاض علـى أعدائهـم. وقـد اضطـروا أحيانـا؛ إلى عقـد أحـلاف، وعهـود مـع خصومهـم السابقيـن؛ مـن أجـل تحقيـق أهدافهـم الأساسيـة؛ الـتي تتمثـل: في القضـاء علـى عدوهـم الرئيـسي مـوسى بـن أبي العافيـة؛ ثـم العـودة إلى فـاس؛ الأمـر الـذي يحقـق لهـم تطهيـر أراضيهـم بعـد ذلـك نهائيـا مـن الدخـلاء والمحتليـن؛ سـواء كانـوا مـن الفاطمييـن الشيعـة، أم مـن الأموييـن.[1]

وبالفعـل فقـد سارعـوا إلى عقـد حلـف مـع الفاطمييـن ــ وإن كـان ذلـك لبعـض الوقـت ــ حينمـا كانـت جيـوش الشيعـة تطـارد مـوسى بـن أبي العافيـة؛ الأمـر الـذي مكنهـم مـن استرجـاع معظـم أملاكهـم بالمغـرب.[2] كمـا سعـوا إلى مصانعـة، الأموييـن

---

[1] كانـوا ينـاورون بيـن الأموييـن والفاطمييـن. أنظـر: المغـرب، ص ص: 128 ــ 134. وروض القرطـاس، ص ص: 53 ــ 59. والعبـر، مج: 6، ص ص: 448 ــ 454.

[2] وممـا قالـه عنهـم البكـري: ((ثـم قـدم ميسـور الفـتى إلى المغـرب في سنـة ثـلاث وعشريـن وثـلاث مايـة... حاصـر مـوسى بـن أبي العافيـة؛ وتـولى معاظـم تلـك الحـروب بنـو إدريـس؛ حـتى جـلى مـوسى بـن أبي العافيـة إلى الصحـراء؛ وصـار مـا كـان بيـده إلى آل إدريـس؛ والرياسـة منهـم في بـني محمـد بـن القاسـم بـن إدريـس بـن إدريـس؛ وهـم: حسـن وجنـون [كنـون] وإبراهيـم؛ بنـو محمـد بـن القاسـم؛ وكـان محمـد متخلفـا في اخوتـه وعشيرتـه؛ لا قـدر لـه؛ ثـم صـارت النباهـة والقـدر لبنيـه؛ وإبراهيـم بـن محمـد هـو المعـروف بالرهـوني. وكـان الـذي يلـزم صخـرة النسـر منهـم جنـون [كنـون] وحنـون ابنـا إبراهيـم؛ واسـم جنـون [كنـون] القاسـم... وكـان أعـلى بـني محمـد كلهـم أيـدا أبـو العيـش بـن جنـون [كنـون] بـن محمـد؛ وكـان لـه مـن البلـد مـا بيـن أجاجـن؛ وهـو بقـبلي حجـر

بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ـ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ـ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولمِّ شملهم. غير أن ذلك ـ كما يبدو ـ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[1]

النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرَّ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128ـــ 130.

[1] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع بأخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد. دولة الأدارسة، ص ص: 156 ـــ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نأمن سلطان بني عمنا ـ بني محمد ـ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبعثه، والكراهية لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل

وهكــذا فما أن خلصــوا مــن أطمــاع مــوسى بــن أبي العافيــة والشيعــة؛ حــتى تورطــوا في أطمــاع أخــرى أشــد وأكثــر شراهــة ونفــاذا؛ تلــك هــي أطمــاع عبــد الرحمــن الناصــر حاكــم الأندلــس؛ الــذي وضــع كــل مــا في حوزتــه مــن قــوة ودهــاء؛ لــكي يمنــع وصــول الفاطميــن إلى حــدود مملكتــه. إذ أن خوفــه مــن امتــداد نفــوذ الفاطميــن الأقويــاء إلى حــدود دولتــه الجنوبيــة؛ في الطــرف المقابــل مــن العــدوة؛ ألزمــه وحتــم عليــه العمــل الجــاد؛ لــكي يحــول بيــن الفاطميــن وبيــن تحقيــق أهدافهــم البعيــدة المــدى. تلــك الأهــداف الــتي تــرمي إلى الانفــراد بالخلافــة الإسلاميــة غربــا وشرقــا؛ بحكــم أنهــم يــرون في أنفسهــم أحــق النــاس بهــا؛ لأنهــم مــن أبنــاء فاطمــة الزهــراء؛ الــتي تجعلهــم خيــر مــن يمثــل أهــل البيــت.

إليــه، والاعتــراف بحقــه)). دولــة الأدارســة، ص: 158. هــذه حــال بــني إدريــس؛ بعــد أن غــزت الشيخوخــة دولتهــم، وبعــد فســاد عصبيتهــم. وعليــه فقــد وجــد الخليفــة الأمــوي الأرضيــة صالحــة لاكتســاح بلادهــم وضــم أراضيهــم وأملاكهــم إليــه.

وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ــ بعد ذلك ــ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ــ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ــ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ــ بسهولة ــ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ــ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ــ فإن ابنه الحكم

تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

---

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: المغرب، ص ص: 115 ـ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ـ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: 210 ـ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ـ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ـ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ـ في الأيام الأخيرة ـ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم؛ أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر؛ فانجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الأمر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الأدارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم

ـ حكومـــة أبي العيـــش أحمـــد بـــن القاســـم (قنـــون):

وبهـــذا العـــرض يتضـــح أن الدولـــة الإدريسيـــة الأولى بفـــاس؛ قـــد انقطعـــت في حـــدود سنـــة 311هـــ (923م) تقريبـــا. وإذا أخذنـــا بعيـــن الاعتبـــار الفتـــرة الزمنيـــة الـــتي كـــان فيهـــا الأدارســـة يناضلـــون مـــن أجـــل استعـــادة دولتهـــم؛ وذلـــك انطلاقـــا مـــن مواقعهـــم المنيعـــة في بـــلاد الريـــف وغمـــارة؛ تكـــون دولـــة الأدارســـة الثانيـــة قـــد أخـــذت شكـــلا مغايـــرا لمـــا كانـــت عليـــه مـــن قبـــل؛ حيـــث تقلـــص نفـــوذ أصحابهـــا؛ بـــل أضحـــوا تابعيـــن لغيرهـــم. كمـــا اتخـــذت الدولـــة الإدريسيـــة الجديـــدة عاصمـــة أخـــرى لهـــا غيـــر مدينـــة فـــاس. وقـــد تـــم ذلـــك ـ في البدايـــة ـ بقلعـــة صخـــرة النســـر؛ وأخيـــرا بمدينـــة البصـــرة.[1] إذ بـــدأت ـ في تلـــك النـــواحي ـ تتبلـــور صـــورة دولتهـــم الجديـــدة؛ تلـــك الدولـــة الـــتي بـــرز فيهـــا

تغلـــب عليهـــم المروانيـــون، وأثخنوهـــم إلى الأندلـــس ثـــم أجازوهـــم إلى الإسكندريـــة. وبعـــث العزيـــز العبيـــدي ابـــن كنـــون منهـــم لطلـــب ملكهـــم بالمغـــرب؛ فغلبـــه عليـــه المنصـــور بـــن أبي عامـــر، وقتلـــه. وعليـــه كـــان انقـــراض أمرهـــم، وانقـــراض سلطـــان أوربـــة مـــن المغـــرب. وكـــان مـــن أعقـــاب الأدارســـة الذيـــن أووا إلى غمـــارة؛ فكانـــوا الدائليـــن مـــن ملـــوك الأمويـــة بالأندلـــس. وذلـــك أن الأدارســـة لمـــا انقـــرض سلطانهـــم؛ صـــاروا إلى بـــلاد غمـــارة، واستجـــدوا بهـــا رياســـة، واستمـــرت في بـــني محمـــد، وبـــني عمـــر مـــن ولـــد إدريـــس بـــن إدريـــس؛ وكانـــت للبربـــر إليهـــم ـ بسبـــب ذلـــك ـ طاعـــة، وخاصـــة. وكـــان بنـــو حمـــود هـــؤلاء مـــن غمـــارة؛ فأجـــازوا مـــع البربـــر؛ حيـــن أجـــازوا في مظاهـــرة المستعيـــن. ثـــم غلبـــوه ـ بعـــد ذلـــك ـ عـــلى الأمـــر، وصـــار لهـــم ملـــك الأندلـــس)).العبـــر، مج: 4، ص ص: 33 ـ 34.

[1] **هـــذا طبعـــا بالنسبـــة إلى فـــرع القاســـم بـــن إدريـــس؛ لأنهـــم هـــم الذيـــن يمثلـــون صمـــود الأســـرة الإدريسيـــة.**

الحسن بن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ـ بمساعدة الفاطميين ـ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا ـ بعد أن خلف والده ـ إلى قطع الدعوة عن

---

[1] **تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.**

[2] **أنظر المغرب، ص ص: 127 ـ 128.**

الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش – في الوهلة الأولى – بذلك الشطط والغلو الذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع – في الأخير – نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيمين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه – في حقيقة الأمر – لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع – بعد مدة – أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد

المغـــرب؛ وانقيـــاد القبائـــل الأمازيغيـــة إليـــه؛ بعـــث إليـــه يستأذنـــــه في الانتقـــال إلى الأندلـــس بهـــدف الجهـــاد في الثغـــور. فلـــبى عبـــد الرحمـــن طلبـــه؛ مبديـــا فرحـــه وســـروره.[1] وتقـــول المصـــادر أن حيـــاة أبي العيـــش انتهـــت باستشهـــاده في ميـــدان الجهـــاد بالأندلـــس سنـــة 347هـــ (958م).[2] وكـــان أبـــو العيـــش قـــد استخلـــف في أعمالـــه ــ عنـــد مسيـــره للأندلـــس ــ أخـــاه الحســـن بـــن قنـــون (كنـــون). وهـــذا الأخيـــر هـــو صاحـــب الدولـــة الإدريسيـــة الثانيـــة بالبصـــرة وفـــاس. كمـــا يعتبـــر آخـــر ملـــوك هـــذه الدولـــة في المغـــرب الأقـــصى. وهنـــا لا بـــد مـــن عـــرض الكيفيـــة الـــتي وقعـــت بهـــا تلـــك الأحـــداث.

---

[1] يقـــول في هـــذا ابـــن أبي زرع: ((فلمـــا رأى أبـــو العيـــش غلبـــة الناصـــر عـــلى بـــلاد العـــدوة؛ كتـــب إليـــه ــ إلى قرطبـــة ــ يستأذنـــه في الجهـــاد؛ فـــأذن لـــه؛ وأمـــر أن يبـــنى لـــه في كـــل منـــزل ينزلـــه قصـــرا؛ مـــن الجزيـــرة الخضـــراء إلى الثغـــر؛ وأن يجـــرى لـــه فيـــه ألـــف دينـــار في كـــل يـــوم ضيافـــة؛ ومـــن الفـــرش والأثـــاث والطعـــام والشـــراب مـــا يقـــوم بالقصـــر. فلـــم يـــزل في ذلـــك حـــتى وصـــل إلى الثغـــر. فكانـــت منازلـــه في رحلتـــه مـــن الجزيـــرة ثلاثيـــن منـــزلا)). الأنيـــس المطـــرب، ص: 54. أنظـــر أيضـــا المغـــرب، ص: 120. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 3، ص ص: 218 ـــ 219.

[2] اختلفـــت الأقـــوال حـــول تاريـــخ وفاتـــه؛ فابـــن أبي زرع وابـــن خلـــدون يقـــولان أنهـــا حدثـــت في سنـــة 343هـــ؛ بينمـــا يـــرى ابـــن الخطيـــب أنهـــا وقعـــت في سنـــة 346هـــ؛ بينمـــا يخـــطئ البكـــري حيـــن يقـــول أنهـــا حصلـــت في سنـــة 332هـــ. أمـــا إسماعيـــل العـــربي فيجـــزم بأنهـــا حدثـــت في سنـــة347هـــ. الأنيـــس المطـــرب، ص: 54. وأعمـــال الأعـــلام؛ ق: 3، ص: 219. والعبـــر، مج: 6، ص: 450. ودولـــة الأدارســـة، ص: 179.

ـ حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:

فلما تولى الحسن بن قنون شئون الحكم؛ بعد أخيه أبي العيش ظل ـ في بداية عهده ـ محافظا على المواثيق المتفق عليها مع الدولة الأموية؛ إذ واصل إعلان الدعوة لخلفائها. ولكنه اضطر إلى تغيير موقفه المعلن ـ على ما يبدو أو تظاهر بذلك ـ عند قدوم الجيش الفاطمي من إفريقية سنة 348هـ (959م)؛ بقيادة جوهر الصقلي ـ إذ لم يكن أمامه سوى مسايرة مقتضى الحال؛ حيث أنه بتغير الأوضاع؛ تغيرت مواقف الحسن بن قنون كذلك. وعليه فقد بادر حالا إلى نقل ولائه من الأمير الأموي إلى الخليفة الفاطمي؛ لأنه ـ كما يبدو ـ رأى في الفاطميين مزايا؛ لم يجدها لدى الأمويين؛ إذ يبدو أنه اعتقد أنهم الأقوى عددا وعدة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رأى أن مصلحته تقتضي التعامل مع دولة بعيدة ـ جغرافيا ـ عنه؛ أفضل من التعامل مع دولة قوية وقريبة من أرضه؛ لأن هذه الميزة تمكنه من الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه – من مخرج – سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم – طبعا – بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] **يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ تتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري ابن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة – على جميع بلاد المغرب – لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون**

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن بن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ـ بعد هذا ـ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ـ كما يبدو ـ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ـ تماما ـ بمملكته في الأندلس. غير أنه ـ كما يبدو ـ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ـ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ـ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م).

صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ـ محمد بن القاسم ـ في جيش كثيف إلى قتال الحسن بن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ــ بعد ذلك ــ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

ــ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ــ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ــ آنئذ ــ إذ لا تسند إليه ــ في العادة ــ إلا المهمات الصعبة

---

[1] **المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: 96.**

والخطيــرة. ووصفــه ابــن خلــدون بقولــه: ((**البعيــد الصيــت، المعــروف بالشهامـــة**)).[1]

ـ ثانيـا: إعــداد خطــة محكمــة لقتــال الحســن بــن قنــون. لأنــه مــن خــلال تجربــة الوقائــع الأولى؛ ثبــت عــدم صلاحيــة الخطــط المتبعــة فيهــا؛ بسبــب مــا شابهــا مــن ارتجــال واستخفــاف بالعــدو. لذلــك فقــد أخــذ الخليفــة الحكــم بعــض الوقــت لنفســه؛ بهــدف التفكيــر والتشــاور وضبــط الخطــة القتاليــة الــتي ستتبــع؛ قبــل أن يغامــر مــرة أخــرى. وحــتى قواتــه الــتي مازالــت متمركــزة في بــلاد العــدوة؛ فقــد أرســل لهــم أمــرا باجتنــاب الاشتبــاك مــع قــوات حســن بــن قنــون؛ وأن ينتظــروا الأوامــر الجديــدة.[2] ولمــا كــان الحســن بــن قنــون قــد اعتمــد حــرب الكــر والفــر؛ الــتي تعــرف الآن بحــرب العصابــات؛ فقــد كــان عــلى المستنصــر ومعاونيــه أن يبلــوروا خطــة عسكريــة فعالــة؛ حــتى يتمكنــوا مــن كســر عنفــوان وشــدة الهجمــات؛ الــتي اعتــاد الحســن بــن قنــون شنهــا عــلى حيــن غــرة.

---

[1] **العبــر، مج: 6، ص: 451. أمــا ابــن أبي زرع فيقــول: ((فبعــث إليهــم قائــد عسكره وصاحــب حروبــه غالبــا مــولاه. وكــان غالــب عــلى غايــة مــن الحــزم والنجــدة والدهــاء والإقــدام)). الأنيــس المطــرب، ص: 57.**

[2] **في هــذا يقــول ابــن حيــان: ((فتضمــن الجــواب إليهــم [أي جــواب الخليفــة المستنصــر إلى قــواده في بــر العــدوة] أن الــرأي؛ تــرك الحركــة إليــه [أي إلى الحســن] والتعــرض لحربــه؛ حــتى يلحــق بهــم الوزيــر القائــد الأعــلى غالــب بالقــوة إن شــاء اللــه)). المقتبــس في أخبــار بلــد الأندلــس؛ تحقيــق: عبــد الرحمــن عــلي الحــجي، ص: 103.**

ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة. لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ـ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ـ هذه المرة ـ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير ـ لهذه الحملة ـ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد

---

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

غالب بن عبد الرحمن الأسطول ــ بجيشه ــ متجها إلى طنجة.[1] ومع ذلك لم يتوقف مدد المستنصر لجيش غالب بالعساكر والمال والعتاد الحربي؛ بل استمر ذلك الخليفة الحازم في إرسال التعزيزات وراء التعزيزات؛ دون تحفظ أو تردد.[2]

---

[1] قال ابن حيان: ((وفي جمادى الآخرة احتل الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بمحلة فحص السرادق ــ شرقي قرطبة ــ مستدعىً من مولاه الخليفة الحكم؛ مهيبا به لحرب الغوي حسن بن قنون؛ المنازع له عمله بأرض العدوة؛ عندما تفاقم أمره، وأعيا مراسه، وأثخن في قتل الجند، وانتحل ولاية الدعي الشيعي معد. فاضطرب غالب بمحلته تلك ــ يومئذ ــ في يومين في الدَّهم [أي العدد الكثير] الذين أمر باستنفارهم؛ من حشد الثغر الأعلى إلى من استنهضهم من جيش السلطان لديه؛ ثم تقدم بهم في اليوم الثالث إلى الزهراء وطن الخليفة مولاه؛ مشتقا قرطبة؛ واجتهر أهلها من احتفال جيشه، واكتمال عدده واطراد ترتيبه ما امتلأت به قلوبهم فرحا،= =وشمخت له أنوفهم عزا. وأقام بقرطبة أياما؛ اتصل فيها عمل السلطان ورجاله في تجهيزه، وإزاحة علله، وتقوية أيده؛ إلى أن بلغ منه ما ارتضاه؛ ففصل عند ذلك في جموعه يوم الثلاثاء لتسع خلون من رجب منها)). ((وفي هذا الوقت [أي شهر رمضان] ورد الخبر بركوب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن البحر في الأسطول؛ من مدينة الجزيرة؛ فرضة المجاز إلى بلد الأندلس؛ بعد طول مقامه فيها؛ بعد أن استكمل أهبته فيها؛ وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب؛ فتوافت إلى هناك كاملة؛ وإن ركوبه من الجزيرة كان في يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها؛ وأقلع رافعا إلى جهة طنجة من أرض العدوة)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص ص: 102. 115.

[2] وهاتان عينتان لذلك: ((وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس؛ يذكر حركته بالأسطول إلى أصيلا؛ لما في القرب من الوزير القائد الأعلى واجتماع الأسطولين من صواب التدبير، والأخذ بالحزم... وأرسلت إليه [إلى غالب] كسي فخمة، وسرج وألجم محلاة؛ ففضها فيمن

ـ رابعا: تخصيص أكبر قدر من الأموال؛ لصرفها على جيش الخلافة، أو الاستعانة بها في حملة واسعة؛ قررت لاستمالة وكسب ولاء القبائل الأمازيغية المتعاطفة مع الحسن بن قنون. ومن يتصفح كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان؛ سيلاحظ ـ بلا شك ـ ما كان يبعث به المستنصر ـ بدون تحفظ ـ من أموال ضخمة وتحف ثمينة، وعتاد حربي، إلى غالب بن عبد الرحمن؛ لكي يعزز بها قوته العسكرية، ويستميل بها القبائل المناصرة للحسن بن قنون.[1]

جاءه من الرؤساء)). المقتبس، 116. ((فلما كان يوم الإثنين لسبع منه [من ذي القعدة] خرج الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم من قرطبة؛ نافذا إلى العدوة؛ خروجا ظاهرا؛ بين يديه التعبئة الكاملة، والترتيب المنظوم؛ وخرج بخروجه اخوته المتقدمة تسميتهم، وبنو عمه التجيبيون؛ في عسكر ضخم؛ ممن ضم إليه من طبقات الأجناد؛ وفيهم قطع من العبيد الرماة، ومن الرماة الأحرار، وغيرهم من جند المملكة؛ راق إبصارهم النظارة؛ فاحتل يومه ذلك على نهر شوش. وخرج بخروجه الخازن أحمد بن محمد بن حاجب؛ وبين يديه ستة عشر حملا من المال العين، وعدة أحمال من الكسي الفخمة، والسيوف الحالية المرسلة إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن لفضها فيمن يستأمن إليه من أكابر البرابرة)). المقتبس، ص129.

[1] أنظر المقتبس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

ــ خامسـا: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[1]
ــ سادسـا: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن بن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[2]

---

[1] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ــ أهلكه الله ــ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 97. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن بن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فانملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر المتقرب، وبما ينوي؛ فأزعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ــ من فارس وراجل ــ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: 140.

[2] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى،

أما الجانب الإعلامي فقد تولاه ــ في غالب الأحيان ــ الشعراء، وأئمة المساجد. ويتجلى ذلك من خلال القصائد الكثيرة التي قيلت في المناسبات كلها، وكانت مليئة بالهجاء والسخرية من الحسن ابن قنون.[1] كما أن إضافة كلمة (ملحد) إلى اسم الحسن ــ كلما ذكر ــ يدل على ما كان يستهدفه أعداءه من بث الكراهية له بين عامة الناس.

وهكذا فقد حظيت هذه الحملة الحربية المنظمة بنجاح كبير؛ إذ حققت أهدافها المسطرة لها. وتمكن غالب بن عبد الرحمن من عزل الحسن بن قنون، وشل حركته نهائيا؛ مما اضطره إلى الإذعان والاستسلام والقبول بشروط الأمويين. وعليه فقد سلم نفسه في سنة 363هـ (973م).[2] حيث تم نقله ــ

البديعة الصنعة؛ التي أمر باتخاذها له على حدِّه، ووصفه كيما يرفعه وسط محلته، ويكون نزوله وقعوده فيها؛ إسماء لقدره، ورغما لقلب عدوه؛ وكانت غريبة الابتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر رائق، ومرأى فائق؛ جرى في اتخاذها كلام كثير)). المقتبس ص: 116.

[1] يدخل في هذا السياق ما ذكره ابن حيان عن طلب غالب بن عبد الرحمن من الخليفة المستنصر إمداده بالشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني؛ لكي يستعين به في حربه الإعلامية ضد عدوه. وبالفعل لم يتردد الخليفة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. أنظر المقتبس، ص ص: 108 ــ 109.

[2] قال ابن أبي زرع: ((وأخرج غالب الأموال؛ فبعث بها إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون؛ ووعدهم، وأمنهم؛ ففروا عن الحسن وأسلموه؛ حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله؛ فلما رأى ذلك سار إلى حصن حجر النسر؛ فتحصن فيه؛ وأتبعه غالب فحاصره به، ونزل بجميع جيوشه عليه، وقطع عنه المواد؛ وأمده الحكم بالعرب الذين ببلاد الأندلس كافة، ورجال الثغور؛ فوصل المدد إلى غالب غرة محرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة؛

مع أهله وحاشيته ـ إلى قرطبة؛ أين بقي فيها إلى سنة 365هـ (975م)؛ سنة إجلائه ـ مع أهله أيضا ـ إلى مصر؛ نظرا لما حدث بينه وبين المستنصر من جفاء؛ بسبب قطعة من العنبر؛ رفض الحسن بن قنون التنازل عنها للحكم؛ الذي يقال أنها أعجبته وطمع فيها. فكان رد فعل المستنصر عنيفا؛ إذ استولى عليها وعلى أموال الحسن وأهله بالقوة؛ ثم أجلاهم جميعا إلى مصر.[1]

فاشتد الحصار على الحسن بن كنون؛ فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله؛ وينزل إليه؛ فيسير معه إلى قرطبة؛ فيكون بها؛ فأجابه غالب إلى ذلك، وعاهده عليه. فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله؛ وأسلم الحصن إلى غالب فملكه؛ واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم، وأخرجهم عن أوطانهم؛ ولم يترك في العدوة رئيسا منهم)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[1] **يقول ابن أبي زرع: ((وكان له [أي الحسن بن قنون] قطعة عنبر غريبة الشكل، كثيرة الجرم؛ ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها؛ فسواها منشورة يتوسد بها؛ فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها؛ فسأله حملها إليه، وضمها إلى ذخائره؛ على أن يرضيه عنها بحكمه؛ فامتنع من ذلك، وأبى أن يسلمها إليه؛ فنكبه عليها؛ وأخذ أمواله، وسلبه من جميعها، وأخذ القطعة؛ فبقيت في خزانته إلى أن ظهر علي بن حمود الحسني ـ على ملك الأندلس ـ ودخل قرطبة، وسكن القصر، وظفر ببني أمية؛ فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة؛ قد أعفتها الأيام؛ حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها. ولما نكب الحكم الحسن بن كنون، وأخذ أمواله؛ أمر به وبالعلوية؛ فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق؛ فجازوا من المرية إلى تونس؛ ليستريح من نفقاتهم؛ وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر؛ فنزلوا على نزار بن معد؛ وبالغ في إكرامهم، ووعد للحسن النصرة)). الأنيس المطرب، ص: 58.**

ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه ـ كما يقال ـ أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

ـ حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) ـ مع توصية ـ إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر ـ حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ـ سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون.

ولم يقف الحاجب المنصور عند هذا الحد؛ بل أرسل أيضا ولده عبد الملك في جيش كثيف أيضا؛ بهدف دعم المجهود الحربي، وتعزيز صفوف الوزير عمر. ولما تكاثرت الجيوش على الحسن بن قنون؛ وضاقت به السبل؛ طلب من الوزير عمر الأمان؛ على أن يذهب إلى الأندلس؛ ولما أعلم المنصور بذلك؛ تظاهر بالمصادقة على الأمان الذي أعطاه الوزير عمر؛ وطلب منه الإسراع بإرسال الحسن إلى قرطبة. وفي طريقه إليها بعث من اغتاله؛ في جمادى الأولى من سنة 375هـ(985م). وبذلك طويت صفحة الدولة الإدريسية المستقلة نهائيا ببلاد المغرب؛ على أنها ظهرت في ثوب جديد ببلاد الأندلس؛ بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي حال مقابلة الدولة الإدريسية بالدولة الفاطمية؛ سيتجلى ضعف الدولة الإدريسية، وقصورها، وانكماش نفوذها. ويرجع ذلك إلى عجزها عن تحقيق بعض الشروط؛ التي تمكنت الدولة الفاطمية من تحقيقها. أهمها: قوة العصبية، وكثرة الأتباع، وفعالية الدعوة الدينية. فعصبية الأدارسة كانت ضعيفة أمام عصبية الفاطميين. وأتباع الأدارسة أيضا قليلون. كما أنهم يفتقرون إلى دعاة أكفاء، وتعاليم مذهبية تشكل قاعدة فكرية، ذات شحنات نفسية؛ تنمي الحماس وتشحذ الهمم؛ في سبيل تحقيق أهداف الدولة. فالدولة تحتاج ـ لتعزيز

قوتهـا ــ إلى قـدرة نافـذة، وتحكـم دقيـق في سيـر سياســة الدعــوة والدعــاة. فبفضــل ذلــك توفــر الدولــة الأنصــار الأوفيــاء، وتحقــق التزامهــم المستميـت بأهدافهــا، وتفانيهــم في خدمتهــا وحمايــة مؤسساتهــا. وهــذه العوامــل كلهــا توفــرت للفاطمييــن؛ وافتقــر إليهــا الأدارســة؛ وبذلــك عظمــت دولــة الأوليــن؛ بــل امتــد نفوذهــا حــتى شمــل الأدارســة أنفسهــم.

****

ــ الحضــارة والنشــاط الثقــافي:

أمــا إنجــازات الدولــة الإدريسيــة: العمرانيــة منهــا والثقافيــة؛ فيبــدو أنهــا كانــت بالمغــرب ــ هي الأخــرى ــ قاصــرة ومحــدودة أمــام إنجــازات الدولــة الفاطميــة. إذ أن أبــرز أعمــال الأدارســة تتجــلى في مدينــة فــاس؛ تلــك المدينــة الــتي أضحــت ــ في عهدهــم ــ مركــزا هامــا؛ يستقطــب نشاطــات عديــدة منهــا: مــا هــو عمــراني، ومــا هــو ثقــافي؛ بالإضافــة إلى الــدور الاقتصــادي الهــام؛ الــذي أضحــت تتميــز بــه مدينــة فــاس في تلــك الربــوع.[1] وقــد تضمنــت الكتــب التاليــة: ــ المغــرب

---

[1] يقــول ابــن خلــدون واصفــا عهــد الأميــر يحــيى بــن محمــد بــن إدريــس في فــاس: ((وعظمــت دولتــه، وحسنــت آثــار أيامــه، واستجــدت فــاس في العمــران، وبنيــت بهــا الحمامــات، والفنــادق للتجــار، وبنيــت الأربــاض، ورحــل إليهــا النــاس مــن الثغــور القاصيــة. واتفــق أن نزلتهــا امــرأة مــن أهــل القيــروان تســمى أم البنيــن؛ بنــت محمــد الفهــري ــ وقــال ابــن أبي زرع اسمهــا فاطمــة، وأنهــا مــن

للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ودولة الأدارسة لإسماعيل العربي، ــ معلومات لا بأس بها؛ تخص الإنجازات العمرانية ــ الدينية منها والثقافية ــ التي تمت في عهد الأدارسة بفاس. ويظهر أن تحولا كبيرا حدث في المظهر الحضاري والثقافي لهذه الدولة؛ بدءا بتوافد عدد من المهاجرين العرب؛ ذوي الثقافة الرفيعة، والصناعة المحكمة، والإبداع والابتكار غير المسبوقين في تلك البلاد؛ قدم أولئك العلماء والمثقفون والفقهاء من القيروان، ومن قرطبة بعد حادثة الربض فيها. حيث تمركز القيروانيون

هوارة ــ وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير؛ فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين؛ أصغر ما كان سنة خمس وأربعين [ومائتين]؛ في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئراً شراباً للناس؛ فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها؛ ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس؛ لضيق محلته، وجوار بيته)). العبر، مج: 4، ص: 29. ومما قاله أيضا ابن أبي زرع عن فاس: ((وهي قاعدة بلاد المغرب، وقطرها ومركزها، وقطبها؛ وهي ملك الأدارسة الحسنيين؛ الذين اختطوها... وبها منازل مونقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة)). ((وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة؛ وأكثرهم ينتحل الحراث والفلاحة؛ وأهل عدوة القرويين أهل رفاهة، ونخوة في البناء، واللباس، والفرش والمطعم، والمشرب؛ وأكثرهم صناع وتجار)). ((فأقامت مدينتيْ فاس [عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين] على ما بناه [أي إدريس] طول مدته، وأيام ولده من بعده؛ إلى أيام زناتة؛ فكثرت العمارات بها، وبنيت الأرباض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة؛ فبنيت بها الفناديق، والحمامات، والأرحا، والمساجد والأسواق؛ من باب إفريقية إلى عين إيصيلن)). الأنيس المطرب، ص ص: 15 ــ 16. 23. 25.

في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا ـ آنئذ ـ بالعدوتين؛ هما المسجدان الذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيروانيين في سنة 245هـ(859م)؛ أيِ في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ ـ أيضا ـ أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما ـ قبل ذلك العهد ـ إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين ـ الذي بنته فاطمة الفهرية ـ أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول ـ مع الأيام ـ إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

وما يمكن الاستشهاد به من نصوص أدبية؛ ترجع إلى الفترة الزمنية التي أظلت الدولة الإدريسية؛ ليس بالشيء الكثير؛ من حيث الكيف والكم. من ذلك ـ مثلا ـ ما ورد في بعض المصادر من نصوص شعرية ونثرية نسبت إلى الملوك الأدارسة؛ وإلى الأدباء المقيمين أو الوافدين إلى بلاط الدولة الإدريسية. فهذا ـ على سبيل المثال ـ نص قصير جدا من خطبة قالها إدريس الأول عندما بويع بالإمامة؛ قال فيها: ((**بعد حمد الله، والصلاة على نبيه، لا تمدّن الأعناق إلى غيرنا؛ فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا**)).[1] أما إدريس بن إدريس؛ فيختلف حاله بعض الشيء؛ إذ وصلت إلينا بعض النصوص المنسوبة إليه؛ فإن صح ذلك؛ فذاك شاهد على مكانته الشخصية في ميدان الأدب؛ وإن لم تصح نسبتها إليه فهي بدون شك تعطي صورة لما كان عليه بلاط الدولة الإدريسية في هذا المجال. ومن خلال تلك النصوص يمكن تحديد فكرة ـ ولو متواضعة ـ على المستوى الأدبي لهذا الملك من جهة، والمستوى الذي كان عليه الأدباء في تلك الدولة أو القادمين إليها من جهات أخرى.

---

[1] **العبـر، مج: 4، ص: 24.**

ومــن الشعــر المنســوب إلى إدريــس الثــاني هــذه المقاطــع:[1]

لَوْ مَــالَ صَبري بصَبرِ الناسِ كُلِّهــمُ
لَضَلَّ في رَوْعَتِي أوْ ضَلَّ في جَزَعِي
وَمَــا أرِيــعُ إلَــى يَــأسٍ لِيسْلِيــنِي
ألا [..........] يَــأس إلى طمــــعِ
وكَيفَ يَصبْــرُ مَطــوِيٌّ هَضَائِمــهُ
عَلى وَسْــوَاسِ هَــمٍّ غَيــر مُنقطِــعِ
إذا الهُمُــومُ توَافــتْ بَعْــدَ هَجْعَتِــهِ
كــرَّتْ عَلَيهِ بِكأسٍ مُــرَّة الجُــرَعِ
بَــانَ الأحِبــة واستْبْدَلــت بُعْدَهــمُ
هَماً مُقِيمــاً وَشَمْــلاً غَــيْرَ مُجْتَمِــعِ
كَأنِّي حيــنَ يُجــرِي الهَــمُّ ذِكرَهــمُ
عَلى ضَمِيرِي مَخْبــولٌ مِنَ الفــزَعِ

---

[1] قــد يشــك بعضهــم في صحــة إسنــاد هــذه النصــوص إلى إدريــس؛ غيــر أن المهــم هنــا هــو تقديــم عينــة مــن النصــوص الأدبيــة الــتي قيلــت في ذلــك الوقــت؛ ولا يهــم – في هــذه الحــال – إن كــان قائلهــا هــو إدريــس نفســه، أو قيلــت نيابــة عنــه؛ مــن طــرف أدبــاء كانــوا في بــلاط دولتــه.

تأوِي هُمُــومِي إذْ حَرَّكَــت ذِكرَهــمُ

إلَى جَوَانِــحِ جسْــمٍ دَائِــمِ الولَــعِ

كمــا بعــث بأبيــات ـ نسبتهــا المصــادر إليــه ـ محــذرا شيــخ قبيلــة مطغــرة بهلــول بــن عبــد الواحــد مــن مغبــة انسياقــه في المؤامــرة الــتي يحــوك خيوطهــا إبراهيــم بــن الأغلــب؛ فقــال:

أبَهْلــولُ قدْ شَمَّمْتَ نفسَــكَ خُطَــة

تبَدَّلــتَ مِنهَــا ضَلَــــة برَشَــــادِ

أضلَــكَ إبرَاهِيــمُ مِــنْ بعْــدِ دَارِهِ

فأصبَحْــتَ مُنقــاداً بغيــرِ قِيَــادِ

كَأنكَ لمْ تَسْمَــعْ بِمَكــرِ ابْنِ أغلــبٍ

وَقدْمــاً رَمَى بِالكيــدِ كــلَّ بــلاَدِ

وَمِنْ دُونِ مَا مَنتــكَ نفسُــكَ خَالِيــاً

وَمَنــاكَ إبرَاهيــمُ شــوْكَ قتــــادِ

وثمــة أبيــات أخــرى نسبــت إليــه أيضــا؛ وهي موجهــة إلى ابــن الأغلــب؛ يقــول فيهــا:

أذَكــرُ إبْرَاهِيــمَ حــقَّ مُحَمَّــدٍ

وَعِترَتِــهِ وَالحَــقُّ خيْــرَ مَقــولِ

وَأَدْعوهُ لِلأمْـــرِ الذِي فِيهِ رُشْـــدُهُ
وَمَـــا هوَ لـــوْلاَ رَأيـــهُ بِجهـــولِ
فـــإنْ آثـــرَ الدُّنيـــا فـــإِنَّ أمامَـــهُ
زَلاَزِلُ يـــوْمٍ لِلعقـــابِ طوِيـــلِ

ومممـــا نســـب إليـــه مـــن نثـــر؛ هـــذه الخطبـــة الـــتي ألقاهـــا يـــوم بيعتـــه في سنـــة 188هـــ (803هـــ)؛ وجـــاء فيهـــا: **((الحمـــد اللـــه، أحمـــده وأستغفـــره، وأستعيـــن بـــه، وأتوكـــل عليـــه، وأعـــوذ بـــه مـــن شـــرّ نفـــسي، ومـــن شـــر كـــل ذي شـــر، وأشهـــد أن لا إلـــه إلا اللـــه، وأنّ محمـــداً عبـــده ورسولـــه المبعـــوث إلى الثقليـــن بشيـــراً ونذيـــراً، وداعيـــا إلى اللـــه بإذنـــه، وسراجـــا منيـــرا، صـــلى اللـــه عليـــه وعـــلى آل بيتـــه الطاهريـــن الذيـــن أذهـــب اللـــه عنهـــم الرجـــس، وطهرهـــم تطهيـــراً. أيهـــا النـــاس: إنـــا قـــد ولِّينـــا هـــذا الأمـــر الـــذي يضاعـــف فيـــه للمحســـن الأجـــر، وعـــلى المـــسيء الـــوزر، ونحـــن والحمـــد للـــه عـــلى قصـــد جميـــل، فـــلا تمـــدوا الأعنـــاق إلى غيرنـــا، فـــإن الـــذي تطلبونـــه مـــن إقامـــة الحـــق إنمـــا تجدونـــه عندنـــا)).**[1]

---

[1] **الأدب المغـــربي، ص ص: 121 ـــ 122. وكمـــا يظهـــر فقـــد اقتبـــس هـــذه العبـــارة الأخيـــرة مـــن خطبـــة أبيـــه. راجـــع مـــا سبـــق.**

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم بن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأتـرُكُ لِلرَاغِـبِ الغرْبَ نَهبـاً
وَإنْ كنتُ فِي الغَرْبِ قيـلاً وَندْبـا
وَأسْمـو إلَى الشـرقِ فِي هِمـةٍ
يعِـزُّ بهـا رُتبـاً مَـنْ أحَبَّـا
وَأتـرُكُ عِيـسَى عَـلَى رَأيـهِ
يُعَالـجُ فِي الغـرْبِ هَمًّا وَكرْبـا
وَلَـوْ كـانَ قلـبِي عَـن قلبـهِ
لكنـتُ لـهُ فِي القرَابـةِ قلبَـا
وَإنْ أحـدَثَ الدَّهـرُ مِـنْ رَيبـهِ
شِقاقـاً عَليْنـا وَأحـدَثَ حَرْبـا
فـإنِّي أرَى البُعْـدَ سِتـراً لنـا
يُجَـدِّدُ شَوقـاً لدَينـا وَحبـا
وَلَـمْ نَجْـنِ قطعـاً لأرْحامنـا
نـلاَقِي بـهِ آخِـرَ الدَّهـرِ عَتبَـا

وَتبْــقَى العَــدَاوَةَ فِي عَقبنــــــا
وَأكـــرِمْ بـــهِ حِينَ نعْقِــبُ عَقبَـــا
وَأوفـــقُ مِنْ ذَاكَ جَـــوْبُ الفــلاَةِ
وَقطـــعِ المَخارِمِ نقبـاَ فنقبَــــــا

هــذا عــن ملــوك وأمــراء الدولــة الإدريسيــة؛ أمــا الأدبــاء والشعــراء مــن عامــة النــاس؛ فالمعلومــات عنهــم ــ هي الأخــرى ــ شحيحــة للغايــة؛ ومــع هــذا يمكــن الاستشهــاد ببعــض العينــات المتناثــرة في عــدد مــن المصــادر والمراجــع. وكمثــال علــى ذلــك يــأتي: أحمــد ابــن القاســم بــن إدريــس وأبــو العيــش عيــسى بــن إبراهيــم بــن القاســم بــن إدريــس أميــرا البَصْــرة (أو كــرت كمــا تســمى أيضــا) في مقدمــة الذيــن يهتمــون بــالأدب والشعــر؛ إذ كانــا يستقبــلان في مجالسهمــا الشعــراء مــن كــل الأقطــار؛ ويقصدهمــا الشعــراء والأدبــاء مــن ربــوع المغــرب والأندلــس كلهــا؛ حيــث كانــوا يتوافــدون إلى مجالسهمــا الثريــة الزاهيــة. ويفهــم مــن بعــض المصــادر أن بكــر بــن حمــاد الزنــاتي التاهــرتي كــان يراســل أحمــد بــن القاســم ــ إن لــم يكــن قــد زاره في بلاطــه ببصــرة ــ ويمدحــه بقصائــد كثيــرة؛ لــم يصلنــا منهــا إلا هــذه القطعــة الــتي يقــول فيهــا:

إنَّ السَّمَاحــــة وَالمُـــرُوءَة وَالنـــدَى

جُمِعـــوا لأحْمَـــدَ مِنْ بَنِي القاسِـــمِ

وَإذَا تفاخـــرَتِ القبَائِــلُ وَانتمَـــت

فَافخـــرْ بِفضـــلِ مُحمَّـــدٍ وَبِفَاطِـــمِ

وَبِجَعْفــرِ الطيـــارِ فِي دُرَجِ العُـــلَى

وَعَلِيٍّ العَضبِ الحُسَـــامِ الصـــارِمِ

إنِّي لمشتـــــاقٌ إليــــكَ وَإنمَــــا

يَسموا العقـــابُ إذَا سَمَـــا بِقـــوَادِمِ

فابعـــثْ إلَيَّ بِمركـــبٍ أسْمـــو بــــهِ

عَـــلي أكـــونُ عليـــكَ أوَّلَ قـــادِمِ

وَاعْلَـــمْ بِأنـــكَ لـــنْ تتـــالَ مَحبـــة

إلاَّ ببعـــضِ ملاَبـــسٍ وَدَرَاهـــــمِ

وقـــال ابـــن عـــذاري هنـــا: ((**فبعـــث إليـــه ببغلـــة سنيـــة، وصلـــة جزلـــة. وكـــان لـــه فيـــه أمـــداح كثيـــرة**)).[1] ويفهـــم مـــن البيتيـــن الأخيريـــن أنـــه ربمـــا يكـــون زار بـــلاط أحمـــد بـــن القاســـم. ومـــن بيـــن الشعـــراء الذيـــن وفـــدوا عـــلى أبي العيـــش عيـــسى الشاعـــر التاهـــرتي أحمـــد بـــن الفتـــح؛ حيـــث مدحـــه بقصيـــدة استهلهـــا

---

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص: 236**

ـ كعـادة العـرب ـ بالنسيـب ووصـف جمـال نسـاء البصـرة؛ فقـال:

قبَّـحَ الإلـهُ اللهْـوَ إلاَّ قيْنـةٌ

بصْرِيّـة فِي حمْـرَةٍ وَبيـاضِ[1]

الخمْـرُ فِي لَحَظاتِهَـا وَالوَرْدُ فِي

وَجَنَاتِهَـا، وَالكشْحُ غيْرُ مُفـاضِ

فِي شَكلِ مَرْجِى، وَنسْـكِ مُهَاجـرِ

وَعفـافُ سُنِيّ وَسَمْـتِ إبـاضِ

تاهـرْتُ أنـتِ خلِيَّـة وَبريـة

عَوَضْتُ مِنكِ ببَصْـرَة فاعْتـاضِ

لاَ عُـذرَ لِلحَمَرَاءِ فِي كلـفِي بِهَـا[2]

أوْ تَسْتفِيـضَ بِأبحُـرٍ وَحيـاضِ

مَا عُذرُها وَالبَحْرُ عيـسَى ربهَـا

مَلِكُ المُلوكِ وَرَايـضُ الـرُّوَاضِ

---

[1] جـاء هـذا البيـت في الأدب المغـربي هكـذا:

مَا حَـازَ كُلُّ الحُسْـنِ إلاَّ قَيْنَـة بِصْرِيَّة في حُمْرَةٍ وَبيَـاضِ، ص: 109.

[2] الحمـراء هنـا هـي بصـرة؛ إتسـمى بهـذا الاسـم أيضـا، كمـا تسـمى بصـرة الكتـاب، وبصـرة الذبـان. المغـرب، ص: 110.

وهـــذا مقطـــع قالـــه شاعـــر آخـــر عـــاش في القـــرن الرابـــع الهجـــري اسمـــه إبراهيـــم بـــن محمـــد الأصيـــلي؛ وهـــو في مـــدح حيّ مـــن هـــوارة يعـــرف ببـــني زيـــاد؛ كانـــوا ساكنيـــن حـــول مدينـــة أصيـــلا:

سَقَى غــرْبِيَّ أَرْضِ بَــنِي زِيَــادٍ
سَحَائِــبُ مَا يَجِــفُّ لهَــا غــرُوبُ
وَلاَ زَالَ النعِيــمُ يَعُــمُّ قوْمــاً
إزَاؤُهــمْ مِــنَ الشــرقِ الكثِيــبُ

ومـــن شعـــراء ذلـــك الزمـــن الشاعـــر محمـــد بـــن إسحـــاق المعـــروف بالبجيـــلي أو النحيـــلي؛ وهـــو القائـــل في عـــدوة القروييـــن بفـــاس:

يا عــدْوَةَ القرَوِيِيــنَ التِي كرِّمــتْ
لاَزَالَ جانِبُكِ المَحْبُــورِ مَسْطــورَا
وَلاَ سَرَى اللـــهُ عنكِ ثوْبَ نِعْمَتِــهِ
أرْضٌ تَجنبَــتِ الآثــامَ وَالــزُّورَا

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمَّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها القاسم جنون ابن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أتـرَى سِلاَحك إذْ كدَدْتَ قَصِيدَتِي
يَنفِيهِ سَيْلٌ قدْ طمَا مِنْ سَفسَدِ

إلى قوله:

أبَنِي مُحَمَّدَ الزَّنِيمِ لأنتمُ
شَرُّ الوَرَى مِمَّنْ يَرُوحُ ويَغتدِ
إنْ كانَ جَنونُ مِنْ آلِ محَمدٍ
فأنا كفورٌ بِالنبِيِّ محَمدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخلتُ فاساً ولِي شَوقٌ إلَى فاسِ
وَالجُبْنُ يَأخذُ بِالعَيْنينِ وَالرَّأسِ
فلَسْتُ أدْخلُ فاساً لوْ حييتُ ولَوْ
أعطِيتُ فاساً بمَا فِيهَا مِنَ الناسِ

ومممــن هجــا فاســا ــ في ذلــك الزمــن أيضــا ــ قــاضي تاهــرت أحمــد بــن فتــح بقولــه:

أسْلــحْ عَلى كلِّ فاسِيٍّ مَــرَرْتَ بـــهِ
فِي العُدْوَتيْــنِ مَعاً لاَ تبقِيــنَ أحَــدَا
قومٌ غــذُّوُا اللــؤْمَ حَتَّى قالَ قائِلِهــمْ
مَنْ لاَ يكونُ لئِيمــاً لمْ يَعِــشْ رَغَــدَا

ومــن الشعــراء الذيــن عاشــوا في تلــك الفتــرة أيضــا محمــد بــن السمهــري الــذي هجــا القاســم بــن إدريــس بــن إدريــس صاحــب طنجــة بقولــه:

قــُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَة عِشْ بهَــا
لاَ يَحْسدَنــكَ فِي بــلاَدِكَ حَاسِــدُ
مَنتــكَ نَفْســُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفــَة
هَيْهــاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِــكَ بَــارِدُ
لَمــا رَأيْتــكَ لِلئــامِ مُصَافِيـــــاً
أيْقَنـــتُ حَقــا أنْ جَــدَّكَ رَاشِــدُ

****

2)ـ دولة بني حمود بقرطبة:

تعتبر هذه الدولة بمثابة امتداد وتواصل للدولة الإدريسية في بلاد المغرب. وقيامها في بلاد الأندلس حدث نتيجة لتحول ساحة الصراع بين الأدارسة والأمويين إلى أرض الأندلس؛ بسبب ما حصل من نقل أفراد الأسرة الإدريسية بكاملهم إلى تلك الديار؛ من طرف الخليفة الأموي المستنصر بالله؛ خاصة في سنتي: 365هـ (975م) و375هـ(985م). هذا وينتمي الملوك الأول من الأدارسة ـ في الأندلس ـ إلى فرع عمر بن إدريس. وقد كانوا منافسين لبني عمومتهم: أبناء القاسم بن إدريس؛ الذين يعتبرون آخر من تولى ملك الأدارسة في المغرب. ويبدو أن تلك المنافسة كانت سببا في تغاضي الخليفة الأموي المستنصر عن محاولة نفيهم ـ هم الآخرين ـ مع الحسن بن قنون إلى مصر.

هذا ولم تشر جل المصادر ـ بوضوح ـ إلى مكان إقامة بني حمود في الأندلس؛ حينما بدأت الفتنة. وقد انفرد ابن الخطيب ـ تقريبا ـ بالحديث عن ذلك؛ ولكن باقتضاب شديد؛ حيث ذكر أنهم كانوا **((من جملة أمراء المغاربة المترسمين في ديوان بني أمية بقرطبة)).**[1] دون تحديد الفترة الزمنية؛ هل تم ذلك قبل نفي الحسن بن قنون إلى مصر، أو بعد نفيه؟.

---

[1] **أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 128.**

وعليـه فالسـؤال يبـقى قائمـا حـول المكـان الدائـم الـذي كانـوا يعيشـون فيـه؛ بعـد نـفي الأدارسـة إلى الأندلـس؛ وإخـلاء بـلاد المغـرب منهـم. ومـن ثمـة؛ بعـد نـفي ابـن قنـون وأهلـه إلى مصـر. ومـن هنـا يمكـن التسـاؤل: هـل كانـوا مستقريـن في بـلاد غمـارة؛ مختفيـن عـن الأنظـار بتلـك الديـار؟ أم كانـوا قاطنيـن ببـلاد الأندلـس؛ في الظـل؛ وبعيـدا عـن الأضـواء؟ وبهـذا يمكـن الاعتمـاد علـى مـا ذكـره ابـن حـزم بإيجـاز؛ حيـن ذكـر أن بـني حمـود كانـوا بتازغـدرا مـن عمـل غمـارة.[1] كمـا يشيـر البكـري إلى بعـض فروعهـم الموزعيـن في بقـاع شـتى بالمغـرب كـ: بـلاد أوربـة، وفـاس، وكتامـة، وبـلاد بـني عسوجـة وبـلاد زناتـة، وبـلاد برغواطـة، وتازغـدرا بغمـارة.[2] ومـن جهـة أخـرى يجيـب ابـن الخطيـب بإيجـاز أيضـا ــ في سيـاق آخـر ــ علـى ذلـك؛ إذ يـرى أن علـي بـن حمـود انتهـز موجـة الاضطرابـات؛ الـتي حدثـت بيـن أبنـاء البيـت المالـك مـن: الأموييـن وأنصارهـم المشكليـن مـن: الأمازيـغ وأهـل قرطبـة؛ فقطـع البحـر؛ قاصـدا سبتـة؛ حيـث تغلـب عليهـا.

---

[1] **قـال ابـن حـزم: ((وكـان بـدء أمرهـم [أي بـني حمـود] في شـول سنـة 400؛ إذ ولـي القاسـم بـن حمـود سبتـة إلى التاريـخ المذكـور. وكـان هـذا الفخـذ مـن افخاذهـم خامـلا؛ وكانـوا صـاروا بتازغـدرة مـن عمـل غمـارة)). الجمهـرة، ص: 51.**

[2] **المغـرب، ص ص: 131 ــ 133.**

ولكنه عاد إلى الأندلس عند سماعه باستفحال أمر سليمان بن الحكم؛ مع من كان معه من الأمازيغ؛ وبعد ظهور بوادر تفيد بقرب انتصارهم على أعدائهم.[1] وقد وردت إشارة خاطفة وباهتة في الذخيرة لابن بسام ــ حين ذكر موضوع وصية هشام المؤيد بالعهد من بعده إلى علي بن حمود؛ نكاية في بني عمه من آل الناصر الثائرين عليه ــ قال فيها أن عليا كان يتردد على سبتة؛ بغرض حث طوائف الأمازيغ، وتحريضهم على الجهاد في صف سليمان؛ وضد المهدي وأنصاره من أهل قرطبة.[2]

---

[1] وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((ولما التفت البرابرة بسليمان؛ استيجاشا من العصائب الأندلسية، وتشميرا لمقارعتها؛ وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين؛ لحق [أي علي بن حمود] بالعدوة الغربية؛ وتغلب على سبتة محتالا. ثم عاد إلى الأندلس؛ لما استوسق الأمر لسليمان. واختص من كُوَر إيالته التي اقتسمها البرابر واقتطعوها بسبتة، وأخوه القاسم بالجزيرة)). أعمال الأعلام، ق: 2؛ ص: 128.

[2] قال ابن بسام: ((وكان هشام ــ عند ما رآه من اضطراب أمره؛ وتيقنه من انصرام دولته؛ بما مني به قديما وحديثا؛ من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه؛ وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه ــ صيّر إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله بذلك إلى سبتة؛ أيام تردده عليها؛ بمعنى الاستمداد، وجمعه طوائف البرابرة للجهاد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1. ص ص: 37 ــ 38.

وهنـــا يتبـــادر إلى الذهـــن احتمـــال عـــودة السبـــب في انتقـــال عـــلي بـــن حمـــود إلى الأندلـــس مـــن جديـــد ــ بعـــد أن تغلـــب عـــلى سبتـــة؛ خـــلال موجـــة الاضطرابـــات ــ إلى الخطـــاب الـــذي ورد إليـــه مـــن هشـــام المؤيـــد؛ كمـــا جـــاء في الذخيـــرة ومصـــادر أخـــرى. ذلـــك الخطـــاب الـــذي يسنـــد فيـــه هشـــام ولايـــة العهـــد إليـــه. ومـــن هنـــا يبـــدو أنـــه لـــم يعبـــر المضيـــق نحـــو الأندلـــس لمجـــرد التضامـــن مـــع سليمـــان بـــن الحكـــم، أو بدافـــع الغيـــرة عليـــه بحكـــم العصبيـــة، أو حبـــا في الوقـــوف معـــه ضـــد أعدائـــه مـــن أهـــل قرطبـــة. بـــل حـــدث ذلـــك بدافـــع المصلحـــة؛ الـــتي أملـــت عليـــه العمـــل بجـــد في سبيـــل تحقيقهـــا.

عـــلى كـــل حـــال؛ فانـــزواء بـــني حمـــود هـــذا، واختفائهـــم عـــن الأضـــواء ــ ســـواء في بـــلاد الأندلـــس أو في المغـــرب ــ مكنهـــم مـــن اصطيـــاد الفرصـــة المواتيـــة للانقضـــاض عـــلى عـــرش الخلافـــة بالأندلـــس. وقـــد تحقـــق لهـــم ذلـــك؛ حينمـــا ترنحـــت دولـــة الأمويـيـــن؛ ومالـــت نحـــو الانهيـــار؛ بعـــد سقـــوط مؤسساتهـــا الفاعلـــة، وتفكـــك قواعدهـــا الأساسيـــة. وجملـــة القـــول هي أن جـــل المصـــادر التاريخيـــة بـــدأت ــ لأول مـــرة ــ تتحـــدث عـــن عـــلي بـــن حمـــود وأخيـــه القاســـم في بـــلاد الأندلـــس؛ اعتبـــارا مـــن سنـــة 403هــ (1012م). حيـــن تناقلـــت ــ مـــا ذكـــره ابـــن حيـــان ــ عنهمـــا وعـــن الموضـــع الـــذي عسكـــرا فيـــه مـــع جيشهمـــا المشكـــل مـــن المغاربـــة؛ وكـــانٍ ذلـــك بالقـــرب مـــن الزهـــراء وقرطبـــة؛ وبالتحديـــد في شَقَنـْـدَة. حيـــث كانـــا ضمـــن جيـــش سليمـــان بـــن

الحكم.[1] والمهم هنا أن علي بن حمود يكون قد ولد في بلاد المغرب؛ حسبما توصل إليه إسماعيل العربي؛ بعد عملية حسابية قصيرة قام بها.[2] ثم نُقِلَ — مع من نُقِل من بني عمه الأدارسة — إلى بلاد الأندلس؛ حيث ظل مهمشاً وبعيداً عن الأنظار حتى حانت الفرصة المناسبة؛ حين ظهر الانقسام الأكبر في صفوف بني أمية وأنصارهم؛ فعاد إلى مركز قوته ونفوذه؛ أين جمع شمل عصبيته الأمازيغية؛ بحجة نصرة أحد الفريقين المتخاصمين من بني أمية؛ ولما تمكن واشتد ساعده انقض من هناك على فريسته، وتغلب على أعدائه، حيث تربع على عرش الخلافة في قرطبة باسم العلويين من بني هاشم.

---

[1] إذ قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وانتقل إلى مدينة الزهراء [أي سليمان بن الحكم] بجملة برابره وجيشه؛ فضاقت الزهراء عنهم؛ فنزلوا بما اتصل بها. ونزل ابنا حمود: علي والقاسم قائدا فرقة المغاربة بشَقُنْدة)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 37. نقل هذا النص أيضا — كما هو — ابن عذاري، ج: 3، ص: 113. كما أشار إليه الحميدي في جذوة المقتبس، ص ص: 19 — 20. وعبد الواحد المراكشي في المعجب، ص: 43.

[2] دولة الأدارسة، ص: 226.

ولابــد ــ هنــا ــ مــن الإشــارة؛ إلى أن ابــن خلــدون كتــب فقــرة غامضــة؛ تبعــث عــلى الاعتقــاد بــأن بــني حمــود كانــوا مقيميــن في تازغــدرا ببــلاد المغــرب؛ في حمايــة قبيلــة غمــارة الأمازيغيــة.[1] وربمــا يكــون ابــن خلــدون قــد اقتبــس هــذا الخبــر عــن ابــن حــزم أو البكــري؛ إذ قــالا القــول نفســه؛ كمــا سبقــت الإشــارة إليــه. ولمــا اشتــدت الأزمــة في الأندلــس؛ عَــبَــرَ أميــر بــني حمــود عــلي بــن حمــود إلى الضفــة الأخــرى مــع جملــة مــن أنصــاره الأمازيــغ؛ حيــث انضــم إلى صفــوف سليمــان بــن الحكــم؛ مسايــرة منــه للحلــف الــذي عقــده ــ هــذا الأخيــر ــ مــع جــل القبائــل الأمازيغيــة هنــاك؛ خاصــة وأن عــلي بــن حمــود وأعضــاء أسرتــه كانــوا يــرون في أنفسهــم جــزءا لا يتجــزأ مــن المجتمــع الأمازيــغي. وبالفعــل فقــد عاملــه سليمــان بــن الحكــم كمــا عامــل أمــراء القبائــل الأمازيغيــة. حيــث أقطعــه ــ بعــد أن تحقــق لــه النصــر ــ مدينــة سبتــة؛ كمــا أقطــع أخــاه القاســم الجزيــرة الخضــراء.

---

[1] **وفي ذلــك يقــول: ((وبــقي الفخــر منهــم بتازغــدرة مــن غمــارة؛ فأجــازوا مــع البربــر؛ وصــاروا في جملــة المستعيــن؛ مــع أمــراء العــدوة، مــن البربــر. فعقــد لهمــا [أي لعــلي والقاســم] المستعيــن فيمــن عقــد لــه مــن المغاربــة. عقــد لعــلي منهمــا عــلى طنجــة، وللقاســم ــ وكــان الأســن ــ عــلى الجزيــرة الخضــراء)). العبــر، مج: 4، ص: 330.**

ويـــرى بعضهـــم أن سليمـــان ارتكـــب خطـــأ كبيـــرا بتقديـــم تلـــك المقاطعتيـــن لعـــلي وأخيـــه القاســـم.[1] والغريـــب أن بعـــض الأمازيـــغ أنفسهـــم استنكـــروا مـــا قـــام بـــه سليمـــان؛ عـــلى الرغـــم مـــن الاندمـــاج الحاصـــل بيـــن بـــني حمـــود والأمازيـــغ.[2] وربمـــا يكـــون مـــا أبـــداه أميـــر بـــني بـــرزال مـــن اعتـــراض؛ لا يعـــدو أنـــه أتى مـــن

---

[1] فهـذا ابـن بسـام يقـول: ((ومـن الاتفـاق الغريـب عـلى سليمـان أنـه لمـا استوسـق لـه الأمـر؛ بعـد فراغـه مـن خبـر هشـام المؤيـد؛ أنفـذ عزمـه ــ مـن بيـن قـواد جيوشـه ــ في اختيـار عـلي بـن حمـود المذكـور؛ فقدمـه عـلى مدينـة سبتـة؛ رأيـا ذَهَـلَ عنـه؛ ونبذهـا إلى ضـد لـه مكاشـح شريـك في الدعـوى والقرابـة. فتلقفهـا عـلي تلقـف الأكيـاس المقبليـن؛ ودَبَّ لمغبونـه سليمـان مـن قِبَـلِـهـا الضَّـراء دبيـب الحَنَـق الموتـور؛ حـتى هجـم عليـه وسلبـه ملكـه، وحـول دولتـه، ومـزق عِتْرتـه. وكانـت غلطـة سليمـان الـتي لـم يستقلهـا هـو ولا مـن بعـده؛ وإذا أراد اللـه شيئـا أمضـاه)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص: 38.

[2] قـال ابـن عـذاري نقـلا عـن ابـن حمـادة: ((وكانـوا ستـة قبائـل. فأعـطى صنهاجـة إلبيـرة؛ فبقيـت بيـد حبـوس وذريتـه نحـو المائـة سنـة. وأعـطى مغـراوة الجـوف. وأعـطى منـذر بـن يحـيى سرقسطـة. [لـم يكـن منـذر بـن يحـيى بربريـا؛ بـل كـان مـن قبيلـة تجيـب العربيـة] وأعـطى بـني بـرزال وبـني يفـرن جيـان وذواتهـا. وأعـطى بـني دمـر وأزداجـة شذونـة ومـورور وغيـر ذلـك مـن الحصـون. وذكِـر أنـه ولى القاسـم بـن حمـود طنجـة وآصيـلا، أمـا عـلي بـن حمـود فـولاه سبتـة كمـا ذكرنـاه. [يـرى المراكـشي وابـن الخطيـب وابـن خلـدون أن مـا أعطـاه سليمـان للقاسـم هي الجزيـرة الخضـراء] فلمـا بلـغ عبـد اللـه البـرزالي تقديـم ابـني حمـود؛ دخـل عـلى سليمـان؛ فقـال: "يـا أميـر المؤمنيـن بلغـني أنـك وليـت بـني حمـود العلوييـن عـلى المغـرب." قـال: "نعـم". قـال لـه: "أليـس العلويـون طالبييـن؟" قـال: "نعـم". قـال: "تـأتي إلى خشـاش؛ تردهـم ثعابيـن؟" قـال: "نُفِـذ الأمـر في ذلـك")). البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 113 ــ 114. أنظـر في هـذا أيضـا المعجـب، ص: 43. وأعمـال الأعـلام لابـن الخطيـب: ق: 2، ص: 119.

بـــاب الغيـــرة والحســـد لعـــلي بـــن حمـــود وأخيـــه؛ أو ربمـــا يكـــون ذلـــك بتأثيـــر مـــن معتقـــده الخـــارجي.

المهـــم أن ذلـــك حـــدث بموافقـــة سليمـــان وبقـــرار منـــه. ولعلـــه لـــم يكـــن في يـــده القـــدرة عـــلى الـــرفـــض أو المعارضـــة؛ نظـــرا لكـــون عـــلي قـــد سيطـــر بالفعـــل ـــ مـــن قبـــل ـــ عـــلى سبتـــة؛ كمـــا جـــاء في نـــصي: ابـــن بســـام وابـــن الخطيـــب. خاصـــة وأن ابـــن حـــزم قـــال أن سبتـــة كانـــت ولايـــة القاســـم بـــن حمـــود منـــذ شـــوال سنـــة 400هـــ(1009م).[1] وبهـــذا فمـــا صـــدر ـــ بعدئـــذ ـــ عـــن سليمـــان لـــم يكـــن ســـوى مصادقـــة وموافقـــة عـــلى أمـــر واقـــع بالفعـــل. وهكـــذا فمـــن ذلـــك التاريـــخ بـــرز الـــدور الخطيـــر والفعـــال للأدارســـة في بـــلاد الأندلـــس؛ ممثليـــن بعـــلي بـــن حمـــود بـــن ميمـــون بـــن حمـــود ـــ وحمـــود اسمـــه الحقيـــقي أحمـــد ـــ بـــن عـــلي بـــن عبيـــد اللـــه بـــن عمـــر بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه.[2] وكمـــا سبـــق ذكـــره فهـــذا الأميـــر يعتبـــر مـــن بقايـــا الأدارســـة؛ الذيـــن أجبرتهـــم الظـــروف عـــلى العيـــش في ظـــل الدولـــة الأمويـــة؛ بعـــد أن تغلبـــت عـــلى ملكهـــم ببـــلاد المغـــرب.

---

[1] **الجمهـــرة، ص: 51.**

[2] **نفســـه، ص: 50.**

وقد برز فيما بعد ببلاد الأندلس والضفة المقابلة في العدوة المغربية ـ من هذه الأسرة؛ إلى جانب علي ابن حمود ـ أخوه القاسم وعدد من ذرية علي بن حمود هذا؛ منهم: يحيى بن علي، وإدريس بن علي، وحسن بن يحيى، وإدريس بن يحيى، ومحمد بن إدريس بن يحيى، ويحيى (حيون) بن إدريس، ومحمد بن إدريس بن علي، وحسن بن إدريس بن علي، وعلي بن إدريس ابن علي. أما ذرية القاسم فمنهم: محمد بن القاسم، وحسن بن القاسم، والقاسم بن محمد بن القاسم. وقد كان بنو إدريس هؤلاء مندمجين ضمن كتلة القبائل الأمازيغية؛ على الرغم من أصولهم الأولى التي تلتحم ببني هاشم. ذلك لأن الأدارسة كلهم قد انصهروا ـ منذ قيام دولتهم الأولى ـ في المجتمع الأمازيغي؛ فأضحوا جزءا لا يتجزأ منهم. ولهذا فالمصادر التاريخية كلها؛ تتكلم عنهم دوما في سياق حديثها عن الأمازيغ؛ كما ينسب كل تصرف يصدر عنهم آليا إلى القبائل الأمازيغية.[1]

---

[1] فابن خلدون يفتتح الكلام عنهم بقوله: ((كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة؛ واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس؛ فكانت للبرابرة إليهم صاغية؛ بسبب ذلك، وخلطة بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر. فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعليّ منهما على طنجة وعملها، وللقاسم ـ كان الأسنّ ـ على الجزيرة الخضراء.

وتشير بعض المصادر – أيضا – إلى أن لهجتهم كانت أمازيغية؛ ومع ذلك فهم لا يجهلون العربية بالتمام. وقد أورد ابن الخطيب مثالا على لهجة علي بن حمود؛ تلك اللهجة المتأثرة بالعجمة كما وصفها؛ حين قال: ((**وقبض** [أي علي بن حمود] **على سليمان وأخيه وأبيه الحكم؛ فقتلهم بيده؛ وقال بلسانه الزناتي: " لا يقتل الزلطان إلا الزلطان"**)). ويقصد ابن الخطيب من هذا أن علي ابن حمود لم يقل السلطان بالسين؛ إذ نطق السين زايا.[1] غير أن الذي قاله ابن الخطيب لا يمنع كون علي وأخيه القاسم ومن تبعهما من ذرية ابني حمود كانوا يعرفون العربية ويتذوقون آدابها؛ خاصة وأن مصادر كثيرة أتت بشواهد تفيد بذلك.[2]

****

وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس؛ متوارث من دولتهم بالعدوة)). العبر، مج: 4، ص: 330. أما ابن بسام فيستشهد بمقالة ابن قتيبة؛ حين قال: ((ثم رفضتهم آفاقها [يقصد رفضت آفاق بلاد إفريقية بني أبي طالب] إلى طرف بلاد البربر؛ فنكحوا إليهم، وتبربروا معهم)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 96.

[1] أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

[2] فمما قاله المقري – على سبيل المثال – في علي بن حمود: ((وكان الناصر علي بن حمود – على عجمته، وبعده من الفضائل – يصغي إلى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي. ومن شعرائه المختصين به ابن الحنّاط القرطبي [وهو محمد بن سليمان ابن الحناط الرعيني القرطبي الأعمى]... وعبادة بن ماء السماء؛ وكان معروفا بالتشيع... ومدحه ابن دراج القسطلي)). نفح الطيب، ج: 1، ص ص: 483 – 484.

ــ حكومـــة الناصــر لديــن الله علي بن حمــود بقرطبـــة:

وخلاصـــة القـــول فقـــد ظـــل عـــلي بـــن حمـــود يترقـــب الفرصـــة المواتيـــة للانقضـــاض عـــلى كـــرسي الخلافـــة بقرطبـــة. إذ كـــان يتابـــع ــ مـــن قـــرب وبعنايـــة ــ كـــل مـــا يجـــري في ديـــار الأندلـــس. حيـــث يراقـــب الأحـــداث الـــتي تمـــت بعـــد نشـــوب الاضطرابـــات ــ في بدايتهـــا ــ داخـــل البيـــت الأمـــوي، وبعـــد زوال حكـــم العامرييـــن؛ نتيجـــة للانقسامـــات الـــتي حدثـــت بيـــن أنصـــار الدولـــة الأمويـــة؛ عندمـــا انحـــازت كـــل فئـــة مـــن المصطنعيـــن، والقبائـــل إلى أميـــر مـــن الأموييـــن. فانضـــم جمـــع كبيـــر مـــن الأمازيـــغ ــ وبنـــو حمـــود معهـــم طبعـــا ــ إلى سليمـــان بـــن الحكـــم بـــن سليمـــان الملقـــب بالمستعيـــن باللـــه؛ الـــذي قـــام ضـــد خصمـــه محمـــد بـــن هشـــام بـــن عبـــد الجبـــار الملقـــب بالمهـــدي. وذلـــك لأن الأمازيـــغ كرهـــوا ابـــن عبـــد الجبـــار (المهـــدي)؛ بسبـــب مـــا أعلنـــه مـــن عـــداء لهـــم؛ ومـــا أبـــداه مـــن تعصـــب شديـــد ضدهـــم ــ في بدايـــة عهـــده ــ إذ كـــان يَكِـــنُّ لهـــم كراهيـــة ملحوظـــة؛ الأمـــر الـــذي أجـــج حقدهـــم عليـــه، وعـــلى أتباعـــه مـــن العامـــة والدهمـــاء؛ الذيـــن ارتكبـــوا مجـــازر رهيبـــة في حـــق الأمازيـــغ بقرطبـــة. لـــذا كـــان رد الفعـــل عندهـــم ــ عـــلى اختـــلاف قبائلهـــم ــ هـــو العمـــل باستماتـــة عـــلى نصـــرة خصمـــه اللـــدود ومنافســـه العنيـــد سليمـــان بـــن الحكـــم (المستعيـــن باللـــه).

وسبب كراهية المهدي للأمازيغ ــ طبعا ــ عائدة إلى ضغوط نفسية؛ تحركها في داخله العصبية الشديدة لأقربائه وأهله من بني أمية؛ أولئك الأقرباء من الأسرة المالكة الذين سلبهم الأمازيغ ــ بدعمهم للمنصور ابن أبي عامر وأبنائه ــ القدرة في مقاومة المغتصبين والمستبدين في بلاط هشام المؤيد.[1] وهذا ما فسره المقري بقوله: ((**وأذل** [أي المنصور بن أبي عامر] **قبائل الأندلس بإجازة البرابر**)).[2] أي بنقلهم من المغرب إلى الأندلس؛ ثم يضيف في موضع آخر: ((**وكانت الأموية تعتد عليهم** [أي على الأمازيغ] **ما كان من مظاهرتهم العامريين؛ وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم؛ فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون. ولولا مالهم من العصبية لأستأصلهم الناس؛ ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة** [أي قرطبة]

---

[1] **وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ((وأعلن [أي المهدي] ببغض البرابرة وتنقصهم؛ جهلا بمحلهم من البأس والعصبية؛... وتعصبت العامة للمهدي... وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط؛ خارج قرطبة؛ عشية يوم الجمعة؛ وبعد محاورة بينهم وبين العامة؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر. وراسلهم محمد بن عبد الجبار؛ فلم يلتفتوا إليه)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 112 ــ 113. وثمة شواهد أخرى في المصدر نفسه، ص ص: 66. 70. 87. 102. 106. 112ــ 119. وأنظر في هذا أيضا البيان المغرب، ج: 2، ص ص: 263. 278 ــ 279. 281. 287. 293 ــ 294. ج: 3، ص ص: 30. 51 ــ 91. والعبر، مج: 4، ص ص: 318 ــ 326. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 397 ــ 398. 405. 417. 427 ــ 430.**

[2] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 405.**

بكراهيتهم. وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا؛ وَرُدَّ بعض رؤوسهم في بعض الأيام من باب القصر؛ فانتهبت العامة دورهم؛ وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم؛ فاعتذر إليهم، وقتل من اتهم من العامة في أمرهم؛ وهو مع ذلك مظهر لبغضهم؛ مجاهر بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنه يريد الفتك بهم...)).[1]

ويقتضي الحال هنا وقفة قصيرة؛ لمحاولة فهم ما جرى بقرطبة في تلك الأثناء. فمن الواضح أن الوضع تطور خلال درجات ومراحل متتابعة. ففي البدء اقتصر الصراع على أهل البلاط بقرطبة؛ وبالتحديد داخل الأسرة المالكة؛ أو بالأحرى بين العصبية الأموية العربية وبعض الموالي والمصطنعين؛ ممن أراد الخليفة إعدادهم وتجهيزهم ضد من تسول له نفسه – من عصبيته – أن يخرج عليه، أو يتطلع لمشاركته في مجد الملك والسلطان.[2] وفي المرحلة الموالية بدأ نجم المنصور بن أبي عامر يبرز ويسطع على الأندلس كلها. ولما أراد هذا الوزير الحاجب الحازم – الذي كان وصيا على العرش – أن يستبد بالأمر؛ لم يكتف

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: 427.

[2] وهذا يتوافق مع ما ذكره ابن خلدون ضمن: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 632 – 634. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 – 678.

باصطنـــاع المـــوالي والمصطنعيـــن ــ كالفتيـــان العامرييـــن ــ بـــل مـــد نظـــره بعيـــدا؛ إلى الطـــرف الآخـــر مـــن العـــدوة؛ حيـــث الأرض الـــتي تفيـــض بالقبائـــل، وأبطـــال الحـــرب والنـــزال؛ تلـــك الأرض المغربيـــة الخصبـــة بالرجـــال البواســـل، والزاخـــرة بالقبائـــل الـــتي لا تحـــصى؛ تلـــك القبائـــل الـــتي مـــا زالـــت تعيـــش في محيـــط بـــدوي متقشـــف؛ محيـــط بعيـــد عـــن ليونـــة الحضـــارة وطراوتهـــا، والنائيـــة عـــن تياراتهـــا المفســـدة لشـــروط الصلابـــة والبسالـــة.[1]

وقـــد يكـــون مـــن الحوافـــز الـــتي جعلـــت المنصـــور يتحمـــس إلى جلـــب فرســـان الأمازيـــغ إلى الأندلـــس؛ تلـــك النتائـــج المشجعـــة الـــتي انبثقـــت عنهـــا تجربـــة سيـــده المستنصـــر؛ حيـــن استخـــدم بـــني بـــرزال. فاتضـــح لـــه أنهـــم كانـــوا أهـــلا للمهمـــة الـــتي أنيطـــت بهـــم؛ حيـــث أضحـــوا للخليفـــة الأمـــوي حراســـا أوفيـــاء، وللبـــلاد فرسانـــا مغاويـــر. ونتيجـــة لذلـــك فقـــد عمـــل المنصـــور عـــلى جلـــب عـــدد كبيـــر مـــن القبائـــل الأمازيغيـــة وفرسانهـــم الأبطـــال إلى بـــلاد الأندلـــس؛ بحجـــة الجهـــاد، والدفـــاع عـــن أمـــن الدولـــة الإسلاميـــة مـــن تحرشـــات النصـــارى. فأجـــزل لهـــم العطـــاء، وخصهـــم بكـــل غـــال وثميـــن مـــن أمـــوال وإقطـــاع. وبذلـــك أصبحـــت في يـــده

---

[1] **أنظـــر إلى ما كتبـــه ابـــن خلـــدون ضمـــن: ((فصـــل في أهـــل البـــدو أقـــرب إلى الشجاعـــة مـــن أهـــل الحضـــر)). المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 588 ــــ 589. و((وفصـــل في أن معانـــاة أهـــل الحضـــر للأحكـــام مفســـدة للبـــأس فيهـــم، ذاهبـــة بالمنعـــة منهـــم)). نفســـه، ص ص: 589 ــــ 591.**

قـوة لا تقهـر في الأندلـس؛ مكنتـه مـن الاستبـداد والتصـرف في شئـون الدولـة كمـا يحلـو لـه.[1] ثـم أتـت الفتـرة المواليـة؛ الـتي شهـدت الصـراع الخطيـر والانقسـام المذهـل الـذي فتـت الدولـة إلى طوائـف وإمـارات صغيـرة هنـا وهنـاك؛ حيـث هيمنـت خلالهـا فئـات عديـدة ومتفرقـة في المجتمـع: قبائـل عربيـة، وقبائـل أمازيغيـة، ومـوالي مـن أجنـاس شـتى، ومماليـك صقالبـة وسـودان.. ألـخ. وضمـن هـذا البحـر المتمـاوج مـن العصبيـات المختلفـة ــ قبليـة وفئويـة وعرقيـة ومذهبيـة ــ كـان بعـض الفئـات المنعـزل، والبقايـا الضائعـة مـن بـني أميـة تظهـر فـوق السطـح أحيانـا، وتختـفي تحـت الأمـواج أحيانـا أخـرى. وفي هـذه الأثنـاء ظهـرت العصبيـة الهاشميـة؛ ممثلـة بالأدارسـة مـن بـني أبي طالـب. غيـر أن عصبيتهـم الفاعلـة والموجـودة في الميـدان كانـت هـي العصبيـة الأمازيغيـة؛ نظـرا لمـا حصـل مـن اندمـاج قديـم بيـن الأدارسـة والأمازيـغ. ومـن هنـا يتضـح التداخـل بيـن العصبيتيـن؛ كمـا يتضـح سبـب الجفـاء الـذي لاقـاه الأدارسـة مـن قبـل الأندلسييـن؛ ذلـك الجفـاء العائـد ــ في الحقيقـة ــ إلى عـدم التمييـز والفصـل بينهـم وبيـن الأمازيـغ.

---

[1] **أنظـر أيضـا: ((فصـل فيمـا يعـرض في الـدول مـن حجـر السلطـان والاستبـداد عليـه)). المقدمـة، ج: 2، ص ص: 680 ــ 681. و((فصـل في أن المتغلبيـن عـلى السلطـان لا يشاركونـه في اللقـب الخـاص بالملـك)). نفسـه، ص ص: 682 ــ 683.**

ونظرا لما واجه الأمازيغ من شدة في العداء أبداه سكان المدن؛ وخاصة أهل قرطبة وإشبيلية؛ فما كان منهم سوى الحرص على حماية أنفسهم، والسهر على أمنهم، والذود عن مصالحهم. ومن هنا عملوا على تقديم ولائهم للأمير الذي يفيدهم ويحقق مآربهم. فالتفوا في البداية حول الأمير هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر؛ ولما قتل انضموا إلى ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. ولما تحقق لسليمان المذكور النصر، وتربع على عرش الخلافة بقرطبة؛ لم يجد متسعا من الوقت لكي يؤجل تسديد الدين الذي عليه للأمازيغ ومن ناصره في حرب عدوه. لذا فقد سارع إلى مكافأتهم جميعا؛ حيث أسند إلى بعضهم مناصب سامية في الدولة؛ كما خص أمراءهم بالقيادات والمقاطعات الهامة. فكان حظ بني حمود – كما سبق ذكره – مثل حظ بقية الأمازيغ؛ لصلتهم بهم وانتمائهم إليهم. وهكذا فقد أقطع سبتة لعلي بن حمود، والجزيرة الخضراء لأخيه القاسم.

وبذلك كان هذا الإقطاع بداية الخطوات الممهدة لدروب الملك؛ إذ وصل بنو حمود بذلك إلى المنفذ؛ الذي ساعدهم على التسرب نحو حكم قرطبة نفسها. فبهاتين الولايتين الهامتين الممثلتين في سبتة والجزيرة الخضراء؛ يمكن لهم أن يحشدوا الحشود، ويسهل عليهم الحصول على الأموال

اللازمة والعتاد الضروري للقتال. هذا بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أحق الناس بالملك؛ حيث استمدوا شرعيتهم أولا: من كتاب العهد الذي – كما قيل – خص به الخليفة الشرعي هشام المؤيد الأمير علي بن حمود؛[1] وثانيا: من سلالتهم الإدريسية العلوية القريشية؛ التي تضعهم في مقدمة المؤهلين للخلافة. وثالثا: من قوة العصبية التي تساندهم وتقف خلفهم؛ وهي القبائل الأمازيغية.[2] وهذا هو الذي جعلهم يحسون بإمكان قيام دولتهم بيسر وسهولة؛ خاصة بعد أن ضمن علي بن حمود حقه الشرعي فيها؛ من خلال العهد الذي منحه إياه هشام المؤيد.[3]

---

[1] أنظر ما ذكره ابن خلدون فيما يخص ولاية العهد، ومشروعيتها ضمن: "فصل في ولاية العهد". المقدمة، ج: 2، ص ص: 721 – 734. إذ يلخص القول في: ((اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة؛ وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها؛ ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده)). ص : 721.

[2] راجع ما قاله ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)). حيث ذكر أن ((كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية...)). ثم قدم بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية. المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[3] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حيان. ويبدو أن هذا النص هو ذاته الذي ذكره ابن بسام وورد من قبل: ((وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته؛ صير إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله إلى سبتة بذلك سراً؛ وولاه

وعليـه فمـا أن تحقـق لعـلي بـن حمـود أمـر تعيينـه عـلى سبتـة؛ ومـا أن تمكـن مـن تعزيـز قوتـه فيهـا ــ بعـد استقـراره وضبـط أمـوره ــ حـتى شـرع في خطواتـه الأولى نحـو تحقيـق أهدافـه.

وبالفعـل كـان أول مـا بـادر إليـه عـلي بـن حمـود سنـة 404هــ(1013م) هـو إحكـام قبضتـه عـلى سبتـة؛ والقضـاء عـلى المعارضيـن. وذلـك أنـه سـارع إلى قتـل قـاضي البلـدة محمـد بـن عيـسى مـع الفقيـه ابـن يربـوع. متهمـا القـاضي المذكـور بالتجسـس عليـه، والسـعي إلى كشـف أعمالـه وخططـه. إذ اتهمـه بأنـه كاتـب سـرا سليمـان المستعيـن، وأخطـره بالتحضيـرات الـتي قـام بهـا لغـزو قرطبـة.[1] إلى جانـب ذلـك أرسـل إلى أخيـه القاسـم؛ الـذي كـان في تلـك الأثنـاء بقرطبـة؛ فطلـب منـه الالتحـاق بولايتـه في الجزيـرة الخضـراء.

طلـب دمـه؛ واستكتمـه السـر فيـه؛ إلى أوانـه وبلـوغ زمانـه)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 114. 120. أمـا المقـري فيقـول: ((فلمـا دخـل سليمـان مـع البربـر قرطبـة، ومحـو كثيـرا مـن محاسنهـا ومحاسـن أهلهـا؛ كـان مـن أكبـر أمرائهـم عـلي بـن حمـود؛ وبلـغ هشامـا المؤيـد ــ وهـو محبـوس ــ خبـره، واسمـه ونسبـه؛ فـدس إليـه أن الدولـة صائـرة إليـك، وقـال لـه: "إن خاطـري يحدثـني أن هـذا الرجـل يقتلـني" ــ يعـني سليمـان ــ "فـإن فعـل فخـذ بثـأري". وكـان هـذا الأمـر هـو الـذي قـوى نفـس ابـن حمـود عـلى طلـب الإمامـة؛ وحملـه عـلى الأخـذ بثـأر هشـام المؤيـد)). نفـح الطيـب، ج: 1، ص: 482.

[1] البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 115. أنظـر أيضـا أعمـال الأعـلام لابـن الخطيـب، ق: 2، ص: 121.

كمـــا بعـــث في سنـــة 405هــ(1014م) إلى حبـــوس أميـــر بـــني زيـــري والفـــتى خيـــران العامـــري يعلمهمـــا بخطـــاب العهـــد الـــذي وصلـــه مـــن هشـــام المؤيـــد؛ ويطلـــب منهمـــا مساعدتـــه للإطاحـــة بسليمـــان.[1] ثـــم تحـــرك نحـــو مدينـــة مالقـــة الـــتي استـــولى عليهـــا، وربمـــا قتـــل قائدهـــا حســـب قـــول ابـــن عـــذاري.[2] ومـــن ثمـــة اجتمـــع مـــع خيـــران في المريـــة؛ وانضـــم إليـــه أيضـــا زاوي بـــن زيـــري وحبـــوس بـــن ماكســـن بـــن زيـــري في قبيلـــة صنهاجـــة.[3] فانطلقـــوا جميعـــا نحـــو قرطبـــة؛ ضمـــن قـــوة كبيـــرة مـــن الأمازيـــغ والعامريـــن.

[1] قـــال ابـــن عـــذاري نقـــلا عـــن المظفـــري؛ وهـــو كتـــاب محمـــد بـــن عبـــد اللـــه بـــن الأفطـــس: ((لمـــا خـــرج عـــلي عـــن طاعـــة المستعيـــن؛ أخـــرج كتابـــا نسبـــه إلى= =هشـــام بـــن الحكـــم؛ يقـــول فيـــه: "أنقـــذني مـــن أســـر البرابـــر والمستعيـــن؛ وأنـــت ولي عهـــدي". ووجـــه بـــه إلى حبـــوس الصنهـــاجي وإلى خيـــران العامـــري؛ فقـــال لـــه انهـــض إلى مالقـــة؛ وبهـــا يتـــم أمرنـــا؛ فأقبـــل إليهـــا بالقطائـــع والعساكـــر فقتـــل قائدهـــا واستـــولى عليهـــا)). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 116. وقـــد اشـــار إلى هـــذا أيضـــا المراكـــشي في المعجـــب، ص: 44.

[2] انفـــرد ابـــن عـــذاري بخبـــر قتـــل والي مالقـــة. البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 116. أمـــا المراكـــشي فقـــال أنـــه عامـــر بـــن فتـــوح الفائـــقي مـــولى فائـــق مـــولى الحكـــم المستنصـــر؛ وذكـــر أنـــه أخرجـــه مـــن مالقـــة؛ ولـــم يشـــر إلى قتلـــه. المعجـــب: ص: 44. أمـــا ابـــن الأثيـــر فيقـــول أنـــه اتفـــق مـــع عـــلي عـــلى الثـــورة؛ وخـــرج مـــن مالقـــة بإرادتـــه وسلمهـــا لعـــلي بـــن حمـــود. الكامـــل، ج: 7، ص: 284.

[3] البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 120.

ولمـا وصلـت أخبـار علـي بـن حمـود وحلفائـه إلى سليمـان خـرج إليهـم بجيشـه المكـون مـن الأندلسييـن، وقلـة مـن الأمازيـغ سنـة 407هـ(1016م). ولكنـه لـم يصمـد أمامهـم، ومـني بهزيمـة نكـراء؛ حيـث انكشفـت المعركـة عـن سقوطـه ــ مـع أخيـه وأبيـه ــ في الأسـر. ولمـا دخـل علـي بـن حمـود إلى قصـر قرطبـة واستـولى علـى عرشهـا؛ بـادر فـورا بقتـل سليمـان وأخيـه وأبيـه ــ ذلـك الشيـخ الـذي ناهـز عمـره 72 سنـة ــ ويقـال أنـه قتلهـم بيـده. أخـذا بثـأر هشـام المؤيـد كمـا زعـم.[1] هـذا هـو منطـق الملـك في أبشـع صـوره.

وهكـذا تـم مـا أراده اللـه. فـفي لحظـات أصبـح الحلفـاء أعـداء؛ يقتـل بعضهـم بعضـا. فمـا هـو السبـب؛ وكيـف حـدث هـذا..؟ ومـا الحـافـز والمحـرك

---

1 قـال ابـن بسـام: ((فانهـزم سليمـان؛ وقبـض عليـه وعـلى أخيـه وأبيـه؛ وسيقـوا أُسَـارَى إلى علـي بـن حمـود. ودخـل القصـر وخيـران يطمـع أن يجـد هشامـا المؤيـد حيـا. فلـم يوجـد؛ وذكـر أنـه قتـل؛ وعـرض عليـه قبـره. فأمـر علـي بنبشـه. فأخـرج الشخـص؛ وشهـد أنـه هشـام؛ وسليمـان يتبـرأ مـن دمـه؛ ومـا كـان في جسـده شـيء مـن أثـر السـلاح؛ فتوهـم فيـه الخَنْـق. وأمـر علـي بتجهيـزه إلى أهلـه؛ وأنـذر طبقـات النـاس للصـلاة عليـه؛ فدفـن لزيـق أبيـه الحكـم. ثـم دعـا علـي بسليمـان وذويـه؛ فضـرب عنقـه بيـده؛ وظهـر منـه جـزع شديـد عنـد ملاحظتـه السيـف؛ خـارت منـه قـواه. فجثـا عـلى ركبتيـه؛ ثـم ضربـت عنـق الشيـخ أبيـه وعنـق عبـد الرحمـن ابنـه. وجعلـت الـرؤوس الثلاثـة في طسـت؛ وأخرجـت مـن القصـر إلى المحلـة؛ ينـادى عليهـا: هـذا جـزاء مـن قتـل هشامـا المؤيـد)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 41 ــ 42. ورد هـذا الخبـر أيضـا في البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 117. وفي أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 121.

لمـــا جـــرى كلـــه..؟ هـــل هي نشـــوة الملـــك..؟ أم هي العـــداوة المزمنـــة الكامنـــة في نفـــوس أجيـــال وأجيـــال مـــن بـــني أميـــة وبـــني أبي طالـــب..؟ يبـــدو أن تلـــك العوامـــل كلهـــا كانـــت وراء مـــا حـــدث. فالأطمـــاع ــ طبعـــا ــ لعبـــت دورا مهمـــا؛ كمـــا أن العصبيـــة الهاشميـــة كانـــت محركـــا فعـــالا نشطـــت حمـــاس عـــلي بـــن حمـــود. هـــذا مـــن جهـــة ومـــن جهـــة أخـــرى فقـــد تجاذبتـــه عصبيتـــان رئيستـــان هي: العصبيـــة الهاشميـــة والعصبيـــة الأمازيغيـــة. وعليـــه فمـــا يمـــس الأمازيـــغ يمســـه أيضـــا في الصميـــم؛ خاصـــة وأنـــه كـــان دومـــا محسوبـــا عليهـــم؛ ولا يعاملـــه الآخـــرون إلا كمـــا يعاملـــون الأمازيـــغ. ومـــن هنـــا اتضـــح بـــأن عـــليّ بـــن حمـــود وسليمـــان بـــن الحكـــم كانـــا يكنـــان لبعضهمـــا كراهيـــة وحقـــدا دفينيـــن؛ لـــم يعلنـــا عنهمـــا إلا في حـــالات خاصـــة. وقـــد جـــاء في بعـــض المصـــادر لمحـــات مـــن هـــذا؛ إذ تقـــول بعـــض الروايـــات أن سليمـــان كـــان يكـــن كراهيـــة لعـــليّ بـــن حمـــود والأمازيـــغ أيضـــا ــ مثلـــه في ذلـــك مثـــل أعضـــاء الأســـرة الأمويـــة ــ ومـــا الحلـــف الـــذي جمعهـــم ســـوى فتـــرة زمنيـــة عابـــرة غيـــر دائمـــة. إذ كـــان سليمـــان في أمـــس الحاجـــة إليهـــم وإلى سيوفهـــم.

لـــذا فإنـــه كـــان يحـــرص عـــلى مداراتهـــم؛ وتقديمهـــم عـــلى غيرهـــم؛ خوفـــا مـــن بطشهـــم؛ لأنـــه يـــدرك ضعـــف موقفـــه أمامهـــم. ومـــن الشواهـــد الـــتي أوردهـــا بعـــض الكتـــاب والمؤرخيـــن: أنـــه قـــال ــ في أوساطـــه الخاصـــة ــ أبياتـــا شعريـــة مـــن نظمـــه في حـــق الأمازيـــغ ومـــن حالفهـــم:[1]

حَلَفــتُ بِمَنْ صَلَّى وَصَــامَ وَكَبَّــرَا
لأَغْمِدَهَــا فِيمَــنْ طَــغَى وَتَجَبَّــرَا
وَأَبْصَرَ دِينَ اللـــهِ تحْيَــا رُسُومُـــهُ
فبَــدلَ مَا قــدْ لاَحَ مِنهَــا وَغيَّــرَا
فوَاعَجَبــاً مِــنْ عَبْشَــمِيٍّ مُمَلــكٍ
بِرَغْــمِ العَــوَالِي وَالمَعَالِي تَبَرْبَــرَا
فلــوْ أنَّ أمْــرِي بِالخِيَــارِ نَبذْتهــمْ
وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْــفِ حُكْماً مُحَــرَّرَا
فَإِمَّـــا حَيَــاة تسْتَلــذ بِفقدِهِـــــمْ
وَإِمَّا حِمَـــامٌ لاَ نرَى فِيـــهِ مَا زرَى

---

[1] قـــال المقـــري في هـــذه الأبيـــات: ((وكـــان مـــن أعظـــم الأسبـــاب في فســـاد دولـــة المستعيـــن؛ أنـــه قـــال هـــذه الأبيـــات؛ مستريحـــا بهـــا إلى خواصـــه)). نفـــح الطيـــب، ج: 1، ص: 429.

فهـذه الأبيـات تـدل ــ بـدون شـك ــ عـلى مـا ينطـوي عليـه صـدر سليمـان؛ مـن كراهيـة للأمازيـغ؛ حيـث لـم يستطـع التخلـص مـن رواسـب العصبيـة الأمويـة العربيـة؛ عـلى الرغـم مـن الحلـف الـذي يربطـه بالأمازيـع، وعـلى الرغـم مـن استماتتهـم في الدفـاع عنـه، والتضحيـة بأرواحهـم مـن أجلـه. وبذلـك فقـد برهـن عـلى أنـه لا يختلـف كثيـرا عـن ابـن عبـد الجبـار (المهـدي)؛ سـوى في التقيـة الـتي لجـأ إليهـا. ويبـدو أن هـذه الأبيـات كشفـت نوايـاه الحقيقيـة؛ ممـا جعـل الأمازيـع يختـارون صـف عـلي بـن حمـود؛ عندمـا قـرر الأخـذ بثـأر أجـداده الأدارسـة مـن أحفـاد الناصـر لديـن اللـه الأمـوي؛ الـذي سبـق لـه أن أزال الدولـة الإدريسيـة مـن الوجـود. إذ كـان هـذا هـو حافـزه الأسـاسي لإسقـاط الدولـة الأمويـة؛ وإرجـاع الحـق لبـني هاشـم. هـذا وقـد مـدح شاعـر الأندلـس وفحلهـا دون منـازع؛ أبـو عمـر أحمـد بـن دراج القسطـلي عـلي بـن حمـود بقصيـدة رائعـة؛ نذكـر مطلعهـا هنـا؛ عـلى أن نسجـل أغلبهـا في الفصـل المخصـص للحضـارة والثقافـة. ومطلعهـا:

لَعَلَّـك ياشَمْـسُ عِنْـدَ الأصيـلِ
شَجِيـتِ لِشَجْوِ الغَريـبِ الذَّليـلِ
فَكـوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيـع
وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسـولِ

ولما تم لعلي أمر إسقاط دولة سليمان؛ سارع إلى طلب البيعة من أهل الحل والعقد في قرطبة. فبويع بالفعل في سنة 407هـ(1016م) وتسمى بلقب الناصر لدين الله. وكانت بيعة شاملة؛ لم يتخلف عنها أحد كما قال ابن حيان.[1] وأظهر – من اليوم الأول لحكمه – سلوكا فيه حزم وجد وعدل؛ أثلج قلوب الرعية، وملأ نفوس الناس بالبشر والرضى. إذ شرع في اجتثاث الفساد، وكبح الظالمين، وتسليط سيف العدل على رقاب الناهبين والمتجبرين من بعض أتباعه الأمازيغ.[2]

---

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((بويع علي بن حمود في باب السُدَّة من قصر قرطبة يوم الإثنين لسبع بقين لمحرم سنة سبع وأربعمائة؛ ثاني اليوم الذي أدرك فيه بثأر هشام المؤيد. ولم يتخلف أحد عن بيعته؛ ووصلوا إليه على طبقاتهم؛ فكرم منازلهم، وأجمل خطابهم. وتسمى ليومه من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله. لقب قد سبقه إليه أبو أحمد المتوكل العباسي بالمشرق؛ وتبعه فيه أيضا عبد الرحمن بن محمد بهذا الأفق)). الذخيرة، ق: **1**، مج: **1**، ص: **97**.

[2] قال ابن بسام: ((وجلس علي بنفسه لمظالم الناس؛ وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب؛ للوارد والصادر؛ يقيم الحدود مباشرا بنفسه؛ لا يحاشي أحدا من أكابر قومه. فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض؛ وسلكت السبل، ورخا السعر، وأرقُّوا الأغذية، وشاموا النساء وطلبوا النسل... واستمر على أهل قرطبة نحوا من ثمانية أشهر في أحسن عشرة. ثم آنس منهم الكراهية لدولته. وبلغه أيضا قيام المرتضى بشرقي الأندلس. فعزم على إبادة أهل قرطبة وإخلائها؛ فلا يعود لأئمتهم المروانيية سلطان آخر

غيـــر أنـــه شعـــر ــ بعدئـــذ ــ مـــن أهـــل قرطبـــة ميـــلا إلى أميـــر أمـــوي ظهـــر في شـــرق الأندلـــس؛ اسمـــه عبـــد الرحمـــن بـــن محمـــد بـــن عبـــد الملـــك بـــن عبـــد الرحمـــن الناصـــر؛ وقـــد تلقـــب بالمرتـــضى؛ وذلـــك في سنـــة 407هــ(1016م). عندهـــا تحـــول عـــن أسلوبـــه الأول الـــذي اتبعـــه في حكـــم قرطبـــة.[1] فأطلـــق أيـــدي أتباعـــه الأمازيـــغ عـــلى أهـــل المدينـــة ــ كـــرد فعـــل منـــه ضـــد أولئـــك السكـــان؛ الذيـــن قابلـــوا إحسانـــه بالإســـاءة، وجميـــل فعلـــه معهـــم بالنكـــران ــ فانتشـــر النهـــب فيهـــم مـــن جديـــد؛ وكثـــر العيـــث والفســـاد في البلـــدة؛ دون أن يجـــد سكانهـــا حمايـــة أو أذنـــا صاغيـــة لنجـــدة أو إغاثـــة.[2]

الدهـــر؛ ثـــم يعـــود إلى ساحلـــه، ويجمـــع شمـــل برابرتـــه؛ فيضـــرب بهـــم جميـــع الأنـــدلـــس. فانقلـــب سريعـــا ظـــن التجمـــل الـــذي كـــان يظهـــره لهـــم، وانصـــرف إلى حزبـــه البربـــري فآثـــره)). الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 97 ــ 99.

[1] قـــال ابـــن عـــذاري: ((وانقلـــب سريعـــا عـــن التجمـــل الـــذي كـــان يظهـــره لأهـــل قرطبـــة، وانصـــرف إلى حزبـــه البربـــري فآثـــره عليهـــم لمـــا أحـــس منهـــم الميـــل إلى الخليفـــة المرتـــضى)). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 123.

[2] ذكـــر ابـــن بســـام أنـــه: ((وبلغـــه أيضـــا قيـــام المرتـــضى بشـــرقي الأندلـــس؛ فعـــزم عـــلى إبـــادة أهـــل قرطبـــة، وإخلائهـــا؛ فـــلا يعـــودون إلى أئمتهـــم المروانيـــة سلطـــان إلى آخـــر الدهـــر؛ ثـــم يعـــود إلى ساحلـــه، ويجمـــع شمـــل برابرتـــه؛ فيضـــرب بهـــم جميـــع الأندلـــس. فانقلـــب سريعـــا ظـــن التجمـــل الـــذي كـــان يظهـــره لهـــم، وانصـــرف إلى حزبـــه البربـــري فآثـــره، وأغـــضى عـــلى ســـوء مـــا كانـــوا عليـــه مـــن الظلـــم والحيـــف؛ فوقـــع أهـــل قرطبـــة في وغيرهـــم في حالتهـــم مـــدة سليمـــان مـــن استيطالتهـــم عليهـــم. وصـــب عـــلى أهـــل قرطبـــة ضروبـــا مـــن التنكيـــل والمغـــارم؛ وانتـــزع الســـلاح

ولا بد – هنا – أن ننبه إلى تمسك أهل قرطبة وتشبثهم بالأمويين؛ مهما كانت صفاتهم، ومهما تعددت مثالبهم؛ إذ كان سكان هذه المدينة لا يرضون بديلا بهم؛ مهما توافرت في البديل من شروط الصلاح أو العدل، أو الكفاءة. ولعل الجواب عن هذا يكمن فيما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية**".[1] كما أن حياتهم الحضرية ونفوسهم الرقيقة، المرفهة، المتعالية كانت سببا مباشرا في تأففهم وكراهيتهم لمعاشرة الأمازيغ؛ المتميزين بالصفات البدوية في خشونتها وقساوتها. ومن جهة أخرى فإن الأمازيغ بدورهم – بحكم طبعهم البدوي – لا يخفون احتقارهم وسخريتهم من

منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم؛ ففتحوا له أبوابا من البلايا أهلك بها الأمة؛ وتقربوا إليه بالسعاية)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 99.

[1] ومما جاء في هذا الفصل: ((والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الأنقيا لها إلا بقوة قوية من الغلب؛ للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة؛ نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم؛ وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة)). المقدمة، ج: 2، ص: 632.

نعومـــة أهـــل المـــدن، ورقـــة عاداتهـــم، وهشاشـــة عظامهـــم، وســـوء أخلاقهـــم.[1]

ومـــع هـــذا لـــم يهنـــأ عـــلي بـــن حمـــود مـــدة طويلـــة بخلافـــة المسلميـــن في قرطبـــة؛ إذ تعـــرض لمؤامـــرة اغتيـــال؛ بعـــد واحـــد وعشريـــن شهـــرا وسبعـــة أيـــام[2] مـــن يـــوم بيعتـــه؛ وبالتحديـــد في ذي القعـــدة مـــن سنـــة 408هــ(1017م). ونسبـــت المصـــادر اغتيالـــه إلى بعـــض صبيانـــه الصقالبـــة؛ وتـــم ذلـــك داخـــل حمـــام قصـــره.[3]

---

[1] تكلـم ابـن خلـدون في هـذا حيـن قـال: ((وأهـل الحضـر لكثـرة مـا يعانـون مـن فنـون المـلاذ وعوائـد التـرف والإقبـال عـلى الدنيـا والعاكفـون عـلى شهواتهـم منهـا؛ قـد تلوثـت أنفسهـم بكثيـر مـن مذمـات الخلـق والشـر، وبعـدت عليهـم طـرق الخيـر ومسالكـه بقـدر مـا حصـل لهـم مـن ذلـك. حـتى لقـد ذهبـت عنهـم مذاهـب الحشمـة في أحوالهـم.... وأهـل البـدو وإن كانـوا مقبليـن عـلى الدنيـا مثلهـم إلا أنـه في المقـدار الضـروري لا في التـرف ولا في شـيء مـن أسبـاب الشهـوات واللـذات ودواعيهـا. فعوائدهـم في معاملاتهـم عـلى نسبتهـا؛ ومـا يحصـل فيهـم مـن مذاهـب السـوء ومذمومـات الخلـق بالنسبـة إلى أهـل الحضـر أقـل بكثيـر. فهـم أقـرب إلى الفطـرة الأولى، وأبعـد عمـا ينطبـع في النفـس مـن سـوء الملكـات بكثـرة العوائـد المذمومـة قبحهـا؛ فيسهـل علاجهـم عـن عـلاج الحضـر)). المقدمـة، ج: 2، ص ص: 584 ــ 585.

[2] الذخيـرة، ج: 1، ق: 1، ص: 102. وحددهـا المراكـشي بـ((عاميـن غيـر شهريـن)). المعجـب، ص: 50. بينمـا يقـول ابـن عـذاري أنـه حكـم سنـة وتسعـة اشهـر وتسعـة أيـام. البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 120. أمـا المقـري فذكـر أن بعضهـم حققوهـا بإحـدى وعشريـن شهـرا وستتـة أيـام. نفـح الطيـب، ج: 1، ص: 483.

[3] راجـع مـا كتبـه ابـن خلـدون ضمـن: ((فصـل في أن إرهـاف الحـد مضـر بالملـك ومفسـد لـه في الأكثـر)). المقدمـة، ج: 2، ص ص: 684 ــ 686.

ولما اكتشفت الجريمة سارع أنصاره ـ من القادة والأعيان الأمازيغ ـ إلى إعلام أخيه القاسم؛ الذي كان واليا على إشبيلية. فخاف أن تكون مكيدة قد أعدت له؛ لذا فقد اكتفى ـ في البداية ـ بإرسال من يستطلع صحة الخبر. ولما تحقق من موت أخيه ذهب إلى قرطبة؛ حيث تولى تجهيز أخيه الذي دفن في سبتة. وبعدها بحثوا عن الجناة؛ فاتضح أنهم من صقالبة القصر؛ فقبضوا على بعضهم؛ حيث قتلوا ثم صلبوا على جسر قرطبة. هذا وترك علي ابن حمود من الأولاد: يحيى الذي ولاه سبتة، وإدريسا الوالي على مالقة.[1]

ـ حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:

عقدت البيعة للقاسم بن حمود؛ في سادس يوم من وفاة أخيه علي بن حمود؛ ولقب في ذلك اليوم بالمأمون؛ وكان أكبر من أخيه سنا بعشر سنين.[2] ويقال أنه تشَيَّعَ سراً ولم يظهر ذلك علنا؛ كما أنه لم يحاول تغيير ما كان عليه الناس في مذهبهم.[3] هذا ولم يهنأ هو الآخر طويلا بمنصبه؛ إذ تميز عهده بالاضطراب والانقطاع. حيث

---

[1] الجمهرة، ص: 51. المغرب، ص: 133. والمعجب، ص: 50. والكامل، ج: 7، ص: 286

[2] يرى ابن عذاري أنه يكبره بأربع سنوات فقط. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

[3] العجب، ص: 50. الكامل في التاريخ، ص: 286.

حكم قرطبة فترتين؛[1] تخللهما انقطاع لمدة عام ونصف تقريبا؛ تغلب خلالها عليه ابن أخيه يحيى ابن علي بن حمود؛ الذي كان واليا على سبتة.[2] وهكذا تحقق ما لم يكن ينتظره القاسم؛ لأنه ـ كما يبدو ـ يكون قد اقتنع ـ منذ الوهلة الأولى ـ ورضي بما تحصل عليه من ولاية ممثلة في حكم إشبيلية. ولكن شاءت الأقدار أن يصبح فجأة وبدون تخطيط خليفة للمسلمين. وعليه فقد استهل الفترة الأولى من حكمه ـ التي بدأت في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م) ـ بمظهر الحاكم الجاد والحازم والعادل؛ إذ أظهر ميلا إلى إصلاح الحال، ورعاية شئون العباد، وتنمية أسباب المعاش والعمران، وكان يتصف بالرفق، وحسن السياسة للرعية.

غير أنه ـ مع مرور الأيام ـ ظهر عليه شيء من الضعف والخذلان؛ أمام قوة العصبية التي اعتمد عليها في بداية أمره؛ وتتمثل تلك العصبية في قبائل الأمازيغ. ويبدو أنه كان أسير فضلهم عليه؛ ولكنه عندما استثقل هيمنتهم، وتضايق من شدة تغلبهم عليه وعلى شئون الدولة ـ باحتكار المناصب الحساسة فيها لصالحهم ـ جعله يسعى جاهدا لكي يتخلص ـ نوعا ما ـ من ثقل وطأتهم.

---

[1] **دامت الفترة الأولى من ذي القعدة سنة 408هـ إلى ربيع الآخر سنة 412هـ. أما الفترة الثانية فبدأت بذي القعدة من سنة 413هـ إلى شعبان من السنة نفسها.**

[2] **المغرب، ص: 133. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 124 ـ 125. 130 ـ 131.**

لــذا فقــد أراد خلــق بعــض التــوازن في القــوى؛ حيــث شــرع في اصطنــاع جماعــات مــن الســودان؛ الذيــن أسنــد إليهــم بعــض المهــام الحساســة في الدولــة.[1] وهنــا تحركــت العصبيــة الأمازيغيــة الــتي وجــدت أنــه مــن واجبهــا الدفــاع عــن مصالحهــا؛ ومنــع تحقيــق مــا يخطــط لــه القاســم بــن حمــود. وهنــا يتبيــن بوضــوح صــدق المقولــة الــتي ذكرهــا ابــن خلــدون ضمــن: **"فصــل في استظهــار صاحــب الدولــة عــلى قومــه وأهــل عصبيتــه بالمــوالي والمصطنعيــن"** [2]

---

[1] قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((وزاد كلــف القاســم في اتخــاذ الســودان؛ وقودهــم في أعمالــه؛ إلى أن ضعــف أمــره، وتسلــط البرابــرة عليــه حــتى احتقــره. فكاتــب منــذر بــن يحــيى ــ في الســر ــ يبثــه شأنهــم، ويستنهضــه لتقويمهــم؛ فلــم يكــن فيــه فضــل لذلــك)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 481. وورد النــص نفســه في البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 130.

[2] جــاء في قــول ابــن خلــدون: ((فــإذا جــاء الطــور الثــاني وظهــر الاستبــداد عنهــم، وانفــرد بالمجــد، ودافعهــم عنــه بالــراح؛ صــاروا ــ في حقيقــة الأمــر ــ مــن بعــض أعدائــه؛ واحتــاج في مدافعتهــم عــن الأمــر، وصدهــم عــن المشاركــة إلى أوليــاء آخريــن؛ مــن غيــر جلدتهــم يستظهــر بهــم عليهــم، ويتولاهــم دونهــم؛ فيكونــون أقــرب إليــه مــن سائرهــم، وأخــص بــه قربــا واصطناعــا، وأولى إيثــارا وجاهــا؛ لمــا أنهــم يستميتــون دونــه في مدافعــة قومــه عــن الأمــر الــذي كــان لهــم، والرتبــة الــتي ألفوهــا في مشاركتهــم؛ فيستخلصهــم صاحــب الدولــة حينئــذ، ويخصهــم بمزيــد التكرمــة والإيثــار؛ ويقســم لهــم مثــل مــا للكثيــر مــن قومــه، ويقلدهــم جليــل الأعمــال والولايــات مــن الــوزارة والقيــادة والجبايــة؛ ومــا يختــص بــه لنفســه؛ وتكــون خاصــة لــه دون قومــه مــن ألقــاب المملكــة؛ لأنهــم حينئــذ أوليــاؤه الأقربــون ونصحــاؤه المخلصــون. وذلــك حينئــذ مــؤذن باهتضــام الدولــة، وعلامــة عــلى المــرض المزمــن فيهــا؛ لفســاد العصبيــة الــتي كــان بنــا الغلــب عليهــا،

وبالفعل فقد جاءت الفرصة المواتية للأمازيغ كي يعطوا للقاسم درسا قاسيا. وبالفعل تم لهم ذلك حينما بدأ يحيى ابن أخيه علي؛ ــ الذي كان واليا على سبتة ــ في المشاغبة، وإظهار شيء من العصيان؛ حيث أخذ يحرض رؤساء القبائل الأمازيغية ضد عمه؛ بهدف ضمان وقوفهم معه في وجه القاسم، ومساعدته في انتزاع ما اغتصب منه بعد موت والده.[1] ولما عرض القاسم أمر ابن أخيه على رؤساء القبائل الأمازيغية؛ تثاقلوا عن نصرته؛ بحجة أنه شأن عائلي بينهما؛ ولا يجوز الدخول بين حسنيين اثنين. وعندما تحرك يحيى نحو قرطبة لم يجد القاسم أمامه سوى الهروب إلى إشبيلية؛ مركز ولايته في السابق. ولم يرافقه إلا خمسة فرسان من خاصته المقربين. وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة 412هـ(1021م). وبقي أنصاره السابقون من الأمازيغ والسودان في قرطبة؛ حيث قاموا بضبط البلدة؛ وإعداد القصر لوصول يحيى؛ ولما وصل سلموا له الأمر.[2]

ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان؛ فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر)). المقدمة، ج: 2، ص: 677.

[1] أنظر نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 482.

تلـــك هي الفتـــرة الأولى مـــن حكـــم القاســـم (المأمـــون) في قرطبـــة؛ أمـــا الفتـــرة الثانيـــة فبـــدأت بعـــد انقـــلاب الأمازيـــغ عـــلى ابـــن أخيـــه يحـــيى بـــن عـــلي؛ ممـــا أجبـــره عـــلى الهـــروب ــ هـــو الآخـــر ــ إلى مالقـــة تحـــت جنـــح الليـــل.

فمـــا كـــان مـــن القاســـم ــ لمـــا سمـــع بخبـــر خـــروج يحـــيى إلى مالقـــة فـــارا ــ إلا أنـــه تحـــرك مـــن فـــوره والتحـــق بقرطبـــة مـــن جديـــد؛ وتـــم ذلـــك في ذي القعـــدة مـــن سنـــة 413هــ(1022م). ومـــع هـــذا لـــم تـــدم الفتـــرة الثانيـــة مـــن حكمـــه طويـــلا؛ إذ ثـــار عليـــه أهـــل قرطبـــة؛ في شعبـــان مـــن عـــام 414هــ(1023م)؛ بدعـــوى أنهـــم لـــم يحتملـــوا تسلـــط الأمازيـــغ في الأســـواق.[1] بينمـــا يقـــول ابـــن بســـام: ((**فتكنـــف سريـــره أغمـــار النـــاس مـــن البرابـــر؛ وخرجـــوا** [أي أهـــل قرطبـــة] **لقتالهـــم سنـــة أربـــع عشـــرة**)).[2] ويتفـــق ابـــن الخطيـــب مـــع هـــذا الـــرأي أيضـــا.[3]

---

[1] البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 134.

[2] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 485.

[3] إذ يقـــول: ((وفســـد مـــا بينـــه [أي القاســـم] وبيـــن أهـــل المدينـــة؛ بسبـــب مـــن حفـــه مـــن البرابـــرة)). أعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 133. أمـــا ابـــن الأثيـــر فيـــرى أن استيـــلاء يحـــيى وإدريـــس عـــلى الجزيـــرة الخضـــراء وطنجـــة؛ شجـــع النـــاس عـــلى العصيـــان؛ إذ يقـــول: ((فلمـــا ملـــك ابنـــا أخيـــه بـــلاده طمـــع فيـــه النـــاس؛ وتسلـــط البربـــر عـــلى قرطبـــة فأخـــذوا أموالهـــم؛ فاجتمـــع أهلهـــا وبـــرزوا إلى قتالـــه عاشـــر جمـــادى الأولى سنـــة أربـــع عشـــرة [وأربعمائـــة] فاقتتلـــوا قتـــالا شديـــدا؛ ثـــم سكنـــت الحـــرب، وأمـــن بعضهـــم بعضـــا إلى منتصـــف جمـــادى الآخـــرة مـــن السنـــة؛ والقاســـم بالقصـــر يظهـــر التـــودد لأهـــل قرطبـــة وأنـــه معهـــم وباطنـــه مـــع البربـــر؛ فلمـــا كـــان

أمــا المقــري فيتعمــق في الشــرح بعــض الــشيء؛ بحيــث يفهــم مــن قولــه أن الاحتقــان بيــن الطرفيــن ربمــا كــان بسبــب التضييــق عــلى أهــل قرطبــة؛ أثنــاء البحــث عــن بعــض الأمويــين المشتبــه في أمرهــم؛ بعــد أن أشيــع أن قائمــا منهــم ســوف يظهــر.[1]

ولمــا عــاد القاســم إلى إشبيليــة مهزومــا مــن قرطبــة؛ وجــد أبوابهــا مقفلــة في وجهــه؛ بتدبيــر مــن القــاضي محمــد بــن إسماعيــل بــن عبــاد؛ الــذي أوهــم سكــان المدينــة بــأن القاســم سيسكــن مــن معــه مــن الأمازيــغ في مساكــن الإشبيليــين. ومــن جهــة أخــرى فــقــد أغــرى ــ صاحــب القاســم وثقتــه ــ محمــد بــن

يــوم الجمعــة منتصــف جمــادى الآخــرة صــلى النــاس الجمعــة؛ فلمــا فرغــوا تنــادوا الســلاح الســلاح؛ فاجتمعــوا ولبســوا الســلاح وحفظــوا البلــد، ودخلــوا قصــر الإمــارة؛ فخــرج عنهــا القاســم...)). الكامــل، ج: 7، ص: 286. ويتفــق ابــن خلــدون مــع الــرأي القائــل بــأن تغلــب ابــني أخيــه عــلى حصونــه ومراكــزه في طنجــة والجزيــرة الخضــراء قــد شجــع النــاس عــلى التجاســر عليه. العبــر، مج: 4، ص: 331.

[1] وقــد وصــف المقــري مــا حــدث بقولــه: ((ولــم تصلــح الحــال للقاســم منــذ وصــل إلى الحضــرة. ووقــع الاختــلاف؛ وكــان هــوى الســودان معــه، وهــوى كثيــر مــن البرابــر مــع يحــيى، وهــوى أهــل قرطبــة مــع قائــم مــن بــني أميــة يشيعــون ذكــره ولا يظهــر؛ وكثــر الإرجــاف بذلــك، ووقــع الطلــب عــلى بــني أميــة؛ فتفرقــوا في البــلاد، ودخلــوا في أغمــار النــاس، وأخفــوا زيهــم. ثــم إن الخــلاف وقــع بيــن البربــر وأهــل قرطبــة؛ وتكاثــر البلديــون، وأخرجــوا القاســم وبرابرتــه؛ فضــرب خيمــة بغربيهــا، وقاتلهــم مــدة خمسيــن يومــا قتــالا شديــدا... وفــر الســودان مــع القاســم إلى إشبيليــة، وفــر البرابــرة إلى يحــيى وهــو بمالقــة؛ وكــان فــرار القاســم مــن ظاهــر قرطبــة يــوم الخميــس لثنــتي عشــرة ليلــة خلــت مــن شعبــان سنــة 414هــ)). نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 487.

زيري بن دوناس اليفرني، وأطمعه في إمارة البلدة إن هو ساعدهم على منع دخول القاسم إلى قرطبة.[1]

وبهذا لم يجد القاسم بدا من الخضوع لإرادتهم؛ نظرا لكون أهل البلد حاصروا ابنه محمدا في دار الإمارة؛ وساوموه على فك الحصار عنه والسماح له بالخروج من إشبيلية؛ مقابل أن يرفع هو بدوره الحصار عن المدينة ويتخلى عن المطالبة بها. فلم يجد القاسم أمامه اختيارا آخر غير القبول بشروطهم؛ كسبا للوقت. وتحول إلى شريش؛ حيث بقي هناك بعض الوقت. وفي تلك المدينة ازدادت محنته؛ حين تفرق من حوله جل أنصاره من الأمازيغ، الذين التحقوا بابن أخيه المعتلي يحيى بن علي بمالقة؛ وذلك في سنة 415هـ(1024م).[2]

---

[1] **وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ولحق المأمون بإشبيلية وبها ابنه محمد، ومحمد بن زيري من رجالات البربر؛ فأطمعه القاضي محمد بن إسماعيل ابن عباد في الملك؛ وأن يمتنعوا من القاسم؛ فمنعوه، وأخرجوا إليه ابنه، وضبطوا بلدهم. ثم اشتد ابن عباد وأخرج محمد بن زيري)). العبر، مج: 4، ص: 232. ويتفق مع هذا الرأي المقري فيقول: ((وأطمع [أي ابن عباد] بن زيري في التملك؛ فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه؛ فقتل من البربر والسودان خلق كثير؛ وابن عباد يضحك على الجميع؛ فيئس القاسم، وقنع أن يخرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم؛ فأخرجوهم إليه؛ فسار بهم إلى شريش)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 332.**

ولما تخلص ابن عباد من الخطر الذي كان يمثله القاسم؛ انقض على محمد بن زيري بن دوناس اليفرني، وطرده من إشبيلية. وهكذا لم تفد ابن دوناس خيانته للقاسم صاحب الفضل عليه. هذا ولم يطل الحال بالقاسم في شريش حتى زحف إليه المعتلي يحيى بن علي فحاصره فيها، وقاتله قتالا شديدا، ثم ضيق عليه حتى استسلم؛ فنقله معه إلى مالقة؛ أين رماه في الأسر حتى مات، أو قتل في السجن سنة 427هـ(1035م) كما قال بعضهم.[1] هذا وخلف القاسم من الأولاد: محمدا الذي تسمى بالخلافة في الجزيرة الخضراء، والحسن الذي تنسك ولبس الصوف، ثم توجه إلى الحج.[2]

وفي عهد القاسم بن حمود قتل عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك (المرتضى)؛ الأمير الأموي الثائر بشرق الأندلس.[3] وكان زهير الفتى، وخيران الصقلبي، ومنذر بن يحيى التجيبي – في قومه ومعززا بجماعة من فرسان الفرنج – وسليمان بن هود – مدعوما هو الآخر بفرسان من الفرنج وآخرين – قد اتفقوا على تنصيبه

---

[1] **الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 485 – 486. ويقول المراكشي وابن الأثير أنه قتل في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 – 52. والكامل، ج: 7، ص: 287. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 135. والعبر، مج: 4، ص: 332. نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.**

[2] **ويرى ابن حزم أن ابني الحسن هذا هما: هاشم وعقيل. الجمهرة، ص ص: 50.**

[3] **جعل المراكشي وابن الأثير خبر المرتضى ومقتله في عهد علي بن حمود. المعجب، ص ص: 49 – 50. الكامل، ج: 1، ص: 285.**

خليفة؛ ومحاربة القاسم ومن معه من الأمازيغ. ثم زحفوا جميعا معه ــ في قوة عظيمة ــ نحو قرطبة؛ ولكنهم اشتبكوا في الطريق ببني زيري عند حدود إمارة غرناطة؛ فانهزم جيش المرتضى، ونهبت محلته، وتشتت أنصاره. ومن المفارقات العجيبة أن الذين نصبوا المرتضى ونادوا به خليفة للمسلمين هم الذين تسببوا في هزيمته؛ بعد خيانته، إذ تركوه فريسة لعدوه.[1] بل هم الذين قتلوه عندما فر هاربا.[2]

[1] قال ابن بسام: ((وأول من انهزم من ذلك العسكر منذر بن يحيى وخيران الصقلبي. وكان منذر قد أوقع في نفوس مدده من رجال الإفرنجة الذعر من غدر الموالي العامريين؛ فشغل بذلك بالهم. فلما انهزم لم يعرفوا السر؛ وأجفل منذر في أصحابه الثغريين؛ فمر بسليمان بن هود صاحبه وهو مثبت للإفرنجة لا يريم موقفه. فصاح به: النجاة يا بن الفاعلة. فلست أقف عليك. فقال له سليمان: جئت والله بها صلعاء، وفضحت أهل الأندلس؛ ثم انقلع وراءه ببقية عسكره؛ وانقلع أيضا خيران برجاله. وصبر الموالي العامريين قليلا حول صاحبهم المرتضى)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 454 ــ 455. ومما نقله ابن بسام أيضا عن ابن حيان قوله: ((وذلك أنه لما انهزم المرتضى؛ قال زاوي لقومه: "كيف رأيتم ما قد خلصنا منه؟" قالوا: "عظيما". قال: "فلا تنسوه وتغالطوا أنفسكم بعده؛ إن انهزام من رأيتموهم لم يكن من قوة منا. وإنما جره مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا؛ فإني عرفت ذلك من يوم نزولهم)). نفسه، ص: 458.

[2] أنظر الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 453 ــ 458. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 125 ــ 130. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 130 ــ 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 484 ــ 486.

هـذا واستـولى بنـو زيـري عـلى مـا في محلـة المرتـضى ـ بعـد هزيمتـه ـ مـن: أنـواع الـسلاح وصنـوف الذخائـر وعتـاق الخيـل ومختلـف الأحمـال وأزهى القبـاب. ولـم ينـس زاوي بـن زيـري بـن منـاد أميـر الصنهاجييـن أن يرسـل إلى القاسـم بـن حمـود سهمـه مـن الغنيمـة؛ بصفتـه الخليفـة المعتـرف بـه.[1] وبهـذا أصبحـت الأندلـس كلهـا نهبـا للأقويـاء؛ مـن القبائـل العربيـة، والأمازيغيـة، وبعـض الكتـل والعصابـات مـن المماليـك الصقالبـة، والفتيـان العامرييـن والنصـارى وغيرهـم؛ حـدث ذلـك كنتيجـة لتلـك المعركـة الـتي وقعـت بيـن المرتـضى وبـني زيـري في سنـة 409هـ(1018م). وبالمقابـل تأكـدت نهايـة الحكـم الأمـوي نهائيـا في تلـك الربـوع؛ وذلـك عـلى الرغـم مـن المحـاولات الفاشلـة الساعيـة في قرطبـة لإحيـاء دولتهـم.[2]

---

[1] قـال ابـن الخطيـب: ((وورد عـلى القاسـم بـن حمـود الخبـر بمقتـل المرتـضى، وهزيمـة الأندلسييـن مـن قبـل زاوي مـع سهمـه مـن الغنيمـة؛ وفي الجملـة سـرادق المرتـضى؛ فسـر بذلـك، وضـرب السـرادق عـلى نهـر قرطبـة؛ وغشيـه النـاس ينظـرون إليـه؛ وقلوبهـم تتقطـع أسىً وحسـرة)). أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 131.

[2] للتوسـع في دولـة بـني حمـود يستحسـن الرجـوع إلى الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 35 ـ 59. 96 ـ 102. 452 ـ 461. 468 ـ 486. والبيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 115 ـ 144. 216 ـ 220. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 128 ـ 143. والعبـر، مج: 4، ص ص: 330 ـ 336. ودولـة الإسـلام في الأندلـس (العصـر الأول ـ القسـم الثـاني)، ص ص: 656 ـ 677.

وفي هذا يقول ابن بسام نقلا عن ابن حيان: **((فحلت بهذه الوقعة على جماعة من الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها؛ ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد؛ وأقروا بالإدبار، وباءوا بالصغار. وورد على القاسم كتاب زاوي بشرحها مع نصيبه من الغنيمة؛ وفي جملتها سرادق المرتضى. فضربه القاسم على نهر قرطبة، وغشيه من النظارة جملة من علية الناس؛ وقلوبهم تتقطع حسرة منه. فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت)).**[1]

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد هذا ــ كغيره من أمراء الأسرة الأموية ــ يحقد على الأمازيغ، ويعلن تعصبه ضدهم؛ بسبب نصرتهم السابقة للعامريين. وكان يحملهم مسئولية التفكك والانهيار الذي أصاب الدولة الأموية في أواخر أيامها. ومن منظوماته التي تفيض بالعداء للأمازيغ قوله:

---

[1] **الذخيرة، ق: 1، ص ص: 455 ــ 456. وراجع النص نفسه تقريبا في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 127 ــ 128. وأعمال الأعلام ق: 2، ص: 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 486.**

قــدْ بَلــغَ البَرْبــرُ فِينــا بنــا
مَــا أفسَدَ الأحْــوَالَ وَالنظمَــا
كَالسَّهْــمِ لِلطَّائِــرِ لوْلاَ الــذِي
فِيــهِ مِنَ الرِّيــشِ لمَا أصْــمَى
قومُــوا بِنا فِي شَأنِهــمْ قوْمَــة
تزِيــلُ عَنــا العَــارَ وَالرَّغمَــا
إمَّــا بِهَا نمْلــكُ، أوْ لاَ نــرَى
مَا يَرجــعُ الطــرْفُ بهِ أعْــمَى

وقــد أنشــد محمــد بــن سليمــان بــن الحنــاط الكفيــف شاعــر بــني حمــود قصيــدة أمــام القاســم مشيــدا بالانتصــار عــلى المرتــضى وأتباعــه؛ جــاء في مطلعهــا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْــرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ
وَأصبْــحَ مُلكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

ـ حكومـــة المعتـــلي يحـــيى بـــن عـــلي بـــن حمـــود:

كـــان يحـــيى بـــن عـــلي بـــن حمـــود ـــ في عهـــد والـــده ـــ واليـــاً عـــلى سبتـــة، بينمـــا اختـــص أخـــوه إدريـــس بولايـــة مالقـــة. وكانـــت في نفـــس يحـــيى غصـــة مـــن عمـــه؛ بسبـــب اعتقـــاده أنـــه اغتصـــب منـــه الملـــك، واستـــولى عـــلى ميراثـــه الشـــرعي؛ نظـــرا لكونـــه هـــو ولي عهـــد أبيـــه.[1] غيـــر أنـــه استسلـــم ـــ في البدايـــة ـــ لمنطـــق القـــوة والغلبـــة؛ عندمـــا فهـــم أن معظـــم القبائـــل الأمازيغيـــة كانـــت تتعاطـــف مـــع عمـــه. ومـــع هـــذا فقـــد ظـــل يـــرى في نفســـه أحـــق مـــن عمـــه بالخلافـــة. ويـــرى أنـــه سبقـــه إلى العـــرش؛ منتهـــزا بعـــده عـــن عاصمـــة الدولـــة آنئـــذ؛ إذ أن وجـــوده في سبتـــة بالعـــدوة المغربيـــة ساعـــد عمـــه القاســـم في التربـــع عـــلى العـــرش بـــدلا منـــه. والراجـــح هنـــا هـــو أن السبـــب يعـــود أيضـــا إلى ميـــل القبائـــل الأمازيغيـــة في البدايـــة ـــ وهـــم القـــوة الضاربـــة في قرطبـــة ـــ إلى تنصيـــب القاســـم. وربمـــا عللـــوا موقفهـــم ـــ كمـــا جـــاء في بعـــض المصـــادر ـــ إلى عـــدة أسبـــاب؛ منهـــا: أنهـــم أحســـوا بـــأن القاســـم غبـــن منـــذ البدايـــة؛ إذ كـــان أســـن مـــن أخيـــه عـــلي؛ الـــذي سبقـــه وتربـــع عـــلى ســـدة الخلافـــة في قرطبـــة.

---

[1] يقـــول البكـــري: ((وكـــان لـــه [أي عـــلي بـــن حمـــود] مـــن الولـــد يحـــيى وإدريـــس؛ وولى عهـــده منهمـــا يحـــيى؛ وكـــان صاحـــب المغـــرب، وكـــان إدريـــس أخـــوه صاحـــب مدينـــة مالقـــة. فلمـــا قتـــل عـــلي استـــدعى البربـــر القاســـم أخـــاه، وأدخلـــوه القصـــر، وبايعـــه النـــاس، وخطـــب لـــه بالخلافـــة؛ فأنـــف مـــن ذلـــك ابـــن أخيـــه يحـــيى؛ لمـــا تقـــدم مـــن عهـــد أبيـــه لـــه)). المغـــرب، ص: 1333.

ثم إن الوضع السياسي في تلك المدينة آنئذ ـ أي يوم قتل علي ـ لم يكن يسمح بالتريث والانتظار حتى يأتي يحيى بن علي من سبتة؛ التي كانت أبعد من إشبيلية.[1] وبحكم هذه المسوغات فقد وجد يحيى نفسه ـ في البداية ـ مضطرا للخضوع للأمر الواقع على مضض؛ ولكنه لم يستسلم إليه بشكل مطلق.

وعليه فقد شرع في الإعداد الهادئ لاستعادة ما سلب منه. إذ شرع في تعزيز موقفه عن طريق أخيه إدريس في مالقة؛ لكي يسهل عليه التحرك فيما بعد. وبالفعل فقد كان منطلقه عند زحفه إلى قرطبة؛ عبر تلك المدينة الساحلية. وجاءت الفرصة بسرعة؛ لما شعر ببوادر الضيق والخلاف التي أخذت تدب بين رؤساء القبائل الأمازيغية وعمه؛ جراء اصطناع جماعة من السودان؛ فسارع من فوره إلى تأجيج غيظهم، وتحذيرهم من خطط عمه التي يعمل على تحقيقها؛ باستخدام فرق من السودان لحماية ملكه؛ وإضعاف نفوذ القبائل الأمازيغية.[2]

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 484.**

[2] **يقول المقري: ((وكتب [يحيى] من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: "إن عمي أخذ ميراثي من أبي؛ ثم إنه قدم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان. وأنا أطلب ميراثي، وأوليّكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس"؛ فأجابوه إلى ذلك. فجمع ما عنده من المراكب؛ وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة؛ فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع**

وبالفعل وجد نداؤه وتحذيره صدى لدى رؤساء الأمازيغ؛ خاصة وأنهم أصبحوا بالفعل متذمرين من سلوك القاسم الرامي إلى إضعاف نفوذهم؛ والانفراد بمجد الملك وحده؛ دون حساب لمقتضى المشاركة التي تجمعهم وإياه فيه؛ بحكم أن ذلك الملك نشأ بفضل سيوفهم وغلبتهم.[1] ولهذا فقد لبوا هذه المرة بسهولة نداء يحيى، وأبدوا تفهمهم واستعدادهم لدعمه وتأييده. فبادر على الفور بالإعداد لغزو قرطبة، والإطاحة بعمه؛ فكان أول عمل قام به بعد أن جهز نفسه عسكريا وماديا؛ هو قطع الدعوة لعمه، ثم انتقل إلى مالقة ومنح لأخيه إدريس ولاية سبتة.

أخيه؛ وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكد المودة؛ فقال له أخوه إدريس: "إن خيران رجل خداع" فقال يحيى: "ونحن منخدعون فيما لا يضرنا". ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة؛ واثقا بأن البرابر معه؛ ففر القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت 28 من شهر ربيع الآخر سنة 412هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[1] **راجع الفصول التالية في مقدمة ابن خلدون: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)). نفسه، ص ص: 649 ــ 650. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.**

ولما أحس بضعف عمه القاسم؛ وتأكد من عجزه عن التصدي له؛ بدأ بالزحف إلى قرطبة؛ في قوة كبيرة يؤازره فيها زاوي بن زيري أمير غرناطة. فاستنجد القاسم بأنصاره الأمازيغ؛ فتثاقلوا ولم يلبوا طلبه؛ بحجة أن الخلاف حاصل بين حسنيين؛ وذلك شأن داخلي بينهما.[1] عندها لم يجد القاسم مفرا من الخروج هاربا إلى إشبيلية؛ التي كان واليا عليها في السابق؛ ولم يرافقه إلا خمسة من الفرسان؛ وذلك عام 412هـ(1021م). ولما دخل يحيى بن علي إلى قصر الخلافة في قرطبة؛ عقدت البيعة له؛ حيث بايعته في المدينة جموع الأمازيغ والسودان وأهل البلد؛ وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة؛ وفيها لقب بالمعتلي بالله. ثم أسند خطة الكتابة إلى أحمد بن برد، والوزارة إلى محمد بن الفرضي.[2]

---

[1] **الذخيرة، ق: 1 مج: 1، ص: 482.**

[2] **فمما كتبه ابن بسام عن التعيينات التي أقرها المعتلي: ((وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم؛ وحسن رأيه في أحمد بن برد وعول عليه في كتابته؛ واستخلص من الأندلسيين صحبه: جعفر بن محمد بن فتح والفقيه أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني؛ وولاه خطة الوزارة؛ فكادت الجبال تنهدُّ لهذه العظيمة؛ وجمح مركبها به؛ وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب؛ فكان أعدى من الجَرَب على دواته؛ وارتقبَ عقلاء الناس ــ عند ذلك ــ حلول المحنة؛ فقديما استعاذوا بالله من وزارة السّفلة. ووصَّل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، ورغبه في الإحسان إليه؛ فذاكره وحدثه ونوه به. وسما ــ في أيامه ــ**

ومــع هــذا فقــد عقــد يحــيى صلحــا مــع عمــه؛ عــلى أن يعتــرف كــل واحــد منهمــا بالآخــر؛ فتســمى كلاهمــا بلقــب خليفــة.[1] وبذلــك أصبــح في قرطبــة خليفــة، وفي إشبيليــة خليفــة آخــر؛ وهــذا طبعــا يــدل عــلى الضعــف والهــوان الــذي أضــحى عليــه لقــب خليفــة في الأندلــس.

وحــتى يحــيى بــن عــلي هــذا حكــم قرطبــة ــ مثــل عمــه ــ في فترتيــن: بــدأت الأولى في جمــادى الأولى مــن سنــة 412هــ كمــا تــم ذكــره؛ وظــل متربعــا عــلى سريــر الحكــم ــ في هــذه الفتــرة ــ مــا يناهــز السنــة وستــة أشهــر؛ ثــم خــرج فــارا ــ كعمــه أيضــا ــ إلى مالقــة؛ بعــد أن ضــاق بــه الحــال في تلــك المدينــة المتقلبــة. أمــا الفتــرة الثانيــة فأتــت بعــد أن عمــل القرطبيــون عــلى تنصيــب بعــض الأموييــن ــ مــن جديــد في قرطبــة ــ كخلفــاء؛ وكــان آخرهــم المستكــفي

أبــو بكــر بــن ذكــوان، وأبــو العبــاس أحمــد بــن أبي حاتــم أخــوه؛ وأنهضهمــا إلى الــوزارة عقــب وفــاة الشيــخ أبي العبــاس بــن ذكــوان. وغَــرب شــأوُ أبي بكــر منهــم؛ فجاء أحوذياً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته)). الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 483.

[1] يقــول ابــن عــذاري: ((وكــان عمــه القاســم بــن حمــود لمــا رأى جــور البربــر، وقلــة طاعتهــم؛ خــرج مــن قرطبــة إلى إشبيليــة فــارا منهــم وخائفــا، فاستقــر بإشبيليــة وهــو يــدعى لــه بالخلافــة، ويتســمى بأميــر المؤمنيــن؛ فخاطــب البربــر ــ مــن قرطبــة ــ إلى ابــن أخيــه هــذا يحــيى بــن عــلي؛ وأدخلــوه قرطبــة، وبويــع بهــا ــ كمــا ذكرنــا ــ وتسمى بالخلافــة وإمــرة المؤمنيــن، وتلقــب بالمستعــلي؛ (قــال ابــن حــزم): "خليفتــان تصالحــا؛ وهــو أمــر لــم يسمــع بــأذل منــه، ولا أدل عــلى إدبــار الأمــور؛ يحــيى بــن عــلي بــن حمــود بقرطبــة، والقاســم بــن حمــود بإشبيليــة")). البيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 132 ــ 133.

محمد بن عبد الرحمن؛ فكان سيئ السيرة، فاسد الخلق، مهملا لشئون الحكم؛ فانفض من حوله أعيان البلدة؛ وخرج بعضهم ــ وعلى رأسهم الوزير الشاعر أحمد بن شُهَيد ــ إلى مالقة؛ مستنجدين بيحيى بن علي؛ آملين في عودته؛ بعد أن يئسوا من جدوى الاتكال على بني أمية.

عندئذ زحف يحيى ــ كرة أخرى ــ نحو قرطبة؛ لاستعادتها وضمها إلى مملكته؛[1] خاصة بعد أن خلا له الجو من منافسة عمه الذي أضحى سجينا عنده في مالقة. ودخل ــ كما جاء في بعض الأقوال ــ إلى قرطبة من جديد في شهر رمضان من سنة 416هـ(1025م). ولكنه لم يبق في المدينة أكثر من سنة؛ ثم خرج إلى مالقة ــ أيضا ــ وبالتحديد في شهر محرم من سنة 417هـ(1026م).

---

[1] **البيان المغرب، ج: 3، ص: 142. أما المراكشي وابن الأثير فيقولان ــ بصراحة ــ أنه لم يذهب إلى قرطبة بنفسه؛ وإنما بعث إليها عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني واليا عليها من قبله. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. كما يفهم من سياق ما كتبه ابن خلدون ــ بغموض ــ أنه اكتفى بإرسال الوالي المذكور. العبر، مج: 4، ص: 332.**

وذلك لأنه لم يعد يرغب في اتخاذها عاصمة لدولته؛ بعد أن ضاق بها وبأهلها المشاغبين؛ فترك فيها وزيره وكاتبه أحمد بن موسى[1] مع دوناس بن أبي روح. غير أن أهل قرطبة نقضوا عهدهم، وثاروا عليهما ــ كعادتهم ــ في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وذلك لما سمعوا بزحف مجاهد وخيران العامريين نحو قرطبة؛ من قبل حبوس بن ماكسن بن زيري.[2] ولكن مجاهد وخيران اختلفا؛ فخاف كل واحد من صاحبه؛ الأمر الذي جعل خيران ينسحب من قرطبة، ويعود إلى المرية.

وجملة القول يبدو أنه ــ على الرغم من ترحيب الناس بيحيى (المعتلي) في الفترة الأولى من حكمه لقرطبة ــ فإنهم سرعان ما تحولوا عن تأييده والقبول به. ويبدو أن السبب يعود إلى ما ورد في جل المصادر؛ من أنه من جهة وقع فريسة للعجب والغرور والتكبر؛ وذلك تبعا لما أظهره من كبر وزهو بنفسه، وما لجأ إليه من فرض الحجاب؛ والترفع عن الاستقبال ومباشرة

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 143 ــ 144. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136. وأجمع كل من: عبد الواحد المراكشي وابن الأثير وابن خلدون والمقري على أن الذي ولاه يحيى على قرطبة هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. والعبر، مج: 4، ص: 332. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 288. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 143. وذكر ابن الخطيب معهما اسم زهير؛ مع أنه في الحقيقة كان مساعدا لخيران. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136.

القضايا بنفسه. ومن جهة أخرى أنه سقط في فخ بعض الوزراء والمستخدمين من السفلة والمنحطين. غير أن ثمة عاملا أخر أغضب بعض الفئات الفاعلة منه. حدث ذلك عندما طالبه رؤساء الأمازيغ بالوفاء بوعده لهم؛ بخصوص عزل السودان من مناصبهم التي حصلوا عليها أيام عمه القاسم؛ فأجابهم في شيء وتهرب من أشياء. عندئذ شرعوا في المشاغبة وإبداء مظاهر العصيان والتمرد. ولما اشتدت ضغوطهم؛ هرب جماعة كبيرة من السودان إلى عمه في إشبيلية؛ وبقي هو منفردا أمام الأمازيغ الساخطين من جهة، والقرطبيين المعارضين من جهة أخرى. وهكذا ساءت الحال بيحيى في قرطبة؛ فاختار بدوره – كعمه – الهروب منها، والالتحاق بمالقة. فما كان من الأمازيغ إلا الإسراع في استدعاء القاسم إلى قرطبة مرة ثانية؛ وذلك في سنة 413هـ(1022م). وكان من قبل متصلا بهم؛ عاملا على التحريض وبث الفتنة؛ مثلما سبق أن عمل يحيى بالضبط.

هــذا ولــم يطــل بقــاء القاســم ــ كمــا سبقــت الإشـــارة إليـــه ــ في قرطبـــة؛ إذ اضطـــر هـــو بـــدوره إلى الخـــروج منهـــا مطـــرودا بضغـــط مـــن سكانهـــا؛ وذلـــك في سنـــة 414هــ(1023م). ويبـــدو أنهـــم ــ كمـــا أشـــار إلى ذلـــك ابـــن الأثيـــر وابـــن خلـــدون ــ قد استضعفـــوه بعـــد أن وصلتهـــم أخبـــار أفـــادت بتغلـــب ابـــن أخيـــه يحـــيى المعتـــلي عـــلى حصونـــه ومراكـــزه في الجزيـــرة الخضـــراء وطنجـــة.[1]

****

ــ دولـــة بـــني حمـــود خـــارج قرطبـــة:

وبخـــروج القاســـم إلى إشبيليـــة ويحـــيى إلى مالقـــة؛ أفـــل شعـــاع قرطبـــة نهائيـــا كحاضـــرة للخلافـــة بالأندلـــس. وأصبحـــت كغيرهـــا مـــن مـــدن تلـــك الديـــار؛ تابعـــة لمراكـــز أخـــرى؛ ســـواء كانـــت مالقـــة أو طليطلـــة أو إشبيليـــة أو غيرهـــا. وأضـــحى. الحديـــث ــ مـــن جهـــة أخـــرى ــ عـــن دولـــة بـــني حمـــود لا يعـــدو أن يكـــون حديثـــا عـــن إمـــارات متفرقـــة للحمودييـــن ــ مثلهـــا مثـــل أي إمـــارة مـــن إمـــارات الطوائـــف ــ في: مالقـــة أو في الجزيـــرة أو في سبتـــة؛ ثـــم انحـــدر بهـــا الحـــال شيئـــا فشيئـــا أخيـــرا إلى مجـــرد إمـــارة صغيـــرة في مدينـــة مليلـــة. ومـــع هـــذا فقـــد أصـــر أصحـــاب تلـــك الإمـــارات

---

[1] الكامـــل، ج: 7، ص: 286. والعبـــر، مج: 4، ص: 331.

على إضفاء صفة الخلافة على ملكهم الهزيل.[1] وهذا ما جعل أبو محمد علي بن حزم يصرخ مستنكرا لما آلت إليه الأوضاع السياسية في الأندلس: ((**فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام؛ كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين؛ ويُخطب لهم بها في زمن واحد. وهم: خَلَفٌ الحُصُرِيُّ بإشبيلية؛ على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود بِبُبَشْتَر**)).[2] وبالطبع فالذي يتحمل تبعات جل تلك الأوضاع الشاذة، والاضطرابات المدمرة ــ التي نسفت الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة الحمودية؛ وبالتالي مزقت بلاد الأندلس إلى دويلات وكيانات هزيلة؛ لا تقوى على الدفاع عن أمنها وأمن رعاياها ــ هي ظاهرة العصبية القبلية؛ تلك الظاهرة المرضية التي سادت بلاد الأندلس آنئذ.

---

[1] أعلن يحيى وأبناؤه أنفسهم خلفاء في مالقة؛ حيث تلقبوا بالألقاب الخلافية. وبالمقابل أعلن أبناء القاسم أنفسهم خلفاء في الجزيرة الخضراء؛ وتلقبوا ــ بدورهم ــ بالألقاب الخلافية. أنظر: الكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 286 ــ 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 144. 191 ــ 192. 216 ــ 219. والعبر، مج: 4، ص ص: 331 ــ 335. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 140 ــ 143.

[2] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء (ضمن كتاب رسائل ابن حزم الأندلسي)، ج: 2، ص ص: 97 ــ 98.

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود في مالقة:

فمنذ البداية كان يحيى يميل إلى الاستقرار في مدينة مالقة أكثر من ميله إلى قرطبة؛ تلك المدينة التي لا تستقر على حال. وذلك لأن مالقة تحتل موقعا قريبا من أنصاره وعصبيته في الضفة المغربية. لذا فعند خروجه في المرة الثانية من قرطبة في سنة 417هـ(1026م)؛ قرر أن يجردها من صفتها السابقة كعاصمة للخلافة؛ ووضعها في مصاف المدن الثانوية التابعة لمركز الخلافة في مالقة. لهذا فقد أسند شئونها إلى بعض معاونيه؛ كـ: أبي جعفر أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح في قول، أو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني في قول آخر.

وكان قد عمل ـ قبل هذا التاريخ، وبالتحديد في سنة 413هـ(1022م) لما خرج في المرة الأولى من قرطبة ـ على تنظيم شئونه في مالقة؛ حيث تمسك بإعلان نفسه خليفة إلى جانب عمه خليفة إشبيلية. وبقي يترقب ما يجري في قرطبة وإشبيلية؛ حتى وصلته أخبار هروب عمه القاسم من قرطبة للمرة الثانية، وامتناع إشبيلية عن استقباله؛ الأمر الذي اضطره إلى اللجوء إلى شريش. عندها لم يترك يحيى هذه الفرصة تفوته؛ لذا فقد زحف فورا إلى شريش؛ بنية القتال ضد عمه؛ إذ حدثت بينهما معارك شديدة؛ ضيق خلالها يحيى الحصار على عمه حتى استسلم له في الأخير؛ فقام بأسره؛ ثم نقله معه إلى مالقة عاصمة ملكه. أين كان

مصيــره القتــل في السجــن ســنـــة 427هــ(1035م).[1] في قـــول، أو في 431هــ(1039م) في قـــول آخـــر.

وكـــان يحـــيى بـــن عـــلي يســـعى جاهـــدا ــ منـــذ تـــرك قرطبـــة في المـــرة الأولى ــ إلى تمهيـــد دولتـــه وتقويتهـــا انطلاقـــا مـــن مالقـــة؛ لـــذا فإنـــه لـــم يتـــراخ لحظـــة واحـــدة عـــن محاولـــة ضـــم مقاطعـــات جديـــدة لمملكتـــه؛ مـــن ذلـــك أنـــه تغلـــب عـــلى الجزيـــرة الخضـــراء؛ الـــتي كانـــت إحـــدى مراكـــز عمـــه الخلفيـــة؛ وفي الوقـــت نفســـه تمكـــن أخـــوه إدريـــس ــ الوالي عـــلى سبتـــة ــ مـــن التغلـــب عـــلى طنجـــة؛ الـــتي كانـــت ــ أيضـــا ــ حصنـــا ومستودعـــا لذخائـــر عمـــه. ويعتبـــر خـــروج هاتيـــن المقاطعتيـــن الهامتيـــن مـــن يـــد القاســـم؛ بمثابـــة الضربـــة القاصمـــة لسلطانـــه.

---

[1] شـــرح المقـــري سبـــب قتلـــه بقولـــه: ((وأجلـــت الحـــرب عـــن قهـــر يحـــيى لعمـــه، وإســـلام أهـــل شَرِيـــشَ لـــه، وفـــر سودانـــه؛ وحصـــل القاســـم وابنـــه في يـــد يحـــيى؛ وكـــان قـــد أقســـم أنـــه إن حصـــل في يـــده ليقتلـــه، ولا يتركـــه حـــتى يـــلي الإمامـــة في قرطبـــة مـــرة ثانيـــة؛ فـــرأى التربـــص في قتلـــه = =حـــتى يـــرى رأيـــه فيـــه. فحـــــدث عنـــه بعـــض أصحابـــه أنـــه حملـــه بقيـــد إلى مالقـــة، وحبســـه عـنـــده؛ وكـــان كلمـــا سكـــر وأراد قتلـــه رغبـــه ندمـــاؤه في الإبقـــاء عليـــه؛ لأنـــه لا قـــدرة لـــه في الخـــلاص... وامتـــدت الحـــال عـــلى ذلـــك إلى أن قتلـــه خنقـــا بعـــد ثـــلاث عشـــرة سنـــة مـــن حيـــن القبـــض عليـــه؛ لأنـــه كـــان قـــد حبســـه في حصـــن مـــن حصـــون مالقـــة؛ فنـــمي إليـــه أنـــه قـــد تحـــدث مـــع أهـــل الحصـــن في القيـــام والعصيـــان؛ فقـــال أوَبَـــقي في رأســـه حديـــث بعـــد هـــذا العمـــر؟ فقتلـــه سنـــة 427هــ)). نفـــح الطيـــب، ج: 1، ص: 488. وذكـــر عبـــد الواحـــد المراكـــشي أنـــه بـــقي في السجـــن في زمـــن كـــل مـــن: يحـــيى وإدريـــس؛ ولـــم يقتـــل خنقـــا إلا بعـــد مـــوت إدريـــس في سنـــة 431هـــ. المعجـــب، ص ص: 51 ــ 52. أمـــا ابـــن الأثيـــر فيـــرى أن الـــذي قتـــل القاســـم هـــو إدريـــس بـــن عـــلي وليـــس يحـــيى. الكامـــل، ج: 7، ص: 287.

وتلا ذلك ــ بالفعل ــ اضطراب حاله في قرطبة، إذ أعلن سكانها عليه العصيان.[1] ولم يكتف يحيى بهذا فحسب؛ بل تحرك أيضا لقتال عمه في شريش كما سبق ذكره. حيث قبض عليه مع ولديه: محمد والحسن؛ حيث سجنهم بمالقة؛ وربما يكون ــ كما جاء في بعض الروايات ــ قد حبس ابني عمه في الجزيرة الخضراء.[2]

ولم يكتف المعتلي يحيى بن علي بما افتكه من عمه؛ بل أكره عددا من أمراء الأمازيغ؛ كي يتخلوا له عن بعض مدنهم وحصونهم؛ التي تغلبوا عليها من قبل. وقد اتخذ من تلك الحصون منطلقا لحصار إشبيلية والتضييق عليها؛ كي يجبر ابن عباد على التسليم له والإذعان للطاعة.[3] ويبدو أن بعض القبائل الأمازيغية لم تكن مخلصة الإخلاص كله للمعتلي؛ وما خضوعها وإعلان

---

[1] **العبر، مج: 4، ص: 331.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 332.**

[3] **يقول في هذا ابن الأثير: ((واتفق البربر على طاعته، وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن؛ فقوي وعظم شأنه، وبقي كذلك مدة ثم سار إلى قرمونة؛ فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا في أخذها)). الكامل، ج: 7، ص: 288. ويتفق معه ابن خلدون فيقول: ((وأقام يحيى المعتلي يخيفهم ويردد العساكر لحصارهم [يقصد هنا ملوك الطوائف] إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له؛ فعلا سلطانه واشتد أمره؛ وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره؛ فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية؛ إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله)). العبر، مج: 4، ص ص: 332 ــ 333.**

طاعتها إلا سياسة مهادنة؛ الهدف منها كسب الوقت. وهذا ما يتضح من الاتفاق الذي عقد بين أمير بني برزال وابن عباد ضد يحيى بن علي. إذ تجلى ذلك في مساعدة البرزالي لابن عباد في قتل يحيى؛ بل يقال أن أمير البرزاليين محمد ابن عبد الله هو الذي قتل يحيى بيده سنة 426هـ(1034م) أو 427هـ في قول آخر.[1] وذكر في هذا ابن خلدون: ((**فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد؛ وقد كمنوا له؛ فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي؛ وانقطعت دولة بني حمود من قرطبة**)).[2] ولما قتل المعتلي وضع ابن عباد السيف في أنصاره؛ وكانوا في معظمهم من الأمازيغ؛ فتحركت النعرة والعصبية في صدر البرزالي؛ بسبب ما لحق ببني جلدته؛ فطلب من ابن عباد أن يرفع السيف عنهم. وفي هذا يقول ابن عذاري: ((**واستمرت** [أي عمليات القتل] **على أصحاب يحيى؛ حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالي، وبدت عصبيته لقومه؛ وكلم ابن عباد في**

---

[1] أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 188. والعبر، مج: 4، ص: 333. بينما قال عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أنه قتل في المحرم من سنة 427هـ. المعجب، ص: 61. والكامل، ج: 7، ص: 288.

[2] العبر، مج: 4، ص: 333. وتوسعت المصادر الأخرى في شرح الكيفية التي قتل بها يحيى بن علي. منها الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص ص: 316 ــ 318. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 188 ــ 189. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 137.

رفـــع السيـــف عنهـــم؛ فأطاعـــه في ذلـــك، وتـــم لأبـــن عبـــد اللـــه مـــا أراد مـــن حقـــن الدمـــاء؛ إذ لـــم يـــأت الـــذي أتـــاه إلا عـــن ضـــرورة)).[1] وتلـــك الضـــرورة لـــم تكـــن في الحقيقـــة ســـوى الرغبـــة في استعـــادة حصـــن قرمونـــة؛ الـــذي افتكـــه يحـــيى مـــن سيـــد بـــني بـــرزال؛ واتخـــذه منطلقـــا لحصـــار إشبيليـــة. هـــذا وقـــد تـــرك يحـــيى ولديـــن صغيريـــن همـــا: الحســـن وإدريـــس.[2]

****

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 189.**

[2] **الجمهـــرة، ص: 51. المعجـــب، ص: 54. والكامـــل، ج: 7، ص: 288.**

ـ الانقسام الثاني في أسرة بني حمود:

حدث الانقسام الأول ـ كما سبق شرحه ـ في سنة 412هـ(1021م)؛ عندما خرج يحيى بن علي ابن حمود عن طاعة عمه القاسم؛ حيث أعلن نفسه خليفة بقرطبة؛ في الوقت الذي احتفظ عمه القاسم بلقبه الخلافي في إشبيلية؛ حاضرة ملكه الجديدة. ولما استحوذ يحيى على ملك الحموديين بالأندلس، وانفرد بالحكم ـ بعد تغلبه على مراكز عمه الخلفية في الجزيرة وطنجة ـ زج بعمه في سجن مالقة؛ ثم حبس ولديه: محمدا والحسن بالجزيرة؛[1] حيث أوكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج. ولما قتل المعتلي يحيى ابن علي) بن حمود سنة 427هـ (1035م) سارع أبو الحجاج هذا إلى الإفراج عنهما.[2]

---

[1] فحين يرى عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أن يحيى قد سجنهما في الجزيرة الخضراء؛ يقول ابن خلدون والمقري أن محمدا كان مسجونا بمالقة؛ ثم فر من سجنه في سنة 414هـ إلى الجزيرة. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] وحتى هذا الخبر فيه خلاف؛ إذ يرى عبد الواحد المراكشي أن الموكل بهما أخرجهما إثر مقتل يحيى بن علي؛ بينما يقول ابن الأثير أنهما أخرجا من المعتقل بعد موت إدريس بن علي؛ بينما يجعل ابن خلدون تاريخ هروب محمد بن القاسم ـ من معتقله بمالقة إلى الجزيرة ـ في عام 414هـ. أنظر: المعجب، ص: 62. والكامل، ج: 7، ص: 289. والعبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ثـم طلـب مـن أصحـاب الحـل في الجزيـرة ـ مـن السـودان والأمازيـغ ـ البيعـة لمحمـد بـن القاسـم؛ الـذي اكتـفى ـ في البدايـة ـ بالإمـارة عـلى الجزيـرة؛ وتغـاضى عـن الادعـاء بالخلافـة. ولكنـه ـ فيمـا بعـد ـ أعلـن نفسـه خليفـة سنـة 439هـ(1047م) وتسـمى بالمهـدي.[1] ولمـا تـوفي ولي بعـده في مرتبـة الخلافـة ـ كمـا يزعـم بعضهـم ـ ابنـه القاسـم بـن محمـد؛[2] الـذي قيـل أنـه تسـمى بالواثـق.[3] وكـان هـذا الأميـر هـو آخـر مـن تـولى مـن بـني القاسـم في الأندلـس. ويعـود السبـب في انتقـال الخلافـة مـن بـني عـلي بـن حمـود إلى بـني أخيـه القاسـم؛ إلى مـا أصـاب دولـة الأدارسـة في مالقـة مـن تفكـك ووهـن؛ لـذا فقـد قـرر أمـراء الأمازيـغ ـ في تلـك الديـار ـ أن ينقلـوا الخلافـة مـن أسـرة عـلي بـن حمـود في مالقـة؛ إلى أسـرة أخيـه القاسـم بالجزيـرة.

---

[1] هكـذا في جـل المصـادر؛ بينمـا قـال ابـن خلـدون أنـه تسـمى بالمعتصـم. العبـر، مج: 4، ص: 335.

[2] قـال ابـن حـزم أن محمـد بـن القاسـم خلـف مـن الأولاد: ((يحـيى الأصـم؛ أكبرهـم، ثـم القاسـم؛ الـوالي بعـد أبيـه؛ وكـان حصـورا؛ لا يقـرب النسـاء، وإبراهيـم، وأحمـد، وجعفـر، والحسيـن)). الجمهـرة، ص: 51.

[3] هكـذا قـال ابـن خلـدون، العبـر، مج: 4، ص: 335. أمـا ابـن حـزم والمـراكـشي فيقولان أنـه لـم يتسـم بالخلافـة. الجمهـرة، ص: 50. والمعجـب، ص: 68.

وأولئك الأمراء هم: باديس بن حبوس الصنهاجي أمير بني زيري في غرناطة، وإسحاق ابن محمد بن عبد الله البرزاليِ الزناتي أمير قرمونة، ومحمد بن نوح بن أبي تزيري الدمري الزناتي أمير مورور، وعبدون بن خزرون الرنداجي الزناتي أمير بني خزرون في أركش.[1] هذا وقد بقي أبناء القاسم في إمارتهم بالجزيرة حتى سنة 446هـ(1054م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها عليهم جيش المعتضد بن عباد؛ حيث أجلاهم قائد ذلك الجيش عن الجزيرة؛ فانطلقوا إلى المرية في حماية المعتصم بن صمادح.

---

[1] **والكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 218. 229 ـ 230.**

ـ حكومـــة المهـــدي محمـــد بـــن القاســـم بـــن حمـــود:

نشــأت هــذه الإمـــارة ـ كمـــا سبـــق قولـــه ـ في الجزيـــرة الخضـــراء أيـــام القاســـم بـــن حمـــود؛ بتكليـــف مـــن الخليفـــة الأمـــوي المستعيـــن باللـــه سليمـــان بـــن الحكـــم.[1] ثـــم تغلـــب عليهـــا المعتـــلي يحـــيى بـــن عـــلي، وقبـــض عـــلى ولـــدي القاســـم: محمـــدا وحســـن. ولكنهمـــا استطاعـــا الإفـــلات بعـــد مـــوت يحـــيى بـــن عـــلي سنـــة 427هـ(1035م)؛[2] والعـــودة إلى امتـــلاك الجزيـــرة مـــن جديـــد؛ بمساعـــدة المكلـــف بحراستهمـــا؛ وهـــو مـــن المغاربـــة، ويـــدعى أبـــا الحجـــاج. ومنذئـــذ اعتـــلى محمـــد ابـــن القاســـم عـــلى عـــرش الجزيـــرة الخضـــراء؛ دون أن يتســـمى ـ في البدايـــة ـ بالألقـــاب الخلافيـــة. أمـــا أخـــوه حســـن فقـــد تنســـك، ولبـــس الصـــوف؛ ثـــم توجـــه إلى الحـــج مـــع أختـــه فاطمـــة؛ زوجـــة المعتـــلي يحـــيى بـــن عـــلي.

---

[1] الكامـــل، ج: 7، ص: 284. والمعجـــب: ص: 43. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 128.

[2] الكامـــل، ج: 7، ص: 289. والمعجـــب، ص ص: 62 ـ 63. أمـــا ابـــن خلـــدون والمقـــري فيريـــان أنهمـــا تمكنـــا مـــن الفـــرار مـــن محبسهمـــا بمالقـــة في سنـــة 414هـ. العبـــر، مج: 4، ص: 335. ونفـــح الطيـــب، ج: 1، ص: 435.

وبقي محمد بن القاسم على ذلك الحال حتى زحف إليه نجا الصقلبي؛ بغرض امتلاك الجزيرة؛ وذلك في سنة 434هـ(1042م)؛ فخرجت إليه أم محمد والقاسم – واسمها سبيعة – فاحتجت عليه قائلة: **((يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن))**.[1] فاستحى من قولها وتخلى عن غرضه.[2] وظل محمد في إمارته تاركا مرتبة الخلافة لبني عمه؛ أبناء علي بن حمود؛ دون السعي لمزاحمتهم في الألقاب الخلافية؛ حتى قرر أمراء الأمازيغ – سنة 439هـ(1047م) – تحويل دعوتهم بالخلافة من بني علي بن حمود إلي بني القاسم؛[3] عندئذ تلقب محمد بالمهدي[1] ونسب إلى نفسه خلافة المسلمين.

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقول عبد الواحد المراكشي أنه أحس بفتور من أصحابه؛ لذا تراجع: ((ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما؛ ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم، واستصلح سائرهم؛ واستدعى الصقالبة من حيث أمكنه ليقوى بهم على غيرهم)). المعجب، ص: 64.

[3] قال ابن عذاري: ((وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة – قال ابن حيان – "فيها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني؛ وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء؛ وهم أربعة أمراء: إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدميري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالة وأستجة وغيرها. فبايع جميعهم له بالخلافة؛ وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي، وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر؛ ثم نهضوا مع إمامهم وساروا إلى المعتضد

ويبــدو أن الأمازيــغ عــادوا فتخلــوا عنــه، وتركــوه وحيــدا؛ إذ يقــال أنـــه مــات غمــا سنـــة 440هــ(1048م). ويقــول عبــد الواحــد المراكــشي أنــه أنجــب زهــاء ثمانيـــة أولاد ذكـــورا.

ــ حكومـــة القاســـم بن محمـــد بن القاســـم بـــن حمـــود:

تــولي القاســـم بــن محمــد الحكــم في الجزيــرة الخضـــراء إثــر وفــاة والـــده سنـــة 440هــ(1048م). وقــد اختلفـــت آراء المؤرخيـــن في المرتبـــة الملكيـــة الـــتي احتلهـــا القاســـم هـــذا؛ إذ يقـــول ابـــن خلـــدون والمقـــري ــ عـــلى سبيـــل المثـــال ــ أنـــه تسـمى بلقــب الواثــق؛ بينمــا يـــرى ابـــن حـــزم أنـــه لـــم يتســم بالخلافـــة؛ ويتفــق مـــع ابـــن حـــزم كـــل مـــن: ابـــن الأثيـــر وعبـــد الواحـــد المراكـــشي.[2]

عبــاد بـــن محمــد صاحــب إشبيليــة؛ ونزلــوا عليهــا؛ ودخــل معهــم ابـــن الأفطــس صاحـب بطليــوس. وكانـت عـدة هـؤلاء الرؤسـاء مـع إمامهـم محمـد بـن القاسـم عـلى عبـاد بـن محمـد سبعـة ملـوك؛ ثـم انصرفـوا مـع خليفتهـم؛ ولـم يقـض اللـه لهـم أربـا. فلـم يكـن لهـم بعـد ذلـك اجتمـاع، ولا اتفـاق")). البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 219 ــ 220.

[1] يعتقـد ابـن خلـدون والمقـري: أنـه تلقـب بالمعتصـم. العبـر، مج: 4، ص: 335. ونفـح الطيـب، ج: 1، ص: 435.

[2] قـال ابـن خلـدون: ((ثـم ملكهـا بعـده ابنـه القاسـم الواثـق إلى أن هلـك سنـة خمسيـن [وأربعمائـة])). العبـر، مج: 4، ص: 335. أنظـر أيضـا: نفـح الطيـب، ج: 1، ص: 435. أمـا ابـن حـزم فيقـول: ((وولي الجزيـرة بعـد محمـد بـن القاسـم المذكـور ابنـه القاسـم بـن محمـد؛ ولـم يتسـم بالخلافـة؛ إلى أن خـرج عنهـا سنـة 446هــ)). الجمهـرة، ص: 50. ويؤيـد ابـن الأثيـر هـذا الأمـر بقولـه: ((فـولي الجزيـرة ابنـه القاسـم؛ ولـم يتسـم بالخلافـة)). الكامـل ج: 7، ص : 289. ويقـول

هــذا ولــم يقــم القاســم بــن محمــد بمــا يستحــق الذكــر والتنويــه في بــلاد الأندلــس؛ طــوال المــدة الــتي حكــم فيهــا الجزيــرة الخضــراء. وكــل مــا ذكــره عنــه المؤرخــون هــو تعــرض بــلاده لغــزو جيــش المعتضــد ابــن عبــاد؛ بقيــادة عبــد اللــه بــن ســلام في سنــة 446هـ(1054م). فتمكــن مــن التغلــب عــلى الجزيــرة الخضــراء؛ وأخــرج القاســم منهــا؛ حيــث أعــد لــه مركبــا لينقلــه حيــث يشــاء؛ فاختــار المريــة؛ في حمايــة المعتصــم بــن صمــادح؛ بعــد أن يئــس مــن قبولــه في سبتــة؛ حيــث يقيــم سقــوط البرغــواطي.[1]

المراكــشي أيضــا: ((فتــولى أمــر الجزيــرة بعــده ابنــه القاســم بــن محمــد ابــن القاســم؛ إلا أنــه لــم يتســم بالخلافــة)). والمعجــب، ص: 68.

[1] قــال ابــن عــذاري: ((وفي سنــة ســت وأربعيــن وأربعمائــة نظــر المعتضــد عبــاد في حســن الجزيــرة الخضــراء وأميرهــا القاســم بــن محمــد العلــوي؛ فضيــق عليــه إلى أن نــزل عــن بلــده بأمــان عــلى نفســه وخــرج؛ فكــان الــذي حصرهــا لــه قائــده عبــد اللــه بــن ســلام؛ فأعــد عبــد اللــه للقاســم مركبــا يسيــر فيــه حيــث شــاء. وكــان أميــر سبتــة يومئــذ سواجــات [سقــوط] البرغــواطي؛ وكــان القاســم هــذا استنصــره فلــم ينصــره؛ فنكــب عــن سبتــة إلى المريــة؛ وبــقي بهــا إلى أن تــوفي. واحتــوى قائــد بــن عبــاد عــلى الخضــراء؛ ثــم خــرج منهــا بالعسكــر؛ تهفــو بهــم ريــح النصــر؛ وقــد قــدروا ألا غالــب لهــم؛ فلقــوا جماعــة مــن بــني يرنيــان؛ فوقعــت بينهــم حــرب انهــزم لهــا خيــل ابــن عبــاد؛ وقتــل قائدهــم عبد اللــه ابــن ســلام؛ وانصــرف الجيــش لابــن عبــاد مهزومــا)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 242 ـــ 243.

وتقـول بعـض الروايـات أن القاسـم بـن محمـد تـوفي بالمريـة سنـة 450هـ(1058م).[1] ويقـول ابـن حـزم أنـه كـان حصـورا لا يقـرب النسـاء؛ وعليـه فلـم يخلـف أولادا.[2]

****

ـ حكومـة المتأيـد باللـه إدريـس بن علي بن حمـود:

ولمـا قتـل المعتـلي يحـيى بـن عـلي بـن حمـود؛ عـاد كبيـر دولتـه أبـو جعفـر أحمـد بـن مـوسى المعـروف بابـن بقنـة[3] رفقـة أبي الفـوز نجـا الخـادم ـ ذلـك الفـتى الصقلـبي[4] المقـرب مـن المعتـلي يحـيى بـن عـلي ـ إلى مالقـة؛ أيـن استدعيـا بسرعـة إدريـس بـن عـلي أخـا يحـيى مـن سبتـة؛ حيـث عقـدا لـه البيعـة؛ بشـرط أن يسنـد ولايـة سبتـة وطنجـة للحسـن بـن يحـيى بـن عـلي؛ فقبـل إدريـس بذلـك؛ وانتقـل الحسـن ابـن يحـيى ـ رفقـة الفـتى الصقلـبي نجـا ـ إلى ولايـة سبتـة. وفي البيعـة تلقـب إدريـس بـن عـلي بالمتأيـد باللـه واعتـلى سـدة الخلافـة؛ مثلمـا كـان عليـه أخيـه

---

[1] البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 242 ـ 243. الأعـلام للزركـلي، ج: 6، ص: 16. أمـا ابـن بسـام فلـم يذكـر المريـة؛ ولكنـه قـال أنـه لجـأ إلى قرطبـة؛ حيـث مـات بهـا في التاريـخ نفسـه. الذخيـرة، ق: 2، مج: 1، ص ص: 36 ـ 37.

[2] الجمهـرة، ص: 51.

[3] ورد في بعـض المصـادر ابـن بقيـة والصحيـح هـو ابـن بقنـة.

[4] في العبـر؛ الصقـلي؛ مج: 4، ص: 333.

يحيى بن علي؛ فاعترف بخلافته جمع كبير من الأمازيغ، وبعض الفتيان العامريين ؛ مثل: حبوس ابن ماكسن بن زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، والفتى الصقلبي العامري زهير المتغلب على المرية، وغيرهم. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 427هـ(1035م) اتفقوا – جميعا – على محاصرة إشبيلية؛ أين استولوا على بعض الحصون والقلاع المحيطة بها.[1]

هذا وقد واجه إدريس المتأيد مقاومة شديدة من طرف ابن عباد؛ الذي عمل جاهدا على استقطاب الناس نحو إشبيلية، والاعتراف بها عاصمة للخلافة؛ إذ أظهر بها رجلا زعم أنه هشام المؤيد؛ فنادى به خليفة للمؤمنين؛ بغرض قطع الطريق في وجه بني حمود؛ الذين يستأثرون بالخلافة. وكان القاضي أبو القاسم بن عباد يعتمد كل الاعتماد في تحقيق مشاريعه على ابنه

---

[1] قال ابن عذاري: ((وفيها [أي سنة 427هـ] اجتمع زهير وحبوس مع محمد ابن عبد الله زعيم زناتة بجهة أستجة في يوم الأربعاء لخمس خلون من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية؛ واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد واحتلوا بالقلعة يوم الإثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طريانة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر؛ وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس ابن علي بن حمود؛ وانصرفوا إلى قرمونة؛ وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها في منتصف شهر ذي الحجة من السنة)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 190 – 191.

إسماعيل؛ الذي نجح في قتل يحيى المعتلي ـ كما سبق ذكره ـ أمام قرمونة.

ولما تولى إدريس بن علي الخلافة واصل التحرش ببني عباد؛ مثلما كان الحال أيام أخيه يحيى. ووقف أمراء الأمازيغ وبعض الفتيان الصقالبة إلى جانب إدريس؛ نظرا لما عانوه من أطماع ابن عباد. لذا فقد اشتد الصراع بينهم وبين بني عباد، وامتد نطاقه حتى شمل جل المراكز والحصون الأمازيغية في الأندلس. ولم يستثن ابن عباد في ذلك حتى حصون حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي؛ إذ انتزع منه أشونة وأستجة، وبعدهما عمل على حصار قرمونة. وهنا التأم شمل الأمازيغ ـ في بداية الأمر ـ من جديد؛ بدعم من الفتى العامري زهير. فتمكنوا بفضل حلفهم ـ بعد فترة ـ من تكبيد بني عباد خسائر فادحة؛ حيث قتل إسماعيل بن أبي القاسم، بعد أن انكسر جيشه على مشارف قرمونة؛ فحزوا رأسه وأرسلوه إلى المتأيد بالله إدريس بن علي الذي كان آنئذ مريضا في حصن بُبَشتر.

ولم يعش إدريس ـ بعد هذه الموقعة ـ سوى يومين؛ إذ مات في المحرم من سنة 431هـ (1039م).[1] وخلف ثلاثة أولاد هم: يحيى ومحمد والحسن؛ وكان له ابن أكبر مات في حياته من قبل؛ اسمه علي؛ ترك من الأولاد ـ هو الآخر ـ ابنا اسمه عبد الله بن علي بن إدريس[2].

ـ حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:

أراد ابن بقنة ـ بعد موت المتأيد بالله إدريس ابن علي ـ تنصيب ولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون؛ الذي تلقب بالقاسم بالله؛ ولكن الفتى نجا الصقلبي لم يترك له الفرصة لتمهيد حكمه؛ إذ عاجله بالقدوم من سبتة ومعه الحسن ابن يحيى بن علي؛ فهرب ابن بقنة مع يحيى ابن إدريس إلى حصن كمارش [قمارش] القريب من مالقة.

---

[1] قال ابن خلدون في هذا بإيجاز: ((وكان أبوه [أي إسماعيل] أبو القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده لانتزاع البلاد من أيدي الثوار؛ وملك أشونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي؛ وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله بالمتأيد هذا وبزاوي (؟)؛ فجاء زاوي بنفسه، [مات في سنة 428هـ؛ وعليه يكون من شاركهم هو ابنه باديس] وبعث المتأيد هذا عساكره مع ابن بقية [الصحيح هو ابن بقنة]؛ فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة؛ هزم فيها ابن عباد، وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد؛ وهلك [أي المتأيد] ليومين بعدها؛ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة)). العبر، مج: 4، ص: 333.

[2] المعجب، ص: 62.

ولما دخل نجا الخادم إلى مالقة رفع مولاه الحسن بن يحيى إلى[1] سدة الخلافة بمالقة؛[2] فبايعه الناس وتسمى بالمستنصر[3] سنة 431هـ (1039م). وبعدها عمل الحسن على استدراج ابن بقنة وتطمينه بوعد أمان؛ فعاد رفقة يحيى بن إدريس (حيون) إلى مالقة؛ أين قبض عليهما المستنصر وأمر بقتلهما.[4]وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة

---

[1] يبدو أن في الأمر خلط والتباس؛ إذ يعتقد: ابن عذاري وابن الخطيب أن الحسن هذا هو ابن علي بن حمود. وقد تبنى هذا الرأي أيضا إسماعيل العربي. وهذا طبعا لا يستقيم مع ما ثبت من أن علي لم يخلف سوى ولدين اثنين هما: يحيى وإدريس. وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى ــ وهي كثيرة ــ انطلاقا من جمهرة ابن حزم، ص: 51. إلى المغرب للبكري، 133. إلى العبر لابن خلدون، مج: 4، ص ص: 331. 334. إلى نفح الطيب للمقري، ج: 1، ص: 432. أنظر نقيض ذلك في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140. دولة الأدارسة، ص: 267. هذا ويفهم من أقوال ابن عذاري وابن الخطيب أن هناك شخصين يسميان بحسن: الأول بن علي، والثاني ابن يحيى. المهم أن هذه الفترة من حكم الأدارسة يكتنفها غموض كثيف.

[2] ذكر البكري أن إدريس بن علي عين الحسن بن يحيى وليا لعهده. أنظر المغرب، ص: 133.

[3] هذا هو اللقب الذي ذكره: ابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون والمقري؛ أما عبد الواحد المراكشي فقال أنه لقب بالمستعلي؛ والظاهر أنه وقع في التباس. أنظر: المعجب، ص: 63. والكامل، ج: 7، ص: 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. والعبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[4] ثمة رأي آخر مفاده أن حيون لم يعد إلى مالقة؛ بل بقي في حصن إيرش؛ حيث مات به سنة 434هـ. وثمة رأي آخر ذكره ابن خلدون مفاده أن الخادم نجا قتله مع ابن للحسن بن يحيى صغير كان لديه. أنظر: العبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432. هذا فيما يخص حيون؛ أما

عمه إدريس، وأخت يحيى بن إدريس (حيون) المقتول؛ فعملت جهدها للانتقام منه، والثأر لأخيها؛ وعليه يقال أنها اغتالته بسم دسته له. وذلك في جمادى الأولى من سنة 434هـ(1042م).[1] ويقال أن الحسن بن يحيى خلف ولدا وتركه في كفالة نجا الخادم بسبتة؛ فقتله طمعا في اغتصاب الملك.

بخصوص أبي جعفر بن موسى (ابن بقنة) فابن عذاري يرى بأن بقنة قتل بمالقة؛ بعد مقتل الفتى نجا فقول: ((ثم نهض قوم منهم [أي من الثوار الذين قتلوا نجا] إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر بن موسى فقتلوه، وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه؛ وبايعوه؛ وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر، وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. إذن يفهم من هذا النص أن ابن بقنة هو الذي كان مع الحسن بن يحيى؛ وليس السطيفي كما ذكر المراكشي، أو الشطيفي كما سماه ابن الأثير. والغريب أن ابن عذاري يخلط في الأمر في موضع آخر؛ حين ذكر أن أبا جعفر بن موسى هذا استوزره الحسن بن يحيى، ثم قتله سنة 433هـ بعد أن امتحنه واستصفى أمواله. أنظر البيان المغرب، ج: ص: 290. كما أنه؛ في الوقت الذي أغفل ذكر السطيفي من قبل؛ ذكره في موضع آخر على انه قتل في اليوم الذي بويع فيه العالي إدريس ابن يحيى؛ وذلك في خبر يتوافق مع ما ذكره عبد الواحد المراكشي؛ ويتعارض مع ما سبق أن قاله ابن عذاري نفسه. لذا يتدعم الرأي القائل بأن هذا النص أو (القطعة) ليس من سياق كتاب ابن عذاري؛ ولم يكن أصلا منه. أنظر البيان المغرب، ج: 3، المقدمة، ثم: ص: 291.

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 63 ـ 64.

ـ حكومـــة العالي إدريـــس بن يحيى بن علي بن حمـــود:

كـــان نجـــا الصقلـــبي قـــد تـــرك في مالقـــة ـ عندمـــا رجـــع إلى مقـــر ولايتـــه بسبتـــة ـ رجـــلا مـــن التجـــار يثـــق فيـــه اشتهـــر باسم محمـــد السطيـــفي؛ وأوصـــاه بالسهـــر عـــلى سيـــر الإمـــارة، وعـــلى سلامـــة سيـــده الحســـن بـــن يحـــيى. ولمـــا قتـــل الحســـن مسمومـــا بيـــد زوجتـــه؛ ســـارع السطيـــفي إلى اعتقـــال أخيـــه إدريـــس بـــن يحـــيى؛ خوفـــا مـــن خـــروج الأمـــر مـــن يـــده ويـــد نجـــا الصقلـــبي الـــوصي عـــلى العـــرش؛ ثـــم بعـــث بالخبـــر إلى ذلـــك الفـــتى الصقلـــبي نجـــا؛ فســـارع مـــن فـــوره إلى التوجـــه في قـــوة إلى مالقـــة؛ ولمـــا دخلهـــا زاد في التضييـــق عـــلى إدريـــس بـــن يحـــيى، إذ قـــام هـــو الآخـــر بالتحفـــظ عليـــه؛ وأبقـــاه في سجنـــه أيضـــا؛ خوفـــا مـــن تطلعـــه للخلافـــة؛ لأنـــه ـ كمـــا قيـــل ـ كـــان يرغـــب في القضـــاء عـــلى ملـــك بـــني حمـــود نهائيـــا.

ويبدو – كما تقول المصادر – أن هذا الفتى الصقلبي كان ينوي – في هذه المرة – الاستبداد بالدولة، ويسعى لامتلاكها والاستحواذ بها لنفسه[1]؛ بعد أن يجلب مجموعات من الصقالبة؛ ليضمن ولاءهم. غير أن خطته فشلت؛ وذلك بعد أن صرح برغبته تلك للذين كانوا معه من الأمازيغ. وكان جيشه مكونا منهم؛ وبالتحديد من برغواطة؛ وهم أخوال الحسن بن يحيى.[2]

---

[1] **ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان للحسن بن يحيى المقتول ابن؛ في رعاية الفتى نجا بسبتة؛ وقيل أنه اغتاله؛ حتى يخلو له الجو على ما يبدو. لذا فإنه استخلف في سبتة عند ذهابه إلى مالقة رجلا من الصقالبة كان يثق فيه. المعجب، ص: 64. أما ابن عذاري فقال بوجود ولد للحسن صغير السن بسبتة في رعاية نجا؛ ولكنه لم يشر إلى احتمال قتله. البيان المغرب، ج: 1، ص: 216.**

[2] **جاء في رواية ابن عذاري: ((فأتى [نجا] الجزيرة الخضراء؛ وفيها ابنا القاسم بن حمود؛ فأراد إخراجهما منها؛ فخرجت إليه سبيعة أمهما وقالت له: "يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن"؛ فاستحيا منها وانصرف إلى مالقة؛ فلما كان ببعض الطريق اجتمعت برغواطة؛ الذين كانوا معه على قتله؛ وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه؛ فقالوا: "أنترك موالينا ونتبع عبدا مملوكا خصيا"؛ فتعرض إليه أحدهم... فطعنه بين كتفيه طعنة خرجت من صدره؛ فهلك أبو الفوز نجاء، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة؛ ثم نهض قوم منهم إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه [يختلف هنا ابن عذاري مع الذين يقولون أن ذلك الوزير هو السطيفي؛ أما ابن موسى (ابن بقنة) فقتله نجا من قبل] وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217.**

فاستـــاء الأمازيـــغ مـــن فكرتـــه؛ ولكنهـــم تظاهـــروا بأنهـــم يؤيدونـــه؛ بينمـــا كانـــوا يتصيـــدون الفرصـــة المواتيـــة للانقضـــاض عليـــه. وبالفعـــل تمكنـــوا مـــن القضـــاء عليـــه؛ أثنـــاء عودتـــه مـــن الجزيـــرة الخضـــراء إلى مالقـــة. ثـــم قضـــوا عـــلى صنيعتـــه السطيـــفي بعـــده.[1] وتـــم ذلـــك كلـــه سنـــة 434هــ(1042م). وبعـــد ذلـــك أخرجـــوا إدريـــس بـــن يحـــيى مـــن محبســـه، ونصبـــوه عـــلى ســـدة الخلافـــة، ولقبـــوه بالعـــالي؛ في السنـــة نفسهـــا أي 434هــ(1042م).

---

[1] الكامـــل، ج: 7، ص: 289. أمـــا المراكـــشي فقـــال في خبـــر شـــرح فيـــه مقتـــل الخـــادم الصقلـــبي نجـــا: ((وعـــزم [أي نجـــا] عـــلى محـــو أمـــر الحسنيـــين جملـــة؛ وأن يضبـــط تلـــك البـــلاد لنفســـه؛ فـــدعـــا البربـــر الذيـــن كانـــوا جنـــد البلـــد؛ وكشـــف الأمـــر إليهـــم علانيـــة، ووعدهـــم بالإحســـان؛ فلـــم يجـــدوا لمساعدتـــه بـــدا؛ فوافقـــوه في الظاهـــر؛ وعظـــم ذلـــك في أنفسهـــم باطنـــا. ثـــم جمـــع عسكـــره، ونهـــض إلى الجزيـــرة ليستأصـــل محمـــد بـــن القاســـم؛ فحاربـــه أيامـــا، ثـــم أحـــس بفتـــور نيـــات الذيـــن معـــه؛ فـــرأى أن يرجـــع إلى مالقـــة؛ فـــإذا حصـــل فيهـــا نـــفى مـــن يخـــاف غائلتـــه منهـــم واستصلـــح سائرهـــم، واستـــدعى الصقالبـــة مـــن حيثمـــا أمكنـــه ليقـــوى بهـــم عـــلى غيرهـــم؛ وأحـــس البربـــر بهـــذا منـــه؛ فاغتالـــوه في الطريـــق مـــن قبـــل أن يصـــل إلى مالقـــة؛ فقتـــل وهـــو عـــلى دابتـــه في مضيـــق صـــار فيـــه؛ وقـــد تقدمـــه إليـــه الـــذي أراد الفتـــك بـــه؛ وفـــر مـــن كـــان معـــه مـــن الصقالبـــة بأنفسهـــم؛ ثـــم تقـــدم فارســـان مـــن الذيـــن غـــدروا بـــه يركضـــان حـــتى وردا مالقـــة؛ فدخـــلا وهمـــا يقـــولان: "البشـــرى البشـــرى! فلمـــا وصـــلا إلى السطيـــفي؛ وضعـــا سيفهما عليه فقتلاه)). المعجب، ص ص: 64 ــ 65.

ولما تولى إدريس بن يحيى الحكم في مالقة بادر فورا إلى اعتقال: محمد وحسن: ابني إدريس ابن علي؛ ووضع عليهما حراسة. ولكن أخذت ـ بعد فترة ـ تظهر على إدريس بن يحيى بعض التناقضات، والتصرفات الغريبة في تسيير شئون الدولة؛ لذا بدأت ثقة معاونيه تتضعضع فيه؛ وفتر حماسهم نحوه، وصار ولاؤهم يتآكل شيئا فشيئا؛ ويميل إلى الضعف والتلاشي. وعليه فقد أطلق الحراس المكلفين بابني عمه سراحهما؛ ونادوا بخلافة كبيرهما محمد بن إدريس بن علي؛ بدلا من إدريس. وعندما سمع الخبر السودان القائمين بأمن قصبة مالقة؛ سارعوا للاستجابة والدعاء لمحمد؛ ثم أستقدموه إلى حاضرة الملك. ولما انتصب محمد على عرش الخلافة ـ بدخوله إلى مالقة ـ تسمى بالمهدي؛ وولى أخاه حسنا ولاية عهده، ولقبه بالسامي؛ وذلك في سنة 438هـ(1046م).

وبعد أن تمكن الخليفة الجديد من الوضع أمر بالقبض على إدريس (العالي)، ثم حبسه في المكان نفسه؛ الذي كان هو أخوه مسجونان فيه؛ أي في حصن قمارش كما قال بعضهم. وبذلك استبدل الخصمان الأماكن والمواقع.[1]

---

[1] **أورد هذا الخبر ابن الأثير، وعبد الواحد المراكشي، الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب: ص: 66. أما ابن عذاري فلم يذكر حصن إيرش تماما؛ وإنما قال نقلا عن ابن القطان: ((فخرج إدريس بن يحيى من مالقة إلى حصن ببشتر مع عبيده ومن تبعه من الجند؛ فغزا مالقة مع باديس بن حبوس؛ فلم**

ومـــع ذلـــك تمكـــن العـــالي ـــ بعـــد فتـــرة ـــ مـــن الخـــلاص مـــن محبســـه؛ بمعونـــة بـــني زيـــري، وبعـــض أمـــراء الأمازيـــغ؛ الذيـــن لـــم ترضهـــم سياســـة محمـــد المهـــدى؛ المتصـــف بالتشـــدد والحـــزم. وقـــد تـــم ذلـــك عندمـــا استمالـــوا المكلفيـــن بحراســـة العـــالي في قمـــارش؛ حيـــث أقنعوهـــم بالدعـــاء للعـــالي، وإعادتـــه لمنصبـــه الخـــلافي؛ انطلاقـــا مـــن ذلـــك الحصـــن؛ وبالفعـــل قـــام حـــراس العـــالي برفعـــه إلى ســـدة الخلافـــة في تلـــك الجهـــات.[1] ولـــم يكفهـــم إطـــلاق ســـراح إدريـــس بـــل عملـــوا كـــل جهدهـــم كي يتغلبـــوا عـــلى مالقـــة ويعيـــدوه إلى منصبـــه فيهـــا. ولكـــن محاولاتهـــم بـــاءت بالفشـــل الذريـــع.[2]

يقـــدر عـــلى شـــيء؛ فرجـــع إلى حصـــن ببشتـــر، وأخـــرج عيالـــه وجـــاز إلى سبتـــة)). ثـــم أضـــاف روايـــة نقـــلا عـــن ابـــن حيـــان فقـــال: ((وفي شعبـــان مـــن سنـــة ثمـــان وثلاثيـــن [وأربعمائـــة] خـــرج إدريـــس بـــن يحـــيى بـــن عـــلي بـــن حمـــود مـــن مالقـــة؛ متنزهـــا للصيـــد فغلـــق البـــاب في وجهـــه أهـــل البلـــد؛ ووجهـــوا إلى ابـــن عمـــه محمـــد ابـــن إدريـــس، وبايعـــوه بالخلافـــة، وتلقـــب بالمهـــدي، وتوطـــد أمـــره بمالقـــة مـــدة حياتـــه؛ وانصـــرف إدريـــس بـــن [يحـــيى] بـــن عـــلي العـــالي إلى العـــدوة، ثـــم رجـــع بعـــد ذلـــك إلى الأندلـــس، واستقـــر عنـــد أبي نـــور بـــن أبي قـــرة اليفـــرني، صاحـــب رنـــدة شهـــورا ودعـــا لـــه بالخلافـــة)). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 217. أمـــا ابـــن الخطيـــب فيقـــول أن محمـــد بـــن إدريـــس انتهـــز فرصـــة خـــروج العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى إلى حصـــن ببشتـــر؛ فأقفـــل في وجهـــه أبـــواب مالقـــة. أعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 141. المهـــم أن الآراء حـــول دولـــة الأدارســـة في مالقـــة متضاربـــة وتختلـــف مـــن مصـــدر إلى آخـــر.

[1] الكامـــل، ج: 7، ص، 289. والمعجـــب، ص: 67.

[2] قـــال المراكـــشي: ((وظهـــرت مـــن محمـــد بـــن إدريـــس هـــذا شهامـــة وجـــرأة شديـــدة؛ هابـــه بهـــا جميـــع البربـــر، وأشفقـــوا منـــه؛ وراسلـــوا المرتـــب في الحصـــن الـــذي فيـــه

ولما يئس بنو زيري وأمراء الأمازيغ من إمكان التغلب على مالقة؛ تخلوا عن المطالبة بها، وتركوا العالي وحيدا؛ واتجه أمراء الأمازيغ ــ بعدئذ ــ صوب هدف آخر في الجزيرة الخضراء؛ حيث يقيم محمد بن القاسم بن حمود؛ فالتفوا حوله، ونادوا به خليفة للمسلمين؛ ولكنهم تخلوا عنه ــ هو الآخر بعد فترة ــ وتفرقوا عنه؛ عندما لم يجدوا فيه فائدة تنتظر.

إدريس بن يحيى هذا؛ واستمالوه؛ فأجابهم، وقام بدعوة إدريس... ولم يظهر محمد مبالاة بذلك؛ بل ثبت ثباتا شديدا؛ وكانت والدته تشجعه، وتقوي متنه، وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى؛ فلما رأى البربر شدة عزمه، وثباته؛ فَتَّ ذلك في أعضادهم؛ وتخلوا عن إدريس بن يحيى؛ ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة؛ إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا)). المعجب، ص ص: 66 ــ 67.

ولما ترك أمراء الأمازيغ إدريس بن يحيى وحيدا؛ نظرا لفشل مخططهم في احتلال مالقة؛ وتبعا لما كان بيديه من مواقف سلبية ومتناقضة؛ لم يجد أمامه ـ بعد أن تفرق الأنصار من حوله ـ سوى اللجوء إلى سبتة؛ تلك المقاطعة المغربية التي سبق له أن وضعها في يد عبد من عبيد أبيه؛ يسمى سقوط أو (سكوت) البرغواطي؛ في الوقت الذي أسند فيه ـ أيضا ـ مدينة طنجة لعبد برغواطي آخر من عبيد أبيه؛ اسمه رزق الله البرغواطي. وهكذا لم يجد ملجأ مناسبا سواهما يهرب إليه؛ عندما سدت في وجهه السبل؛ وعليه فقد قصدهما؛ قاطعا بحر العدوة؛ فاستقبلاه بالتبجيل والإجلال؛ واعترفا بخلافته؛ ونا ديا بها؛ ولكنهما ـ بالمقابل ـ ضربا عليه حجابا شديدا؛ منع أعيان القوم من الاتصال به. وبعد مدة سئم البرغواطيان منه؛ فنفياه للأندلس مرة أخرى؛ دون أن يتخليا عن الاعتراف به خليفة للمسلمين؛ كما أبقيا لديهما ولده الصغير رهينة للمستقبل.

وفي الأندلس اختار إدريس الإقامة في تاكرنة عند بني يفرن – دون أن يتنازل عن لقب الخلافة – وبقي يرقب الحال إلى أن توفي خصمه محمد المهدي؛ عندها طلب عامة الناس في مالقة عودته إليها؛ فدخل من جديد إلى حاضرة ملكه السابق؛ سنة 445هـ(1053م). وبقي في مالقة إلى أن توفاه الله[1] سنة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م).

وبذلك يكون العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود قد حكم خلال فترتين متقطعتين: الفترة الأولى بين عامي: 434هـ(1042م) و438هـ(1046م)؛ أما الفترة الثانية فبين عامي: 445هـ(1053م) و446 أو 447هـ(1055م). وذلك شأنه شأن أبيه يحيى، وعم أبيه القاسم بن حمود من قبل.

وكان العالي إدريس بن يحيى هذا حسن الثقافة، أديبا وشاعرا؛ كريم الخصال، مهذب الطباع، لطيف المعشر، حسن المجلس، عطوفا، شفوقا، حليما؛ ولكنه – مع ذلك – كان غريب الأطوار، متناقض المواقف والأفعال. فمما شاع عنه أنه يكثر من أعمال الخير والإحسان؛ حتى قيل أنه واظب على التصدق في كل يوم جمعة بحصة

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن عذاري فيخالف هذا الرأي؛ إذ يرى أن إدريس مات بعد خلعه بفترة قصيرة. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 291.

مـن المـال تقـدر بخمسمائـة دينـار.[1] كمـا يقـال أنـه رد للذيـن كانـوا مغضوبـا عليهـم اعتبارهـم وحقوقهـم، وأرجـع ـ أيضـا ـ المطروديـن إلى أوطانهـم، وأعـاد لهـم مـا أخـذ منهـم مـن أمـلاك وضيـاع.

وبالمقابـل كـان يظهـر في صـورة أخـرى مناقضـة للصـورة الأولى؛ وذلـك أنـه كـان ينـادم ويصاحـب الأرذال مـن العبـاد؛ ويقـال أنـه لـم يكـن يحجـب حرمـه عنهـم.[2] ومـن غرائـب مـا عـرف عنـه أنـه لـم يكـن يبخـل حـتى بحصونـه ورمـوز دولتـه؛ إذا مـا سألـه جيرانـه الأقويـاء التكـرم عليهـم بهـا.[3] وقيـل أنـه لمـا انقلـب عليـه ابـن عمـه محمـد بـن إدريـس؛ عـرض عليـه مؤيـدوه وأنصـاره ـ مـن العامـة ـ أن يسمـح لهـم بالمقاومـة والدفـاع عنـه؛ فرفـض؛ وطلـب منهـم أن يتركـوه وشأنـه.[4] فلـم يجـدوا بـدا مـن تركـه لقمـة في

---

[1] **الكامـل: ج: 7، ص: 289.**

[2] **الكامـل، 7، ص: 289. والمعجـب، ص: 66.**

[3] **قـال المراكـشي: ((وكـل مـن طلـب منـه حصنـا مـن حصـون بـلاده؛ ممـن يجـاوره مـن صنهاجـة، أو بـني يفـرن أعطـاه إيـاه. وكتـب إليـه أمـير صنهاجـة أن يسلـم إليـه وزيـره ومدبـر أمـره وصاحـب أبيـه وجـده: مـوسى بـن عفـان السبـتي؛ فلمـا أخبـره بـأن الصنهـاجي كتـب إليـه يطلبـه منـه؛ وأنـه لابـد مـن تسليمـه إليـه؛ قـال لـه مـوسى بـن عفـان: "افعـل مـا تؤمـر؛ وستجـدني إن شـاء اللـه مـن الصابريـن! " فبعـث بـه إلى الصنهـاجي فقتلـه)). المعجـب، ص: 66.**

[4] **يقـول المراكـشي: ((واجتمعـت العامـة إلى إدريـس بـن يحـيى، واستأذنـوه في حـرب القصبـة، والدفـاع عنـه؛ ولـو أذن لهـم مـا ثبـت السـودان فـوارق ناقـة [وهـذه العبـارة تـأتي كنايـة عـن السرعـة والحسـم]؛ فـأبى؛ فقـال لهـم: "ألزمـوا منازلكـم ودعـوني؛ فتفرقـوا عنـه)). المعجـب، ص: 66.**

يد ابن عمه؛ الذي سجنه كما تمت الإشارة إليه. وحتى عندما انتقل إلى سبتة، وقام عبداه: سقوط أو (سكات)، ورزق الله البرغواطيان بالحجر عليه، وحجبه عن رؤساء وأعيان البلدة؛ وقف موقفا غريبا؛ وذلك حينما تمكن بعضهم من الاتصال به؛ فطلبوا منه أن يأذن لهم بفك الحصار عنه؛ فأبى ثم أعلم العبديين بما قالوه له؛ مما أدى بالعبديين إلى نفي أولئك الأعيان من سبتة؛ بل نفياه هو بدوره إلى الأندلس؛ بعد أن احتفظا بولده رهينة لديهما. فاستقر به الحال في تاكرنة عند بني يفرن؛ إلى أن وصله نبأ وفاة خصمه محمد بن إدريس (المهدي)؛ وطلب أهل مالقة منه العودة إلى مركز ملكه؛ فعاد؛ وبقي بها حتى وفاته.

ويعتبر العالي إدريس بن يحيى أبرز بني حمود ذكرا وشهرة عند أدباء وعلماء الأندلس؛ إذ لازم بلاطه عدد كبير منهم؛ كما زاره عدد آخر من الشعراء والعلماء؛ فكان يكرمهم ويجالسهم ويحاورهم ويشاركهم في قرض الشعر ونقده. ومن أولئك الأدباء والعلماء الأديب الشاعر الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي المالقي؛ وهو الذي قال في العالي:

رِيــحُ الصَّبَــا بَلــغِي أنْفــاسَ ذِي ظَمــإٍ
وَبَرِّدِيهَــا بِمَا يَقضِيــهِ مَجْـــرَاكِ
أوْ يَمِّمِي حَضْــرَةَ العَــالِي بِمَا احْتَمَلَــتْ
مِنِّي الضُّلــوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

****

ــ الانقســام الثالــث في أســرة بــني حمــود:

كــان الانقســام الأول ــ كمــا ذكرنــاه ــ في عهــد القاســم ابــن حمــود سنــة 412هــ (1021م). أمــا الانقســام الثــاني فحــدث بعــد وفــاة إدريــس بــن يحــيى بــن حمــود سنــة 431هــ (1039م). ثــم جــاء الانقســام الثالــث في عهــد العــالي إدريــس بــن يحــيى بــن علــي سنــة 438هــ (1046م)؛ وذلــك بعدمــا خــرج عليــه ابــن عمــه محمــد بــن إدريــس بــن علــي؛ حيــن تغلــب علــى مالقــة وحبــس العــالي في حصــن قمــارش ــ كمــا سبــق ذكــره ــ ثــم تســمى بالخلافــة، وتلقــب بالمهــدي. وبعــد ذلــك انحــاز حــراس إدريــس إليــه، وأعــادوا إليــه الاعتبــار، ونــادوا بــه خليفــة؛ حيــث استقــر لبعــض الوقــت في حصــن قمــارش أو ببشتــر؛ وتمســك بالدعــاء لــه أمــراء الأمــازيــغ ــ أيضــا ــ وزحفــوا نحــو مالقــة؛ بغــرض التغلــب عليهــا وإعــادة العــالي إلى منصبــه؛

ولكنهم فشلوا في مساعيهم كلها؛ نظرا لحسن صمود محمد المهدي ومن معه.

ولما يئس أمراء الأمازيغ من عودة إدريس انفضوا عنه؛ وتحولوا صوب محمد بن القاسم بن حمود أمير الجزيرة؛ فالتفوا حوله ونادوا به ـ هو الآخر ـ خليفة للمسلمين. وبهذه الخطوة أصبح في الأندلس أربع خلفاء؛[1] الخليفة الأول إدريس بن يحيى بحصن بُبَشتر الملقب بالعالي، والثاني خليفة إشبيلية خلف الحصري المنتحل لاسم هشام المؤيد، والثالث محمد بن إدريس بمالقة الملقب بالمهدي، والرابع محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء الملقب ـ أيضا ـ بالمهدي. ويبدو أن هذا هو الذي استفز أبا محمد علي بن حزم؛ وحفزه لقول مقولته السابقة الذكر؛ مستنكرا ومنددا بما حصل. وطبعا لا يمكن أن يحدث كل ذلك لولا نزوات القبلية؛ ذات المصالح الضيقة، وأنانية العصبية المدمرة.

ـ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود:

وحينما توفي المتأيد إدريس بن علي سنة 431هـ(1039م)؛ خلف ثلاثة أولاد ذكورا هم: يحيى ومحمد وحسن. فأما يحيى ـ وهو الملقب بحيون ـ فقتله ابن عمه المستنصر حسن بن يحيى (المعتلي)؛ عندما قدم مع الخادم نجا من سبتة ـ

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 7، ص: 286. والمعجب، ص: 68.

كما سبقت الإشارة إليه ــ وبقي أخواه الصغيران: محمد وحسن: ابني إدريس بن علي. ولما تولى العالي إدريس بن يحيى الحكم بادر ــ فورا ــ إلى حبسهما. ولكنهما تمكنا من الإفلات، والقيام بعصيان ضد إدريس؛ متصيدين ــ كما قيل في بعض المصادر ــ لحظة خروجه من مالقة للقنص؛ فأغلقا ــ مع أنصارهما ــ أبواب المدينة؛ ومنعاه من العودة إلى ملكه. وقد سهل عليهما الأمر ما كان يشوب أجواء البلاط؛ من استياء ونفور؛ لما كان يبديه العالي من سلوك غير مقبول لدى معاونيه.

وبالطبع فقد استثمرا تلك الفرصة التي أضحى فيها أعيان الدولة غاضبين من التصرفات الشاذة للخليفة إدريس بن يحيى؛ نظرا لما كان يظهره من تناقض وتقلب في الأحوال. وبذلك وجد الأخوان منفذا هاما؛ للاستيلاء على الحكم. وبالفعل تمكنا من ذلك؛ بمساعدة بعض الحراس، وبمساندة الحامية السودانية بقصبة مالقة. وتم تغلبهما على سدة الخلافة سنة 438هـ (1046م)؛ حيث تربع على عرش مالقة محمد بن إدريس؛ الذي تلقب بالمهدي؛ ورفع الدعاء له بالخلافة. وبادر محمد المهدي بإسناد ولاية العهد لأخيه حسن؛ الذي تسمى بالسامي. غير أنه غضب عليه فيما بعد، فنفاه إلى جبال غمارة بالعدوة المغربية؛ فبايعه من كان هناك من قبائل غمارة؛ أين يتواجد أنصار الأدارسة التقليديين.

أمـــا محمـــد المهـــدي فبـــقي صامـــدا في مالقـــة؛ ضـــد خصومـــه مـــن أمـــراء الأمازيـــغ إلى يـــوم وفاتـــه مسمومـــا ــ كمـــا قيـــل ــ في سنـــة 444هــ (1052م) أو 445هــ (1053م).[1] فســـارع ــ عندئـــذ ــ العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى إلى العـــودة إلى مالقـــة؛ والتربـــع مـــن جديـــد عـــلى عـــرش الخلافـــة بهـــا؛[2] وذلـــك لأنـــه كـــان يتربـــص الفرصـــة المواتيـــة؛ مـــن تاكرنـــة حيـــث كـــان مستقـــرا. وهكـــذا عـــاد العـــرش لإدريـــس مـــن جديـــد؛ حيـــث بـــقي إلى يـــوم وفاتـــه سنـــة 446هــ(1054م) أو 447هــ(1055م)؛ كمـــا سبـــق ذكـــره.

---

[1] اتفـــق ابـــن عـــذاري وابـــن الخطيـــب عـــلى قصـــة زعمـــا أنهـــا قصـــة مـــوت محمـــد المهـــدي؛ وجـــاء فيهـــا: ((وكـــان محمـــد بـــن إدريـــس هـــذا سفاكـــا للدمـــاء؛ فامتـــدت يـــده إلى قتـــل البرابـــر؛ ولمـــا رأى الحجـــاب ذلـــك؛ وهـــم أمـــراء القبائـــل؛ عملـــوا الحيلـــة في قتلـــه؛ فوجـــه لـــه باديـــس بـــن حبـــوس بكـــأس عـــراقي مسمـــوم؛ مـــع رجـــل مـــن الكتاميـــن. فلمـــا وصـــل إليـــه قـــال لـــه: "هـــذه كـــأس جلبـــت للحاجـــب المظفـــر باديـــس؛ فلـــم يرهـــا تصلـــح إلا للخلافـــة؛ فاختصـــك بهـــا". فأعجـــب بهـــا محمـــد ابـــن إدريـــس، وملأهـــا خمـــرا، وضمهـــا إلى فمـــه؛ فأحـــس في نفســـه ريبـــة منهـــا؛ فأمـــر الكتـــامي فشربهـــا؛ فتهـــرأ جلـــده عـــن لحمـــه مـــن حينـــه. وبـــقي هـــو ثلاثـــة أيـــام، ومـــات مـــن رائحتهـــا في أواخـــر سنـــة 444هــ)). البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 218. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص ص: 141 ــ 142.

[2] قـــال البكـــري وابـــن الخطيـــب: أن الـــذي تـــولى الحكـــم ــ مباشـــرة ــ بعـــد مـــوت محمـــد المهـــدي ابـــن أخيـــه إدريـــس بـــن يحـــيى بـــن إدريـــس بـــن عـــلي؛ حيـــث تســـمى بالموفـــق؛ ولـــم ينســـب إلى نفســـه رتبـــة الخلافـــة؛ ولكنـــه لـــم يبـــق في الملـــك أكثـــر مـــن أشهـــر يسيـــرة؛ إذ زحـــف إليـــه العـــالي إدريس بـــن يحـــيى. أنظـــر المغـــرب، ص: 134.

ـ حكومـــة المستعــلي محمــد بــن إدريـــس المتأيــد:[1]

تــولى الحكــم بمالقــة في السنـــة الـــتي تــوفي فيهـــا العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى. وتســـمى ــ في أوثـــق الأقـــوال ــ بالمستعـــلي. هـــذا ولـــم تهتـــم المصـــادر التاريخيـــة كثيـــرا بالمستعـــلي هـــذا؛ خاصـــة وأن حكمـــه لـــم يتجـــاوز السنتيـــن. أي مـــن سنـــة 446 أو 447هــ (1055م) إلى سنـــة 449هــ(1057م)؛ وهي السنـــة الـــتي تغلـــب فيهـــا باديـــس بـــن حبـــوس بـــن زيـــري عـــلى مالقـــة؛ معلنـــا بذلـــك ختـــام الدولـــة الإدريسيـــة في الأندلـــس نهائيـــا.[2] وكـــان أمـــراء الأمازيـــغ بتلـــك الديـــار قـــد حولـــوا دعوتهـــم ــ في البدايـــة ــ إلى محمـــد بـــن القاســـم سنـــة 439هــ(1047م)، ولمـــا مـــات سنـــة 440هــ(1048م) نقلوهـــا لابنـــه القاســـم لفتـــرة قصيـــرة؛ ولكنهـــم تخلـــوا ــ بعـــد ذلـــك ــ عـــن تلـــك الفكـــرة؛ ورأوا وجـــوب الاستقـــلال بأنفسهـــم؛ دون حاجـــة إلى سنـــد شـــرعي في الحكـــم. خاصـــة بعـــد سقـــوط دولـــة بـــني القاســـم بالجزيـــرة الخضـــراء في يـــد المعتضـــد بـــن عبـــاد سنـــة 449هــ(1057م).[3]

---

[1] هـــذا رأي ابـــن عـــذاري وابـــن خلـــدون. البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص:218. والعبـــر، مج: 4، ص: 335. أمـــا رأي البكـــري وابـــن الخطيـــب فيختلـــف؛ إذ يـــرون أنـــه ابـــن العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى؛ وليـــس ابـــن إدريـــس المتأيـــد. أنظـــر: المغـــرب، ص: 134. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 142. كمـــا انهـــم اختلفـــوا أيضـــا في اللقـــب فمنهـــم مـــن يعتقـــد أن لقبـــه هـــو المستعـــلي؛ ومنهـــم مـــن يـــرى أن لقبـــه هـــو الســـامي.

[2] يـــرى البكـــري أن باديـــس دخـــل مالقـــة، وأسقـــط دولـــة المستعـــلي في سنـــة 447هــ. المغـــرب، ص: 134.

[3] البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 242.

وهـذا مـا جعـل باديـس بـن حبـوس يزحـف إلى مالقـة؛ بغـرض امتلاكهـا. ولمـا أسقـط أميـر بـني زيـري باديـس بـن حبـوس دولـة بـني حمـود؛ لـم يجـد المستعـلي مفـرا مـن اللجـوء ـ في البدايـة ـ إلى المريـة. ومـن هنـاك وصلتـه دعـوة مـن أهـل مليلـة؛ فأجـاز إليهـم قاطعـا البحـر؛ نحـو العـدوة المغربيـة. وفي تلـك المدينـة الوفيـة لبـني إدريـس وجـد الملجـأ الآمـن؛ حيـث بايعتـه قبائـل تلـك النـواحي سنـة 456هـ(1063م)؛[1] وظـل هنـاك حـتى وفاتـه في أواخـر سنـة 460هـ(1067م).[2] ويعتبـر المستعـلي محمـد بـن إدريـس هـذا هـو آخـر ملـوك بـني حمـود الأدارسـة في الأندلـس. وذلـك بعـد أن تمـت تصفيـة ملـك بـني عمهـم؛ أبنـاء القاسـم بـن حمـود ملـوك الجزيـرة الخضـراء؛ مـن قبـل المعتضـد بـن عبـاد سنـة 449هـ(1057م).

****

---

[1] يقـول البكـري الـذي كـان معاصـرا لتلـك الفتـرة أن المستعـلي ذهـب إلى مليلـة في سنـة **459**هـ؛ فممـا قـال:((وتسـمى بالمستعـلي، ولـم يخطـب لـه بالخلافـة؛ فأقـام بمالقـة إلى أن تغلـب عليهـا باديـس بـن حبـوس بـن ماكسـن في صـدر سنـة سبـع وأربعيـن وأربعمائـة؛ فانقطعـت دولـة بـني علـي بـن حمـود مـن يومئـذ؛ ثـم استـدعي محمـد بـن إدريـس هـذا مـن مدينـة مليلـة؛ وهـو مستقـر بالمريـة؛ لا يعـرف مكانـه؛ لخمـول ذكـره؛ فعبـر إليهـا؛ وذلـك في شهـر شـوال سنـة تسـع وخمسيـن وأربعمائـة؛ فقـام بـه جماعـة بـني ورتـدي بميلـة وبقلـوع جـارة ونواحيهـا. وهـو هنالـك بـاقي إلى وقتنـا هـذا؛ وهـو آخـر سنـة ستيـن وأربعمائـة)). المغـرب، ص: **134**.

[2] العبـر، مج: **4**، ص: **335**. ونفـح الطيـب، ج: **1**، ص: **435**.

ـ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

يبـــدو أن الإنجـــازات الحضاريـــة والثقافيـــة لدولـــة بـــني حمـــود لـــم تصـــل إلى المستـــوى المطلـــوب؛ بالنسبـــة لدولـــة تواجـــدت في ربـــوع الأندلـــس؛ إذ كـــان رصيـــد هـــذه الدولـــة الحضـــاري ـ بفرعيهـــا ـ متواضعـــا؛ إذا مـــا قيســـت بالدولـــة الأمويـــة، أو بدولـــة بـــني عبـــاد بإشبيليـــة. فدولـــة بـــني حمـــود ـ ســـواء بقرطبـــة أو بمالقـــة أو بالجزيـــرة الخضـــراء ـ كـــان يهيمـــن عليهـــا الطابـــع القبـــلي؛ ذي التوجـــه العسكـــري. هـــذا مـــن جهـــة، ومـــن جهـــة أخـــرى فـــإن عمرهـــا كـــان قصيـــرا ـ بعـــض الـــشيء ـ بالمقارنـــة مـــع دولـــة بـــني أميـــة؛ الأمـــر الـــذي لـــم يساعـــد عـــلى ظهـــور المبتكـــرات الحضاريـــة والثقافيـــة بالقـــدر الكـــافي. كمـــا أن حياتهـــا كانـــت مليئـــة بالفتـــن والحـــروب والمؤامـــرات؛ وهـــذا ـ بالطبـــع ـ لا يساعـــد عـــلى بـــروز عبقريـــات في الميادـــين العلميـــة والفكريـــة. ويعتبـــر ذلـــك مـــن بيـــن الموانـــع المؤثـــرة في سبيـــل إنجـــاز أي مشـــروع حضـــاري. هـــذا وكـــان ـ طبعـــا ـ للعامـــل الاقتصـــادي أثـــره في انكمـــاش الإنجـــازات الحضاريـــة والثقافيـــة بهـــذه الدولـــة الضعيفـــة؛ الـــتي لـــم تكـــن مواردهـــا الاقتصاديـــة كافيـــة لتحقيـــق مـــا حققتـــه الدولـــة الأمويـــة.

ومــع ذلــك فقــد ورثــت دولــة بــني حمــود شيئــا مــن التــراث الــذي خلفتــه الدولــة الأمويــة؛ ممثــلا ببعــض المنشــآت العمرانيــة، والمبتكــرات العلميــة، ومــا تعــودت عليــه الرعيــة مــن تــذوق للإبداعــات الفنيــة والأدبيــة. هــذا وقــد ورث بــلاط الحموديــين أيضــا ــ بشقيــه ــ بعــض المؤسســات الثقافيــة كمــا ضــم إليــه بعــض الأدبــاء والكتــاب الفطاحــل، والشعــراء الفحــول؛ كمــا استقبــل أدبــاء وشعــراء وفــدوا إليــه مــن جهــات أخــرى؛ دون نيــة في الإقامــة. وقــد ازدانــت هــذه الدولــة وحظيــت أيضــا بوجــود بعــض العلمــاء والفقهــاء في ربوعهــا؛ حيــث اختصــوا بشئــون الكتابــة والقضــاء والفتيــا والتدريــس. ولمزيــد مــن الفائــدة والتوضيــح نشيــر إلى أولئــك العلمــاء والأدبــاء والكتــاب والشعــراء؛ وهــم:

ــ **أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي**:[1] وينتسب إلى أسرة بني درّاج الصنهاجيين. وكان القسطلي ــ أيام المنصور بن أبي عامر ــ كاتبا للإنشاء مع ابن الجزيري.[2] ويبدو أن أنه مرّ مرور الكرام ببلاط

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((حل اسمه من الأماني محل الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس؛ وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدْره؛ وكان الشام والعراق أدنى خطى ذكره. وقد أجرى الثعالبي طرفا من أمره بـ(اليتيمة): "بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام؛ وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك. وكان يجيد ما ينظم")). نفسه، ص: 60.

[2] ذكره الحميدي فقال: ((كان كاتبا من كتاب الإنشاء في أيام المنصور أبي عامر؛ وهو معدود في جملة العلماء والمقدَّمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء؛ وشعره كثير مجموعٌ؛ يدل على علمه؛ وله طريقة في البلاغة والرسائل؛ تدل على اتساعه وقوته؛ وأول من مدح من الملوك المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر مدبر دولة هشام المؤيد... فعن أبي محمد علي ابن أحمد بن سعيد الفقيه؛ وأخبرني أن المنصور أبا عامر لما فتح شنب ياقب أو غيرها من القلاع الحصينة التي يقال إن أحدا لم يصل إليها قبله؛ استُدْعِيَ أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري؛ وأمرا بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة، وإلى سائر الأعمال. فأما ابن الجزيري: "سمعا وطاعة". وأما ابن درّاج فقال: "لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة". وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة. فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك؛ فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك. وقيل لابن درّاج افعل ذلك على اختيارك؛ فقد فسح لك فيه. ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح؛ وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، ومشاهد القتال، وكيفية الحال؛ بأحسن وصف، وأبدع وصف؛ فاستحسنت ووقع الإعجاب بها؛ ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن. وما بقي من نسخ ابن الجزيري ــ في ذلك الفتح على كثرتها ــ عين ولا أثر... وسمعت أبا محمد علي بن أحمد [بن سعيد

بني حمود؛ إذ لم تطل إقامته فيه كثيرا. ومع هذا فقد منح ملوك هذه الدولة أروع ما خطته أقلام الكتاب من نثر، وأجمل ما قيل فيهم من قصائد شعرية. ومن قوله المنثور هذه القطعة التي خص بها الخليفة علي بن حمود؛ جاء فيها:

((حسْبُك اللهُ يا ابنَ رسول الله، وعلى هُدًى من الله، فيما خَفقتْ إليه راياتك، وصَدَقتْ به آياتُك، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعته نَصْرَك، كما شرحَ بتوفيقه صَدْرَك، ويُتَمِّم بتأييدِه أمرَك، بما أوْلَيتَ أولياءَه المؤمنين، وأبْلَيْتَ في عبادِه الصالحين، المصابينَ في الأموال والأهلين، أيَّامَ تزاحَمَتْ إليهم أسبابُ القضاء بالبَأساءِ والضَّرَّاء، وأبْرَقَتْ عليهم آفاقُ السماء بسيوف الأعداء، تَسِحُّ بوابل الدِّماء وتموجُ بأسراب السّباء، فَسُرْعانَ ما هاموا فلا وَزَر، وربعوا فلا مُسْتقرّ، ونادوا ولاتَ حين مَنَاص ولا فوْت، إلاَّ مَنْ أعْفَاهُ الموت؛ فأصبحوا أنْفَاضَ الجَلاء، وأغراضَ الفناء، قد جَهِدُوا بالبلاء، وعَيُوا بالدَّاء العَيَاء، فلئنْ زُلْزِلَتْ بهمَ الأرض، لقد سكَنَ بهم عِزُّ سلطانِك، ولئنْ تَهافتَ بهم الذعْر، لقد

الفقيه]؛ وكان عالما بنقد الشعر يقول: "لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد". وقال مرة أخرى: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج؛ لما تأخر عن شأو (حبيب) و(المتنبي)". مات أبو عمر أحمد بن درّاج قريبا من من العشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 110 ــ 114.

اطمأنــوا في مِهَــادِ أمانــك)).[1] وقــد مــدح هــذا الشاعــر الذائــع الصيــت؛ الخليفــة عــلي بــن حمــود بقصيــدة شهيــرة؛ نــوه فيهــا بانتسابــه إلى رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وسلــم، وأشــاد ببــني هاشــم، ومجــد نسبهــم القديــم؛ وجــاء فيهــا:[2]

لَعَلَّــك ياشَمْــسُ عِنْــدَ الأصيــلِ
شَجِيتِ لِشَجْــوِ الغَريــبِ الذَّليــلِ
فَكــوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيــع
وكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّســولِ
فَإِمَّــا شَهِــدْتِ فَــأزْكَى شَهيــدٍ
وإمَّــا دَللــتِ فَأهْــدَى دَلِيــلِ

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 64.

[2] قــال فيهــا ابــن بســام: ((وهــذه القصيــدة لــه طويلــة؛ وهي مــن الهاشِميــاتِ الغُــرّ؛ بناهــا مــن المِسْــك والــدُّرّ؛ لا مــن الجــصّ والآجــُر؛ لا بــل خَلَّدهــا حديثــاً عــلى الدَّهــر، وسَــرَّ بهــا مَطالــعَ النُّجــومِ الزُّهْــر؛ لــو قَرَعَــتْ سَمــْعَ دِعْبِــلِ بــنِ عــلىّ الخــزاعيّ، والكُمَيْــتِ بــن زَيْــدٍ الأســديّ، لأمْسَكــا عــن القــول، وبرئــا إليــه في القــُوّةِ والحَــوْل؛ بــل لَــوْ رآهــا السيــد الحميــريّ، وكُثَيِّــرٌ الخُــزاعيّ، لأقاماهــا بَيِّنَــة عــلى الدَّعــْوَى، ولتلقياهــا بِشــارَة عــلى زَعْمِهِمــا بخــُروج الخيــلِ مــن رَضــْوَى؛ وقــد أثبــتُّ أكثرهــا إعلانــاً بجلالــة قدرِهــا، واستحسانــاً لعَجُــزِهــا وصدْرِهــا)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 87 ــ 88.

عَلى سَابــقٍ في قيُـــودِ الخُطـــُوبِ
وَنَجْمِ سَنـــاً فِـــي غُثـــاءِ السُّيُـــولِ
يُنـــادِي الثـــرَى لِسَقـــامِ الضَّيَـــاعِ
وَيَشْكـــو إِلَى المُلـــْكِ دَاءَ الخُمُـــولِ
وَعَـــزَّ عَلى العِلمِ مَثـــوَاهُ أرْضـــاً
عَلى حُكمِ دَهْـــرٍ ظلـــومٍ جَهُـــولِ
وَيَعْجَـــبُ كَيـــفَ دَنـــا مِنْ عَـــلِيٍّ
وَلَـــمْ تَنفَصِـــمْ حَلَقـــات الكُبـــولِ
وَكَيْـــــفَ تنسَّـــــمَ آلَ النـــبيِّ
وَأبْطـــأَ عَنـــهُ شِفـــاءُ العَلِيـــــلِ
وَأطـــوَادُ عِزِّهِـــــمُ مَاثِـــــلاَتٌ
لـــهُ وَهْوَ يَرنـــو بِطـــَرفٍ كلِيـــلِ
وَأبْحُرُهـــمْ زَاخِـــــرَاتٌ إلِيْــــهِ
وَيَرشُـــفُ فِي الثمَـــدِ المُسْتَحِيـــلِ
تَجَـــزَّأ مِـــنْ جَنـــتَيْ مَـــــأرَبٍ
بِخَمـــطٍ وَأثـــلٍ وَسِـــدْرٍ قلِيـــلِ

ثـــم يضيـــف قائـــلا:

شَرِيـــدُ السُّيُوفِ وَفَــلُّ الحُتُـــوفِ
يَكِيـــدُ بأفـــلاَذِ قلـــبٍ مَهُـــــولِ
فأذهَـــلَ مُرْضِعًـــة عَـــنْ رَضِيـــعٍ
وَأنـــسَى الحَمَائـــمَ ذِكـــرَ الهَدِيـــلِ
فَمَا تَهْتَـــدِي العَيْـــنُ فِيهَا سَبِيـــلاً
سِـــوَى سُبُـــلِ العَبَرَاتِ الهُمُـــولِ
وَلاَ يَعْـــرِفُ المَوْتُ فِيهَا طَرِيقـــاً
إلى النَّفْـــسِ إلاَّ بِعَضْـــبٍ صَقِيـــلِ
رَكِبْـــتُ لَهَـــا مَحْمَـــلاً لِلنجَـــاةِ
وَصَيَّـــرْتُ قَصْـــدَكَ فِيهِ عَدِيـــلِي
فـــرُدَّتْ عَـــلى عَقِبَيْهَـــا المَنُـــونُ
بـــوَاقٍ مُجيـــرٍ وَرَأيٍ أصِيـــلِ
وَقَـــد سُمْتَهَـــا بِنَفِيـــسِ التـــــلاَدِ
عَلى أنفـــسٍ ضَائِعَـــاتِ الذُّحُـــولِ
نُفُوسُ حَنَتْ قَـــوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَـــا
فكـــنَّ سِهَـــامَ قِـــسِيِّ الخمُـــــولِ

إلى أن يقــول:

إلـــَى الـهَاشِــمِيِّ إلـــَى الطالِــبيِّ
إلَى الفَاطِمِيِّ العَطُــوفِ الوَصُـــولِ
فَسُــمِّيَ جَــدُّكَ عَمْــرو الكِــرَامِ
بهَشْــمِ الثرِيــدِ زَمَـــانَ المُحُــولِ
وَضَيَّــفَ حَتَّى وُحُــوشَ الفَــلاَةِ
وَأهْــدَى القِرَى لِهِضَابِ الوُعُــولِ
وَإنَّ أبَـــا طالِــــبٍ لِلضيُــــوفِ
لأطلـــبُ مِـــنْ ضَيَفِـــهِ لِلنـــزُولِ
يَـــرُوحُ عَلَيْهـــم بغـــرِّ الجِفـــانِ
وَيَغـــدُو لَهُمْ بِالغَرِيـــضِ النشِيـــلِ
فَأنْتــمْ هُــدَاةُ حيَــاةٍ وَمَـــــوْتٍ
وَأنتـــمْ أئمـــةُ فِعْـــــلٍ وَقِيـــــلِ
وَسَـــادَاتُ مَنْ حلَّ جَنـــاتِ عَــدْنٍ
جَمِيـــعِ شَبَابهـــــمُ وَالكهُـــــولِ
وَأنتــمْ خَلاَئِــفُ دُنيَـــا وَدِيـــــنٍ
بِحُكـــمِ الكِتَـــابِ وَحُكـــمِ العُقُـــولِ
ووَالدُكــــمْ خَاتِــــمُ الأنبيَــــاءِ
لَكـــمْ مِنـــهُ مَجْــدُ حَــفِيٍّ كَفِيـــلِ

تلـــــذُّ بحَمْلكـــــمُ عَاتقـــاهُ
عَلَى حَمْلِــهِ كــلَّ عِــبْءٍ ثقِيــلِ
وَرَحْـــبٌ عَلَى ضَمِّكــمْ صَـــدْرُهُ
إذَا ضَــاقَ صَدْرُ أبٍ عَنْ سَلِيــلِ
وَيَطرُقــهُ الــوَحْيُ وَهْنــاً وَأنتــُمْ
ضَجيعَــاهُ بَيــنَ يَــدَيْ جِبْرَئِيــلِ
وَزَوَّدَكــمْ كــلَّ هَــدْيٍ زَكِــيٍّ
وَأوْدَعَكــمْ كــلَّ رَأْيٍ أصِيــــلِ

وممــا قالــه ابــن درّاج في وصــف المقاتليــن:

وَقــَدْ لَمَعَتْ حَوْلَيكَ مِنْهــمْ أسِنــة
تُخَيــلُ أنَّ الحَزْنَ وَالسَّهْلَ نِيــرَانُ
أسُــودُ هَيَــاجٍ مَا تــزَالُ ترَاهُــمُ
تطِيــرُ بِهمْ نَحْوَ الكَرِيهَةِ عِقْبَــانُ
وَأقمَــارُ حَرْبٍ طالِعَــاتٌ كأنمَــا
عَمَائِمُهُمْ فِي مَوقِفِ الرَّوْعِ تِيجَــانُ
وَكــلُّ زَنَــاتِيٌّ كــأنَّ حُسَامَــهُ
وَهَامَــة مَنْ لاقــاهُ نارٌ وَقرْبَــانُ

وَأبْيــضَ صِنهَــاجٍ كــأنَّ سِنانـــهُ

شِهَابٌ إذا أهْوَى لِقرْنٍ وَشَيْطــاَنُ

وقــال أيضــا في وصــف لحظــة وداع لأسرتــه:

ولَما تدَانــتْ لِلــوَدَاعِ وَقَــدْ هَفَــا

بِصَبْــرِيَ مِنهَــا أنــة وَزَفِيــرُ

تُناشِدُنِي عَهْــدَ المَــوَدَّةِ وَالهَــوَى

وَفِي المَهْدِ مَبْغُــومُ النداءِ صَغِيــرُ

عَــيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطابِ وَلَفْظِــهِ

بِمَوقــعِ أهْــوَاءِ النفــوسِ خَبيــرُ

تَبــوَأ مَمْنوعَ القلــوبِ وَمُهــدَتْ

لــهُ أذْرُعٌ مَحْفوفــة وَنحُـــورُ

فَكــلٌّ مُفــدَّاةِ الترَائــبِ مُرْضِــعٌ

وَكــلٌّ مُحَيَّــاةِ المَحَاسِــنِ ظِيــرُ

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَــادَنِي

رَوَاحٌ بِتــدْآبِ السُّــرَى وَبُكــورُ

وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَــا

جَوَانِحُ مِنْ ذُعْــرِ الفــرَاقِ تَطِيــرُ

لئِــنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيــوراً فإنــنِي
عَلى عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَــا لغَيُــورُ
وَلــَوْ شَهِدَتني وَالهَوَاجرُ تَلتــظِي
عَلَيَّ ورَقــرَاقُ السَّــرَابِ يَمُــورُ
أسَلــطُ حَــرَّ الهَاجرَاتِ إذا سَطَــا
عَلى حُرِّ وَجْهي وَالأصِيلُ هَجِيــرُ
وَأسْتَنشِقُ النَّكبَــاءَ وَهْيَ بَــوَارِحٌ
وَأسْتَوْطِئُ الرَّمْضَــاءَ وَهْيَ تفــورُ
وَلِلمَوْتِ فِي عَيْــنِ الجَبَانِ تَلــوُّنٌ
وَلِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيــرُ

وقــال في وصــف هــول البحــر:

إلَيكَ شَحَنــا الفلــكَ تَهــوِي كأنهَــا
وَقَدْ ذَعرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشّمْسِ غِرْبَانُ
عَلَى لُجَــجٍ خضْرٍ إذا هَبــتْ الصَّبَــا
تــرَامَى بنــا فِيهــا ثبيــرُ وَثهــلاَنُ
مَوَاثِــلٌ ترْعَى فِي ذرَاهــا مَوَاثِــلاً
كَمَا عُبــدَتْ فِي الجَاهِلِيَّــةِ أوْثــانُ

فِي طَيِّ أسْمَـــالِ الغريـــبِ غرَائـــبٌ
سَكنَّ شِغافَ القلـــبِ شِيـــبٌ وَولِـــدَانُ
يُرَدِّدْنَ فِي الأحْشَـــاءِ حَــرَّ مَصَائِـــبٍ
تزيــدُ ظلاَمـــاً ليلهَـــا وَهْيَ نيــرَانُ
إذَا غِيــضَ مَاءُ البَحْرِ مِنهَا مَدَدْنـــهُ
بدَمـــعِ عيُـــونٍ تمْترِيهـــنَّ أشْجَـــانُ
وَإنْ سَكنـــتْ عَنا الرِّيَاحُ جَـــرَى بنـــا
زَفِيـــرٌ إلَى ذِكـــرِ الأحِبَّـــةِ حَنَـــانُ
يَقلـــنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالهَـــمُّ وَالـــدُّجَى
تَمـــوجُ بنـــا فِيهَـــا عُيُـــونٌ وَآذَانُ
ألاَ هَـــلْ إلَى الدُّنيَا مَعَـــادٌ وَهلْ لنـــا
سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أوْ سِوَى المَاءِ أكفانُ
وَهَبْنـــا رَأيْنا مَعْلَـــمَ الأرْضِ هَل لنـــا
منَ الأرْضِ مَأوًى أوْ مِنَ الأنسِ عِرفانُ

ــ ثم أبو حفص أحمد بن برد الأكبر:[1]

فأما الكاتب أبو حفص أحمد بن برد الأكبر؛ فهو من أهل قرطبة؛ ولم تذكر المصادر أصوله الأولى التي ينحدر نسبه منها. أما ابن بسام فقال إن بني برد ينتمون إلى بني شُهَيد بالولاء. وقد كان ابن برد هذا ــ من قبل ــ كاتبا في البلاط الأموي؛ وأيام بني عامر بالتحديد؛ ثم كتب في آخر أيامه للخليفة علي بن حمود ثم ولده يحيى. وهو جد أبي حفص أحمد بن برد الأصغر؛ صاحب رسالة السيف والقلم. وهذه قطعة من خطاب كتبه ابن برد الأكبر عن علي بن حمود لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة: **((وما أنكَرنا شيئاً مما ذهبتَ إليه من التَّأنِّي والتثبت، ولا اعتقدنا إلاَّ رَأيَك في نَظَرِ الاجتماع، وتَرَقُّب الالتئام؛ لتَرتفِعَ الشُبْهة ويَنْجَلِيَ الشَّكُّ؛ وإن كان مَذهَبُنَا في هذه الأمَّةِ مشهوراً، واحتسابُنَا الأجْرَ في صلاحِها معروفاً، وقيامُنا لنصرها وسخاؤنا بأنفُسِنا وأموالنا لاستنقاذها؛ لا نَنْوي إلاَّ وجْهَه تعالى. وإلاَّ فقد عَلِمَ مَنْ عَرَفنا، وأيْقَنَ من أنْصَفَنا؛ أننا كنا في عَيْشٍ هَنِيّ، ولَبَبٍ رَخِيّ، وعملٍ واسع، ومال**

---

[1] قال ابن بسام: ((وقلد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري؛ ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة؛ فأسمع الصم بيانا، واستنزل العصم إبداعا وإحسانا؛ وقد أخرجت من رسائله؛ ما يعرب عن فضائله، ويوضح مشهور دلائله؛ وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربعمائة؛ وقد نيف على الثمانين)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 103.

وافـــر، وجنـــدٍ مُطيـــع، وحصـــنٍ منيـــع؛ وفي دونِ ذلـــك مـــا أقنَـــعَ مـــن عـــرفَ الدنيـــا بحقيقتهـــا، وأجْـــزَأ مـــن أنْزلَهـــا منْزلتَهـــا؛ ومـــا كـــفَى مـــن لا يعـــدِلُ بالسَّلامـــةِ ولا يَبيـــعُ بالغَبْـــن، ولا يركـــبُ الأهـــوال، ولا يقتحِـــمُ المهالـــك، مغـــرِّراً بدمـــه، مُخاطِـــراً بنفسِـــه، لحُطـــامٍ تافِـــهٍ، وظـــلٍ زائـــلٍ، ومتـــاعٍ قليـــلٍ؛ وإنـــا لنرجـــو منـــه تعـــالى أنـــه لـــم يُيَسِّـــر مـــا يَسَّـــرَ مـــن آمالنـــا إلا عنـــد اطّلاعِـــه عـــلى نيَّتِـــنـــا فيهـــا؛ فنحـــن بعَيْـــنِ اللـــه، ونواصينـــا بيـــدِه، والمُلـــكُ والأمْـــرُ لـــه)).[1]

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 117 ــ 118.

ومـــن شعـــر أبي حفـــص بـــن بـــرد الأكبـــر هـــذه الأبيـــات الـــتي خاطـــب بهـــا أبـــا العـــلاء صاعـــد بـــن الحســـن اللغـــوي:

أبَـــا العَـــلاءِ استْمِعْ تَعْرِيضَ ذِي مِقـــةٍ
أهْدَى لـــكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْـــرَ مَقْطـــُوبِ
نـــاءٍ بِغرْبَتِـــهِ والفَهـــمُ نِسْبَتـــهُ
وكـــمْ دَنِـــيٍّ قـــصِيٍّ فِي المَناسِيـــبِ
وَصَـــارَ فِـــي غُرْبَـــةِ الآدَابِ مُغْترِبـــاً
أمَا كَـــفَى الدَّهْـــرُ عَـــضٌّ دُونَ تغْرِيـــبِ
أوْلاكَ مَحْمَـــدَةً مِـــنْ بَعْـــدِ تَجْرِبَـــةٍ
لا يَصْلُـــحُ الحَمْـــدُ إلا بَعْـــدَ تَجْرِيـــبِ
أنـــتَ الـــذِي لمْ يُعَاشِـــرْ مِثلـــهُ رَجُـــلاً
فِي العِلـــمِ وَالظـــرفِ والآدابِ والطيـــبِ
تَحْصِيـــلُ فَضْلِـــكَ لِلحُسَّـــادِ مَعْجَـــزَةٍ
وكُنـــهُ عِلمـــكَ شَيْءٌ غَيْـــرُ مَحْسُـــوبِ
أمَّـــا اللُّغـــاتُ فلاَ يَعْقـــوبُ يَبْلـــغُ مَـــا
وَعِيـــتَ مِنهَـــا وَلاَ أشْيَـــاخُ يَعْقـــوبِ

إلى أن يقـــول:

ــ ثــم أبــو عامــر أحمــد بن عبــد الملــك بن شهيــد:[1]
وينتســب هــذا الأديــب الفــذ والشاعــر العمــلاق إلى قبيلــة

حَيَّــا تَحِيَّــةَ ذِي أُنْــسٍ بنا وَجِــلاً
قِنَاعَ وَجْهٍ طَوِيلِ الصَّوْنِ مَحْجُــوبِ
فَقلتُ: أهْلاً وَرَحْبــاً، مَنْ هَدَاك لنــا
لَيــلاً؟ فــرَدَّ بتأهِيــلٍ وتَرْحِيـــبِ
قالَ: مَاذا ترَى؟ قلتُ: الغَزَالــةُ فِي
ثوْبِ احْمِرَارٍ مِنَ الظلمَاءِ غِرْبِيــبِ
وَقَالَ: اتئدْ! قُلتُ: قَدْ أبْصَرْتها قِبَــلاً
فَقَالَ: حِلاً، فَقلتُ: الحِــلُّ مَطْلُــوبِي
قالَ: تَحَــرَّ فلاَ تشططْ بنَــا سَرَفــاً
فَقلْتُ: لَيْسَ سِوَى التَّقْصِيرِ مَرْغُوبِي
ثمَّ اعْلَــمِي أننِي فِي حُبِّكِــمْ دَنِــفٌ
قَالَتْ: عَلِمْتُ فَلاَ تَخْضَعْ لِمَحْبُــوبِ
قُلْتُ: الوِصَالُ، فَقَالَتْ: مَهْ بَلَى وَعَسَى
وَفِي عَسَى فرْجَةٌ ترْجَى لِمَكْــرُوبِ
ثمَّتَ وَلتْ فَأبْقتْ فِي الحَشَا ضَرَمــاً
يَذكــو بِدَمْعٍ عَلَى الخَدَّينِ مَسْكُــوبِ
فَالآنَ فَازْجُرْ أوِ اسْجَعْ إنْ هَمَمْتَ بِهِ
كَسَجْعِ شِــقٍّ أوِ الأفعَى أوِ الذِّيــبِ
هَــذِي عِبَارَتِهَــا فالأمْــرُ مُشْتَــرَكٌ
تلــقَى أفانِينــهُ طــراً بتَهْذِيــبِ

[1] **قــال ابــن بســام نقــلا عــن ابــن حيــان: ((كــان أبــو عامــر يبلــغ المعنــى ولا يطيــل سَفَــرَ الكــلام؛ وإذا تأملتــه ولسَنَــه، وكيــف يَجُــرُّ في البلاغــة رسنــه؛ قلــت عبــد الحميــد في أوانــه، والجاحــظ في زمانــه. والعجــب منــه أنــه كــان يدعــو قريحتــه إلى مــا شــاء مــن نثــره ونظمــه في بديهتــه ورويَّتِــه؛ فيقــود الكــلام كمــا يريــد مــن غيــر اقتنــاء للكتــب، ولا اعتنــاء بالطلــب، ولا رســوخ في الأدب؛ فإنــه لــم يوجــد لــه رحمــه اللــه ــ فيمــا بلغــني ــ بعــد موتــه؛ كتــاب يستعيــن بــه عــلى**

أشجـــع الغطفانيـــة العربيـــة. هـــذا ويعتبـــر النقـــاد القدمـــاء أحمـــد بـــن شهَيْـــد في صـــف أهـــم الأدبـــاء الأفـــذاذ الذيـــن أنجبتهـــم بـــلاد الأندلـــس في وقتـــه؛ إذ كـــان يتميـــز بسهولـــة عجيبـــة في التعبيـــر؛ ســـواء كـــان ذلـــك شعـــرا أم نثـــرا. فهـــو بذلـــك شاعـــر وناثـــر في الوقـــت ذاتـــه.[1] ومـــن أشهـــر أعمالـــه الأدبيـــة رسالـــة "التوابـــع والزوابـــع"؛ الـــتي حلـــق بخيالـــه فيهـــا؛ حيـــث تخيـــل أنـــه قـــام برحلـــة إلى أرض الجـــن؛ بمساعـــدة جـــني مـــن قبيلـــة أشجـــع الجـــن. الـــتي تتطابـــق مـــع قبيلتـــه أشجـــع ذات الأصـــول الأنسيـــة. وأشـــار في تلـــك الرحلـــة إلى مـــا شاهـــده، وتكلـــم عـــن الذيـــن لقيهـــم مـــن الجـــن؛ أتبـــاع الشعـــراء الفحـــول وشياطينهـــم؛ حيـــث وتحـــاور معهـــم وقـــرأ عليهـــم شعـــره

صناعتـــه، ويشحـــذ مـــن طبعـــه إلا مـــا لا قـــدْر لـــه؛ فـــزاد ذلـــك مـــن عجائبـــه، وإعجـــاز بدائعـــه)). نفســـه، ص: 192.

[1] قـــال الحميـــدي في ترجمـــة ابـــن شهيـــد: ((مـــن العلمـــاء بالأدب ومعـــاني الشعـــر وأقســـام البلاغـــة، ولـــه حـــظ مـــن ذلـــك يسبـــق فيـــه، ولـــم يـــر لنفســـه في البلاغـــة أحـــدا يجاريـــه؛ ولـــه كتـــاب "حانـــوت عطـــار" في نحـــو مـــن ذلـــك، وسائـــر رسائلـــه وكتبـــه نافعـــة الجـــد، كثيـــرة الهـــزل؛ وشعـــره كثيـــر مشهـــور؛ وقـــد ذكـــره أبـــو محمـــد علـــي بـــن أحمـــد [بـــن حـــزم] مفتخـــرا بـــه؛ فقـــال: "ولنـــا مـــن البلغـــاء أحمـــد بـــن عبـــد الملـــك بـــن شهيـــد؛ ولـــه مـــن التصـــرف وجـــوه البلاغـــة وشعبهـــا مقـــدار ينطـــق فيـــه بلســـان مُركـــَّب مـــن لســـاني: عمـــرو [بـــن بحـــر الجاحـــظ] وسهـــل [بـــن هـــارون]... قـــال لنـــا أبـــو محمـــد علـــي بـــن احمـــد [بـــن حـــزم] تـــوفي أبـــو عامـــر ابـــن شهيـــد ضـــحى يـــوم الجمعـــة آخـــر يـــوم مـــن جمـــادى الأولى، سنـــة ســـت وعشريـــن أربعمائـــة بقرطبـــة؛ ودفـــن يـــوم السبـــت ثـــاني يـــوم وفتـــه في مقبـــرة أم سلمـــة؛ وصـــلى عليـــه جهـــور بـــن محمـــد بـــن جهـــور أبـــو الحـــزم. وكـــان حيـــن وفاتـــه حامـــل لـــواء الشعـــر والبلاغـــة؛ لـــم يخلـــف لنفســـه نظيـــر في هذيـــن الهلميـــن جملـــة؛ ومولـــده سنـــة اثنتيـــن وثمانين وثلاثمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 133 ــ 136.

فأجـــازوه. وهـــذه الرسالـــة ــ كمـــا هـــو ظاهـــر ــ سبـــق بهـــا غيـــره مـــن المبدعيـــن العـــرب وغيـــر العـــرب؛ إذ كتبهـــا قبـــل أن يكتـــب: أبـــو العـــلاء المعـــري العـــربي رسالـــة الغفـــران، وقبـــل أن يكتـــب آليـــاري دانـــتي الإيطـــالي قصتـــه الكوميديـــا الإلهيـــة، أو جـــون ميلتـــون الأنجليـــزي الفردوس المفقـــود.

هـــذا وقـــد عـــاش أبـــو عامـــر أحمـــد بـــن شهيـــد في أدق فتـــرة عرفتهـــا بـــلاد الأندلـــس؛ كمـــا أنـــه انغمـــس في الصراعـــات الـــتي دارت ــ آنئـــذ ــ بيـــن الطوائـــف المختلفـــة ــ أيـــام الفتنـــة الكبـــرى الـــتي اجتاحـــت تلـــك الديـــار ــ وقضـــت عـــلى مؤسســـات الخلافـــة الأمويـــة نهائيـــا. وقـــد كـــان في عـــداد الأدبـــاء الذيـــن عايشـــوا الفتـــرة الزمنيـــة الـــتي أظلـــت الدولـــة الحموديـــة ســـواء كـــان ذلـــك في قرطبـــة؛ أو في مالقـــة؛ تلـــك المدينـــة الـــتي هاجـــر إليهـــا ابـــن شهيـــد مـــع بعـــض أعيـــان قرطبـــة ــ لبعـــض الوقـــت ــ بعـــد أن ازداد الوضـــع تعفنـــا في قرطبـــة؛ بسبـــب مـــا أبـــداه بقايـــا الخلفـــاء الأمويـــون مـــن سلـــوك ســـيئ. وعليـــه فقـــد ذهـــب أولئـــك الأعيـــان ــ وفيهـــم ابـــن شهيـــد ــ إلى مالقـــة مستنجديـــن بيحـــيى بـــن حمـــود؛ طالبيـــن منـــه العـــودة إلى قرطبـــة.[1]

---

[1] لكامـــل في التاريـــخ، ج: 7، ص ص: 287 ـــ 288. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص ص: 134 ــ 136. ودولـــة الإســـلام في الأندلـــس، ق: 2، ص ص: 666 ــ 667.

ويبدو أنه لم يتول مهام وزارية في بلاط بني حمود؛ وإن كان من الذين يترددون عليه. ولم يكن ابن شهيد – حسبما تشير إليه بعض النصوص – من المقربين المحبوبين إلى حاشية الخلفاء من بني حمود؛ بل يبدو أنه تعرض – أحيانا – إلى بعض المضايقات من تلك الحاشية[1].

---

[1] وقد نقل المقري عن صاحب المطمح نصا يشير إلى ذلك الجفاء والإقصاء جاء فيه: ((ودبَّت إلى أبي عامر ابن شُهَيد أيَّام العلويين عَقارِب؛ برئت بها منه أباعد وأقارب؛ واجهه بها صَرْفُ قطوب؛ وانبرت إليه منها خطوب؛ نبَا لها جَنْبه عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجعٍ؛ إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله؛ فأقام مرتهناً، ولقي وَهَناً؛ وقال:

قرِيبٌ بِمُحْتلِّ الهَوَانِ مَجيدُ
يَجُودُ وَيَشْكو حُزنهُ فيُجيدُ
نعَى صَبْرَهُ عِندَ الإمَامِ فَيا لهُ
عَدُوٌّ لأبناءِ الكِرَامِ حَسُودُ
وَمَا ضَرَّهُ إلاَّ مِزَاحٌ ورِقة
ثنته سَفِيهَ الذِّكرِ وَهوَ رَشِيدُ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبةِ المُلكِ غَيرُهُ
وَطوِّقَ مِنهُ بِالعَظِيمَةِ جيدُ
وَمَا فِيَّ إلاَّ الشِّعر أثبَتهُ الهَوَى
فَسَارَ بهِ فِي العَالَمِينَ فرِيدُ
أفوهُ بمَا لمْ آته مُتعَرِّضاً
لِحُسْنِ المَعَانِي تارَةً فأزِيدُ
فإنْ طالَ ذِكرِي بِالمُجُونِ فإنهَا
عَظائمُ لمْ يَصْبرْ لهُنَّ جَلِيدُ
وَهَلْ كنتُ فِي العُشَّاقِ أوَّلَ عَاقلٍ
هَوَتْ بِحجَاهُ أعْيُنٌ وَخدُودُ

فــراقٌ وَشَجْــوٌ وَاشْتِيَــاقٌ وَذِلــــة
وَجَبَّــــارُ حُفـــاظٍ عَــلَيَّ عَتِيـــــدُ
فَمَــنْ يُبْلِــغُ الفِتيَــانَ أنِّيَ بَعْدَهُــــمْ
مُقِيــــمٌ بــدَارِ الظَّالمِيـــنَ وَحِيــــدُ
مُقِيــمٌ بــدَارٍ سَاكِنوهَــا مِــنَ الأذَى
قِيَــامٌ عَــلَى جَمْــرِ الحِمَــامِ قعــودُ
وَيسْمَــــعُ لِلْجَنــــانِ فِي جَنَباتهَـــا
بَسِيــطٌ كترْجيــعِ الصَّــدَى وَنشِيــدُ
وَلسْــتُ بــذِي قيْــدٍ يَــرِنُّ، وَإنمَــا
عَلَى اللحْــظِ مِنْ سُخطِ الإمَــامِ قيُــودُ
وَقلــتُ لِصَــدَّاحِ الحَمَــامِ وَقــدْ بَــكَى
عَلَى القصْــرِ إلفــاً وَالدُّمــوعُ تَجُــودُ
ألاَ أيُّهَــا البَــاكِي عَــلَى مَــنْ تُحِبــهُ
كِلاَنَـــا مُعَــنًّى بِالخَـــلاَءِ فرِيــــدُ
وَهَلْ أنــتَ دَانٍ مِنْ مُحِــبٍّ نَــأى بــهِ
عَــنِ الإلــفِ سُلطَــانٌ عَليــهِ شدِيــدُ
فَصَفقَ مِنْ رِيــشِ الجَنَاحَيــنِ وَاقِعــاً
عَلَى القَــرْبِ حَــتَّى مَا عَلَيــهِ مَزِيــدُ
وَمَـــا زَالَ يُبْكِيـــنِي وَأبْكِيـــهِ جَاهِــداً
وَللشَّــوق مِنْ دُونِ الضُّلُــوعِ وَقُــودُ
إلى أنْ بَكَى الجُدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجْونَــا
وَأجْهَــــشَ بَـــابٌ جَانِبَــــاهُ حَدِيــــدُ
أطَاعــتْ أمِيــرَ المُؤمِنِيــنَ كتائِــبٌ
تصَــرَّفُ فِي الأمْــوَالِ كيْــفَ ترِيــدُ
فلِلشَّمْــسِ عَنهــا بِالنَّهــارِ تأخُــــرٌ
وَلِلبَــدْرِ شِحْنــاً بِالظــلاَمِ صُــــدُود
ألاَ إنهَــا الأيــــامُ تلعَــــبُ بِالفــتَى
نُحــوسٌ تهَــادَى تــارَةً وَسُعــــودُ

مع ذلك فقد اختار اللجوء إلى مالقة، وفضل رعاية يحيى بن علي بن حمود؛ عندما ضاق به الحال في قرطبة؛ بسبب ما وصل إليه الوضع في تلك المدينة من فساد وتعفن بعد خروج بني حمود منها. لذا فقد قال هذه القصيدة لما أزمع الخروج إلى مالقة:

أرَى أعْيُناً ترنو إلَيَّ كأنمَا
تسَاوِرُ مِنها جَانبَيَّ أرَاقمُ
أدُورُ فلاَ أعْتامُ غيْرَ مُحَارِبٍ
وَأسْعَى فلاَ ألقَى امْرُءاً لِي مُسَالمُ
وَيَجْلبُ لِي فَهمِي ضرُوباً مِنَ الأذَى
وَأشْقَى امْرُئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالمُ
وَأوْجَعُ مَظلومٍ لِقلبٍ وَذِي حِجىً
فتىً عَربِيٌّ تزْدَرِيهِ أعَاجمُ

وَمَا كنتُ ذا أيدٍ فَأذعن ذا قوًى
مِنَ الدَّهرِ مُبدٍ صرْفهُ وَمُعِيدُ
وَرَاضَتْ صِعابِي سَطوَةٌ علوِيةٍ
لهَا بَارِقٌ نحْوَ الندَى وَرُعودُ
تقولُ التِي مِنْ بَيْتِهَا كفَّ مَركَبِي
أقرْبكَ دَانٍ أمْ مَدَاكَ بَعِيدُ
فقلتُ لَهَا أمْرِي إلى مَنْ سَمَتْ بهِ
إلَى المَجدِ آبَاءٌ لهُ وَجدُودُ

غَنَيْتمُ عَلى مَا تزْعُمُونَ عَنِ الوَرَى

لقدْ سَفِهَــتْ تِلكَ الحُلــومُ الزَّوَاعِــمُ

وَهَلْ يُقْدِمُ البَازِي عَلى الطَّيْر فِي الضُّحَى

إذا زَالَ عَنْ رِيشِ الجَناحِ القــوَادِمُ

سَــلاَمٌ عَليكــمْ لاَ تَحِيَّــةَ شَاكِــرٍ

ولَكِنْ شَــجىً تنْسَــدُّ مِنهُ الحَلاَقــمُ

وَمَا قرِعَتْ سِــنِّي عَليْكــمْ ندَامَــةً

وَأوشكْ غــداً أنْ يَقرَعَ السِّن نــادِمُ

عَلَيكمْ بــدَارِي فاهْدِمُو هَــا دَعَائِمــا

ففِي الأرْضِ بَنــاءُونَ لِي وَدَعَائــمُ

لئِنْ اخْرَجَتنِي عَنكم شَــرَّ عُصْبَــةٍ

ففِي الأرْضِ إخــوَانٌ عَلَيَّ أكــارِمُ

وَإنْ هَضَمَتْ حَــقِّي أمَيَّــةُ عِندَهَــا

فَهَاتــا عَلى ظَهرِ المَحَبــةِ هَاشِــمُ

وَلاَ غــرْوَ مِنْ تِلكَ القلاَنسِ جَاليــا

إذا عَرَفتْ حَــقِّي هُنــاكَ العَمَائــمُ

وقـــال في وصـــف نحلـــة:

وَطائـِــرَةٍ تهــوِي كـــأنَّ جَناحَهَـــا
ضَمِيـــرٌ خـــفِيٌّ لاَ يُحَـــدِّدُهُ وَهـــمُ
مُلاَزِمَـــةٍ لِلــــرَّوْضِ حَتَّى كأنهَـــا
لَهَا كلٌّ مَا تفترٌّ عَنهُ الرُّبَى طَعْـــمُ
تَمُجُّ بِفيهَا الشَّهْدَ صِرفاً وَيَخْتَـــفِي
لِمُشْتـــارِهِ مَا بَيْنَ أحْشَائِهَـــا سَهـــمُ
مُنافِـــرَةٍ لِلإنـــسِ تأنـــسُ بِالفـــلاَ
مُفرِّقةٍ لِلشَّهْدِ، مِنْ بَعْضِهَـــا السُّـــمٌّ
فإدناؤُها رُشـــدٌ وَهَتـــكُ حِجَابهَـــا
إذا احتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أيامِهَا ظلـــمُ

وقـــال في وصـــف برغـــوث:

وَمُنفـــرٍ للنـــــوْمِ مَسْكنـــــهُ إذَا
نـــامَ المُمَلـــكُ بَيْنَ أثنـــاءِ الثيَـــابْ
يَسْرِي إلَى الأجْسَامِ يَهْتِـــكُ عَـــدْوُهُ
عَنْ كل جِسْمٍ صِيغَ بِالنُّعْمَى حِجَابْ
وَيَعُـــضٌّ أرْدَافَ الحِسَـــانِ وَمَالـــهُ
كفٌّ وَلَكِنْ فوهُ مِنْ أعْدَى الحِـــرَابْ

مُتَحَكَــمٌ فِي كــلِّ جِسْــمٍ ناعِــمٍ

مُتدَلــلٌ مَا بَيْــنَ أَلْحَــاظِ الكِعَــابْ

فــإِذَا هَمَمْــتَ بزَجْــرِهِ وَلَّى وَلاَ

يُثْنِيــهِ عَمَّــا قــدْ تَعَــوَّدَهُ طِــلاَبْ

وَتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّــهِ مَخضُوبَــةً

بدَمِ القلــُوبِ وَمَا تَعاوَرَهُ خِضَــابْ

قــرْمٌ مِنَ الليْــلِ البَهيــمِ مُكــوَّرٌ

يَمْــشِي البَــرَازَ وَمَا توَارِيهِ ثِيَــابْ

عَظمَــتْ رَزِيَّتــهُ وَلكِــنْ قــدْرُهُ

أَخزَى وَأَهوَن مِنْ ذبَابٍ فِي تــرَابْ

ومــن روائــع مــا كتبــه نثــرا في وصــف برغــوث قولــه: **((أَســودُ زنــجيٌّ، وأهــليٌّ وحــشيٌّ، ليــس بــوانٍ ولا زُمَّيْــل، كأنــه جــزء لا يتجــزأ مــن لَيــل، وشُونيزة،[1] وَثْبَتُهَــا غريــزة، أو نقطــة مــداد، أو سويــداء قلــب فــؤاد، شربــه عــبٌّ، ومَشْيــهُ وَثْــبٌ، يكمُــنُ نهــاره، ويَسْــري ليلــه، يــدرك بطعــن مؤلــم، ويستحــلُّ دم كــل مسلــم، مســاور للأســاوِرَة، يجــرُّ ذيلــه علــى الجبابــرة يتكفــر بأرفــع الثيــاب، ويَهْتِــكُ سِتــرَ كــل حجــاب، ولا يَحْفِــلُ ببــوَّاب، يــرد مناهــل العيــش العَذبَــة، ويصــل إلى**

[1] الشُّونِيــزَة هي الحبــة الســوداء، وتسميهــا العامــة في الجزائــر سَيْنُوجَــة.

الأحراج الرطبة، لا يُمْنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيْرَةُ غَيور، شَرُّهُ مبثوث، وعهده منكوث، وهكذا كل بُرْغوث)).[1]

ويبدو أنه كان يخوض صراعا ساخنا ضد مجموعة من أدباء وعلماء قرطبة؛ إذ كانت بينهم منافسة شديدة؛ تجلت في بعض المناقضات والمعارضات التي كانوا يشنونها ضد بعضهم بعضا. ولم ينج من هذا الصراع حتى من ولي منهم مناصب عليا في الدولة[2].

---

[1] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 83.

[2] وهذا خبر نقل عن ابن شهيد يتعرض للأديب الكاتب ابن عباس الذي كان يتولى وزارة الفتى زُهير الصقلبي؛ جاء فيه: ((لما قدم زهير الصقلبي إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر بن عباس إلى لـُمَّة من أصحابنا منهم: ابن بُرْد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني؛ فحضروا إليه؛ فسألهم عني وقال: "وجِّهُوا إليه"؛ فوافاني رسوله مع دابة بسَرْج مُحَلَّى ثقيل؛ فسرت إليه، ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب؛ تحفز المجلس لدخولي، وقاموا جميعا لي؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحبَه قبله، وهو يترنم؛ فسلمت عليه سلامِ من يعرف قدر الرجال، فرد رداً لطيفا؛ فعلمت أن في أنفه نُعرة لا تخرج إلاّ بسعط الكلام، ولا ترام إلا بمستحصد النظام؛ ورأيت أصحابي يُصِيخون إلى ترنمه. فقال لي ابن الحناط؛ وكان كثير الإنحاء عليّ، جالبا في المحافل ما يسوء إِلَيَّ: "إن الوزير حضره قسيم، وهو يسألنا إجازته"؛ فعلمت أنِّي المراد؛ فاستنشدته، فأنشد:

مَرَضُ الجُفونِ وَلَثْغة فِي المَنطِق

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم؛ فما المراد غيري؛ ثم أخذت الدواة فكتبت:

سَبَبان جرًا عِشْقَ مَنْ لمْ يَعْشق

مَنْ لي بألثغَ لاَ يَزَالُ حَدِيثُهُ

يذكِي عَلَى الأحْشَاءِ جَمرَةَ مُحرق

ينبِي فَينبو فِي الكلاَمِ لِسَانُهُ

فكأنهُ مِنْ خمرِ عَينيهِ سُقِي

وكتب ابن شهيد إلى الكاتب الأديب أبي بكر محمد بن قاسم المعروف باشكمياط أو (أشكنهاط) رسالة قال فيها منتقدا إياه: ((**ما أغيرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر؛ لو إليكَ كانِ العلم، أو بكفك كانِ الفهم؛ لم تترك لأرض أعلاماً، ولا لغيرك إنعاماً؛ أحَشا عند رِعدتك؟!**[1] **عرضت عليك الدُّرَّ منظوماً؛ فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت؛ وما أحس ما أطلعت لو ابتدعت. معرّضا بالتقَصُّص،**[2] **ومشيراً إلى التلصُّص؛ هيهات ! لا يزيد الحزّ من الغرَب** [الذهب والفضة]، **ولا يضيءُ السليط في القصب** [أي أنابيب

لاَ ينعِشُ الألفاظَ مِنْ عَثَرَاتِها
وَلوَانَّها كتِبتْ لهُ فِي مهرَق

ثم قمت عنهم؛ فلم ألبث أن وَرَدُوا علَيَّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرضَ بما جئت به من البديهة، وسألوني أن أحمل مَكاويَ الهجاء على حتاره [أي تحريفه]؛ فقلت:

أبو جَعفرٍ كاتِبٌ مُحسِنٌ
مَلِيحُ سنا الخطِّ حلوُ الخطابة
تملأ شحماً ولَحماً وَما
يليقُ تملؤُهُ بِالكِتابة
لهُ عرَقٌ ليسَ ماءَ الحياءِ
وَلَكِنهُ رَشحُ ماءِ الجنابة
جرَى المَاءُ فِي سُفلِهِ جرْيَ لين
فأحدَثَ فِي العلوِ مِنهُ صَلاَبة)).

نفح الطيب، ج: 3، ص ص: 610-611.

[1] **أي هل يصح الحش (ترييش السهم استعدادا للرمي) مع رعدة تنتاب الرامي.**

[2] **أي الولوع في تتبع معاني الآخرين.**

مـــن الجوهـــر][1] **لأقطعـــنَّ حبالـــك هاجـــراً، ولأتركـــن ليلـــك ساهـــراً))**.[2]

ومـــن النصـــوص الـــتي يعـــارض فيهـــا ابـــن شهيـــد بعـــض الكتـــاب المحافظيـــن، المتشبثيـــن بالأساليـــب القديمـــة للبيـــان قولـــه: **((وإصابـــةُ البيـــان لا يقـــومُ بهـــا حفـــظُ كثيـــر مـــن الغريـــب، واستيفـــاءُ مسائـــلِ النحـــو؛ وإنمـــا يقـــوم بهـــا الطبـــع مـــع وَزْنِـــه مـــن هذيـــن: النحـــو والغريـــب. ومقـــدارُ طبـــعِ الإنســـان إنمـــا يكـــونُ عـــلى مقـــدار تركيـــب نفســـه مـــع جسمـــه؛ فمـــن كانـــت نفســـه في أصـــلِ تركيبـــه مستوليـــةً عـــلى جسمـــه؛ كـــان مطبوعـــاً روحانيـــاً؛ يـــطْلـــع صُـــوَرَ الكـــلام والمعـــاني في أجمـــلِ هيئاتهـــا، وأروَقِ لبساتهـــا؛ ومـــن كـــان جسمـــه مستوليـــاً عـــلى نفســـه ـ مـــن أصـــل تركيبـــه ـ والغالـــبَ عـــلى حسّـــه؛ كـــان مـــا يطلـــعُ مـــن تلـــك الصـــور ناقصـــاً عـــن الدَّرجـــة الأولى في الكمـــال والتمـــام، وحُسْـــنِ الرَّونـــق والنظـــام. فمـــن كانـــت نفسُـــه المستوليـــة عـــلى جسمـــه فقـــد تـــأتي منـــه في حســـن النظـــام صُـــوَرٌ رائقـــة مـــن الكـــلام؛ تمـــلأ القلـــوب، وتشعـــف النفـــوس. فـــإذ فتشـــت لحسنهـــا أصـــلا لـــم تجـــده، ولجمـــال تركيبهـــا أســـا لم تعرفـــه؛ وهـــذا هـــو الغريـــب؛ أن يتركـــب الحســـن مـــن غيـــر حســـن؛ كقـــول امـــرئ القيـــس:**

---

[1] أي أن الذهـــب والفضـــة لا يصلحـــان للسهـــام؛ ولـــن يزيـــد الحـــز مـــن قيمتهمـــا لـــكي يصيـــرا سهامـــا؛ كمـــا لا يـــضيء السليـــط في قناديـــل مـــن أنابيـــب الجوهـــر؛ بينمـــا يـــضيء في قناديـــل بسيطـــة.

[2] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 230 ـــ 231.

تنوَّرتُهَـا مِنْ أذرُعـاتٍ وَأهـلـهَـا
بيَثْـرِبَ أدنَى دَارِهـَا نظـرٌ عـَالِي

فـإن هـذه الديباجـة إذا تطلبـت لهـا أصـلاً مـن غريـب معـنىً لـم تجـده. وكقـول أبي نـواس:

طرَحتـمْ مِـنَ الترْحـالِ ذِكـراً، فَغمنـا،
فَلوْ قدْ شَخَصتْمْ صبَّحَ الموْتُ بَعْضَنَـا

ثـم قولـه:

سَأشْكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْـيَى بْنِ خَالـدٍ
هَـوَاكِ، لَعلَّ الفضْـلَ يَجْمَـعُ بَيننـا

فهـذا مـن الكـلام الغـثِّ، واللفـظِ الـرَّثِّ؛ الـَّذي لـو رامـه حِمـار الكـُسـاح لأدركـه؛ ولكـن لـه مـن التعلـقِ بالنفـسِ، والاستيـلاء عـلى القلـب مـا تـرى)).[1]

ولمزيـد مـن الفائـدة نثبـت هنـا هـذه المقاطـع مـن رسائـل أدبيـة، نقديـة رائعـة كتبهـا ابـن شهيـد؛ جـاء فيهـا: **((وكمـا أن لكـل مَقـامٍ مَقـالاً؛ فكذلـك لكـل عصـر بيـان، ولكـلِّ دَهـرٍ كـلام، ولكـلّ طائفـةٍ مـن الأمـم المتعاقبـة نـوعٌ مـنَ الخطابـة، وضـربٌ مـن البلاغـة؛ لا يوافقُهـا غيـرُه ولا تَهـشَّ لسـواه. وكمـا أن للدنيـا دولاً؛ فكذلـك للكـلام نقـلٌ وتَغَايـرٌ في العـادة. ألا تـرى أنَّ**

[1] **الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 231 ــ 232.**

الزَّمــان لمــا دار كيــف أحــال بعــضَ الرَّســمِ الأولِ في هــذا الفــنِّ إلى طريقــة عبــد الحميــد وابــن المقفــع وسهــل بــن هــارون وغيرهــم مــن أهــل البيــان؟ فالصنعــة معهــم أفسَــحُ باعــاً، وأشــدُّ ذراعــاً، وأنــوَرُ شُعاعــاً؛ لرُجْحــان تلــك العقــول، واتســاع تلــك القرائــح في العلــوم. ثــم دار الزمــانُ دَوَرَانــاً؛ فكانــت إحالــةٌ أخــرى إلى طريقــة إبراهيــم بــن العبــاس ومحمــد بــن الزَّيــَّات وابــني وهــبٍ ونظرائهــم؛ فرقــت الطِّبــاعُ، وخــف ثقــلُ النفــوس. ثــم دارَ الزمــانُ فاعتــرى أهلــه بالطائــف صلَــفٌ، وبرِقــةِ الكــلامِ كلــفٌ؛ فكانــت إحالــة أخــرى إلى طريقــة البديــع وشمــس المعــالي وأصحابهمــا. وكذلــك الشعــراءُ انتقلــوا عــن العــادة في الصنعــةِ بانتقــال الزمــانِ؛ وطلــبَ كــلُّ ذي عصــرٍ مــا يجــوز فيــه، وتَهــشُّ لــه قلــوبُ أهلــهِ؛ فكــان مــن صريــعِ الغــواني وبَشــارٍ وأبي نــواسٍ وأصحابهــم في البديــع مــا كــان؛ مــن استعمــال أفانينــهِ والزيــادة في تفريــع فنونــهِ.

ثــم جــاء أبــو تمــامٍ فأســرف في التجنيــس، وخــرج عــن العــادة؛ وطــابَ ذلــك منــه، وامتثلــه النــاس؛ فكــل شِعــرٍ لا يكــونُ اليــوم تجنيســاً أو مــا يُشبهــه تَمُجــه الآذانُ؛ والتوسُّــطُ في الأمــرِ أعــدلُ؛ لأنــه لَبــسَ ديباجــة المُحدثيــن عــلى لأمــةِ العــرب؛ فتركَــبَ لــه مــن الحُسْــنِ بينهمــا مــا تَركــب)).[1]

((وأهــل صناعــة الكــلام مُتباينــون في المنزلــة، متفاضِلــون في شَــرَفِ المرتَبــة، عــلى مقــدارِ إحسانهــم وتصرُّفِهــم. فمنهــم الــذي ينظــم الأوصــاف، ويختــرعُ المعــاني، ويحــرز جيــد اللفــظِ؛ إلاَّ أنــه يَصْعُــبُ عليــه الكــلام، ويَكــدُّ قريحتــه التأليــف؛ حــتى إنــه رُبَّمَــا قَصَّــر في الوصــف، وأســاءَ الوضــع. فهــذا في الأبيــاتِ القليلــة نافــر، وفي القريبــةِ المأخــذِ سائــر، وفي طريقــة الجمهــور الأعظــم ذاهــب؛ حــتى إذا ازدحمــت عليــه، وانحشَــدَتْ إليــه، وطالبتــه ببهــاءِ البهجــة، وشــرف المنزلــة، وقــف وأنفــلّ، وتــلاشى واضمحــل. ومنهــم الكــارعُ في بحــر الغــزارة، القــارحُ بشُعــاعِ البراعــة؛ الــذي يَمُــرُّ مَــرَّ السَّيــلِ في اندفاعــه، والشؤبُــوبِ في انصِبابــه؛ لا يشكــو الفشَــل، ولا يَكِــلُّ عــلى طــولِ العمــل؛ إذا ازدحَمَــتْ في الكــلامِ عليــه المطالــب، وعَلِقــتْ بحــواشي فكــره المــآرب، وحُشــرت عليــه الصعائــب والغرائــب؛ استقــلَّ بهــا كاهلــه، واضطلــع بثقلهــا غاربــهُ، وأعارَهــا مــن نظــرِه لَمْحــة، ومــن فِكْــره

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 237 ــ 238.

قدْحَـــة، ثـــمِ رمى بهـــا عـــن جانبيـــهِ؛ قـــد رَوِيَـــتْ بمائهـــا، ولبســـت شُعـــاع بهائهـــا؛ وبـــقي كاللقـــوَةِ في المَرْقـــب؛ ســـامٍ نظـــرُه، قـــد ضـــمَّ جناحَيْـــه، ووقـــفَ عـــلى مخلبـــه، لا تتـــاحُ لـــه جارحـــة إلا اقتصَّهـــا، ولا تنَازلـــه طائـــرة إلاَّ اختَطفهـــا؛ جُرْأتـــه كشَفرتـــه، وبديهتـــه كفكرتـــه؛ فذلـــك الألســـن يـــومَ حـــربِ الكـــلام، لا تُخـــطْئُ ضربتـــُه، ولا تُصـــابُ غرَّتـــُه. ومنهـــم مـــن يتجـــافَى الكـــلام، ويـــرغ عـــن المقـــال؛ فـــإذا مُـــني بـــه، أخـــذ بأطـــرافِ المحاســـنِ، وشـــارَك في أنحـــاءٍ مـــن الصنعـــة؛ وجُـــلّ مـــا عنـــده تلفيـــقٌ وحيلـــة؛ وبذلـــك يُصاحِـــبُ الأيـــَّام، ويُجـــاري أبنـــاء الزَّمـــان؛ مـــا كـــان لـــه عقـــل يغـــطي عـــلى نقصانِـــه، سياســـة يَسُـــوسُ بهـــا فُحـــولَ زمانِـــه. ومـــن خـــرج عـــن هـــذه الطبقـــات الثـــلاث لـــم يستحـــق اســـم البيـــان، ولا يدخـــلُ في أهـــلِ صناعـــة الكـــلام)).[1]

((وقـــومٌ مِـــن المعلميـــن بقُرْطُبتِنـــَا ممـــن أتى عـــلى أجـــزاءٍ مـــن النحـــو، وحفِـــظَ كلمـــاتٍ مـــن اللغـــة، يحنـــونَ عـــلى أكبـــادٍ غليظـــة؛ وقلـــوبٍ كقلـــوبِ البُعـــران؛ ويَرجعـــونِ إلى فِطـــنٍ حَمِئـــةٍ، وأذهـــانٍ صَدِئـــةٍ؛ لا مَنفـــذَ لهـــا في شُعـــاعِ الرِّقـــةِ، ولا مَـــدَبَّ لهـــا في أنـــوارِ البيـــان. سَقَطَـــتْ إليهـــم كتـــبٌ في البديـــعِ والنقـــدِ فَهِمُـــوا منهـــا مـــا يفهمـــه القـــرد اليمـــاني مـــن الرَّقـــص عـــلى الإيقـــاع، والزَّمْـــر عـــلى الألحـــان؛ فهـــم يُصرِّفـــون غَرَائبَهـــا فيمـــا يَجـــري عندهـــم تصريـــفَ مـــن لـــم يـــرزَقْ آلـــة الفهـــم،

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ، ص ص: 238 ــ 239.

ومـــن لـــم تكـــن لـــه آلـــة الصناعـــة، ممـــا هي مَخْصوصَـــة بهـــا، لا تقـــومُ تلـــك الصناعـــة إلا بتلـــك الآلـــة؛ فهـــو كالحمـــار لا يمكنـــه أن يتعلـــم صناعـــة ضـــربِ العـــود والطنبـــورِ؛ لتوتـــدِ رُسغـــه، واستـــدارة حافـــره؛ ولا لـــه بنـــانٌ يَجـــسٌّ بـــه عـــلَى دَسْتبـــان... فهـــذه حـــالُ العصابـــةِ مـــن المعلِّميـــن: يدركـــون بالطبيعـــةِ، ويقصـــرون بالآلـــةِ. وتقصيرهـــم بالآلـــة هـــو مـــن طريـــقِ العِلـــلِ الدَّاخِلـــةِ مـــن فســـاد الآلـــةِ القابلـــةِ للروحانيـــة، والخادمـــةِ لآلاتِ الفهـــم، الباعثـــة لرقيـــق الـــدَّم في الشّرْيانـــات إلى القلـــبِ؛ وزيـــادةِ غِلـــظِ أعصـــاب الدّمـــاغِ ونُقصانِهـــا عـــن المقـــدار الطبيـــعي. يُعِيـــنُ عـــلى ذلـــك بالحَـــدْسِ وطريـــقِ الفِراســـة فســـادُ الآلـــةِ الظاهـــرةِ؛ كفرطحـــةِ الـــرأس وتسفيطـــه، ونتـــوءِ القَمَحـــدُوَةِ، والتِـــواءِ الشَّـــدْق، وخـــزَرِ العيـــن، وغِلـــظِ الأنـــفِ، وانـــزواءِ الأرنَبـــة...

وليس العجبُ في هذه العصابةِ إلا من أبي القاسم[1] فإنَّه زاد عليهم في الصناعة، وبَزَّهم بِوُفُورِ

---

[1] وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي؛ قال فيه الحميدي: ((وكان متصدراً في علم الأدب يُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه؛ وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما؛ وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي)). جذوة المقتبس، ص: 151. وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي... قد بذ أهل زمانه بقرطبة؛ في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة؛ في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، والمشاركة في بعض معانيها. وكان غيورا على ما يَحْمِل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه، وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه، وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه. وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة؛ ومضى الناس من حائن وظاعن؛ فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 281 ــ 282. أما صاحب المغرب فقد أضاف: ((استكتبه المستكفي فبَرُدَ، ووقع كلامه خاليا من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين؛ فزُهِدَ فيه؛ وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي؛ ولحقته تهمة في دينه أيام هشام؛ فسجن في المطبق. وابن شهيد كثير الوقوع فيه والتندير به... قال الحجاري: "كان بارد النظم والنثر، لم يندر له من شعره إلا قوله:

صَحِبْتُ القَطِيعَ وَنَادَمْتُه ... وَأَصْبَحْتُ فِي شُرْبِهِ ذا انْقِطَاعْ
وَأَبْصَرْتُ أُنْسِي بِهِ وَحْدَهُ ... كَأُنْسِ الرَّضِيعِ بِثَدْيِ الرّضَاعْ "

قال: "وهو القائل في يحيى بن حمود:

أَنْتَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهُمُ ... يَابْنَ مَنْ مَا مِثْلُهُ بَشَرُ
فَإِذا مَا لُحْتَ بَيْنَهِمُ ... قِيلَ هَذا البَدْوُ وَالحَضَرُ"

قال: "وأنشدتهما لأحد الأدباء، فقال لي ــ عندما سمع عجز الأول ورأى ترادف الميمات ــ : هذه عُقَد ذنب العقرب؛ فلما سمع الثاني قال: سبحان من

البِضاعـةَ. دخـلَ الشعـراء فَأخَـذَ لباقَتَهـم، وصـار في جملـة الكتـاب فاستعـار صلفهـم ورشاقتهـم، وباشـرَ أهـلَ الحسـاب فاستفـاد طريقـة البراهيـن، وناظـر أهـلَ الجَـدَلِ فتعلـم القوانيـن، وعَـرَفَ عناصـرَ الكـلامِ؛ فكـل علـم يَزْعَمُـه قبـض يـده، وكـل جـدٍّ وهَـزلٍ فإليـه منسـوبٌ، وعنـهُ مأخـوذ؛ وهـو مـع مـا اجتمـع لـه مـن ذلـك كُلـهِ، وحـُبِي بـه، أشدهـم صَبابَـة [ضنانـة] بـألاَّ يكـونَ بالأندلـس مُحْسِـنٌ سـواه، ولا مجيـدٌ حاشـاه. وكـانِ الـرَّأيُ عِنـدِي لـه أن يَسْكـنَ أرْضَ جليقيـة أو قُطـراً بعـد عـن الإسـلام؛ حـتى لا يسمـعَ فيـه لخطيـب ذِكـراً، ولا يُحِـسَّ لشاعـرٍ ركـزاً؛ فيكـون هنـاك فـرْداً. ومـنَ العَجـبِ أيضـاً فِي أمَـرهِ أنَّ كـلَّ كاتـب كتـبَ للسلاطيـن عندنَـا، وكـلَّ شاعـرٍ مدحهـم، رُوِيَـتْ أَشعـارُه ورسائلـه غيـر أبي القاسـمِ وحـدَه. عـلى أنـه إنمـا جلـس للتعليـمِ عـلى هـذا المعـنى. وربمـا عـرَّضَ بـأن يُؤخَـذُ منـه شيءٌ مـن أشعـارِهِ ورسائلـه ولا يجيبـه تلميـذ؛ والمحـرومُ محـرومٌ...

أخـلى خاطـر هـذا الرجـل مـن التوفيـق، وجعلـه يخـرى عـلى فمـه")). المغـرب في حـلى المغـرب، ج: 1، ص: 73.

وهو مع هذا يسمينا الهمج الهامج، ويسمي البديعَ والصَّابئَ وشمسَ المعالي العَضَاريط. وهو أبخلُ أهلِ الأرض لا محالة. ولم يُقَصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغامَته [أي بياض رأسه].

وفي ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة أصيب ابن شهيد بداء الفالج؛ فشل حركته، وألزمه الفراش إلى أن مات. وقد أثر عليه ذلك المرض كثيرا؛ إذ طال ثقله عليه؛ وضيق عليك أنفاسه، فكره الحياة على تلك الحال المؤلمة؛ حتى راودته نفسه بالانتحار؛ ولكنه صبر على حكم الله؛ إلى أن وافته المنية سنة ست وعشرين وأربعمائة.

ـ ثم أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّعيني المعروف بابن الحناط الكفيف: سمي بابن الحناط لأن أباه كان يبيع الحِنْطة بقرطبة. وينتسب هذا الأديب إلى قبيلة ذي رُعَيْن الحميرية العربية. هذا وقد ولد ضعيف البصر أعشى؛ وعلى الرغم من علته تلك؛ فقد تمكن من تعلم القراءة، والتفوق في تحصيل علوم شتى. ولم يفتّ في عضده انطفاء بصره بالكامل بعد فترة من الزمن؛ إذ واصل الجدّ والاجتهاد في استيعاب العلوم بمختلف فنونها. ويعتبر ابن الحناط من شعراء وأدباء الأندلس الفحول في زمنه.

وقد كانت له صولات وجولات في مواجهة ابن شهيد؛ ويبدو أنه تفوق عليه في بعض المرات.[1] ويقول صاحب المسهب أن بني ذكوان هم الذين أعانوه في حياته؛ إذ كفوه مئونة الدهر؛ وضمنوا له فرصة التفرغ للعلم. وتقول بعض المصادر أنه كان يغلب عليه الاشتغال بعلم

---

[1] قال ابن بسام: ((وأبو عبد الله بن الحناط هذا زعيم من زعماء العصر ـ كان ـ ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام، وغمرة علم سالت بأعلام الأنام؛ فكم له من وقذة [أي ضربة] لا يبرأ أميمها [أي جرحها]، ونكزة لا يسلم سليمها. وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه، وانحياشه ـ كان ـ إلى جانبه؛ مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء، وأخذت عليه بفروج الهواء... وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال: "وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي؛ بقية الأدباء النحارير في الشعر؛ هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم. وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة؛ فاجتثَّ أصله. وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية؛ من رجل موهَّنٍ في دينه، مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أحواله، ولد أعشى الحملاقة، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقرأ كثيرا في حال عشاه، ثم طفئَ نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك، فأنجح علاجا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الإستنباط؛ وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة، فاعترف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة")). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 437 ـ 438.

المنطــق؛ الأمــر الــذي وضعــه ــ آنئــذ ــ موضــع اتهــام في دينـــه.[1]

وهــذه بعــض العينــات مــن قصائــد ابــن الحنــاط بالإضافــة إلى نصــوص مــن نثــره؛ حفظتهــا كتــب التــراث الأندلــسي. بــدءا بمقطــع مــن رسالــة بعــث بهــا إلى الوزيــر أبي العبــاس ابــن ذكــوان قــال فيهــا: **((الإسهــاب كلفــة، والإيجــازُ حكمــة، وخواطــر الألبــاب سهــام؛ يصــابُ بهــا أغــراضُ الكــلام؛ وأخونــا أبــو عامــر** [ابــن شهيــد] **يسهــبُ نثــراً، ويطــوّل نظمــاً؛ شامخــاً بأنفــه، ثانيــاً مــن عطفــه، متخيــلاً أنــه قــد أحــرز السبــاق في الأدب، وأوتي فصــل الخطــاب. فهــو يستقصــرُ أساتيــذَ الأدبــاء، ويستجهــلُ شيــوخ العلمــاء... في ليلــةٍ بتهــا، والكــفُّ الخضيــبُ سوارُهــا البــدر، والشعــرى العبــورُ وشاحهــا النســر،؛ وكأنمــا سماؤهــا روضــة تفتحــتِ النجــوم وسطهــا زَهــراً، وتفَجَّــرَتِ المجــرَّة خلالهــا نهــراً؛ وادٍ يسيــل بعسجــد عــلى رضــراض زبرجــد. فلمــا أصبــت الغِــرَّة، وأقصــدت الثغــرة؛ تقلبــت عــراراً، وتناومــت غــراراً؛ حــتى أنبهــني الفجــر ببــرده، وسَرْبَلــني الصبــاح بــبُــرْده، وهببــت مــنَ النومــة، وصحــوت مــن النــشْــوةِ، فَزففتهــا إليــك بنــتَ ليلتهــا عــذراء، وجلوتهــا عليــك كريمــة فكرتهــا حسنــاء، تتلفــع بحبــرةِ حبــر، وتتبختــر في شعــار شعــر، مؤتلفٌ بيــن رَقّهــا ومدادهــا، ومجتمــع في بياضهــا وسوادهــا...**

---

[1] المغــرب، ج: 1، ص: 121.

وتخـــال القلــمَ رقَّ لمـــا بـــه فبــكى؛ فأنشدْهـــا أخـــاكَ الشهيــدي [أي ابـــن شهيـــد]، **وكلفـــه على العـــروض والقافيـــة مُعارضَتَهـــا، وحمِّلْـــه عـــلى الليـــنِ والشـــدة مُـــقارضتهـــا، فستوقـــد بقلبـــه قبَســـاً، وتـــضْـــربَ في أذنِـــهِ جرَســـاً؛ فيتَبيَّـــن بـــه حَظـّــه، ويعـــرف لغيـــره فضلـــه)).**[1]

ويبـــدو أنـــه كـــان بيـــن ابـــن الحنـــاط وابـــن شُهيـــد منافســـة حثيثـــة وبريئـــة؛ لـــم تمنعهمـــا مـــن إظهـــار التقديـــر والاحتـــرام لبعضهمـــا بعضـــا؛ ويتجـــلى ذلـــك مـــن خـــلال تصرفاتهـــا الواضحـــة، ومـــن خـــلال مـــا ينظمانـــه مـــن مقاطـــع شعريـــة يتبـــادلان فيهـــا المديـــح[2].

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 439 ـــ 440.

[2] وقـــد نقـــل الحميـــد بعـــض الأبيـــات الـــتي تؤيـــد هـــذا؛ مثـــل: ((فأخبـــرني الرئيـــس أبـــو الحســـن عبـــد الرحمـــن بـــن راشـــد الراشـــدي قـــال: "لمـــا نعيـــت أبـــا عامـــر بـــن شُهيـــد إلى أبي عبـــد اللـــه بـــن الحنـــاط ــ وقـــد عرفـــت مـــا كـــان بينهمـــا مـــن المنافســـة ــ بـــكى، وأنشـــدني لنفســـه بديهـــة:

لَمَّـــا نـــعَى النـــاعِي أبا عَامِـــرٍ
أيقنـــتُ أنِّي لسْـــتُ بِالصَّابـــــرِ
أوْدَى فتَى الظرفِ وَتَبُ النـــدَى
وَسَيِّـــــدُ الأوَّلِ وَالآخـــــــرِ"

ولابـــن الحنـــاط مـــن كلمـــة طويلـــة في مـــدح أبي عامـــر بـــن شهيـــد أولهـــا:

أمَّا الفـــرَاقُ فـــلِي فِي يَوْمِـــهِ فـــرَقُ
وَقـــدْ أرِقـــتُ لـــهُ لـــوْ يَنفـــعُ الأرَقُ
أظْعَانُهمْ سَابَقتْ عَيْـــنِي التِي انهَمَلـــتْ
أم الدُّمُـــوعُ مَـــعَ الأظعَـــانِ تسْتبِـــقُ
عـــاقَ العَقِيـــقُ عَنِ السُّلوَانِ وَاتضَحَتْ
فِي توضحٍ لِي مِنْ نَهْجِ الهَـــوَى طـــرُقُ

وممـــا قالـــه ابـــن الحنـــاط في قصيـــدة رفعهـــا إلى الخليفـــة عـــلى بـــن حمـــود:

رَاحَـــتْ تذكـــرُ بِالنسِيـــمِ الرَّاحَـــا
وَطفـــاءُ تكسِـــرُ لِلجنـــوحِ جَنَاحَـــا
أخـــفَى مَسَالِكهَا الظـــلاَمُ فأوقـــدَتْ
مِـــنْ بَرقِها كَيْ تَهتـــدِي مِصْبَاحَـــا
وَكأنَّ صَوْتَ الرّعدِ خلفَ سَحَابهـــا
حَادٍ إذا وَنـــتِ السَّحَائِـــبُ صَاحَـــا
جَادَتْ عَلى التلعَاتِ فاكتَسَتِ الـــرُّبَى
حُلـــلاً أقـــامَ لَهَا الرَّبيـــعُ وِشاحَـــا

لـــوْلاَ النسِيـــمُ الذِي تأتِي الرِّيَـــاحُ بهِ
إذَا تضَـــوَّعَ مِنْ عَرفِ الحِـــمَى الأفـــقُ
لـــمْ أدْرِ أنَّ بُيُـــوتَ الحَيِّ نازِلـــةٌ
نَجْـــداً وَلاَ اعْتَادَنِي نَحْوَ الْحِمَى القـــلقُ
مَـــا فِي الهَـــوَادِجِ إلاَّ الشمْسُ طالِعَـــة
وَمَـــا بقلـــبِي إلاَّ الشـــوقُ وَالأرَقُ

ومـــن أخـــرى:

مِنْ كلِّ بَيْضَـــاءَ مِثـــلِ البَـــدْرِ مُطلِعـــاً
هَيفـــاءَ مِثل قضِيـــبِ البَـــانِ مُنعَطِفـــا
إلـــفٌ ألفـــتُ الضَّنَـــا مِنْ بَعْدِ فرقتـــهِ
حَـــتَّى غـــدَا بَـــدَنِي مِنْ دِقـــةٍ ألفـــا)).

جـــذوة المقتبـــس، ص: 58.

فانظُرْ إلَى الرَّوْضِ الأرِيضِ وَقدْ غدَا

يَبكِي الغـوَادِي ضَاحِكـاً مُرتاحـا

وَالنـوْرُ يَبسُـطُ نحوَ دِيمتِهـا يـداً

أهـدَى لها سَـاقِي النـدَى أقدَاحَـا

وَتَخالـهُ حَـيّى الحَيا مِـنْ عَرفِـهِ

بذكِيِّـهِ فـإذَا سَقـاهُ فاحـا

رَوْضٌ يُحَـاكِي الفاطِـمِيِّ شمَائـلاً

طِيبـاً، وَمزْنٌ قـدْ حكَـاهُ سَمَاحَـا

أعَـلِيٌّ إنْ تعـلُ المُلـوكَ فإنهـمْ

بهـمٌ جُعلـتَ أغرَّهـا الوَضَّاحَـا

لمـا طلعـتَ لَهـا بِكـلِّ ثنِيـةٍ

أنسَيْتهـا المَنصُـورَ وَالسَّفاحَـا

وفي قصيـدة أخـرى يقـول في علـي بـن حمـود أيضـا:

شـقِيَ بَعْدَنا بالبُعدِ مِنْ نِعمَ نُعمَـانُ

وَأُوحِشَ مِنْ لبْنَى عَلى البُعدِ لُبنـانُ

سَقَى القَطرُ مَا بَيْنَ العَقِيقِ وَضَارِجٍ

مَعـارِفَ فِيهَـا لِلأحبـةِ عِرْفـانُ

وَحَيا الحيَــا عَهداً عَهدناهُ باللــوَى

لــوَى دَيننا فِيــهِ صُدُودٌ وَهِجــرَانُ

إلى قولــه:

وَلاَ مِثلَ هَذَا العَــدْلِ كيــفَ أعَــادَهُ

عَلِيٌّ وَقدْ مَــرَّتْ مِنَ الظلمِ أزْمــانُ

ويقــول فيــه أيضــا في قصيــدة أخــرى:

بَكيــتُ لَهَا شجْــواً وَهنَّ الحمائِــمُ

ينحــنَ بلاَ دَمــعٍ وَدَمعــكَ سَاجــمُ

ولَما عَلونا الحزْنَ وَاعتَسَفــتْ بنــا

رُسُومَ الدِّيارِ اليَعْمَــلاَتُ الرَّوَاســمُ

ثــم يقــول:

سَقَى مَنبتَ اللذَّاتِ مِنهَا ابْنُ هَاشِــمٍ

إذَا انهمَلــتْ مِن رَاحَتيــهِ الغمَائِــمُ

إمَــامٌ أقــامَ الدِّيــنَ حَــدُّ حُسَامِــهِ

طرِيــراً وَمِنــهُ فِي يَــدِ الله قائِــمُ

وَيُزْهِرُ فِي يُمناهُ نــورٌ مِنَ الظبَــا
لــهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِيــنَ كمَائِــمُ
سُيُــوفٌ إذَا اعْتلتْ جهَاتُ ثغورِهَــا
فمِنهُــنَّ فِي أعْناقِهِـــنَّ تمَائِــــمُ
بِكلِّ خمِيــسٍ طبَّــقَ الجَــوَّ نقعَــهُ
وَضَيَــقَ مَسْــرَاهُ الجيَادُ الصَّــلاَدِمِ
كــأنَّ مُثــارَ النقــعِ إثمِــدُ عَيْنِــهِ
وَأشفــارَ جَفنيْــهِ الشِّفارُ الصَّــوَارِمُ
تعُــدُّ عَليْهِ الطيْرُ وَالوَحْــشُ قوتهَــا
إذَا سَــارَ وَالتفــتْ عَليْــهِ القشَاعِــمُ

ويقــول أيضـــا في غيرهـــا:

رِقتُ وقَدْ غــنَّى الحَمَامُ الهوَاتــفُ
بمنعَرَجِ الأجْزَاعِ وَالليْــلُ عاكــفُ
أعدْنَ لِيَ الشوقَ القدِيمَ وَطــافَ بِي
عَلى النأْيِ مِنْ ذِكرَى المَلِيحَةِ طَائِفُ

ويضيــف:

سَقَى عَرَصَــاتِ الــدَّارِ كلٌّ مُلثــةٍ
مِنَ المُزْنِ تزْجيهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ
كأنَّ نثِيــرَ القطــرِ مِنهَــا جَوَاهِــرٌ
تفرِّقهَــا لِلرِّيــحِ أيــدٍ عَوَاصِــفُ
كأنَّ ابْتِسَــامَ البَــرقِ فِيهَا إذَا بَــدَتْ
سُيــوفُ عَــلِيٍّ بِالدِّمَــاءِ رَوَاعــفُ

ولــه قصيــدة في القاســم بــن حمــود يشيــر فيهــا إلى مقتــل المرتــضى الأمــوي؛ بعــد أن خانــه حليفــه خيــران الصقلــبي؛ فاستهلهــا قائــلا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ[1]
وَأصبْــحَ مُلكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

إلى أن يقــول:

وَفُرِّقَ جَمْع الكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الــوَرَى
عَلَى ابْنِ حَبِيــبِ اللهِ بَعْــدَ خَلِيلِــهِ

---

[1] في هــذا البيــت إشــارة إلى قصيــدة أحمــد بــن دراج القسطــلي؛ كــان قــد مــدح فيهــا خيــران بقولــه في المطلــع:

لــك الخيــر قــد أوفى بعهــدك خيــران   وبشــراك قــد وافــاك عــز وسلطــان

وَقَـــامَ لِـــوَاءُ النَّصرِ فـــوقَ مُمَنَـــعٍ
مِنَ العِـــزِّ جِبْرِيـــلٌ إمَـــامُ رَعِيلِـــهِ
وَأَشْرَقَـــتِ الدُّنيَـــا بِنـــورِ خَلِيفَـــةٍ
بـــهِ لاَحَ بَـــدْرُ الحَـــقِّ بَعْدَ أفولِـــهِ
مِـــنَ الهَاشِمِيِّيـــنَ الذِيـــنَ بِمَجْدِهِـــمْ
تَعَـــوَّدَ شَخْـــصُ المَجْدِ جَرَّ ذُيُولِـــهِ
فلاَ تسَـــلِ الأيَّـــامَ عَمَّا أتـــتْ بـــهِ
فمَا زَالَـــتِ الأيـــامُ تـــأتِي بسُولِـــهِ
ولَمَّا دَعَا الشَيْطَانُ فِي الخَيْلِ حِزْبَـــهُ
وَأَقبلَ حِـــزْبُ اللـــهِ فـــوْقَ خُيُولِـــهِ
كَتَائِـــبُ مِـــنْ صَنهَاجَـــةٍ وَزَنَاتَـــةٍ
تَضَايَقُ فِي عَرْضِ الفَضَاءِ وَطُولِـــهِ
تَقَـــدَّمَ خَيْـــرَانٌ إِلَيْهَـــا بزَعْمِـــــهِ
لِيُـــدْرِكَ مَا قَـــدْ فَاتَـــهُ مِنْ ذُحُولِـــهِ
فَلمَّا التَـــقَى الجَمْعَـــانِ عَـــاوَدَ رَأَيَهُ
فَخَلَّى لِبَعْضِ الهَوْلِ جُـــلَّ فُضُولِـــهِ
وَوَلَّى وَأَبْـــقَى مُنْـــذِراً مِنْ وَرَائِـــهِ
يُقِيـــمُ لأَهْلِ الغَـــدْرِ عُـــذْرَ نُكولِـــهِ

ومما قاله في المعتلي يحيى بن حمود:

لمْ يَخل مِنْ نوَبِ الزّمَانِ أديبُ

كلاًّ فشَأنُ النائبَاتِ يَنوبُ

أمْسَى قراراً لِلخطوبِ وَأغتدِي

غرَضاً تفوَّقُ نَحْوَهُ فتصيِبُ

وَإذَا انتهَيْتَ إلَى العُلومِ وَجَدتهَا

شَيْئاً يُعَدُّ بهِ عَليْكَ ذُنوبُ

وَغضَارَةُ الأيامِ تأبَى أنْ يُرَى

فِيهَا لأبْناءِ الذَّكاءِ نصيِبُ

وَلذَاكَ مَنْ صَحِبَ الليَالِي طالِباً

جَدًّا وَفهْماً فاتهُ المطلوبُ

إلى قوله:

أمتْ أمِيرَ المُؤْمنِينَ مَوَاحِلاً

فسَقى صدَاهَا غيْثهُ الشؤْبوبُ

المُعْتلِي بِاللهِ وَالمَلِكُ الذِي

تاجُ الفخارِ برَأسِهِ مَعْصُوبُ

إنْ كانَ عَدُّوا حُبَّ آلِ مُحَمدٍ

ذَنباً فإنِّي لسْتُ مِنهُ أتوبُ

ومما قاله في محمد بن القاسم بن حمود حينما اختار الإقامة عنده في الجزيرة الخضراء:

تفرَّغتُ فِي شُغلِ العَدَاوَةِ وَالظَّعـنِ
وَصِـرْتُ إلَى دَارِ الإقامَةِ وَالأمْـنِ

أمَقتولةَ الأجْفانِ مِنْ دَمْـعِ حُزنهـا
أفِيـقِي فإنِّي قدْ أفقـتُ مِنَ الحُـزْنِ

فلِلـهِ سَيْرِي يَوْمَ وَدَّعتُ صُحْبَـتِي
زَمَاعـاً ولَمْ أقرَعْ عَلَى ندَمٍ سِـنِّي

رَحَلتُ فكمْ مِنْ جُـؤْذَرٍ وَغَضَنفـرٍ
يُرَوِّي الثرَى مِنْ فَضْلِ أدْمُعِهِ الهَتِنِ

وَمَا عَنْ قِلى فارَقتُ ترْبَةَ أرْضِكـمْ
ولَكِنني أشفقتُ فِيهَـا مِـنَ الدَّفـنِ

مَرَرْتُ بشـوسٍ وَالنُّجُـومُ كأنهَـا
توَقدُ مِنْ فِكرِي وَتسْرَجُ مِنْ ذِهـنِي

وَأسْرَيـتُ مِنْ بَـدْرِ الظلاَمِ بِألبَـةٍ
بِصُحْبَةِ مُطفِي الجَمْرِ أوْ مُكفِئِ الظّعْنِ

لبسْنا بِهَا ليْـلاً مِـنَ الثلـجِ أبْيضاً
كسَتهُ يَـدُ الصِّنبْرِ ثوْباً مِنَ القطـنِ

وَرُحْنا عَـلَى ألبيـرَةٍ فاسْتقـلَّ بِي
جَناحُ عُقابٍ لاَ يَـرُوحُ إلَى وكـنِ
ولَمـا تنكبْنـا المُنكـبَ لـمْ نَجـدْ
لَنا مَرْكباً أهدَى سَبيـلاً مِنَ السُّفـنِ
ترَامَتْ بنا الأهْوَالُ فِي كـلِّ لُجَّـةٍ
تخيلهَـا جَـوًّا تَجَلَـلَ بِالدَّجْـنِ
ترَى السُّفنَ فوقَ المَوْجِ فِيهَا كأنَّهَـا
تَحَدَّرُ مِنْ رَعْنٍ وَتوفِي عَلَى رَعـنِ
فبوَّأتُ رَحْـلِي ظِـلَّ أرْوَعَ مَاجـدٍ
يَقولُ بلاَ خلفٍ وَيُعـطِي بلاَ مَـنِّ
إمَام وَصِيُّ المُصْطفَى وَابـنِ عَمـهِ
أبُوهُ، فتـمَّ الفخـرُ بَيْنَ أبٍ وَابـنِ

ـ ثـم أبـو بكـر عُبـادة بـن عبـد اللـه بـن محمـد الأنصـاري الخـزرجي المعـروف بابـن مـاء السمـاء:[1]
يضعـه كثيـر مـن النقـاد والأدبـاء الأندلسييـن في صـف فحـول الشعـراء بتلـك الديـار. وهـو مـن أهـل قرطبـة؛

[1] وصـف الحميـدي ابـن مـاء السمـاء بقولـه: ((مـن فحـول شعـراء الأندلـس، متقـدم فيهـم مـع علمـه؛ ولـه كتـاب "أخبـار شعـراء الأندلـس". ذكـره أبـو محمـد علـي بـن أحمـد [بـن حـزم]؛ وأنـه كـان حيـا في صفـر سنـة إحـدى وعشريـن وأربعمائـة)). جـذوة المقتبـس، ص: 293.

وينتسب في أصوله الأولى إلى الأنصار؛ وبالتحديد إلى قبيلة الخزرج. ويعتبر ابن ماء السماء من المبدعين المجددين في صناعة الشعر. هذا وقد نسبوا إليه بعض المبتكرات في نظم التواشيح.[1] ويقول ابن بسام أنه كان يظهر التشيع في شعره. وهذه بعض العينات من شعره بدءا بهذا المقطع قاله في علي بن حمود:

---

[1] قال ابن بسام: ((وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية؛ ومدح رجالها. وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة؛ سلك إلى الشعر مسلكا سهلا؛ فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عُبادة هذا منآدَها، وقوم ميْلَها وسنادَها؛ فكأنها لم تُسْمَعْ بالأندلس إلا منه، ولا أخذتْ إلا عنه؛ واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثيرٍ من حسناته. وهي أوزان كَثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب؛ تُشَقُّ على سماعها مصوناتُ الجيوب بل القلوب. وأول من صنع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقنا واخترع طريقتها ـ فيما بلغني ـ محمد بن محمود القَبْري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار؛ غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة؛ يأخذ اللفظَ العاميّ والعجميّ ويسمّيه المَرْكَزَ، ويضعُ عليه الموَشَّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إن ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد الفريد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثم نشأ يوسف بن هارون الرَّمادي؛ فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز؛ يضمّنُ كلّ موقفٍ يقف عليه في المراكز خاصّة. فاستمر على ذلك شعراءُ عصرنا؛ كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عُبادة هذا؛ فأحدَث التضفير؛ وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف في المركز)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 468 ـ 469.

أطَاعتَــكَ القلــوبُ وَلاَ عَــصِيٌّ

وَحِــزْبُ اللــهِ حِزْبُــكَ يَــا عَــلِيٌّ

فكــلٌّ مَــنِ ادَّعَى مَعَــكَ المَعَــالِي

كــذُوبٌ مِثــلَ مَا كــذبَ الــدَّعِيٌّ

أبَى لــَكَ أنْ تُهَاضَ عــلاَكَ عَهْــدٌ

هِشَــــامِيٌّ وَجَــــدٌّ هاشــــمِيٌّ

وَمَــا سُمِيــتَ بِاسْــمِ أبيــكَ إلاَّ

ليَحْيَــــا بِالسَّــمِيِّ لــهُ السَّــمِيٌّ

فــإنْ قــالَ الفَخــورُ أبِي فــــلاَنٌ

فَحَسْبُــكَ أنْ تقــــولَ أبِي النــَبِيٌّ

ويقــول أيضــا في قصيــدة أخــرى:

أبَسْــلٌ عَليكَ المَاءُ حَــتَّى يشُوبَــهُ

دَمٌ وَالكرَى حَتَّى تقضَّ المَضَاجــعُ

أجَــمَّ جيَــاداً أدمَنَ الغــزْوُ نهْكهَــا

فَمِنهَــا حَسِيــرٌ فِي الجهَادِ وَظَالــعُ

وَأغمِــدْ سيُوفاً تشتكِيــكَ جُفونُهــا

كمَا تشْتــكِي نُجْلَ العُيُونِ البَرَاقِــعُ

وَسَكِّنْ عَجَاجَ الرَّكْــضِ شَيْئاً فقلَّمَـــا
يُرَى الجَوُّ مِمَّا هُجْتَــهُ وَهوَ ناصِـــعُ
وَآنِـــسْ قُصُوراً طَالَ إيحَاشهَا بِــهِ
فقدْ أشفقتْ مِمَّا صَنَعْــتَ المَصَانِـــعُ
وَهَلْ ضَــرَّكَ البَاغِي بسَهْمِ مَكِيـــدَةٍ
وَأنتَ بَـــوَاقِي عِصْمَـــة اللـــهِ دَارِعُ؟
وَأيُّ يَـــدٍ تنـــوِي قِرَاعــكَ بَعْدَمـــا
رَأيْنـــا يَـــدَ الجَبـــارِ عَنـــكَ تقـــارِعُ؟

وقـــال راثيـــا علـــي بـــن حمـــود، ومهنئـــا لأخيـــه القاســـم بتـــوليـــه العـــرش:

صَـــلى عَلَى المَـــلِكِ الشَّهيدِ مَلِيكـــهُ
وَسَقـــاهُ فِي ظِـــلِّ الجنانِ الكوثـــرُ
مَـــولًى دَهَتـــهُ عَبيـــدُهُ، وَغضَنَفـــرٌ
ترَكتهُ أيْـــدِي العُفـــرِ وَهوَ مُعَفـــرُ
كانـــتْ تهَيَّبُـــهُ الأسُـــودُ فغالـــــهُ
فِي قصْـــرِهِ مُسْتضْعَـــفٌ مُسْتَحْقـــرُ
لمْ يُثـــنِ عِـــزُّ المُلكِ عَنـــهُ مَنونـــهُ
فَسَمَـــتْ لهُ مِنْ حَيْثُ لمْ يَكُ يَحْـــذَرُ

خَتلتـــــهُ سِـــــراً وَالقبَائـــــلُ دُرَّعٌ
تَحْمِيـــهِ لكِـــنَّ المَنايـــا جُسَّـــــرُ
وَلَـــوْ أنهَا رَامَتـــهُ جَهْراَ لاَنثنـــتْ
وَالبيـــضُ تقـــرَعُ وَالقنـــا يَتكســـرُ

ثـــم يكمـــل:
مَـــا غـــابَ بـــدْرُ التـــمَّ إلاَّ رَيثمَـــا
جَـــلَّى الدُّجَى عنا الصَّبَاحُ الأزْهـــرُ
إنْ يَهْـــوِ مِنْ أفـــقِ الخِلاَفـــةِ نيـــرٌ
يَهْـــدِي السَّبيـــلَ فقـــدْ تـــلاَهُ نيِّـــرُ
بِالقاسِـــمِ المَأمُونُ أفـــرَخَ رَوْعنـــا
فالقسْـــمُ وَافٍ وَالنصيـــبُ مُوَفـــرُ

ومـــن شعـــره في القاســـم بـــن حمـــود:
مَا ضَيَعَ اللـــهُ مُلكاً أنـــتَ رَاعِيـــهِ
وَلاَ أبَـــاحَ ذِمَـــاراً أنـــتَ حَامِيـــهِ
لِلـــهِ دَرُّكَ مِـــنْ مَـــولًى عَوَارِفـــهُ
لمْ تبـــقِ فِي الأرْضِ إلاَّ مَنْ يُوَاليهِ

تَهْدِيهِ وَالناسُ قَدْ ضَلَوا كوَاكِبَ مِـــنْ
آرَائِــهِ فِي سَمَـــاءٍ مِـــنْ مَعَاليـــهِ
مُكفـــلاً برِضَـــاهُ هِمـــــة أنفـــــاً
تَرْمِي إلى الغَرَضِ الأقْصَى فتُصميِهِ
كَانـــتْ خِلاَفتُنـــا فِي الغرْبِ مَظلَمَة
كـــأنَّ أيَامَنـــــا فِيهَـــا ليَالِيـــــهِ
سِيَاسَةٌ أبْـــرَأتْ بِالرِّفْــقِ فِي مَهَـــلٍ
دَاءَ الخِـــلاَفِ وَقَـــدْ أعيـــا مُدَاوِيهِ
وَحِكمَةٌ خَضَعَتْ هَـــامُ المُـــلوكِ لهَا
عِـــزًّا فلاَ حُـــرَّ مَوْجُـــودٌ بوَادِيـــهِ
مُؤَيـــدٌ جَـــاءَتِ الدُّنيَـــا إلَى يَـــدِهِ
عَفَـــواً وَلبَّتـــهُ مِنْ قـــرْبٍ أمَانِيـــهِ
جَلَـــتْ أيادِيـــهِ حَـــتَّى إنَّ أنفُسَنـــا
وَمَـــا مَلكنـــاهُ جُـــزْءٌ مِـــنْ أيَادِيـــهِ

ويقــول مادحــا يحــيى بــن عــلي بــن حمــود:

فهَــا أنــذَا يَا ابْــنَ النبــوَّةِ نافــثٌ
مِنَ القوْلِ أرْياً غَيْرَ مَا يَنفثُ الصِّــلُّ

وَعِندِي صَرِيحٌ فِي وَلاَئِــكَ مُعــرِقٌ
تشيعــهُ مَحْــضٌ وَبَيْعَتــهُ بتــلُ

وَوَالَى أبِي قَيــسٌ أباكَ عَلَى العُــلاَ
فَخيَّــمَ فِي قلبِ ابنِ هِنــدٍ لهُ غِــلُّ

ومــن شعــره أيضــا:

لاَ تشْكــــوَنَّ إذَا عَثـــــرْ
تَ إلَى صَدِيقِكَ سُــوءَ حَالــكْ

فيُرِيــكَ ألوَانـــاً مِــنَ الــْـ
إذْلاَلِ لــمْ تَخطـــرْ ببَالـــكْ

إيـــاكَ أنْ تـــدْرِي يَميــــ
ــنكَ مَا يَــدُورُ عَلَى شِمَالِــكْ

وَاصبْــرْ عَلَى نــوَبِ الزَّمَــا
نِ وَإنْ رَمَتْ بِــكَ فِي المَهَالِــكْ

وَإلَى الــذِي أغـــنَى وَأقـــ
ــنَى اضْرَعْ وَسَلْهُ صَلاَحَ حَالِكْ

وهـــذا موشـــح لــــه يقـــول فيـــه:

مَنْ وَلِـــي ♦ فِي أمَّــةٍ أمْــراً وَلـَـمْ يَعْــدِلِ ♦ يُعْــزَلِ ♦ إلاَّ لِحَاظُ الرَّشَــإِ الأكْحَــلِ

جُــرْتَ فِي حُـكـمَـكَ فِي قـتــلِيَ يَــا مُــسْــرِفُ

فَــانْـصِفِ فَــوَاجِــبٌ أنْ يُنْــصَـفَ الْــمُــنْـصِــفُ

وَارْأفِ فَـــإنَّ هـــذَا الــشــــوقَ لاَ يَــــرْأفُ

عــلِّـــلِ ♦ قــلْبي بذَاكَ البَارِدِ السَّلْــسَلِ ♦ يَنْجَلِي ♦ ما بفــؤادي مِنْ جَوَى مُشْعَــلِ

إنـــمـــا تــبْـــرُزُ كـَيْ تــوقِــدَ نَــارَ الفِــتـــنْ

صَـنَــمَـــاً مُـصــوَّراً فِـــي كـلِّ شـــيْءٍ حَسَـــنْ

إنْ رَمَـــى لـَـمْ يُخـطِ مِـنْ دُونِ القلــُوبِ الجِــنَــنْ

كَيفَ لِي ♦ تَخَلـُّصٌ مِنْ سَهْمِــكَ المُرْسَــلِ ♦ فَصِــلِ ♦ وَاستَبْقني حَيـاً وَلاَ تقتــلِ

يَا سَــنَـــا الــشَّــمْــسِ وَيَــا أبْــهَى مِــنَ الكوكـــبِ

يَا مُــنَــى النــفـــسِ وَيَــا سُــؤلِي وَيَــا مَــطْلــبِــي

هَــا أنــا حــــلَّ بــأعـــدَائـــكِ مَــا حــلَّ بــي

عـــذَّلـــي ♦ مِنْ ألــَمِ الهجْرَانِ فِي مَعزَلِ ♦ وَالخَلي فِي الحُبِّ لاَ يَسْــألُ عَمَــنْ بلي

أنــتَ قــدْ صَيــرتَ بالحُـسْـنِ مِــنَ الرُّشـــدِ غَــيّ

لــَمْ أجِــدْ فِــي طــرَقِــي حُــبـكِ ذنبــاً عَــلــَيّ

فَــاتــئِــدْ وَإنْ تــشــأ قــتــلِــيَ شَــيْــئــاً فَــشــيّ

أجــمـــلِ ♦ ووَالــنِي مِنْكَ يَدَا المُفْــضِــلِ ♦ فَهْيَ لِي ♦ مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقبــلِ

مَاغتــذَى طـــرفِــيَ إلاَّ بــسَــنــا نـــاظِــرَيـــكْ

وَكَــذَا فِي الـحُـبِّ مَا بي لَيْـسَ يَخْـفى عَـلـيْـكْ
وَلِـــذا أنـشِـدُ وَالـقـلـبُ رَهـيـنٌ لـدَيـكْ
يَـا عَـلـي ♦ سَلَطْتَ جَفنيْكَ عَلى مَقتـلِي ♦ فابق لِي قلبي وَجُدْ بالفَضـلِ يَـا مَوئِـلِي

ــ ثـم أبـو جعفـر أحمـد بـن أيـوب اللمـائي:[1] يعتبـر أبـو جعفـر اللمـائي مـن الأدبـاء والشعـراء الفحـول ببـلاد الأندلـس. وينتسـب هـذا الكاتـب إلى قبيلـة لمايـة الأمازيغيـة؛ وقـد ولـي ــ في بـلاط عـلي بـن حمـود ــ خطـة الكتابـة. ويبـدو أنـه كـان يعـاني ــ في آخـر أيامـه ــ مـن مـرض ضيـق النفـس أو داء النسمـة كمـا يسـمى آنئـذ؛ وقـد تـوفي في مالقـة بعـد شـدة وعـذاب[2].

---

[1] قـال ابـن بسـام: ((وكـان أبـو جعفـر هـذا ــ وقتـه ــ أحـد أئمـة الكتـاب، وشهـب الآداب؛ مـن سُخِّـرت لـه فنـون البيـان، تسخيـر الجـن لسليمـان؛ وتصـرف في محاسـن الكـلام، تصـرف الريـاح بالغمـام؛ طلـع مـن ثنايـاه، واقتعـد مطايـاه؛ ولـه إنشـاءات سَرِيَّـة في الدولـة الحموديـة؛ إذ كـان علـم أدبائهـا، والمُضطَلـع بأعبائهـا)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] وقـد أورد ابـن بسـام قصيـدة لأبي عامـر ابـن شهيـد قالهـا ــ وهـو عـلى فـراش مرضـه المزمـن ــ عندمـا نـعي إليـه أحمـد بـن أيـوب اللمـائي جـاء فيهـا:

أمِـنْ جَنَابِهِـمُ النفـحُ الجَـنوبيُّ
أسْرَى فَصَاكَ بهِ فِي الغوْرِ غـارِيُّ؟
أهـدَى إليَّ ظلاَمـاً رَدْعَ نافِجَـةٍ
أدْمـاءَ شـقَّ بهَا الدَّأمَـاءَ هِنـدِيُّ
وَالليْـلُ قدْ قـامَ فِي أثـوَابِ نادِبـةٍ
كأنـهُ فـوقَ ظهْـرِ الأرْضِ نـوبِيُّ
والنجْـمُ تَحْسَبُـهُ قـدَّامَ تابعِـهِ
حَمَامَـةً رَامَهَـا فِي الجَـوِّ بَـازِيُّ

وعلى الرغم من شهرته وطول باعه في ميدان الكتابة نثرا وشعرا؛ فإن ما وصل إلينا من أعماله زهيد جداً؛ بسبب الضياع؛ وقد تنبه إلى هذا الأمر ابن بسام حيث قال: **((إلا أني لم**

وَجَدْوَلُ الأفق يَجْرِي فِي مُنافسِهِ
ماءٌ سَقَى زَهْرَةَ الخضْرَاء فِضِيٌّ
فقلتُ وَالسُّقمُ مَنشُورٌ عَلَى جَسَدِي
يَحدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ العَيْشِ مَطوِيٌّ:
أُهدَى اللمَائِيٌّ مِنْ أزْهارِ فِكرَتِه
نشْراً فقالَ الدُّجَى: مَرَّ اللمَائيٌّ
فقِيلَ مَاتَ فقالَ الليْلُ قارَبَ ذَا
فانهَلَّ مِنْ مُقلتِي نوْءُ سِمَاكِيٌّ
وَبتُّ فرْداً أناجِي مُقلتِي شغفاً
كأنني فِي نقوبِ الدَّارِ جِنِّيٌّ
لاَ عِشتُ إنْ مُتَّ لِي يَا وَاحدِي أبَداً
وَمَوتنا وَاحِدٌ لاَ شكَّ مَرئِيٌّ
إنَّ الكرِيمَ إذَا مَا مَاتَ صَاحِبُهُ
أوْدَى بهِ الوَجْدُ وَالثكلُ الطبيعِيٌّ
إنْ مُتُّ قبْلكَ لاَ تعْجَبْ فذُو أمَلٍ
قدْ حَمَّ مِنْ دُونِهِ يَوْماً حَمَامِيٌّ
أوْ مُتَّ قبْلِي فمَا مَنعَاكَ لِي عَجَبٌ
إنَّ الكريمَ إلَى الأصْحَابِ مَنعِيٌّ
زَادَ البَلاَءُ عَلَى نفسِي فأعْدَمَهَا
صَبْرِي فصَبْرِي عَليْكَ اليَوْمَ وَحْشِيٌّ
حَتَّى أهُمَّ بقتلِي كلَّ دَاجيَةٍ
يَا قوْمِ هَلْ رَامَ هَذَا قبْلُ إنسِيٌّ؟
إنِّي إلَى اللهِ مِنْ عُقبَى بُلِيتُ بهَا
جَرَى بهَا الحُكمُ وَالأمْرُ الإلهِيٌّ

أجد عند تحريري هذه النُّسخة من كلامه إلاَّ بعض فصول له من منثور؛ وهي ثِمَادٌ من بُحُور؛ وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل في صناعته، والتقدم على أكثر جماعته)).[1] وأهم أعماله التي وردت في المصادر القليلة هذه القطعة النثرية التي بعث بها إلى وزير زهير أبي جعفر أحمد بن عباس جاء فيها: **((غُصنُ ذِكراك عندي ناضر، وروضُ شُكرك لديّ عاطر، وريحُ إخلاصي لك صَباً، وزمنٍ آمالي فيك صِباً، فأنا شاربٌ ماءَ إخائك، متفيءٌ ظِلال وفائك، جانٍ منك ثمر فرْع طاب أكله، وأجناني البرَّ قديماً أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروّاني إفضالاً وَدْقه، وأنت الطَّالعُ في فجاجه، السَّالكُ لمنهاجه: سهمٌ في كنانة الفضل صائب، وكوكب في سماء المجد ثاقب، إن أتبعَتَ الأعداءَ نورَهُ أحرق، وإن رميتَهم به أصابَ الحَدَقَ؛ وعلى الحقيقة فلساني يقْصُرُ عن جميل أسِرِّه، ووصفِ وُدٍّ أضمِرُه)).**[2] أما شعره فمنه قوله:

قدْ قلتُ إذْ سَارَ السَّفِينُ بِهِ
وَالبَيْنُ يَنهَبُ مُهْجَتِي نهْبَا
لوْ أنَّ لِي مُلكاً أصولُ بِهِ
لأخَذْتُ كلَّ سَفينةٍ غصْبَا

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] نفسه، ص: 618.

وقـــال في أخـــرى أيضـــا:

غــنَّى ولِلإيقــاعَ فــو قَ بَيانِ مَنطِقِــهِ بَيــانُ
وكأنمـــا يـــدُهُ فـــمٌ وقضِيبهُ فِيهَــا لِســانُ

زاره بعـــض أصحابـــه وهـــو طريـــح الفـــراش بفعـــل المـــرض الـــذي أودى بحياتـــه؛ فحـــاول بعضهـــم الترويـــح عليـــه بغـــرض التخفيـــف عنـــه؛ فقـــال لهـــم شعـــرا:

رَوَّحـــنِي عَائِـــدِي فقلـــتُ لـــهُ
مَـــهْ، لاَ تـــزِدْنِي علَى الذِي أجِـــدُ
أمَـــا تـــرَى النـــارَ وَهْيَ خامـــدَةٌ
عنـــدَ هبـــوبِ الرِّيـــاحِ تتقِـــدُ؟

وقـــال يشتـــكي مـــن علتـــه بعـــد أن يئـــس مـــن الشفـــاء:

عظمَ البَـــلاَءُ فلاَ طَبيبٌ يرتـــجَى
مِنـــه الشفـــاءُ وَلاَ دَوَاءٌ ينجـــعُ
لـــمْ يَبـــقَ شَيْءٌ لمْ أعَالِجهَـــا بـــهِ
طَمَعَ الحيَـــاةِ، وَأينَ مَنْ لاَ يَطمَـــعِ؟

"وَإذَا المَنِيـــةَ أنشبـــتْ أظفارَهـــا

ألفيْـــتَ كـــلَّ تمِيمَـــةٍ لاَ تنفـــعُ"[1]

ولـــه هـــذه القطعـــة كذلـــك:

يا كبـــدِي بِالبَيْـــنِ مَـــنْ أكلمَـــكْ

وَيا دُمـــوعَ العَيْـــنِ مَنْ أسْجَمَـــكْ؟

وَيا فـــؤَادِي كمْ تقـــاسِي الهَـــوَى

مُكتتمـــاً عـــنِّيَ، مَـــا أكتمَـــــكْ!

علمْتـــكَ الكتـــمَ أمَـــا تسْتـــحِي

وَيْحـــكَ أنْ تَكتـــمَ مَـــنْ علمَـــكْ؟

كنـــتُ أدَاويـــكَ فـــلاَ ذَنـــبَ لِي

لـــوْ أنـــنِي أعلـــمُ مَـــنْ أسقمَـــكْ

ولـــه هـــذه قطعـــة الـــتي يكـــون قـــد مـــدح فيهـــا عـــلي بـــن حمـــود:

طلَعـــتْ طوَالعُ لِلرَّبيـــعِ فأطلعَـــتْ

فِي الرَّوْضِ وَرداً قبْلَ حينِ أوَانـــهِ

حيـــا أمِيـــرَ المُؤْمِنيـــنَ مُبشـــراً

وَمُؤَمـــلاً لِلنيـــلِ مِـــنْ إحسانـــهِ

[1] استشهـــد هنـــا ببيـــت أبي ذؤيـــب الهـــذلي.

ضَنَــتْ سَحَائِبــهُ عَليــهِ بمَائِهَــا

فأتــاهُ يستسقيــهِ مَــاءَ بنانـــــهِ

دَامـــتْ لنـــا أيامـــهُ موْصُولـــــة

بِالعـــزِّ وَالتمْكِيـــنِ فِي سُلطانـــــهِ

ثــم هـــذه القصيـــدة الـــتي يشكـــو فيهـــا نوائـــب الدهـــر:

أمسَى سَقامِي زَاجِــرِي وَمُؤَنِــبِي

وَغَـــدَا مَشِيبِي وَاعِظِي وَمُـــؤَدِّبِي

أوْهتْ خطوبُ الدَّهرِ مِنِّي عَاتِــقِي

ثقلاً، وَزَعــزَعَ منكِبــاهُ منكِــبِي

وَهمَـــتْ سَحائِبـــهُ عَلَيَّ فغـــادَرَتْ

أرْضِي قرَارَةَ كلِّ خطبٍ مُعجِــبِ

فأظلُّ أبصِـــرُ فيهِ مَا لمْ أحْتســـبْ

جــوراً وَأقــرَأ فيـــهِ مَا لمْ أكتـــبِ

ســـنٌ حدِيثٌ تحتَ جِــدٍّ شـــارِفٍ

وَســـوادُ رَأسٍ فـــوْقَ قلبٍ أشيـــبِ

أغـــدُو عَلَى بَكـــرٍ لصرفِ بَناتـــهِ

وَأرُوحُ مبتنِيـــاً بأخـــرَى ثيِّــــــبِ

أفتــضُّ مِنهَا كــلَّ يــوْمٍ عــذْرَة
لاَ تشتــهَى وَأزَفُّ مَا لمْ أخطــبِ
يَا سَيــدِي وَأخِي الوَفِيَّ وَمَا أخِي
منهُ إلَى قلــبِ الإخــاءِ بأقــربَ
وَإذَا غدَا العِلــمُ المُشــرِّفُ أهلــهُ
نسَبــاً يُؤَلفنــا فنحــنُ بنــو أبِ
هــلاَّ اهتدَيتَ إلَى خِطابِ مــرزَّإٍ
مَا بينَ أضْلاَعِ الخطــوبِ مُغيــبُ
لمْ يبــقِ مِنهُ الدَّهــرُ غيْرَ مَدَامِــعِ
سُفــحٍ وَقلــبٍ بِالسقــامِ مُعَــذَّبِ
أخفتــنِيَ الأيــامُ فِي لهَوَاتهَــــا
وَسَجَننِي فِيهَا فَكيــفَ شَعَــرْتَ بِي؟
وَكتبْتَ عَنْ وُدٍّ وَقــدْ كتبَ الإخــا
بَينَ النفــوسِ صَحَائِفاً لــمْ تكتــبِ
بــأرَقَّ مِنْ دَمعِ المُشــوقِ فــؤَادُهُ
وَأرَقَّ مِنْ رِيــقِ الحَبيبِ وَأعــذَبِ
فظلَلــتُ مِنهُ فِي غدِيــرِ بَلاَغــةٍ
عــذْبٍ وَمُلتفِّ الحَدَائــقِ مُعْشــبِ

كرُمـــتْ مَغارِسهُ فأوْرَقَ فرْعـــهُ
علِمـــاً وَأثمَـــرَ بِالكـــلاَمِ الطيـــبِ
صُبُـــحٌ تـــدَرَّعَ مِنْ سَوَادِ مِـــدَادِهِ
لَيـــلاً كفِعْـــلِ الزَّائـــرِ المُترَقـــبِ
خفِيَـــتْ مَعَانِيـــهِ عَـــلَى أوْهامِنـــا
فَالفكـــرُ بَيْـــنَ مُصـــدّقٍ وَمُكـــذِّبِ
طلعـــتْ كوَاكِبـــهُ وَلمَّـــا تطلِـــعْ
وَغربَـــنَ فِيـــهِ لنـــا لمَّـــا تغـــرُبِ
أنَا مُذْنـــبٌ لاَ شكَّ إذْ لمْ أسْتطِـــعْ
رَدَّ الجَـــوَابِ وَأنتَ غيرُ المُذْنـــبِ
حَمَلتـــهُ مِنْ طيبِ الإخـــاءِ مَحَبـــة
فيكـــمْ وَإخـــلاَصٌ لكـــمْ فتطيَّـــبِ
وَبَعَثـــتُ مَاءَ الوَرِدِ فِيـــهِ سَائِغـــاً
عَذْبـــاً لذَائقـــهِ زلالاً فاشـــرَبِ
أذْكَى مِنَ المِسْكِ الفتِيـــقِ نسِيمُـــهُ
أرَجـــاً وَأصْفَى مِنْ لُعابِ الجنـــدُبِ

ـ ثـم أبو بكر عبـد الله بن حجـاج الغافـقي الإشبيـلي:
وهـو ـ كمـا يستـوحى مـن اسمـه ـ مـن أهـل إشبيليـة. هـذا وينتسـب ابـن حجـاج إلى قبيلـة غافـق القحطانيـة العربيـة. قـال عنـه صاحـب المغـرب ((**ذكـر الحجـاري: "أنـه شاعـر بعيـد الصـوت، معـدود في شعـراء المعتضـد؛ وكـان قـد هجـر وطنـه، وانتبـذ إلى صاحـب الجزيـرة الخضـراء محمـد بـن القاسـم بـن حمـود... فقـال لـه وزيـره: أسـأل ابـن الخليفـة: هـل أنـت مـن بـني حجـاج أصحـاب السيـرة بإشبيليـة؟ فقـال: لـو كنـت منهـم طلبـت السيـف؛ ولـم أطلـب بالشعـر؛ فقـال ابـن حمـود: لا فـُضَّ فـوك! يـا شَـدَّ مـا امْتَعـضَ لأعْيـانِ بلـده))**.[1] ويكـون ابـن حجـاج هـذا قـد تـوفي بعـد سنـة 430هـ؛ لأنـه تقابـل في هـذه السنـة مـع الحميـدي؛ الـذي قـال إنـه سمـع منـه أشعـارا كثيـرة؛ عندمـا التـقى بـه في السنـة المذكـورة.[2]
ومـن شعـره هـذه الأبيـات الـتي ذكرهـا الحميـدي:

لَما كتمْـتُ الحُـبَّ لاَ عَنْ قِـلَى
وَلَـمْ أجِـدْ إلاَّ البُكـا وَالعَوِيـلْ
نادَيـتُ وَالقلـبُ بـهِ مُغـرَمٌ
يا حَسْـبِيَ اللـه وَنِعـمَ الوَكِيـلْ

---

[1] **المغـرب، ج: 1، ص ص: 265 ـ 266.**
[2] **جـذوة المقتبـس، ص: 261.**

وأورد لــه الحجــاري هــذه الأبيــات:

ألاَ أيها الــوَادِي الذِي رَفَّ ظِلــهُ
وَفاحَــتْ خزَاماهُ وَغــرَّدَ طائِــرُهْ
أتذْكــرُ أيامِي بدَوْحِــكَ وَالحِــمَى
يبارِكنــا مِنــهُ بِجزْعِــك زَائــرهْ
وَقدْ رَقَّ نَسْــجُ العَتبِ بينِي وَبَيْنــهُ
وَمَا زَاد مِنا الحبُّ عفتْ سَرَائِــرُهْ

أمــا المقــري فقــد أورد لــه عــدة مقطوعــات؛ منهــا هــذا المقطــع مــن قصيــدة مــدح بهــا محمــد بــن القاســم ابــن حمــود:

يقولونَ إنَّ السِّحْرَ فِي أرْضِ بابــلٍ
وَمَا السحْرُ إلاَّ مَا أرَتــكَ مَحَاجــرُهْ
وَمَا الغُصْنُ إلاَّ مَا انثنَى تَحْتَ برْدِهِ
وَمَا الدِّعصُ إلاَّ مَا طوَتــهُ مَــآزِرُهْ
وَمَا الــدُّرُّ إلاَّ ثغــرُهُ وَكلاَمـــــهُ
وَمَا الليْــلُ إلاَّ صَدْغــهُ وَغدَائــرُهْ

وأرد لــه أيضــا المقــري مقاطــع صغيــرة مــن الشعــر الــذي قالــه عندمــا كــان في إشبيليــة. لا داعي لإثباتهــا في هــذا المجــال.

ـ **ثــم أبــو محمد غانم بن وليــد المخــزومي المالــقي**:[1] وينتسـب هـذا الأديـب العالـم إلى بـني مخـزوم مـن قريـش؛ وهـو مـن أهـل مالقـة وعلمائهـا النابهيـن. قـال فيـه الحميـدي: ((**فقيـهٌ، مـدرسٌ، وأستـاذ في الآداب وفنونهـا، مجـوِّد؛ مـع فضـل وحسـن طريقـة**)).[2] ووردت لـه بعـض المقطـع الشعريـة في الذخيـرة، وبعـض المواضـع المتفرقـة مـن نفـح الطيـب، وفي جـذوة المقتبـس، والصلـة. ولغانـم بـن وليـد رسائـل نثريـة عديـدة أوردهـا ابـن بسـام؛ منهـا عـلى سبيـل المثـال هـذه المقطوعـة النثريـة الـتي صاغهـا لمـا تـولى إدريـس العـالي الخلافـة. وفي النـص إشـارة إلى الأحـداث الـتي تكـون قـد وقعـت في مالقـة؛ حيـن حـاول الفـتى الصقلـبي نجـا بمساعـدة السطيـفي اغتصـاب الحكـم. قـال غانـم: ((**ولـم يتـرُك المتطـولُ علينـا عـزَّ وجهـهُ بالهـدى أمـة محمَّـدٍ عليـه السـلامُ سـدى؛ بـل نـظـمَ شملهـا بإمـامٍ عـادلٍ تجتمـعُ إليـه، وتعـوِّلُ عليـه، تتوارثـهُ كابـراً عـن كابـرٍ، وتـتـلـقـاهُ غابـراً عـن غابـرٍ؛ إلى أن أذِنَ اللـهُ للأكمـام الهاشـميّ، والملـك الفاطـميِّ، والفـرع العلـويّ، إدريـس العـالي باللـه بـن يحـيى المعتـلي باللـه بـن عـلي الناصـر**

[1] قـال فيـه ابـن بسـام: ((قـد بـذ ــ وقتـه ــ أهـل ذلـك الإقليـم، في أنـواع التعاليـم؛ فَـرْدَ عصـره ونسيـج وحـده في تنـاهي جـده؛ متفننـا جـرى في ميـدان السَّبْـق، وفقيهـا قرطـس أغـراض الحـق؛ وكـان في هـذا البـاب الـذي ولجنـا فيـه مـن أهـل الرَّويـة والبديـه)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 853 ــ 854.

[2] جـذوة المقتبـس، ص: 325.

لدين الله بن حمود بن أبي العيش بن عبيد الله ابن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فقام العالي بالله بخلافة المغربين، واضطلع بملك العدوتين؛ ولما آن أوانُ إمامته، حانَ من عدوّه حينُ قيامته. وكان مقتلُ العبد الغادر ـ وكافرُ النعْمَة كالكافر ـ في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، وفي عشرين ليلةٍ خلتْ من كانون. فانجلتْ سمومُ الشتاء بانجلائه، وانقضت أيام الشؤمِ بانقضائه، وكان عقبَ الشهر في استقبال شهر رجَبَ الشهر الأصمّ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّ العربَ أسقطتْ فيه قعْقعَة السِّلاح؛ وكأنَّ المثلَ إنما جرى في مضمار، على مفرق الليل والنهار، وأرى الناسَ مخايلَ السعدِ والإيناس، وهو قولهم: عِشْ رجباً ترَ عجباً؛ وكأن هذا العجبُ آخِرَ يومٍ من الليالي، وقامَتْ فيه دولةُ هذا الملكِ العالي، والشمسُ تأخذُ من قعرِ الفلكِ في الصعود، وتؤذنُ بجري الماء في العود؛ وتترقَّى بالعلم في دَرَجِ السعود:

وَاسْتَقْبَلَ المُلكَ إمَامُ الهُدَى
فِي أرْبَعٍ بَعْدَ ثلاَثِينَا

خِلاَفةُ العَالِي سَمَتْ نَحْوَهُ
وَهوَ ابْنُ خَمْسٍ بَعْدَ عِشْرِينَا

إنِّي لأرْجُــو يَا إمَــامَ الهــدَى

أنْ تمْلــكَ المُلـــــكَ ثمَانِينَــــا

لاَ رَحِــمَ اللـــهُ امْرُءاً لَمْ يَقــلْ

عِنـــدَ دُعَـــائِي لــكَ آمِينَــــا

فسفــرت الدنيــا قناعهــا فتيــة، وبلغــت النفــوسُ بخلافتــه الأمنيــة، وانثالــتْ عليــه بيعــاتُ الأمصــار، وأمــتْ حضرتــه الرُّســلُ مــن جميــع الأقطــار، وبــدأ بالفضــل، وصــدع بالعــدل؛ فأحيــا مآثــرَ آبائــهِ الطاهريــن)).[1]

وفي رسالــة لــه بعــث بهــا إلى أبي الحســن الحصــريّ قــال: **((مــا أفصــحَ لسانــك، وأفســحَ ميدانــك، وأوضــحَ بيانــك، وأرجــحَ ميزانــك، وأنــورَ صباحــك، وأزهــرَ مصباحــك؛ أيهــا السابــق المتمهــل، في ميــدان النّبــل، والسَّامِــقُ المتطــوِّلُ بفضائــلِ الذّكــاء والفضــل؛ أرحتــني مــن غــلِّ الهــمِّ، فأزهدتــني أريحيّــة، وأزَحتــني عــن ظــلِّ الغــمِّ، فلاحــتْ لي شمــسُ الأمنيــة، بمــا أطلعتــه علــيّ، فنفذتــه مكارمُــك إليّ. فقلــت: أعَصْــرُ الشبــابِ رَجَــع، أم كوكــبُ السَّعــدِ طَلَــعَ، أم بأرقُ الإقبــالِ لمــع؟ كــلاَّ واللــه؛ إنهــا لمكرُمَــةٌ فهريــة، أهدتهــا نفــسٌ سنيــة، وهمَّــة عليَّــة. إن قلــتُ الوشيُ الصنعــانيّ فقــد نقصتهــا، أو الدّيبــاجُ الخســروانيّ فقــد بخستُهــا. بــلى**

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 861 ــ 862.

والله، أرتني زهرَ الرَّبيع في غيرِ أوانه، وحُسنَ الصَّنيع على عَدَمه في أهلِ زمانه؛ لمحتُ منه عِقد اللآل، يبقى على أخرى الليال؛ فأنت واحدُ البلاغة الذي لا يجارَى، وفارسُ الفصاحة الذي لا يُبارَى؛ وقد اعتقدتُ ما به أشرت، وإياه اعتمدت، لو لاح لي في أفقِ النقلةِ صباح، أو استقلّ بي في طرُقِ الرّحلة جناح.

وكم حاولتُ مسالمة النوائب بانقباضي، ومداراة الدُّنيا بتركي لأغراضِها وإعراضي؛ فإذا الانقباضُ قد حصَّلني في جملةِ القَبض، والتركُ للأغراض قد جعلني للنوَب كالغرض؛ ولا سلاحَ إلاَّ الدُّعاء إلى الله تعالى في الصَّلاح، ولا جناح إلاَّ التمني لمن يقولُ ما عليك جُناح؛ فسبحان من قدرَ أن أكونَ لناب النوَب حرباً، وتكونَ عليّ أيامُ الزمان إلباً، أصلى بنار المصائب السُّود؛ كأنِّي ممَّا أنا باكٍ منه محسود. أستغفرُ الله! فقد حمي صدري حتى غلى مرْجَله، وضاق مجالُ فكري حتى اتَّسعَ في الشكوى مقوَله. ولو أني سلمتُ لمواقع الأقدار، وعلمتُ أنه ليس على القدَر اختيار، ورضيتُ بما يأتي به الليلُ والنهار، وتَيَقنتُ أنَّ خُلقَ الزمانِ عداوة الأحرار؛ لأرحتُ قلباً يتقلبُ في جمرِ الأسى، وأذكرتُ لبًّا قد نسي الاقتداء بالأسى)).[1]

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 856 ـ 857.

ومــن المقطوعــات الشعريــة لغانــم بــن وليــد؛ هــذه الأبيــات الــتي قالهــا لمــا دخــل عــلى مجلــس باديــس ابــن حبــوس؛ فوســع لــه كي يجلــس عــلى رغــم الضيــق فقــال:

صَيــرْ فــؤَادكَ لِلمَحْبُوبِ مَنزِلــةً

سَــمُّ الخِيــاطِ مَجَــالٌ لِلحَبِيبَيْــنِ

وَلاَ تسَامِــحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشَــرَةٍ

فقلمَــا تسِــعُ الدنيَــا بَغِيضَيْــنِ

ولــه أيضــا:

الصَّبْــرُ أوْلَى بِوقــار الفــتَى

مِنْ قلــقٍ يَهْتِــكُ سِترَ الوَقــارْ

مَنْ لــزِمَ الصَّبْــرَ عَلَى حَالــهِ

كــانَ عَــلَى أيامِــهِ بِالخيــارْ

وممــا قالــه في العــالي باللــه إدريــس بــن يحــيى ابــن حمــود:

لَوْلاَ التَّحَــرُّجُ لمْ يُحْجَبْ مُحَيَّــاكِ

حُيِّيــتِ عَنــا وَحُيِّينــا بِمَحْيَــاكِ

هَذا اللثــامُ غَمَــامٌ مَا يُبِينُ هُــدًى

حُــطِّي اللثــامَ فَلَيسَ البَــدْرُ إلاَّكِ

لمَّا هَدَيْــتِ إلَى نَعْمَــانَ سَافِــرَةً
كانتْ هدَايَتُــا مِنْ بَعْضِ نُعْمَــاكِ

ثم يضيف:

أوْ يَمِّمِي حَضْرَةَ العَالِي بِمَا احْتَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

ويقــول في قصيــدة أخــرى:

يَا غَرِيبــاً بِحُسْنِــهِ قِصَّتِي فِيكَ أغْــرَبُ
أنْتَ فِي طَيِّ نَاظِرِي وَالمُنَى مِنْكَ تُحْجَبُ
لاَ تَلُــمْ فِي مِــدَادِهِ بدَمِ القلــبِ يُكتَــبُ
إنَّ إدْرِيــسَ مَاجِــدٌ لِلعُلاَ فِيــهِ مَذهَــبُ
جَــدُّهُ خَاتمُ الهُــدَى وَعَــلِيٌّ لــــهُ أبُ
فَهْــوَ لِلْمَجْدِ مَطْلَــعٌ وَهْوَ لِلْمَجْدِ مَغْــرِبُ

ويقــول دولـــة إدريــس العـــالي:

ضَحِــكَ الزَّمَانُ إلَيْكَ بَعْدَ عُبُــوس
وَنَــفَى دُجَى الإيحَــاشِ بِالتأنِيــسِ

فَأدِرْ نُجُومَ الرَّاحِ فِي فَلَـكِ المُـنَى
وَتَطُوفُ نَحْوَكَ مِنْ أكـفِّ شمُـوسِ

فِي رَوضَةٍ تُحْيي النُّفُـوسَ كَأنَّمَـا
بَاتـتْ تَنَفَّسُ عَنْ عُـلاَ إدْرِيـسِ

مَلِـكٌ أقَـامَ اللـهُ دَوْلَـةَ مُلكِـهِ
فَكَبَـا مِنَ الأعْـدَاءِ كـلُّ رَئيـسِ

مِنْ دَوْحَةِ الـوَحْيِ الـتِّي بِسُمُوِّهَـا
دَرَسَـتْ مَعَانِي الكفـرِ أيَّ دُرُوسِ

وقـال في رثـاء أخويـه:

يـا دَمْـعُ لاَ تخـذُلْ وَكنْ مُسْعِـداً
لاَ تَخـشَ مِنْ صَبْرِيَ أنْ يَمْنَعَـكْ

أخٌ غريـقٌ وأخٌ فِي الثـرَى
وَترتـجِي السَّلـوةَ مَـا أطمَعَـكْ!

إنَّ جُمـودَ العَيـنِ خـوْفَ العِـدَا
وَرِقبَـةَ الحُسَّـادِ لـنْ يَنفعَـكْ

يـا عُمَـراً أعْمَـرْتَ قلـبِي أسىً
وَدَّعَ صَبَـرِي مِثلمَـا وَدَّعَـكْ

رُزِئـــتُ فِي الدُّنيَـــا يَدَيْ نصْـــرَتِي
يَـــا دَهــرُ تبـــاً لـــكَ مَـــا أفجعـــكْ

وقـــال واصفـــا وادي مالقـــة في موضـــع يســـمى ربـــوة العقـــاب:

ضحِـــك الزَّمَانُ بِحسنِـــهِ وَبهَائـــهِ
كَالصَّبِّ يَضْحَكُ بَعْدَ طولِ بُكائِـــهِ
وكَـــأنَّ إقبَـــالَ الرَّبيـــعِ بوَصلِـــهِ
وَصلُ الحَبيبِ أتـــاكَ بَعْدَ جَفائِـــهِ
وَكأنمَـــا وَادِي العُقـــابِ عَشيـــة
مُسْتمْطِـــرٌ دَمْعِي بِجرْيـــةِ مَائـــهِ
وَكأنَّ رَشحَ الطلِّ فِي رَوْضِ الرُّبَى
رَشحُ الخدُودِ بَـــدَا بنـــارِ حيائـــهِ

وكـــان يُحْـــيي جلســـات الأنـــس والطـــرب في قصـــر الملـــك العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى مطـــرب اسمـــه المهـــدوي؛ فطلـــب يومـــا مـــن غانـــم تذييـــل بيـــت مـــن الشعـــر كـــان يحفظـــه؛ حـــتى يتســـنى لـــه الغنـــاء بـــه؛ مـــع التذييـــل. والبيـــت الـــذي يحفظـــه المهـــدوي هـــو:

يَا نائِبَ الوَجهِ عَنْ شمْسِ الضحَى غَسَقاً

وَالبــدْرُ لــوْ كلفــوهُ ذَاكَ لــمْ ينــبِ

فأكمــل غانــم بــن وليــد بديهــة:

فِي غــرَّةِ الملكِ العَــالِي وَمَنظــرِهِ

بــدْرٌ يُعطــلُ نورَ السبعةِ الشهـــبِ

نــرَى محيــاهُ فِي ليــلٍ فيخبرُنــا

عنِ الحَقِيقــةِ أنَّ الشمــسَ لمْ تغــبِ

وحــدث أيضــا في بعــض جلســات الأنــس والسمــر والغنــاء؛ الــتي كــان يحييهــا المغــني محمــد بــن الحمــاميّ أن طلــب الملــك إدريــس مــن غانــم تذييــل بيــت ابــن المعتــز:

هــلْ يُزِيــلُ البَيْــنَ مُحْتــالُ

أنْ غــدَتْ لِلبَيْــنِ أجْمَـــالُ

فأكمــل غانــم قائــلا:

إنمــا العَــالي إمَــامُ هــــدًى

حَلِيَــتْ فِي عَصْــرِهِ الحَـــالُ

مَلِـــكٌ إقبَـــــالُ دَوْلتــــهِ

لِـــذَوِي الأفهَــامِ إقبَـــالُ

قـــلْ لِمَتنْ أبـــدَتْ مَطَالبــــهُ
رَاحَتَــاهُ الجــــاهُ وَالمَــــالُ[1]

ــ وأبـــو عبـــد اللـــه محمـــد بـــن الســـرّاج المالـــقي: لـــم يتـــم التعـــرف عـــلى أصـــل نسبـــه الأول؛ إذ أحجمـــت المصـــادر المتوفـــرة عـــن الإشـــارة إلى ذلـــك؛ ولـــم تذكـــر ســـوى أنـــه مـــن أهـــل مالقـــة[2]. أمـــا ابـــن بســـام فقـــد نقـــل مقطوعـــات عديـــدة مـــن شعـــره؛ ولكنـــه لـــم يشـــر إلى ترجمـــة حياتـــه؛ وكـــل مـــا قـــال فيـــه: **((محســـنٌ في**

---

[1] **وممـــا حكـــاه غانـــم عـــن مجالـــس السمـــر الـــتي تقـــام بقصـــر الملـــك إدريـــس قولـــه: ((وحضـــرتُ مجلســـهُ أيضـــاً فتغـــنَّى الحمـــاميُّ بشعـــرٍ محـــدثٍ أولـــه:**

إذَا بَلغتِـــنِي يَـــا نـــا   قـــتِي المَسْـــمِيَّ إدْريســـا

فكـــأنَّ العـــالي باللـــهِ استحســـنَ الحُـــلـــةَ ولـــم يـــرضَ قولـــه "المســـمـــيِّ"؛ وإنمـــا هـــو المســـمِّـــي أو المُـــســـمَـــى مـــن سمّـــيـــت أو أسميـــت؛ ولا يُـــقـــالُ مـــن التسميـــة سمـــوتُ ولا سميـــت؛ ولـــو قـــال "المُســـمَىٍ بإدريســـا" لصـــحَّ الـــوزنُ والكـــلام؛ فأطـــرَقَ قليـــلاً ــ أيـــده اللـــه ــ ثـــم قـــال: للمُـــغـــنـــي: "أعِـــدِ الصـــوتَ؛ قـــل:

إذَا ضَاقـــتْ بكَ الدُّنيَـــا   فَعَـــرِّجْ نحـــوَ إدْرِيسَـــا
إذَا لاَقيتـــــهُ تلـــــقَى   رَئيســـاً ليْسَ مَرْءوسَـــا
وَمَـــنْ عَزَمَاتـــهُ تنـــفِي   عـــنِ الأوْطـــانِ إبْليســـا
إمَـــامٌ ماجـــدٌ ملـــــكٌ   يزيـــلُ الغـــمَّ وَالبُؤسَـــا")).

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 864.

[2] **قالـــه عنـــه الحميـــدي مثـــلا: ((محمـــد بـــن الســـرّاج المالـــقي: منســـوب إلى مالقـــة؛ بلـــد مـــن بـــلاد الأندلـــس؛ عـــلى ساحـــل المَجَـــاز الـــذي يقـــال لـــه الزُّقَـــاق؛ لـــم يقـــع لي اســـم أبيـــه؛ شاعـــر أديـــب مشهـــور؛ رأيـــت لـــه أشعـــارا في ذي الوزارتيـــن أبي جعفـــر أحمـــد بـــن بَقنـــة وزيـــر دولـــة العلوييِّـــن مـــن بـــني حمـــود؛ وذكـــره أبـــو عامـــر بـــن شُهَيْـــد مفضِّـــلا لـــه؛ وأنشـــد ممـــا استحســـن مـــن شعـــره:**

وكَـــمْ عَنَّ يَوْم النحْـــرِ مِنْ نَحْـــرِ شَـــادِنٍ
لِعيـــنِي بِأطـــوَاقِ الجمـــالِ مُطـــوَّقِ)).

جذوة المقتبس، ص: 61.

أهــل عصــره مَعــدود، وشاعِــرُ بــني حَمُّــود؛ ولــه فيهــم غيــرُ مــا قصيــد، ومقطوعــاتٌ في النَّسيــب؛ وجدتهــا بخــطِّ الأديــب أبي عــليّ الحســن بــن الغليــظ مــن أفــق مالقــة أيضــا؛ صاحبــه الكثيــر الاتصــالِ بــه والمُنادمــةِ لــه)).[1] وكمــا هــو واضــح؛ فشعــر ابــن الســراج هــذا تغــب عليــه نزعــة الوصــف، وحــب الطبيعــة، والغــرق في المجــون. وهــذه بعــض المقاطــع المختــارة مــن الذخيــرة والمغــرب ونفــح الطيــب. فممــا قالــه عنــد سماعــه لهــزار؛ وهــو ذلــك الطائــر المسمى في بــلاد المغــرب والأندلــس بــأمِّ الحَسَــن[2]:

وَمسْمِعَــةٍ تغنينــا ارتجــالاً
وَتصْحبنــا بنغمتهَــا دَلاَلاَ
وَبينَ أكفنــا خمــرٌ وَمَــاءٌ
إذَا ما سالَ خِلتَ الدُّرَّ سَــالاَ
فإنْ شاءَتْ سقيناهــا مدَامــاً
وإنْ شــاءَتْ سقيناهــا زُلاَلاَ
وَلوْ سُقيتْ دَمِي وَدَمِي حَرَامٌ
لَكَــانَ لِحســنِ منطِقِهَا حَلاَلاَ

---

[1] **الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 870 ــ 871.**

[2] **ثمــة قــول يــرى أن أم الحســن هي الشحــرور والعندليــب والبلبــل.**

ويقــول أيضــا:

وَمُسمِعَةٍ غنتْ فهَاجــتْ لنا هــوًى
جنينا به مِنها ثمَــارَ المنَى جنيــا
دَعوْتُ لَهَا سُقيَا، فمَا استكمَلَ الرِّضَا
دُعائِي لها حَتى سَقاها الحَيا سَقيَــا
وَكأسٍ عَلى طِيبِ استمَاعِي لِصَوتِها
شرَبتُ، وَدَمعُ المُزْنْ يُسعدُنِي جريْا

ثــم يقــول:

كفَي حزناً أنِّي أرَى الحسنَ ممكِنــاً
وَلستُ أرَى لِي فيهِ أمْراً وَلاَ نهيــا
وَلوْ تعــدِلُ الأيــامُ فِي بذلِ خطــةٍ
لَمَا كنتُ فِي السُّفلَى وَغَيْرِيَ فِي العُليا

وممــا قالــه في ديــك صــدح مــع السحــر:

رَعَى اللهُ ذَا صَوْتٍ أنسْنا بصَوتــهِ
وَقد بانَ فِي وَجهِ الظلاَم شحــوبُ
دَعــا مِنْ بعِيــدٍ صَباحاً فأجابــهُ
يُخبرُنـــا أنَّ الصبــاحَ قـــــرِيبُ

عَليَّ لــهُ ــ لوْ كنتُ أملكُ أمــرَهُ
حياةٌ عَلَى طِيبِ الزَّمــانِ تطِيــبُ

ولـــه كذلـــك:

رَعَى اللـــهُ فِتيَانـــاً أنسْتُ بقرْبهــمْ
عَلَى جَــدْوَلٍ لِلمـــاءِ فِيـــهِ خرِيـــرُ
أقمنا بهَا يَوْمينِ فِي خفضِ عِيشـــةٍ
وَلاَ عيـــشَ إلاَّ قهـــوَةٌ وَغدِيـــــرُ
تـــدُورُ القـــوَافِي بَيننـــا نستحِثهـــا
وَكـــأسُ الحميا بِالســـرُورِ تـــدُورُ
وَفِي الشجرَاتِ الخضرِ مِنهُ رَقِيقـــة
لنغمتِهَـــا بَيْـــنَ الضُّلـــوعِ هدِيـــرُ
إذَا مَا تغنـــتْ فوقنـــا قلـــتُ قيْنـــة
تلاَهـــا بصَـــوْتٍ مُثلثـــانِ وَزِيـــرُ
سَبَتني بِصَوْتٍ لوْ يُبـــاعُ اشترَيتـــهُ
بمَا مَـــرَّ مِنْ عمـــرِي وَذَاكَ يسيـــرُ

ــ ثــم أبــو عــلي الحســن بــن الغليــظ المالــقي:
كــان ملازمــا لزميلــه الشاعــر ابــن الســراج المالــقي؛ فهمــا وجهيــن لعملــة واحــدة كمــا يقــال. والمصــادر

التي تكلمت عن ابن السراج تحدثت – في سياق واحد – عن ابن الغليظ؛ لأنه كان هو المورد الأساسي الذي استقت منه تلك المصادر الأدبية أخبار زميله ابن السرج. وكان هذان الشاعران في خدمة ملوك بني حمود. ويتميز شعرهما بالتوجه نحو وصف الطبيعة، والمجون. هذا وقد جاءت أشعار ابن الغليظ متداخلة مع أشعار ابن السراج؛ إذ كانت عبارة عن مطارحات شعرية إخوانية بينهما؛ حيث كان ابن الغليظ – في أغلب الأحيان – يستفز صديقه ابن السراج بشطر أو بيت أو بعض أبيات؛ فينساق هذا الأخير مع تيار الإغراء؛ فيأتي ببقية الفكرة متقيدا بالبحر والقافية والروي نفسه. وكعينة من شعر ابن الغليظ؛ هذه الأبيات التي بعث بها إلى ابن السراج مغريا إياه كي يلتحق به؛ حيث أعد مجلس شراب وأنس:

يا خليلاً صَفا وَكدَّرَ يومِي

هل إِلَى الطيبِ فِي غدٍ مِنْ سبيلِ؟

لوْ ترانِي أسارِقُ اللحظَ خِلي

وَأسقِّي مِنْ رِيقهِ المعسولِ

لتمَنيــتَ أنْ تــرَى "حسُــنَ الــوَرْ
دِ" [1] تغنيــكَ بِالغنــاءِ النبيـــلِ
يا خلِيــلاً مِثالـــهُ نصْــبَ عيــنِي
لــوْ خلونـــا إذَنْ شفيــتُ غليــلِي

وقـــال واصفـــا جلســـة مـــن جلساتهمـــا في الطبيعـــة الخلابـــة؛ محـــاولا بذلـــك تحريـــك صديقـــه ابـــن ســـراج، واستفـــزازه لـــكي يصـــف ذلـــك الموضـــع الجميـــل:

شرِبنـــا عَلَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ
خرِيـــرُ دُموعِي عِند رُؤْيةِ أزْهـــرِ[2]
حلفـــتُ بعينيهَا لقـــدْ سَفكـــتْ دَمِي
بأطـــرَافِ فتـــانِ وَألحـــاظِ جـــؤذرِ

ثـــم أعـــاد إنشـــاد صـــدر البيـــت الأول؛ بغـــرض تحريـــك صديقـــه ابـــن الســـراج:

شرِبنـــا عَـــلَى مـــاءٍ كـــأنَّ خرِيـــرَهُ

---

[1] حُـــسُـــــن الـــوَرْد: جاريـــة يحبهـــا ابـــن الســـراج.
[2] أزْهَـــرُ جاريـــة لبعـــض أصدقائهمـــا كـــان يهواهـــا ابـــن الســـراج.

فقـــال عـــلى الفـــور:

بكـــاءُ محـــبٍّ بانَ عنـــه حبيـــبُ
فمنْ كانَ مشغوفـــاً كئيبـــاً بإلفـــهِ
فـــإنِّي مشغـــوفٌ بـــهِ وكَئيـــبُ

ومـــن المقاطـــع الشعريـــة الـــتي نسبهـــا ابـــن بســـام إلى ابـــن الغليـــظ؛ بغـــرض استفـــزاز ابـــن الســـراج:

بـــدَا الوَرْدُ فِي أغصانهِ متعرِّضـــاً
يذَكـــرُني مَن اسمهُ حســـنُ الـــوَرْدِ
يذَكـــرُ أيامـــاً نعمنـــا بطِيبهـــا
ورَشف رُضابٍ طَعمهُ حَسنُ الوَرْدِ
فدَعنِي ولاَ تلـــحَ عَلَى الحبِّ أهلـــهُ
فَلوْ كُنت تدْرِي لَمْ تلمْنِي عَلى وَجدِي

فقـــال:

ولَما تبـــدَّى الوَرْدُ فـــوقَ غصُونـــهِ
وَذَكرنِي بِالـــوَرْدِ فِي صَفحةِ الخـــدِّ
ذَكـــرْت به منْ خـــدُّهُ لِيَ رَوْضـــة
تهيمُ بها مَن حسنِها رَوْضةُ الـــوَرْدِ

فقلتُ لِمنْ عهدِي لـــهُ مِثــلُ عهــدِهِ

سَقَاكَ الحَيا مِنْ صَاحِبٍ حافِظِ العهدِ

وَقلتُ اسْقِنِي كأساً عَلَى طِيبِ ذِكرِها

فـــإِنِّيَ مَشغوفٌ بِها بينِكــمْ وَحــدِي

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج معتـــذرا عـــن تخلفـــه عـــن موعـــد تواعـــدا عليـــه:

يـــا صَدِيقـــاً وِدَادُهُ مَا يرِيـــمُ

وَخليـــلاً إخـــاؤُهُ لِي يــــدُومُ

جَاءَنِي رَاغِباً لأحضُرَ عُرْســـاً

مَنْ لـــهُ عِندَنـــا ذِمـــامٌ قدِيـــمُ

وَهوَ عُسْرٌ لاَ تأتِهِ خاوِيَ البطـْ

ــنِ فإنَّ الغــدَاءَ فِيـــهِ نسِيـــمُ

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج ــ أيضـــا ــ بعـــد عودتـــه مـــن سفـــر متعـــب؛ رافـــق فيـــه أناســـا لـــم يرتـــح لرفقتهـــم:

يا مَنْ أقلبُ طـــرفِي فِي مَحاسِنِـــهِ

فـــلاَ أرَى مِثلهُ فِي النـــاسِ إنسَانـــا

لَوْ كُنتَ تَعلــمُ مَا لاَقَيتُ بَعْــدَكَ ما
شَرِبتَ كَأساً وَلاَ استَحْسَنتَ رَيحَانـــا

فأجابـــه بقولـــه:

يا مَـــنْ إذَا سقتنِي الـــرَّاحَ رَاحتـــهُ
أهـــدَتْ إلَيَّ بِها رُوحـــاً وَرَيحانـــا
مَنْ لَمْ يَكنْ فِي صَبَاحِ السَّبتِ يَأخُذها
فَلَيسَ عِندِي بِحُكمِ الظرْفِ إنْسَانـــا
فَكنْ عَلَى حُسْنِ هَذَا اليومْ مُصْطَبِحاً
مُؤَخـــراً حسنـــاً فِيـــهِ وَحسانــــــا
وَفِي البَسَاتِينِ إنْ ضَاقَ المَحَـــلُّ بِنـــا
مَندُوحَة لاَ عَدمْنـــا الدَّهـــرَ بُسْتَانـــا

ـ ثـــم أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القِبذَاقِي الأشبـــوني:[1] لـــم يكـــن ابـــن مقانـــا مـــن المقيميـــن في مالقـــة؛ ولكنـــه زار بـــلاط الخليفـــة العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى؛ خـــلال تجوالـــه في بـــلاد الأندلـــس؛ أيـــن مدحـــه كمـــا مـــدح بعـــض الأمـــراء في تلـــك الربـــوع. هـــذا وقـــد كتـــب الحميـــدي اسمـــه هكـــذا: ((**عبـــد الرحمـــن بـــن مقتـــاة**

---

[1] قـــال فيـــه ابـــن بســـام: ((مـــن شعـــراء غربنـــا المشاهيـــر؛ ولـــه شعـــر يُغْـــرِبُ عـــن أدب غزيـــر؛ تصـــرف فيـــه تصـــرف المطبوعيـــن المجيديـــن؛ في عنفـــوان شبابـــه وابتـــداء حالـــه، ثـــم تراجـــع طبعـــه عنـــد اكتهالـــه)). الذخيـــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 786.

البطليــوسي؛ أبــو زيــد)).[1] وقـــال إنـــه شاعـــر مشهـــور؛ ثـــم أورد لـــه هـــذا القطعـــة الشعريـــة:

وَرَوْضٍ مِنْ رِيَاضِ الحُزْنِ ناءٍ
كـــأنَّ مـــلاَءَهُ وَشْيٌ مُعضـــدْ
خرَقنـــا دُونهُ أحشـــاءَ خـــرْقٍ
كـــأنَّ سرَاتـــهُ جيـــشٌ مُـــزَرَّدْ
وَقدْ نشـــرَ الصَّبَاحُ رِدَاءَ نـــورٍ
عَلَى دُرَرٍ مِنَ الزَّهرِ المُنضـــدْ
كـــأنَّ الطـــلَّ مُنتشِـــراً عَليـــهِ
بـــرَادَة فِضةٍ فِي الجـــوِّ تبـــرَدْ
كـــأنَّ غدِيـــرَهُ مـــرْآة قيـــنٍ
جلاَها الصَّقلُ أوْ صَرْحٌ مُمَـــرّدْ
إذَا طربـــتْ عَليهِ الطيرُ غنـــتْ
لإسْحـــاقٍ وَزِرِيْـــابٍ وَمَعبـــدْ

---

[1] **جـــذوة المقتبـــس، ص: 279.**

أما ابن بسام فقد نقل عن الوزير الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري قوله: **((كان أبو زيد ابن مقانا قد انصرف شيخا إلى وطنه عندنا؛ بعد أن جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة؛ قال: فمررت به يوما بقريته التي تدعى بالقِبذَاق من ساحل شِنترة؛ وبيده مزبرة** [أداة لقطع الأشجار]؛ **فلما رأيته ملت إليه ومال إلي، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حراثٍ يحرثُ بين يديه)).**[1] ويبدو أن ابن مقانا كان لا يسمع جيدا؛ إذ وصف نفسه بالصمم في هذا البيت:

سمِعتُ الكنكَ يَصْرُخُ فِي الرَّبيعِ
عَلى مَا بِي مِنَ الصَّمِمِ الطبيعِي

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي حظيت بانتشار واسع في المغرب والأندلس؛ وهي التي قال فيها ابن بسام: **((وله القصيدة المشهورة في ابن حمود؛ يتداول القوّالون أكثر أبياتها؛ لعذوبة ألفاظها، وسلامتها)).**[2] ومما حكاه المقري بخصوص هذه القصيدة قوله: **((وقد كان بنو حمود من ولد إدريس العَلَوي؛ الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس؛ وكانوا إذا**

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 787.

[2] نفسه، مج: 2، ص: 791.

حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم؛ يتكلم من وراء حجاب؛ والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي؛ الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته النونية... وبلغ فيها إلى قوله: (أنظرونا نقتبس...)؛ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: "انظر كيف شئت"؛ وانبسطَ مع الشاعر، وأحسن إليه)).[1] ومطلع هذه القصيدة التي مدح بها ابن مقانا إدريس العالي هكذا:

أَلبَرقٍ لائحٍ مِنْ أندَرِينْ
ذرَفتْ عَيْناكَ بِالمَاءِ المَعِينْ
لعِبَتْ أسْيَافهُ عَارِيَة
كَمَخارِيقَ بِأيدِي اللاَّعِبِينْ
ولِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وحَنِينْ
ولَقلبِي زَفرَاتٌ وَأنِينْ
وَأنَاجِي فِي الدُّجَى عَاذِلتِي
وَيْكِ لاَ أسْمَعُ قولَ العَاذِلِينْ
عَيَّرَتنِي بِسَقامٍ وَضَنًى
إنَّ هَذيْنِ لزَيْنُ العَاشِقِينْ

---

[1] **نفح الطيب، ج: 1، ص: 214.**

إلى أن يقــول:

وكـــأنَّ الطـــلَّ مِسْـــكٌ فِي الثـــرَى
وَكـــأنَّ النـــورَ دُرٌّ فِي الغصُـــونْ
وَالنـــدَى يَقطـــرُ مِـــنْ نرْجَسِـــهِ
كدُمُـــوعٍ أسْبلتهُـــنَّ الجُفـــونْ
وَالثرَيـــا قـــدْ عَلَـــتْ فِي أفقِهَـــا
كقضِيـــبٍ زَاهِـــرٍ مِـــنْ يَاسَمِيـــنْ
وَانْبـــرَى جُنُـــحُ الدُّجَى عَن أفقـــهِ
كَغـــرَابٍ طـــارَ عَنْ بَيضٍ كَنِيـــنْ
وكـــأنَّ الشَّمْـــسَ لمـــا أشرَقـــتْ
فَانثنـــتْ عَنْهَـــا عُيـــونُ النَّاظِريـــنْ
وَجْـــهُ إدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَـــلِي
بْـــنِ حَمُّـــودٍ أمِيـــرِ المُؤمِنِيـــنْ
خـــطَّ بِالمِسْـــكِ عَـــلَى أبوَابـــهِ
ادْخلوهَـــا بِسَـــلاَمٍ آمِنِيـــنْ
وَينـــادِي الجـــوْدُ فِي آفاقـــهِ
يَمِّمُـــوا قَصْـــرَ أمِيـــرِ المُسْلِمِيـــنْ

مَلِـــــكٌ ذُو هَيبـــــةٍ لكِنـــــهُ
خاشـــــعٌ لِلـــهِ رَبِّ العالمِيــــــنْ
وَإذَا مَـــــا رُفِعـــــتْ رَاياتـــــهُ
خفقـــتْ بَيـــنَ جَنـــاَحَيْ جَبْرَئِيـــنْ
وَإذَا أشكـــلَ خطـــبٌ مُعضِـــــلٌ
صَـــدَعَ الشـــكَّ بمِصبْـــاحِ اليَقِيـــنْ
وَإذَا رَاهـــــنَ فِي السبـــــقِ أتَى
وَبيمْنـــــاهُ لِـــــوَاءُ السابقِيـــــنْ
يَا بـــنِي أحْمـــدَ يَا خيـــرَ الـــورَى
لأبيكـــمْ كـــانَ رَفـــدُ المُسْلِـــمِيـــنْ
نـــزَلَ الــــوَحْيُ عَليـــهِ فاحْتَـــبَى
فِي الـــدُّجَى فَوقَهُمُ الرُّوحُ الأمِيـــنْ
خلِقـــوا مِـــنْ مَـــاءَ عَـــدلٍ وَتـــقى
وَجَمِيعُ النـــاسِ مِنْ مَـــاءٍ وَطِيـــنْ
انظُرُونـــا نقتبـــسْ مِـــنْ نُورِكـــُم
إنـــهُ مِـــنْ نـــورِ رَبِّ العَالمِيـــنْ

ولمـا خـرج مـن بلنسيـة قاصـدا طرطوشـة؛ لزيـارة صاحبهـا الفـتى العامـري المدعـو مقاتـلا؛ منـع مـن الجـواز إليهـا؛ فكتـب إلى مقاتـل هـذه الأبيـات:

إنْ كانَ وَاديــكَ نيــلاً لاَ يُجازُ بـــهِ

فمَالنا قــدْ حُرِمْنــا النيْــلَ وَالنيــلاَ

إنْ كانَ ذَنبي خــرُجي مِنْ بَلنسيَـــةٍ

فمَــا كفــرْتُ وَلاَ بَدَّلــتُ تبدِيــلاَ

"هِيَ المَقادِيــرُ تَجْرِي فِي أعِنتِهَــا"

لِيقــضِيَ اللـــهُ أمراً كانَ مَفعــولاَ

ولـــه أيضـــا في مجاهــد العامــري:

ولَمــا سَقتنــا مِــنِ ابرِيقِهَــا

لثمْنـــا يَدَيهَـــا وَخلخالهَـــا

وَبتنــا وَباتــتْ عَــلَى سَاقِهَــا

تصَفَــقُ لِلشــرْبِ جرْيالَهَــا

كأنَّ نجُــومَ الــدُّجَى رَوْضَــة

تَجُــرُّ بهَــا السُّحْــبُ أذْيالهَــا

كــأنَّ الثريَــــا بهــا رَايـــة

يقــودُ المُوَفـــقُ أبطالهـــا

ـ ثــم أبو عمرو بن هاشم وزير العالي إدريس بن يحــيى:
لــم تتكلــم جــل المصــادر عــن هــذا الوزيــر الشاعــر؛ ومــا عرفنــاه عنــه أتى في المغــرب؛ حيــث

قال عنه صاحبه: **((من المسهب: كان له خلال توجب له الوزارة. أخبرت انه كان يوما في بيت وزارته؛ فدخل عليه غلام جميل بقل عذاره؛ فقال:**

أتَانِي وَقَدْ خطَّ العِذَارُ بخدِّهِ
كمَا خطَّ مِنْ جمْرٍ عَلَى مُهْرَقٍ سَطرَا
فقلتُ لهُ: لمْ يَقتنِعْ بِحَيَائه
مُحياكَ حَتَّى زَادَ مِنْ شعرٍ سِترَا)).[1]

ـ ثم أبو علي الحسن بن حسون:[2]
هكذا ورد اسمه في بعض المصادر. وثمة غموض كبير يكتنف هذا الفقيه القاضي؛ حيث يوجد ـ كما يتبادر إلى الذهن ـ اثنان ـ أو أكثر ـ وليا قضاء مالقة في فترة زمنية واحدة؛ أو متقاربة على الأقل؛ ولا يعرف إن كانا ـ في حقيقتهما ـ شخصا واحدا أم شخصين؛ إذ تسمي المصادر ذلك القاضي أحيانا باسم الحسن وأحيانا أخرى باسم الحسين أو باسم محمد بن الحسن؛ كما يكنيه بعضهم بأبي

---

[1] المغرب، ج: 1، ص: 425.

[2] قال فيه ابن سعيد: ((من المسهب: "عين مالقة. ورب حلِّها وعَقْدها، وعلم بُرْدِها وواسطة عِقْدِها، وكان من أئمة العلماء، ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي)). نفسه، ص: 430.

علي وبعضهم الآخر بأبي عبد الله.[1] أضف إلى ذلك أن ابن بشكوال سمى أيضا قاضيا – ولي قضاء مالقة في زمن بني حمود؛ وبالتحديد في زمن إدريس بن يحيى – باسم أبي علي حسين بن عيسى بن حسين الكلبي المعروف بحسون؛ ونسبه إلى بلدة جراوة بالمغرب. وقال أنه توفي سنة 453هـ(1061م).[2]

أما صاحب المغرب فقد تكلم عن المدعو أبا علي الحسن بن حسون بإيجاز شديد؛ وقال فيه: **((عَيْن مالقة، وربٌّ حَلِّهَا وعقدها، وعلم بُردها وواسطة عقدها؛ وكان من أئمة العلماء؛ ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي... وقاسى شدة من اختلاف الخلفاء على**

---

[1] تعرض ابن بسام خلال حديثه عن الفقيه الشاعر غانم بن وليد؛ (المتوفى سنة 470هـ) حين أورد قصيدته التي رثى فيها القاضي ابن حسون؛ فقال: ((وله [أي لغانم] من قصيدة يرثي الفقيه القاضي أبا عليّ بن حسون)). الذخيرة ق: 1، مج: 2، ص: 866. علما بأن صاحب القصيدة سماه فيها بالحسين؛ بقوله: ((ولِّي حُسَينٌ والمحامد بعده)). أنظر أيضا المغرب، ج: 1، ص: 430. ونفح الطيب، ج: 3، ص: 390. وتاريخ قضاة الأندلس، ص ص: 90 – 94.

[2] جاء تحت رقم 327 ((حُسَين بن عيسى بن حسين الكلبي: قاضي مالقة؛ يُكْنَى: أبا علي، ويعرف بحسون... وكان فقيه مالقة وكبيرها، أصله من جراوة (قلت: جراوة التي أصله منها هي بين تلمسان، وعقبه بها مشهور. اخبرني بذلك أهل ذلك الموضع)؛ وتوفي صدر سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. قال الشعبي: وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظرائها، ما رأيت مثله في علمه بها)). الصلة، ج: 1، ص: 142.

بلــده)).[1] كمــا أورد لـــه قطعـــة شعريـــة صغيـــرة نسبهـــا إليـــه؛ وهي:

خلعـــتُ عِذَارِي فِي هوَاها وَعِندَمَا
تبَدَتْ نجومُ الشيبِ فِي غَسقِ الشعْرِ
وَثنَيتُ عَنانِي وَارتَجَعتُ إِلَى النهَى
وَعاوَدَنِي حِلمِي وَرَاجَعنِي صَبَـــرِي
وَأَصبَحْتُ لاَ أبغِي سِوَى العِلمِ خُطَة
ففِيهِ الذِي أرْجوهُ فِي مَوقفِ الحَشْـــرِ
وَلَوْلاَهُ مَا أَصبَحتُ أَقضِي عَلَى الألَى
صَحِبْتهمْ فِي عُنفـوَانٍ مِــنَ العُمرِ

وفي المقابـــل ذكـــر المقـــري مـــا دار بيـــن المدعـــو ابـــن حَـــسّـون وإدريـــس بـــن يحـــيى؛ فقـــال: **((وحـــكي أن العـــالي إدريـــس الحمـــودي لمـــا عـــاد إلى ملكـــه بمالقـــة؛ وبَّـــخ قاضيهـــا الفقيـــه أبـــا عـــلي بـــن حَسُّـــون؛ وقـــال لـــه: "كيـــف بايعـــت عـــدوي مـــن بعـــدي وصحبتـــه؟". فقـــال: "وكيـــف تركـــت أنـــت ملكـــك لعـــدوك؟". فقـــال: "ضـــرورة القـــدرة حملتـــني عـــلى ذلـــك". فقـــال: "وأنـــا أيضـــا حصلـــت في يـــد مَـــنْ لا يسعـــني إلا طاعتـــه"))**.[2]

---

[1] المغـرب، ج: 1، ص ص: 430 ــ 431.

[2] نفـح الطيـب، ج: 3، ص: 390.

ثــم أورد المقــري لهــذا القــاضي أبياتــا مــن الشعــر نسبهــا ليــه:

رُفِعــتُ مِنْ دَهرِي إلَى جَائِــرٍ
وَيبتــغِي العَــــدلَ بأحْكـــامِي
أضْحــتْ به أمْلاَكــهُ مِثلَ أشـْ
ـــكـالِ خيــالٍ طــوْعَ أيــــامِ
هــذَا وَلمــا أبــرَمَ ذَا ناقِــضٌ
كأنهــمْ فِي حُكــــمِ أحـــــلاَمِ

غيــر أن صاحــب كتــاب تاريــخ قضــاة الأندلــس المدعــو أبــا الحســن علــي بــن عبــد اللــه الجــذامي المالــقي النبــاهِيّ. يذكــر روايــة يمكــن أن تفــك الإشكــال بعــض الــشيء.[1] وذلــك أنــه تكلــم عــن قــاضٍ ولي قضــاء مالقــة في الفتــرة الزمنيــة الــتي حــددت للقــاضي المدعــو ابــن حســون؛ غيــر أن الاســم الــذي ذكــره صاحــب كتــاب تاريــخ قضــاة الأندلــس يختلــف عمــا ذكــر سابقــا. فالاســم هنــا هــو: محمــد بــن الحَسَــن الجُــذاميّ النُّبــاهيّ. وقــال أنــه ولي ــ لأول مــرة ــ القضــاء في عهــد يحــيى بــن علــي بــن حمــود؛ حيــث أجبــره علــى تلــك المهمــة؛ وذلــك أنــه خيــره بيــن القبــول بخطــة القضــاء أو السيــف؛ فقبــل بهــا بشــروط.

---

[1] أنظــر كتــاب تاريــخ قضــاة الأندلــس المسمى بــ: كتــاب المراقبــة العليــا فيمــن يستحــق القضــاء والفتيــا. ص ص: 90 ــ 94.

لما توفي يحيى في قرمونة؛ عرفت مالقة اضطرابات وفوضى؛ جراء قدوم الفتى الصقلبي **نجا** إليها؛ وتكليف وزيره **محمد السطيفي** بتسيير البلد؛ فاستعفى القاضي محمد بن الحسن الجذامي النُّباهيّ. وبعد ثورة الجند والرعية على **نجا والسطيفي** وقتلهما؛ انتصب إدريس بن يحيى على عرش مالقة؛ فعين في خطة القضاء القاضي محمد ابن الحسن بكتاب تولية نشره صاحب الكتاب وهو: ((**هذا كتابٌ أمر به، وأنفذَه، وأمضاه من عَهده، وأحكمَه الإمامُ أميرُ المسلمين، عبدُ الله العالي بالله، الظافرُ بحول الله، إدريس بن المُعتلي بالله ــ أعلى اللهُ أثره وأعزَّ نصره ــ للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن ــ وفقه الله ــ قلده به القضاءَ بين المسلمين بمدينة مالقة ــ حرسها الله ــ وأعمالها**)). ثم يضيف مؤلف كتاب: ((**وهو كتاب** [يقصد كتاب التولية] **كبيرٌ في رَقٍ، وتأريخه في إحدى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة 445هـ**[1053م]**؛ وعليه توقيعُ العالي بخطّ يده، نصه: "يُنفذُ هذا ويُعمَل عليه، واللهُ الموفق، وهو المستعان"**))[1].

---

[1] **تاريخ قضاة الأندلس، ص: 91.**

وممــا يبعــث عــلى الاعتقــاد في احتمــال كــون هــذا الشخــص هــو نفســه الــذي ورد ذكــره مــن طــرف كــل مــن: ابــن بســام، وابــن سعيــد، والمقــري؛ مــا جــاء ذكــره في كتــاب قضــاة الأندلــس (المســمى بكتــاب المرقبــة العليــا فيمــن يستحــق القضــاء والفتيــا)؛ حــول روايــة مقتــل القــاضي النبــاهي؛ إذ جــاء أنــه كــان رفقــة بعــض الفقهــاء ومنهــم الأديــب غانــم؛ الــذي تمكــن مــن النجــاة مــع الآخريــن. ويبــدو أن قصيــدة غانــم في رثــاء القــاضي الــذي سمــاه ابــن بســام بابــن حســون تتفــق مــع هــذا السيــاق؛ علمــا بــأن صاحــب القصيــدة يكنيــه فيهــا بــأبي عــلي ويسميــه بالحسيــن[1].

[1] وجــاء فيهــا:

((المَوْتُ أعرَبَ فِي أصحِ مَسَــاق — أنَّ المنِيــة شمــرَتْ عَنْ ســاق
المَوْتُ يُخبِــرُ عَنْ مرَارَةِ كأسِــهِ — وَالكأسُ ملأى لمْ يدِرْهــا ســاق
هــلاَّ توَاصَينــا بصــورَةِ حالِنــا — وَالنفــسُ ترقَى فِي لهًى وَتــرَاق
يَا آمِــلَ الدُّنيــا لبــاقِي عمــرِهِ — أقصِــرْ فما أمــلٌ عليهــا بــاق
حسنــاءُ زيٍ بِالنــهَى ممهــورَة — فــإذَا تعــرَّتْ مُتعــتْ بطــلاَق
مَعْشوقــة الحرَكــاتِ إلاَّ أنهــا — أفــعَى تــدُبُّ لأعشــق العشــاق
كمْ أوْدَتِ الدُّنيا بِغــضٍّ شبيبــةٍ — كالغصْــنِ ماسَ بناضــرِ الأوْرَاق
وَموَقّــرٍ لبسَ المَشِيــبَ جَلاَلَــة — بَحــر لباغِي العِلمِ عَــذبِ مَــذَاق
طرَقَتــهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقَــتْ — مِنــهُ الفضَائــلُ أيمَــا إطــرَاق
لوْ كانَ يُبقِي المَوْت حَبراً عَالِمــاً — لــوَقَى الحِمــامَ أبــا عــلِيّ وَاق
وَلَى حسيــنٌ وَالمحامــدُ بعــدَهُ — كيــلاَ تقــاسِي جاحمَ الأشــوَاق
أسَفِي لرَيَــة كنتَ عقدَ جَمَالِهــا — فابتــزَّ ذَاكَ العِقــد دُونَ وِفــاق
تزدَانُ مِنكَ بِحســنِ مَا قدْ طوّقــت — زَيــنَ الحمامِ الــوُرق بِالأطــوَاق

هذا ما سمح به المجال فيما يخص ذكر الأدباء والعلماء الذين أظلتهم الدولة الحمودية؛ على أنه من الضروري الإشارة إلى أن عهد العالي إدريس بن يحيى كان أكثر ثراء وازدهارا من غيره من العهود التي حكم فيها ملوك آخرون من بني حمود. وذلك لأن الفترة التي حكم خلالها العالي تميزت ـ على الرغم من قصرها وانقطاعها ـ بالحركة الأدبية والثقافية النشيطة؛ إذ كان بلاط تلك الدولة عبارة عن منتدى أدبي؛ سمح لكثير من الأدباء والشعراء بعرض إبداعهم ونشره وإذاعته. وكانوا يجدون كل تشجيع وتكريم من قبل أمير الدولة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود.

عِلمٌ أعِينَ بفضلِ حِلمٍ رَاجحٍ   أخذَ الأمانَ لهُ مِنَ الأخلاَقِ
وَصبَاحَة وَسَمَاحَة قسمتْ لهُ   رِزقاً تبارَك قاسمُ الأرْزَاقِ
وَمِنَ الغَرِيبِ غرُوبُ شَمسٍ فِي الثرَى   وَضياؤُها باقٍ عَلى الآفاقِ
أبقيتَ فِي الدُّنيا مآثرَ ثرَّةً   تبلَى حُلى الأيامِ وَهْيَ بوَاقِ
قدْ كانَ مَجلِسُكَ المُباركُ مَوْسماً   فأقامَ أوْحشَ مِنْ غدَاةِ فرَاقِ
غيبتَ عنهُ مَغِيبَ بَدْرٍ كاملٍ   وَالليلُ أدْهمُ ضارِبٌ بروَاقِ
وَمِنَ العَجَائبِ وَالكسوفُ مرتَبٌ   قمرٌ توَارَى فِي زَمانٍ محاقِ
مَنْ ذَا أعزِّي فِيكَ مِنْ هذَا الورَى   لمْ يلقنِي إلاَّ بِحزنكَ لاَقِ
وَالناسُ مَحزُونونَ فيكَ كأنما   كانَ اتفاقهمْ عَلى إصفاقِ

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 866-868.

وهكذا ظلت الحال بين مد وجزر؛ حتى انتهى أمر الحموديين نهائيا في مالقة سنة 449هـ(1057م). وذلك بعد أن استولى باديس بن حبوس أمير غرناطة عليها؛ حيث ضمها إلى مملكته. ثم تلا ذلك خروج آخر أمراء الدولة الحمودية محمد بن إدريس (المستعلي) منها؛ قاطعا البحر إلى مليلة؛ أين بقي بها أميرا عليها حتى حلول تاريخ وفاته سنة 456هـ(1063م).

****

3)ـ دولـــة بني سليمـــان:

صاحـــب هـــذه الإمـــارة هـــو سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه الكامـــل ابـــن الحســـن المثـــنى ابـــن الحســـن السبـــط ابـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب.[1] وعليـــه فهـــو أخـــو إدريـــس الأكبـــر. هـــذا وقـــد تمكـــن سليمـــان مـــن إنشـــاء هـــذه الدولـــة في تلمســـان ــ الـــتي اعتبـــرت قاعـــدة للمغـــرب الأوســـط؛ وحاضـــرة لهـــذه الدولـــة العلويـــة ــ بفضـــل عـــون ومساعـــدة بعـــض القبائـــل الزناتيـــة المهيمنـــة عـــلى تلـــك الربـــوع. وتـــم ذلـــك عندمـــا لجـــأ إليهـــا مؤســـس الإمـــارة (**سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه**)؛ فـــاراً مـــن العباسييـــن بالمشـــرق.

---

[1] تضاربـــت الأقـــوال حـــول الشخـــص الـــذي يمكـــن أن تنســـب إليـــه إمـــارة تلمســـان؛ فـــإن كـــان معظـــم المؤرخيـــن والجغرافييـــن يقولـــون بأنـــه سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه؛ فـــإن آخـــرون يقولـــون إنـــه سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه المنحـــدر عـــن الحسيـــن بـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب . مـــن ذلـــك مـــا يقولـــه الطبـــري عـــن سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه؛ أنـــه قتـــل في وقعـــة فـــخ يـــوم الترويـــة في ســـنة 169هـــ. وفي المقابـــل يـــرى آخـــرون أن الـــذي تـــولى إمـــارة تلمســـان هـــو شخـــص يـــدعى محمـــد؛ ولكنـــه مـــن أبنـــاء الحسيـــن وليـــس مـــن أبنـــاء الحســـن كمـــا يتسلســـل نســـب بـــني إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه. ويقـــول أيضـــا آخـــرون أنـــه محمـــد بـــن سليمـــان مـــن ولـــد الحســـن بـــن عـــلي؛ وليـــس سليمـــان مـــن قـــدم إلى تلمســـان. ويعتبـــر البكـــري أحـــد القائليـــن بهـــذا القـــول؛ الـــذي يقـــول عـــن تلمســـان: ((وهي دار مملكـــة زناتـــة، وموسطـــة قبائـــل البربـــر، ومقصـــد لتجـــار الآفـــاق؛ ونزلهـــا محمـــد بـــن سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه بـــن حســـن بـــن عـــلي بـــن أبي طالـــب)). أنظـــر المغـــرب، ص: 77. وللمزيـــد مـــن التوضيـــح أنظـــر كـــل هـــذه الخلافـــات في كتـــاب دولـــة الأدارســـة؛ لإسماعيـــل العـــربي، ص ص: 137 ــ 146. غيـــر أن ابـــن حـــزم ــ وهـــو مـــن المحققيـــن المدققيـــن الثقـــاة ــ يـــرى أن الـــذي أقـــام الدولـــة بتلمســـان هـــو سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه بـــن الحســـن بـــن الحســـن بـــن عـــلي ابـــن أبي طالـــب. أنظـــر جمهـــرة أنســـاب العـــرب، ص: 48.

إذ تــم ذلــك عقــب مقتــل أخيــه إدريــس الأول؛[1] حيــث جــاء ــ هــو الآخــر ــ إلى هــذه الديــار بحثــا عــن الحمايــة والسلطــان. ولمــا وصــل إلى مشــارف إفريقيــة؛ عــرج جنوبــا؛ اتقــاء وخوفــا مــن عيــون أتبــاع العباسيــن وولاتهــم في القيــروان.

وتبعــا لذلــك فقــد وجــد في أراضي الرستميــن أمنــا وسلامــا؛ لا يمكــن توفرهمــا في شمــال البــلاد. وكــل مــا يمكــن قولــه في هــذا المجــال؛ هــو أن سليمــان بــن عبــد اللــه بعــد أن التحــق ببــلاد المغــرب؛ عقــب مــوت أخيــه إدريــس؛ كانــت محطتــه الأولى منطقــة تيهــرت؛ حيــث حــاول فيهــا كســب تأييــد القبائــل المتواجــدة بالمغــرب الأوســط؛ طمعــا في مناصرتهــم، ودعمهــم؛ غيــر أنهــم كذبــوه في بدايــة الأمــر، ولــم يصدقــوا خبــر انتسابــه لعــلي كــرم اللــه وجهــه. ولمــا لاحظــوا مــا يجــري مــن عمليــات مكثفــة للبحــث عنــه؛ مــن طــرف والي القيــروان؛ تيقنــت ــ عندئــذ ــ قبائــل المغــرب الأوســط مــن صدقــه، وصحــة نسبــه الهاشــمي.

---

[1] **يقــول ابــن خلــدون: ((وأمــا سليمــان أخــو إدريــس الأكبــر؛ فإنــه فــر إلى المغــرب أيــام العباسيــن؛ فلحــق بجهــات تاهــرت بعــد مهلــك أخيــه إدريــس؛ وطلــب الأمــر هنــاك)). العبــر، مج: 4، ص: 34.**

فتحقق له ـ حينها ـ شرط أصحاب النصاب الملكي؛[1] واجتمعت حوله قبائل زناتة؛ التي كانت آنذاك في صراع مع أمراء الدولة الرستمية؛ بدءاً بفتنة ابن فندين اليفرني الزناتي، وما تبعه من وقائع دارت بين الدولة الرستمية وشريحة عريضة من قبيلة زناتة؛ ممن كانوا متمذهبين بالواصلية. وعليه فقد اختارت شريحة عريضة من القبائل الزناتية مبايعة سليمان ابن عبد الله، وإعلان الطاعة له. وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**وطلب الأمر هناك** [أي سليمان]؛ **فاستنكره البرابر؛ وطلبه ولاة الأغالبة؛ فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكها، وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك**)).[2] وبذلك تمكن سليمان من إقامة ملكا ـ وإن كان محدود السيادة ـ بواسطة قبيلة زناتة في تلمسان. ويمكن تحديد امتداد نفوذ هذه الدولة بما كان يعرف في ذلك العهد بالمغرب الأوسط.[3]

---

[1] أنظر في هذا مقدمة ابن خلدون، ((فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 635 ـ 636.

[2] العبر، مج: 4، ص، 34.

[3] وقد ذكر عبد الرحمن الجيلالي بعض العلامات لحدود إمارة بني سليمان إذ قال: ((وإذا نظرنا إلى حدود الجزائر الإدريسية وجدناها لا تتعدى ـ من جهة الشمال الشرقي ـ مدينة وهران ونهر الشلف، ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر إلى جبال مديونة قبلي فاس؛ ولك أن تقول أنها تمتد ـ على الساحل ـ من الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة

ويبدو أن إمارة بني سليمان هذه كانت عبارة عن ولاية كبرى تابعة للمملكة الإدريسية؛ ولكنها تتميز باستقلال داخلي؛ مكن أمراءها من التصرف بحرية مطلقة. ومع هذا فقد كانت الدولة الإدريسية هي التي تتحمل أعباء الدفاع عن هذه الإمارة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل؛ حين أقام إدريس الثاني في جوار ابن عمه محمد بن سليمان بتلمسان، والمغرب الأوسط عموما؛ طيلة ثلاث سنين؛ بغرض تمهيد تلك الإمارة، وتأمين السلامة لحدودها؛ وتأديب بعض القبائل الصفرية المتمردة؛ من قبيلة نفزة وغيرها؛ وذلك في سنة 199هـ.[1]

شرقا، ثم تعود بناحية تنس غربا وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة)). تاريخ الجزائر العام، ج:، 1، ص: 183.

[1] وقد أورد هذا الخبر ابن أبي زرع إذ قال: ((ورجع [إدريس] إلى مدينة فاس؛ فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين [ومائة] ؛ فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة؛ فسار حتى غلب عليهم، ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبرا؛ قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسين [الصحيح هو الحسن السبط] <u>بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة</u>". فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين، ثم رجع إلى مدينة فاس الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27.

وكـــان إدريـــس الثـــاني ــ قبـــل ذلـــك ــ قـــد أقـــام فتـــرة مـــن الزمـــن في تلمســـان؛ عقـــد خلالهـــا اتفاقيـــة بينـــه وبيـــن الأغالبـــة؛ رسمـــت بموجبهـــا الحـــدود الفاصلـــة بيـــن دولتـــه ودولتهـــم. وقـــد اتفقـــوا عـــلى جعـــل شلـــف حـــداً فاصـــلا بينهمـــا. وكمـــا هـــو واضـــح؛ فقـــد اتخـــذ إدريـــس الثـــاني إمـــارة بـــني سليمـــان بمثابـــة الحاجـــز الـــواقي لدولتـــه بفـــاس؛ في وجـــه أطمـــاع بـــني الأغلـــب بالقيـــروان مـــن جهـــة، ودريئـــة تمنـــع امتـــداد النفـــوذ الإبـــاضي، والصفـــري مـــن جهـــة أخـــرى. كـــل هـــذا ولـــم تذكـــر مصـــادر الدولـــة الإدريسيـــة شيئـــا عـــن بـــني سليمـــان في تلمســـان خـــلال تلـــك الفتـــرة؛ بـــل ركـــزت حديثهـــا عـــلى أعمـــال إدريـــس الثـــاني ونشاطـــه في تلـــك الربـــوع.

وربمـــا يعـــود السبـــب في عـــزوف المؤرخيـــن عـــن الإسهـــاب والتدقيـــق في الحديـــث عـــن إمـــارة بـــني سليمـــان راجـــع إلى اعتقادهـــم بأنهـــا لا تعـــدو أن تكـــون ســـوى ولايـــة تابعـــة للدولـــة الإدريسيـــة بفـــاس. لـــذا فقـــد اقتصـــروا عـــلى الأحـــداث الـــتي صنعهـــا السلاطيـــن الأدارســـة لا غيـــر؛ خاصـــة عندمـــا يعلـــم القـــارئ بـــأن المؤرخيـــن ــ آنئـــذ ــ كانـــوا لا يهتمـــون كثيـــرا بغيـــر محيـــط السلطـــان وحاضرتـــه.

ومــع هــذا فلا بــد مــن الاعتــراف بأن هــذا القــول لا يخــرج عــن كونـــه قــولا افتراضيــا لا غيــر؛ وذلــك بسبــب اضطــراب السنــد التــاريخي إن وجــد.. لأن الأحــداث التاريخيــة لدولــة سليمــان بــن عبــد اللــه يكتنفهــا غمــوض كثيــف؛ بسبــب قلــة المصــادر الــتي يمكــن أن تتكلــم عنهــا بتوســع واستفاضــة. وكــل مــا توفــر لدينــا حــتى الآن؛ لا يتجــاوز بعــض المصــادر الحاملــة لمعلومــات هزيلــة؛ تشيــر إلى أمــراء هــذه الدولــة، والمــدن الــتي يحكمونهــا؛ بــدون تفاصيــل تذكــر، ومــن دون ذكــر تواريــخ يمكــن الاعتمــاد عليهــا؛ في تحديــد الفتــرات الزمنيــة الــتي حكــم خلالهــا أمــراء هــذه الدولــة.

هــذا وتجمــع المصــادر المتوفــرة عــلى أن الــذي خلــف سليمــان؛ عــلى عــرش تلمســان بعــد وفاتــه هــو ولــده محمــد. كمــا تقــول المصــادر أن محمــدا هــذا هــو الــذي استــدعى ابــن عمــه إدريــس الثــاني إلى تلمســان؛ كي يساعــده عــلى إخضــاع الأطــراف الشرقيــة مــن مملكتــه، وتأديــب الثائريــن مــن القبائــل الصفريــة؛ وبالفعــل لــبى محمــد بــن إدريــس طلــب ابــن عمــه محمــد بــن سليمــان وقــدم إليــه، كمــا سبقــت الإشــارة إليــه؛ حيــث ظــل في تلــك الربــوع حــتى استتــب الأمــر لبــني سليمــان بــن عبــد اللــه.

وحسب رواية ابن خلدون والتنسي؛ قد يكون محمد بن سليمان قام بتوزيع عمالات الدولة، ومقاطعاتها على أبنائه. فخص أحمد ابنه بولاية العهد، ونصب ابنه عيسى على عمالة أرشقول، وولده الحسن بمقاطعة في جهات تيهرت، وولده إبراهيم بتنس، وولده إدريس في جراوة؛ وهكذا.[1]

ويبدو أن أحفاد سليمان بن عبد الله قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط كله؛ بدءا بحدود بجاية شرقا، وحتى مدينة نمالتة (**مغنية**

---

[1] فمما قاله ابن خلدون مثلا: ((وورث [أي سليمان] ملكه ابنه محمد بن سليمان؛ على سننه؛ ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم ابن محمد بن أحمد [بن محمد بن سليمان]؛ وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدّعي بنو عبد الواد نسبه؛ فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول [أرشقول] لعيسى بن محمد بن سليمان؛ وكان منقطعا إلى الشيعة. وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى؛ وكنيته أبو العيش؛ ولم تزل إمارتها في ولده؛ ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى. وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر، وأخوه يحيى كذلك... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد ابن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وَبَطْوُش بن حناتِش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جدا)). العبر، مج: **4**، ص ص: **34 ـــ 36**.

حاليـــا) غربـــا.[1] وكانـــوا بمثابـــة أمـــراء عـــلى مـــدن منعزلـــة؛ تقـــف كحصـــون في وجـــه منافسيهـــم: مـــن بـــني الأغلـــب والرستميـــن. كمـــا عرفـــت هـــذه الديـــار أيضـــا هجـــرات أخـــرى لأحفـــاد عـــلي بـــن أبي طالـــب؛ وهـــو مـــا تؤكـــده الآثـــار الباقيـــة بعدهـــم؛ ممثلـــة في أسمـــاء الأماكـــن، والمـــدن الجزائريـــة؛ الـــتي تنســـب إليهـــم. كســـوق حمـــزة **(البويـــرة حاليـــا)**، نسبـــة إلى أميـــر هـــاز حمـــزة بـــن الحســـن بـــن سليمـــان بـــن سليمـــان وفيـــه يقـــول ابـــن حـــزم: ((**ملـــك هـــاز مـــن أرض المغـــرب،** [موقعهـــا بالقـــرب مـــن عيـــن بوسيـــف الحاليـــة] **وملـــك قطيعـــا مـــن صنهاجـــة؛ وإليـــه ينســـب ســـوق حمـــزة، وولـــده بهـــا كثيـــر؛ وكذلـــك أيضـــا ولـــد اخوتـــه في تلـــك الجهـــة**)).[2] وحسبمـــا يبـــدو فقـــد يكـــون السهـــل المعـــروف الآن بسهـــل بـــني سليمـــان منسوبـــا إلى سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه أيضـــا. ثـــم ســـوق إبراهيـــم؛ المنســـوب كذلـــك إلى إبراهيـــم بـــن محمـــد بـــن سليمـــان؛ كمـــا أن مدينـــة بوفريـــك الحاليـــة؛ منسوبـــة إلى أبـــي فريـــك الكبيـــر **[كتـــب في بعـــض المراجـــع خطـــأ ــ الكافـــر]**؛ وهـــو مـــن نســـل جعفـــر بـــن الحســـن **(عـــم إدريـــس الأول)**؛ لأن منطقـــة متيجـــة ــ بقاعدتهـــا قزرونـــة ــ كانـــت خاضعـــة لأبنـــاء جعفـــر بـــن الحســـن بـــن الحســـن بـــن عـــلي كـــرم اللـــه وجهـــه.

---

[1] **لمزيـــد مـــن التدقيـــق أنظـــر إلى مـــا كتبـــه مـــوسى لقبـــال عـــن بـــني سليمـــان في ديـــار الجزائـــر؛ في كتابـــه دور كتامـــة. ص ص: 209 ـــ 213.**

[2] **جمهـــرة أنســـاب العـــرب، ص: 55.**

وإذا ما تتبع القارئ المصادر التاريخية؛ سيجد أن جل بلاد المغرب أضحت ملجأ مفضلا لأبناء علي بن أبي طالب؛ حيث وجدوا في تلك الديار الأمن والتقدير والاحترام؛ تلك الأشياء التي فقدوه في جهات كثيرة من المعمورة.[1]

هذا وقد تم إسقاط دولة بني سليمان؛ بقواعدها كافة؛ بفعل ضربات جيوش الدولة الفاطمية؛ المنافسة لهم في النسب الهاشمي؛ تلك الدولة القوية المشكلة من قبائل: كتامة ومكناسة وصنهاجة. ونتيجة لذلك التهديد والتضييق؛ انكشف الجناح الشرقي لدولة الأدارسة؛ فأضحت ــ بدورها ــ عرضة لهجمات الفاطميين الشيعة من بني عبيد الله الفاطمي؛ الذين امتدت أيديهم إليها كذلك؛ فكانت نهايتها الحتمية هي الأخرى؛ بعد مدة من الزمن.

هذا ما توفر من معلومات حول دولة بني سليمان المغمورة في زوايا التاريخ المظلم تقريبا؛ كما أن موضوع الحضارة والنشاط الثقافي فيها يكاد الحديث عنه يدخل في عداد المستحيلات؛ وذلك بسبب غياب الشواهد اللازمة، وانعدام المعالم

---

[1] أنظر: العبر، ج: 4، ص ص: 34 ــ 36. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص ص: 474 ــ 484. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص ص: 182 ــ 190. ودور كتامة، ص ص: 209 ــ 215. ودولة الأدارسة، ص ص: 137 ــ 146. 293 ــ 294.

الضرورية لتكوين الصورة مقبولة حول هذا الموضوع. وعليه فقد تعذر الكشف عما يمكن أن يكون قد أنجز في ظل تلك الدولة من منشآت وأعمال حضارية وثقافية؛ لأن المصادر التاريخية ـ كما سبق ذكره ـ لم تقدم شيئا يذكر عنها في هذه المجالات، أو في غيرها من المجالات التاريخية الأخرى. ومع هذا يبدو أن لهذه الإمارة بعض الصلات الثقافية مع محيطها؛ شرقا وغربا. وحتى إن فقدت الشواهد على ذلك فليس معنى ذلك انعدام الحركة الثقافية بالتمام في إمارة بني سليمان. وخير دليل على ذلك تلك القصيدة التي قالها الشاعر الفحل بكر بن حماد في الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ وهي التي بقي منها مقطع صغير جاء فيه:

سَائِلْ زُواغة عن طعان سُيوفه
وَرماحه في العَارِضِ المُتهَلِلِ
وديار نفزة كيفَ دَاسَ حَريمَها
والخيلُ تمْرغ في الوشيج الذبَّل
وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلة
وسقىَ جَراوة من نقِيعِ الحَنظل)).

علـــى أنـــه يستحســـن التنبيـــه إلى دور البيئـــة القبليـــة المنغلقـــة الـــتي كانـــت تحيـــط بهـــذه الدولـــة؛ الأمـــر الـــذي أبقاهـــا محاطـــة بالغمـــوض؛ الـــذي كـــان لـــه تأثيـــر حـــتى عندمـــا اقتصـــر الأمـــر علـــى مجـــرد الســـرد التاريـــخي للمظهـــر السيـــاسي الخـــاص بهـــا.

****

4)ـ الدولة الفاطمية:[1]

ينتسب حكام هذه الدولة إلى فاطمة بنت محمد صلى الله علية وسلم، وإلى جدهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ويسمى مؤسسها وأول ملوكها ـ حسبما ورد في كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ـ هو: عبيد الله بن أحمد بن الحسين ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي كرم الله وجهه.[2]

---

[1] ينحصر البحث هنا في حدود الدولة الفاطمية القائمة ببلاد المغرب؛ وينتهي الاهتمام بها بدءا بانتقال الخليفة المعز إلى القاهرة.

[2] تضاربت الآقوال حول نسب مؤسس الدولة الفاطمية؛ ولم تتفق المصادر على سلسلة واحدة لآبائه؛ ومما يقوله ابن الأثير في هذا الباب: ((أول من ولي منهم أبو محمد عبيد الله؛ فقيل: هو محمد بن عبد الله بن ميمون ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم؛ ومن ينسب هذا النسب يجعله: عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب إليه القداحية. وقيل: هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني [ابن] محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي أبن أبي طالب رضي الله عنهم. وقد اختلف العلماء في صحة نسبه؛ فقال ـ هو وأصحابه القائلون بإمامته إن نسبه صحيح على ما ذكرناه، ولم يرتابوا فيه. وذهب كثير من العلويين العالمين بالأنساب إلى موافقتهم أيضا؛ ويشهد بصحة هذا القول ما قاله الشريف الرضيّ:

مَا مُقَامِي عَلَى الهَوَانِ وَعِنْدِي ... مِقْوَلٌ صَارِمٌ وَانْفٌ حَمِيٌّ

ألبَسُ الذلَّ فِي بلاَدِ الأعادِي ... وَبِمِصْرَ الخَلِيفَةَ العَلَوِيُّ

مَنْ أبُوهُ أبِي، وَمَوْلاَهُ مَوْلاَ ... يَ إذَا ضَامنِي البَعِيدُ القَصِيُّ

لَفَّ عِرْقِي بِعِرْقِهِ سَيِّدَا النَّا ... سِ جَمِيعاً: مُحَمَّدٌ وَعَلِيُّ

إنَّ ذُلِّي بِذَلِكَ الحَيِّ عِزٌّ ... وَأوَامِي بِذَلِكَ الرَّبْعِ رِيُّ

هـــذا وقـــد اختلفـــت المصـــادر التاريخيـــة في ســـرد تسلســـل آبـــاء هـــذه الأســـرة الحاكمـــة للدولـــة الفاطميـــن؛ وحـــتى نسبهـــم الهاشـــمي تضاربـــت الآراء حولـــه؛ فثمـــة مـــن أنكـــره، وثمـــة مـــن صدقـــه. ويبـــدو أنهـــم تعرضـــوا لهجمـــة إشاعـــات، وحملـــة تشويـــه؛ نظمهـــا ضدهـــم أنصـــار الدولـــة العباسيـــة المنافســـة لهـــم؛[1] وقـــد رأينـــا أنهـــم استعملـــوا الأسلـــوب نفســـه مـــع إدريـــس الثـــاني؛ حيـــث حاولـــوا نشـــر الشكـــوك حـــول انتسابـــه لأبيـــه إدريـــس الأول؛ إذ كلفـــوا مـــن يطعـــن في نسبـــه.

ولكـــن بعـــض المحققيـــن ـــ مـــن أهـــل العلـــم والمؤرخيـــن المدققيـــن ـــ يميلـــون إلى تصديـــق نسبهـــم الهاشـــمي.[2]

وإنمـــا لـــم يودعهـــا ديوانـــه خوفـــا)). الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص : 124 ـــ 125.

[1] لمـــن يريـــد أن يستزيـــد بخصـــوص محاولـــة التشهيـــر بالفاطمييـــن ـــ مـــن طـــرف العباسييـــن ـــ ومـــا نســـب إليهـــم مـــن تزويـــر وانتحـــال للنســـب النبـــوي الشريـــف؛ عليـــه أن يراجـــع مـــا كتبـــه ابـــن الأثيـــر في كتابـــه الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص ص: 124 ـــ 126. ومـــا كتبـــه المقريـــزي في كتابـــه اتعـــاظ الحنفـــا بأخبـــار الأئمـــة الفاطمييـــن الخلفـــا، ص ص: 25 ـــ 40.

[2] ومـــن بينهـــم ابـــن خلـــدون الـــذي يقـــول: ((ولا عبـــرة بمـــن أنكـــر هـــذا النســـب مـــن أهـــل القيـــروان وغيرهـــم؛ وبالمحضـــر الـــذي ثبـــت ببغـــداد ـــ أيـــام القـــادر ـــ بالطعـــن في نسبهـــم، وشهـــد فيـــه أعـــلام الأئمـــة ـــ وقـــد مـــر ذكرهـــم ـــ فـــإن كتـــاب المعتضـــد إلى ابـــن الأغلـــب بالقيـــروان، وابـــن مـــدرار بسجلماســـة؛ يغريهـــم بالقبـــض عليـــه؛ لمـــا ســـار إلى المغـــرب شاهـــد بصحـــة نسبهـــم. وشعـــر الشريـــف الـــرضي مسجـــل بذلـــك. والذيـــن شهـــدوا في المحضـــر؛ فشهادتهـــم عـــلى السمـــاع؛ وهي مـــا علمـــت. وقـــد كـــان نسبهـــم ببغـــداد منكـــرا عنـــد أعـــدائهـــم شيعـــة بـــني العبـــاس منـــذ مائـــة سنـــة؛ فتلـــون النـــاس بمذهـــب أهـــل الدولـــة؛ وجـــاءت شهـــادة عليـــه؛ مـــع أنهـــا شهـــادة عـــلى النـــفي. مـــع أن طبيعـــة الوجـــود في الانقيـــاد إليهـــم؛ وظهـــور كلمتهـــم حـــتى في

مـن ذلـك مـا قالـه ابـن الأثيـر: ((**فـفي امتنـاع** [الشريـف الـرضيّ] **مـن الاعتـذار، ومـن أن يكتـب طعنـا في نسبهـم مـع الخـوف؛ دليـل قـوي عـلى صحـة نسبهـم؛ وسألـت أنـا جماعـة مـن أعيـان العلوييـن في نسبـه** [أي نسـب عبيـد اللـه مؤسـس الدولـة الفاطميـة] **فلـم يرتابـوا في صحتـه... وزعـم القائلـون بصحـة نسبـه؛ أن العلمـاء ممـن كتـب في المحضـر** [الـذي طلـب منهـم التوقيـع عليـه الخليفـة العبـاسي القـادر باللـه] **إنمـا كتبـوا خوفـا وتقيـة، ومـن لا علـم عنـده بالأنسـاب فـلا احتجـاج بقولـه)).**[1]

وممـا لا شـك فيـه؛ أن نجـاح الأدارسـة في بـلاد المغـرب جعـل بقيـة العلوييـن بالمشـرق يحسـون بعطـف سكـان تلـك الديـار تجـاه قضيتهـم، وميلهـم إليهـم؛ بحكـم النسـب الـذي يربطهـم مـع نـبي المسلميـن عليـه الصـلاة والسـلام. ومـن هـذا المنطلـق أرسـل سـادس الأئمـة العلوييـن؛ جعفـر الصـادق بـن محمـد الباقـر داعيتيـن إلى المغـرب همـا: عبـد اللـه بـن عـلي بـن أحمـد المعـروف باسـم الحلـواني، وأبـو سفيـان الحسـن ابـن القاسـم. نـزل الأول في أرض كتامـة، والثـاني في مرمجنـة بالقـرب مـن الحـدود التونسيـة الجزائريـة الحديثـة.

مكـة والمدينـة أدل شـيء عـلى صحـة نسبهـم. وأمـا مـن نسبهـم في اليهوديـة والنصرانيـة ليعمـون القـدح وغيـره فكفـاه ذلـك إثمـا وسفسفـة.)). العبـر، مج: 4، ص: 64.

[1] **الكامـل في التاريـخ، ج: 6، ص: 125.**

وكــان لهمــا الفضــل الأول في التعريــف بالقضيــة العلويــة، ونشــر الفكــر الشيــعي بيــن سكــان المغــرب الأوســط وإفريقيــة؛ حيــث تمكنــا مــن تحقيــق طلــب الإمــام جعفــر بتمهيــد المنــاخ وحــرث الأرض؛ انتظــارا لمــن سيقــوم بالحصــاد.[1] ومــا قــدوم أبي عبــد اللــه الشيــعي ــ فيمــا بعــد ــ إلا مــن بــاب استكمــال العمــل الــذي بــدأه هــذان الداعيتــان. ومــع هــذا فــلا بــد مــن الاعتــراف بجهــود أبي عبــد اللــه الحسيــن بــن أحمــد ابــن محمــد المعــروف بالشيــعي وبالمحتســب وبالمعلــم؛ فهــو المؤســس الحقيــقي للدولــة الفاطميــة.[2] حيــث لــم يكتــف ــ كغيــره ــ بالدعــوة الكلاميــة؛ بــل قــام بــدور القائــد العسكــري المحنــك؛ الــذي ألحــق بالأغالبــة الهزيمــة تلــو الأخــرى؛ حــتى تغلــب عــلى حاضــرة ملكهــم القيــروان. كمــا استطــاع إخضــاع بقيــة الممالــك بالمغــرب الأوســط؛ كمملكــة بــني رستــم بتيهــرت، ومملكــة بــني مــدرار بسجلماســة. ودام بــه الوقــت في ذلــك العمــل الكبيــر بــدءا مــن عــام وصولــه إلى ديــار كتامــة سنــة 280هــ(893م)، وحــتى بيعــة عبيــد اللــه المهــدي؛ أول أئمــة الدولــة سنة 297هــ(909م).

---

[1] رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 54 ــ 58. والكامــل، ج: 6، ص: 126. واتعــاظ الحنفــا، ص ص: 53 ــ 54. ودور كتامــة، ص ص: 216 ــ 238.

[2] أنظــر الأعمــال الــتي قــام بهــا هــذا الداعيــة الفــذ في كتــاب رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 71 ــ 236. وكتــاب الكامــل في التاريــخ، ج: 6، ص ص: 127 ــ 133. والعبــر، مج: 4، ص ص: 65 ــ 76. ودور كتــامــة، ص ص: 231 ــ 329.

ولم يحقق أبو عبد الله الشيعي تلك النجاحات بسهولة ويسر؛ إذ كان عليه – في بداية الأمر – توحيد كلمة عشائر كتامة؛ ثم الانتقال بعدئذ إلى خارج القبيلة؛ كي يستطيع ضرب الأعداء بقبيلة موحدة وقوية. وعليه فقد استغرق وقتا طويلا في تحقيق وحدة قبيلة كتامة. وبهذا يكون قد اتبع الأسلوب الذي شرحه ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1] حيث تعمل عشيرة معينة على إخضاع بقية عشائر القبيلة وإلزامها بالطاعة والانقياد لقيادة واحدة؛ وذلك بالعمل على مزج العصبيتين الصغرى والكبرى ضمن عصبية واحدة قوية؛ كل هذا يتم بغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى؛ تقوم فيها

---

[1] **جاء فيها: ((ثم إن القبيل الواحد – وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة – فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها، وتستتبعها؛ وتلتحم جميع العصبيات فيها؛ وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق؛ المفضي إلى الاختلاف والتنازع: "<u>ولَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ</u>" [من الآية 251 من سورة البقرة]. ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية <u>على قومها</u> طلبت بطبعها التغلب على <u>أهل عصبية أخرى بعيدة عنها</u>. فإن كافأتها، أو مانعتها؛ كانوا أقتالا، وأنظارا؛ ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها؛ التحمت بها أيضا؛ وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغلبة الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها؛ ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة؛ أهل العصبيات؛ استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 – 610.**

العصبية الموحدة بالتغلب على غيرها من العصبيات الغريبة وإخضاعها؛ في سبيل تحقيق الملك القاهر. وهذا هو الذي حدث بين عشائر كتامة؛ حيث قضى أبو عبد الله الشيعي وأنصاره وقتا طويلا في تمهيد سلطانه، وتوحيد العصبيات والعشائر الكتامية المتفرقة؛ ضمن عصبية واحدة متينة وقوية.

ويبدو أن بوادر الوحدة أخذت تتحقق في أواخر سنة 298 هـ(910م)؛ حيث تمكن الداعية الشيعي أبو عبد الله من إخضاع العشائر الكتامية بكاملها؛ خاصة التي كانت بعيدة شيئا ما عن أطراف المدن.[1] هذا بخصوص العشائر الكتامية؛ أما القبائل

---

[1] وفي هذا يقول القاضي النعمان: ((واستولت أمور أبي عبد الله على عامة بلد كتامة؛ وظهرت دعاته في كل ناحية منها، وغلب أمره عليها، واستحكم فيها؛ ولم يبق فيها إلا من يدخل دعوته: إما راغبا، وإما راهبا، أو مخذولا؛ قد أنكرها بقلبه، وغلبت عليه شقوته؛ فأصر على إنكارها؛ فتمسك بما هو عليه؛ غير مدافع لأمر، ولا متوثب على أحد من أهله؛ بل قد صار كل من هذه حاله تحت أحكام الدين، وأيدي المؤمنين؛ يجري حكمهم عليهم، وينفذ أمرهم فيهم، ويحيط سلطانهم من ورائهم؛ بعد أن كانت لأبي عبد الله الشيعي في قبائل كتامة وقائع كثيرة يطول ذكرها؛ أقام ــ بعد انهزام الجميع عنه ــ نحو سنتين يوقعها بهم، وينقص أطرافهم، ويقتلهم، ويغنم أموالهم؛ حتى أجابوه، وسلموا لأمره؛ طائعين، ومكرهين، وراغبين، وخائفين. ولم يبق غير المدائن، ومن فيها من أمرائها، ومن انضم إليهم، وصار عندهم؛ من غلبت عليه الشقوة، وسبق في علم الله حلول البلاء به من رؤساء القبائل، ووجوه العشائر؛ ممن أنف عن الدخول في الدعوة، والوقوع تحت من كان يرى أنه واقع تحت أمره من العشيرة، ومن خامره الخوف من مقدمات سوء فعله، وزين له الشيطان التمادي على

الأخــرى؛ فيظهــر أن عشائــر عجيســة وزواوة تكــون قــد التحقــت بالــدعــوة خــلال عــام 288هــ(900م).[1] أمــا قــبــيــلــة تــلــكــاتــة الصنهاجيــة ــ ذات القــوة والنفــوذ ــ فقــد بقيــت عــلى الحيــاد طيلــة الفتــرة الــتي ناضــل فيهــا أبــو عبــد اللــه الشيــعي؛ في سبيــل إقامــة الدولــة الفاطميــة؛ كمــا أن المصــادر لــم تذكــر أي محاولــة منــه للتعــرض لتلــك الــقــبــيــلــة الــواسعــة الانتشــار. والــذي بــادر ــ حسبمــا يبــدو ــ إلى عقــد صــلات مــع تلكاتــة الصنهاجيــة هــو عبيــد اللــه المهــدي نفســه؛ وذلــك لمــا استتــب الأمــر في القيــروان لعبيــد لــه، وظهــرت أمامــه الأخطــار المحدقــة بدولتــه؛ تلــك الأخطــار الــتي بــدأت بوادرهــا تبــرز مــن خــلال تحركــات القبائــل الزناتيــة؛ نتيجــة لتحريــض الأموييــن بالأندلــس؛ لــذا فقــد ســعى ــ بكــل جهــده ــ لــكي يكســب ود خصــوم الزناتييــن التقليدييــن؛ وهــم بالطبــع الصنهاجييــن.

غيــه وجهلــه؛ وطوائــف مــن القبائــل ممــن قــارب المدايــن، وعاشــر أهلهــا، واستمالهــم أمراؤهــا؛ يدارونهــم، ويكاتبونهــم، ويتسللــون إليهــم في الســر؛ وهــم عــلى ظاهــر الطاعــة، والوقــوع تحــت الدعــوة في الجهــر؛ تركــوا عــلى حالهــم مستوريــن؛ كمــا تــرك رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وعــلى آلــه مــن كــان بالمدينــة وحولهــا مــن المنافقيــن)). رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 121 ــ 122.

[1] **رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص ص: 119 والعبــر، مج: 4، ص: 69.**

هذا وقد تضاعفت الحاجة إلى عونهم بعد استفحال أمر أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ الذي كان على رأس القبائل الزناتية الثائرة على الدولة. ومن جهة أخرى فقد وجد المهدي نفسه في حاجة ماسة إلى التحالف مع عصبية أخرى ذات قوة تعادل قوة العصبية الكتامية؛ بغرض تحقيق شرط التوازن. وعليه فقد أخذ يفكر في هذا الأمر بعد أن بدأت فئات من قبيلة كتامة تلجأ إلى حركات فيها مشاغبة، وتمرد في بعض الأحيان. وهكذا شرع عبيد الله في إغراء قبيلة تلكاتة، والعمل على كسب ولائها. وبالفعل وجدت مساعيه أذنا صاغية لدى الصنهاجيين؛ نظرا لأنهم يميلون إلى أبناء علي بن أبي طالب من جهة؛ ونظرا ـ أيضا ـ لحاجتهم الماسة إلى حليف قوي يساعدهم على كبح جماح خصومهم الزناتيين من جهة أخرى. وهكذا توافقت مصالح الطرفين؛ فالتحمت قواهما، وتناسقت جهودهما في مواجهة العدو المشترك.[1]

---

[1] ويشير إلى هذا ابن خلدون بقوله: ((ولما استوسق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم [أي زيري بن مناد] للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم. وكان من أعظم أوليائهم؛ واستطال بهم على عدوه من مغراوة؛ فكانوا ظهرا له عليهم. وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم؛ وتحيزوا إلى المروانيين ملوك العدوة بالأندلس؛ فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى ـ كما نذكره إن شاء الله تعالى ـ ولما كانت فتنة أبي يزيد؛ والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية؛ كان لزيري بن

وبالإضافة إلى القبائل المذكورة؛ لابد من الإشارة إلى أنه سبق لأبي عبد الله الشيعي ــ داعية الفاطميين ــ أن أخضع بعض الفئات من قبيلة مكناسة لما تغلب على سجلماسة سنة 296هـ(908م). أضف إلى ذلك أنه بدأ اتصاله بالقبائل الزناتية في سنة 296هـ(908م) أيضا؛ وذلك عندما شرع في زحفه نحو سجلماسة؛ لتخليص عبيد الله المهدي من الأسر. ففي تلك الأثناء وفد عليه أمير زناتة ــ محمد بن خزر ــ عند وصوله إلى طبنة؛ طالبا الأمان لقبيلته، ومقدما العهد بالمسالمة، وعدم التعرض لعمال وعساكر الشيعي.[1]

وكان أمر أبي عبد الله الشيعي قد استفحل، واشتدت سطوته بعد أن احتل القيروان، وأسقط دولة الأغالبة؛ بفضل ما وجهه من ضربات صوب تلك الدولة الهرمة؛ إذ طاولها بالحرب، واستنزف بقية قواها؛ فانهارت تحت أقدام القبائل الكتامية؛ التي كانت تمثل القوة الضاربة بالنسبة للشيعة.

منساد منافرة إلى الخوارج؛ أصحاب أبي يزيد وأعقابهم؛ وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان؛ كما ستراه العبر، مج: 6، ص : 313.

[1] **وكان قد سقط ــ من قبل ــ رسل أبي عبد الله الشيعي في كمين نصبه جماعة من زناتة فقتلوهم؛ بينما كانوا طريقهم إلى سجلماسة؛ محملين ببعض المال إلى عبيد الله المهدي. أنظر رسالة افتتاح الدعوة، ص: 197 ــ 198.**

وهنا يتحقق ما قرره ابن خلدون أيضا ضمن "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة**".[1] وذلك أن القبيلة المتمردة والطامعة في الاستيلاء على الملك، الساعية نحو تحقيقه بالقوة والغلبة؛ تعمل على إسقاط الدولة القائمة بواسطة حرب الاستنزاف؛ أو بتعبير ابن خلدون بواسطة المطاولة لا بالمناجزة.

ومن يتابع الأحداث السياسية والعسكرية منذ وصول الداعية أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ(900م)؛ وحتى انتصاب عبيد الله المهدي على عرش القيروان سنة 297هـ(909م)؛ سيجد ــ حتما ــ أن الأعباء العظمى في مسيرة قيام الدولة الفاطمية تمت ــ بالدرجة الأولى ــ بفضل سواعد الكتاميين. وعليه فلا بد من التنويه بفضل هذه القبيلة الأمازيغية في تشييد صرح الدولة الفاطمية، وفي تمهيد سلطانها ببلاد المغرب، بالإضافة إلى الفتوحات العظيمة التي أنجزتها في بلاد المشرق. فهذه القبيلة وضعت أبناءها، وأموالها في خدمة الدعوة الفاطمية؛ نتيجة لما تزودت به عصبيتها من شحنات ذات طاقة معنوية هائلة؛ استمدت من تعاليم المذهب الشيعي؛ ذي السمات الدينية والسياسية.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

وهنا تصدق – أيضا – نظرية ابن خلدون؛ التي شرحها ضمن: "**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**" و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] فالدعوة الدينية هنا عززتها عصبية فياضة وقوية؛ مشخصة في قبيلة كتامة؛ التي تبنت المذهب الشيعي، وتحملت أعباء قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي.

ومفاد ذلك كله أنه إذا تحققت نشأة هذه الدولة على أسس مذهبية، ودعوة دينية؛ قد تفوز بنفوذ واسع، وسلطان عريض، وملك عظيم؛ ولكن بشرط أن توجد عصبية قوية تقف وراء تنفيذ العمل العسكري والسياسي. وهكذا توافرت شروط نجاح الدولة الفاطمية بالمغرب. وعليه نرى أنه – إلى جانب الدعوة الدينية – انتصبت عصبية كتامة؛ بصفتها الكفيلة بتنفيذ تلك المهمة في الميدان؛ ومن هنا تكون هذه القبيلة هي الوصية الفعلية على قيام وسلامة الدولة الفاطميين الفتية. لم لا..؟ أليس عبيد الله المهدي من أهل النصاب الملكي؟ لذا فهو جدير بالمساندة، والدعم؛ كما يمكنه – في هذه الحال – الاستغناء عن عصبيته الخاصة؛ لأنه سيجد عصبية أخرى مستعدة للانقياد إليه.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 636. 638 – 642.**

وهذا هو الذي قصده ابن خلدون؛ ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1]

والدولة الفاطمية ــ مثلها مثل الدولة الإدريسية ــ جاءت نشأتها نتيجة لما وصلت إليه عصبية بني هاشم؛ من ضعف وانقسام. فبعد استفحال أمر بني العباس، وسعيهم لتصفية أبناء علي بن أبي طالب؛ التجأ هؤلاء إلى أقاصي البلاد وأطرافها؛ مستترين ــ خوفا وتقية ــ من أذى أبناء عمومتهم؛ بني العباس. فوجدوا في تلك المناطق النائية الأمن والأنصار معا. وقد عالج ابن خلدون هذه الظاهرة ضمن فصلين في مقدمته: "**فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين**" و"**فصل في كيفية طروق الخلل للدولة**".[2] وكما سبقت الإشارة إليه؛ فقد تم التوسع في شرح رأي ابن خلدون في هذا الموضوع ضمن دراسة مستقلة وضعتها تحت عنوان "العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية" حيث تبرز نظرية ابن خلدون هذه؛ الكيفية التي تسقط بها الدول؛ عندما يتسرب إليها الفساد. وكيف تبدأ الدولة بالتفكك؛ حينما يتنكر حاكمها لأهل عصبيته؛ فيسعى لإذلالهم، وتقليم أظافرهم.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] نفسه، ص ص: 859 ــ 862. 863 ــ 867.

إذ يستشهد هذا العلامة بما حدث لعصبية بني عبد مناف؛ وهي عصبية مركبة؛ يجتمع فيها بنو هاشم وبنو أمية. حيث انقسمت هذه العصبية المركبة، الجامعة؛ بين بني هاشم وبني أمية. ثم انقسمت عصبية بني هاشم بدورها إلى بني العباس وبني أبي طالب.

وهكذا تتضح سلامة استقراء ابن خلدون. فكما نشأت الدولة الإدريسية من جراء الاضطهاد والقمع؛ المسلطين على أبناء علي بن أبي طالب. فقد نشأت الدولة الفاطمية بدورها عقب قمع وتشريد بني أبي طالب أيضا؛ إذ لجأ أعضاء هذه الأسرة إلى التقية والتستر؛ إلى جانب سعيهم الحثيث في نشر دعوتهم بأطراف البلاد النائية؛ بواسطة دعاة أكفاء. وتبعا لذلك؛ قدم إلى بلاد المغرب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم؛ ذلك الداعية الداعية الشيعي الفذ. جاء إلى بلاد المغرب بغرض نشر الدعوة الفاطمية الشيعية في تلك الديار؛ فانطلق بالعمل من وسط قبيلة كتامة؛ التي انقادت إليه؛ بعد أن وحد عشائرها؛ ضمن عصبية واحدة؛ متينة الأسس؛ معتمدا على فعالية التعاليم الدينية؛ التي أضفت عليها هالة من القدسية، والفخامة. واستطاعت هذه القبيلة ضم قبائل أخرى إلى صفوفها؛ كما سبق ذكره.

وبعـد فتـرة تمكنـت مـن اكتسـاح دولـة بـني الأغلـب. وهنـا فتـح البـاب عـلى مصراعيـه؛ أمـام قيـام دولـة الفاطميـين؛ عـلى أنقـاض دولـة الأغالبـة. وتـم هـذا ببيعـة عبيـد اللـه المهـدي عـام 297هـ(909م) بـرقـادة.

وجملـة القـول.. فقـد حققـت دولـة الفاطميـين مـا لـم تتمكـن دولـة الأدارسـة مـن تحقيقـه. فالعصبيـة المناصـرة للدولـة الفاطميـة تفـوق العصبيـة المنحـازة للأدارسـة بكثيـر. إذ كـان لدولـة الفاطميـين أتبـاع عددهـم لا يحـصى؛ مكنوهـا مـن التغلـب عـلى إفريقيـة والمغـرب كافـة؛ بـل مـدوا نفـوذ هـذه الدولـة إلى بلـدان المشـرق أيضـا؛ حيـث شمـل مصـر والشـام والحجـاز. وفي حـالات خاصـة؛ وصـل نفـوذ الدولـة الفاطميـة إلى بغـداد نفسهـا؛ إذ التهمـت الـدول المتواجـدة في تلـك الربـوع كلهـا. فغـدت الخلافـة الفاطميـة تزاحـم الخلافـة العباسيـة، وتهـدد وجودهـا في عقـر دارهـا. ومـرد هـذا ـ طبعـا ـ يعـود إلى مـا ذكـره ابـن خلـدون ضمـن: "**فصـل في أن عظـم الدولـة واتسـاع نطاقهـا وطـول أمدهـا؛ على نسبـة القائميـن بهـا؛ مـن القلـة والكثـرة**".[1]

[1] **المقدمـة، ج: 2، ص ص: 644 ـ 646.**

ومن جهة أخرى يمكن ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون؛ من خلال ما قرره ضمن: "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة؛ لا بالمناجزة**".[1] حيث صنف الدول المستجدة إلى صنفين: الصنف الأول؛ تنشأ الدولة فيه بالأطراف؛ التي تكون الدولة المستقرة عاجزة عن حمايتها. وهذا الصنف قاصر ومحدود الفعالية. وإذا تأملنا في أحداث الدولة الإدريسية يتبين لنا بأنها تمثل الصنف الأول هذا.

أما الصنف الثاني؛ فهو الذي يعتمد على الدعوة والدعاة؛ بغرض التعبئة المعنوية الموجهة سواء إلى الحلفاء أو الخصوم. ويتم ذلك ــ عادة ــ بأن يقوم أولئك الدعاة بنشر مفاهيم وأفكار تستند إلى أصول مذهب معين بأساليب جذابة ومثيرة للعواطف؛ عاملين كل جهودهم لكي تحققون الغرض المطلوب من خلال بث مؤثرات نفسية تلهب قلوب العامة، ومن خلال طرح حجج منطقية يمكنها أن تستميل الخاصة؛ ثم العمل بكل القوى على شحذ الهمم وبعث روح التضحية في النفوس، تشجيع المترددين وحثهم على العصيان والثورة؛ ضد كل ما هو قائم.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.**

ومن جهة أخرى يسعون بكل الوسائل الممكنة إلى نشر الإشاعات الهدامة في صفوف الخصوم، والعمل على تثبط هممهم، وتفكيك وحدتهم وتشتيت شملهم؛ بواسطة حملات نفسية مدمرة. وهذا الصنف الثاني ــ طبعا ــ يمكن اعتبار الفاطميين مثلا بارزا له.[1]

ــ حكومة عبيد الله بن أحمد بن الحسين المهدي:

اختلفت الأقوال حول المكان الذي ولد فيه عبيد الله المهدي؛ فمن قائل بأنه ولد بسلمية في أرض الشام ومن قائل أنه ولد ببغداد سنة 260هـ(873م). كان قد تولى الإمامة بعد موت والده أحمد (أو محمد في بعض الأقوال) بن الحسين؛ حيث بقي في (عَسْكر مُكرَم) والشام مختفيا؛ إلى أن اشتد البحث عنه من طرف

---

[1] **حيث يقول ابن خلدون: ((وكذا العبيديون؛ أقام داعيتهم بالمغرب؛ أبو عبد الله الشيعي؛ ببني كتامة؛ من قبائل البربر؛ عشر سنين ويزيد؛ يطاول بني الأغلب بإفريقية؛ حتى ظفر بهم، واستولوا [أي العبيديون] على المغرب كله، وسموا إلى مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها؛ يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت؛ ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام؛ وملكوا الإسكندرية، والفيوم، والصعيد؛ وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز؛ وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر؛ واستولى عليها، واقتلع دولة طُغُج من أصولها، واختط القاهرة؛ فجاء الخليفة بعدُ المعز لدين الله؛ فنزلها لستين سنة، أو نحوها؛ منذ استيلائهم على الإسكندرية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 876 ــ 877.**

العباسيين؛ خاصة بعد استفحال أمر الشيعة في المغرب واليمن؛ فاضطر عبيد الله ــ عندئذ ــ إلى الهروب مع ولده أبي القاسم نزار نحو مصر؛ وذلك قصد اتقاء شر الخليفة العباسي المكتفي؛ الذي أمر بالقبض عليه. ولما حل بمصر في زي التجار أكمل طريقه نحو بلاد المغرب. ويبدو أنه قام بذلك تبعا لما سبق له؛ حيث استقبل رسلا من كتامة بعثهم الداعية الفاطمي أبو عبد الله؛ يبشره بما تحقق له من الفتح. ولما وصل إلى إفريقية اتجه جنوبا نحو سجلماسة؛ بعد أن أحس بكثافة عمليات البحث عنه. غير أن أمره انكشف في تلك المدينة؛ حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار، وأودعه السجن؛ بعد أن وصله خطاب من الخليفة ببغداد ــ أو ابن الأغلب ــ يطلب منه ذلك. وظل في سجنه حتى أخرجه منه الداعية الشيعي أبو عبد الله؛ بعد أن تغلب على القيروان وأسقط دولة بني الأغلب؛ ثم زحف إلى سجلماسة؛ التي تغلب عليها هي الأخرى وقبض على أميرها اليسع.

ويصف القاضي النعمان لحظة اللقاء بين الداعية والإمام بقوله: ((**فخرج إليهم وجوه أهل المدينة** [مدينة سجلماسة]...**ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم** [وهو أبو القاسم نزار بن المهدي]؛ **فكانت في الناس مسرة عظيمة؛ استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقرِّب لهما عليهما السلام فَرَسَان؛ فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: "هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون"، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح؛ حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له**)).[1]

وبعد أن تم للفاطميين تمهيد الوضع في سجلماسة، وبعد أن تمكنوا من القبض على اليسع ابن مدرار وقتله؛ تحركوا نحو رقادة؛ مقر الملك في القيروان؛ وفي الطريق عرجوا على إكجان؛ حيث أخذوا ما كان مكنوزا بها من الأموال والذخائر؛ ثم رحلوا صوب القيروان؛ فحلوا برقادة يوم خميس من أيام ربيع الآخر سنة 297هـ(909م).[2]

---

[1] **رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 239 ــ 240.**

[2] **وقد وصف ابن عذاري لحظة وصول المهدي ومن معه إلى رقادة؛ حيث قال: ((وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة؛ ومعه ابنه أبو القاسم، وجعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن؛ ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان؛ فدعوا له، وهنؤوه، واظهروا له السرور**

وبادر المهدي في اليوم الثاني من وصوله ــ أي يوم الجمعة ــ بإصدار أوامر مكتوبة إلى خطباء المساجد؛ موضحا فيها الصيغة التي يجب إتباعها في الدعاء له ولأهل البيت. وقد أورد نص هذه الصيغة القاضي النعمان وهي: **((اللهم فصلِّ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك؛ عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين؛ كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين؛ الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون؛ اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادا، ولبريتك موئلا وملاذا؛ فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين؛ إله الخلق رب العالمين)).**[1]

بأيامه؛ وسألوه تجديد الأمان لهم. فقال لهم: "أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم"؛ ولم يذكر الأموال؛ فعاوده بعضهم، وسألوه التأمين لهم في الأموال؛ فأعرض عنهم؛ فخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل رقادة وعليه ثوبُ خزٍّ أدكنُ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ وَرْدٌ؛ وأبو القاسم ابنه خلفه؛ عليه ثوبُ خزٍّ خلوقيٌّ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ أشقر؛ ،أبو عبد الله أمام عبيد الله؛ وعليه ثوبٌ توتيٌّ، وظهارةُ كتّان، وعمامةٌ، ومنديلٌ اسكندرانيٌّ، وتحته فرسٌ كُمَيْت، وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه؛ والناس حواليه وبين يديه أقواط يسلمون عليه. فنزل عبيد الله في القصر المعروف بالصَّحْن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح. وتسمى عبيد الله بالمهدي)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 158.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 249 ــ 250.

غيــر أن رأي ابــن عــذاري يخالــف مــا ذكــره النعمـــان إذ يـــرى أن المهـــدي اتخـــذ بعـــض الإجـــراءات الـــتي توضـــح تشيـــع عبيـــد اللـــه بشكـــل متطـــرف، وينســـب إليـــه العـــداء لبقيـــة المذاهـــب السنيـــة.[1] كمـــا أن مـــا جـــاء في كتـــاب القـــاضي النعمـــان مـــن أشعـــار مـــدح بهـــا الشعـــراء المهـــدي؛ لا يؤخـــذ عليهـــا بمكـــره؛ إلا أن ابـــن عـــذاري لـــه نظـــرة أخـــرى إذ نســـب إلى بعضهـــم شعـــرا – في مـــدح المهـــدي – يدخـــل في عـــداد النصـــوص المارقـــة الداعيـــة للكفـــر.[2]

---

[1] **يقــول ابــن عــذاري: ((وأقــر عــلى عمالــة القيــروان الحســن بــن أبي خِنْزِيــر، وعــلى القضــاء بهــا المَــرُّوذِي. وأمــر أن تُقلــع مــن المساجــد والمواجــل والقصــور والقناطــر أسمــاء الذيــن بنوهــا؛ وكتــب عليهــا اسمــه. وأظهــر عُبَيْــد اللــه التشَيُّــع القبيــح، وســب أصحــاب النــبي – صلعــم – وأزواجــه؛ حــاشى عــلي بــن أبي طالــب، والمقــداد بــن الأســود، وعمــار بــن ياســر، وسلمــان الفــارسي، وأبي ذر الغفــاري؛ وزعــم أن أصحــاب النــبي – عــم – ارتــدوا بعــده غيــر هــؤلاء الذيــن سميناهــم. ومنــع المــروذي الفقهــاء أن يفــتي أحدهــم إلا بمذهــب زعــم انــه مذهــب جعفــر بــن محمــد؛ منــه سُقُــوطُ الحِنْــث عمــن طلــق البَتَّــةِ، وإحاطــة البنــات بالميــراث، وأشيــاء كثيــرة يطــول ذكرهــا)). البيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 159 – 160. ويقــول محمــد الصنهــاجي أيضــا في هــذا البــاب: ((وكــان مــن جملــة مــا أخــذت عبيــد اللــه أن قطــع صــلاة التراويــح في شهــر رمضــان، وأمــر بصيــام يوميــن قبلــه، وقنــت في صــلاة الجمعــة قبــل الركــوع، وجهــر بالبسملــة في الصــلاة المكتوبــة، وأسقــط مــن أذان صــلاة الصبــح "الصــلاة خيــر مــن النــوم"، وزاد حي خيــر، محمــد وعــلي خيــر البشــر العمــل)). أخبــار ملــوك بــني عبيــد وسيرتهــم، ص: 27.**

[2] **مــن ذلــك مــا زعمــوا أنــه لمحمــد البديــل الــذي يقــول (بسيــط):**

حَــلَّ برَقَّـــادَةَ المَسِيـــحُ   حَــلَّ بهَــا آدَمُ وَنُـــوحُ
حَــلَّ بِهَــا أحْمَــد المُصَــفَّى   حَــلَّ بهَــا الكَبْــشُ وَالذَّبيــحُ
حَــلَّ بِهَــا اللَّــهُ ذُو المَعَــالِي   وَكُــلُّ شَــيْءٍ سِــوَاهُ رِيــحُ

وربما يدخل ما ذكره ابن عذاري وغيره من مؤرخي السنة في عداد الإشاعات التي سلطت على الفاطميين من باب الحملة النفسية المضادة.

المهم أن عبيد الله المهدي بمجرد أن انتصب على سدة الحكم في رقادة ؛ ذلك الحكم الذي وجده جاهزا وممهدا؛ فإنه لم يترك لأنصاره الفرصة لكي يشاكوه في السلطان والحكم؛ إذ سارع إلى الانفراد بالحكم؛ وذلك بتعزيز مركزه، وإزاحة أبي عبد الله الشيعي من مكانته الهامة في الدولة. ولم يشفع له ما مقدمه للدولة وإمام الدولة من خدمات جليلة؛ لأنه في الحقيقة هو الذي أوصل المهدي إلى ذلك المركز المرموق؛ بعد أن أخرجه من سجنه بسجلماسة، وبعد أن طلب من القبائل المناصرة لدعوته بطاعة الإمام المنتظر؛ حيث قال لهم: **((هذا مولاي ومولاكم، وولي أمركم، وإمام دهركم، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر؛ قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيد حزبه وجنده)).**[1]

ويضيف ابن عذاري قائلا: ((لعنه الله، وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه! وكانت إيمان كتامة أول دخولهم إفريقية: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهديّ برقادة"! حتى كتب بعضُ أحداث القيروان هذين البيتين؛ وتلطفوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم؛ وهي (مجتث):

الجُورُ قَدْ رَضِينَا ... لاَ الكُفْرُ وَالحَمَاقَةَ
يَا مُدَّعِي الغُيُوبِ ... مَنْ كَاتِب البِطَاقَةَ؟)).

البيان، ج: 1، ص: 160.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 245.

وهنا يصدق رأي ابن خلدون أيضا حين كتب: "**فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد**"[1] إذ يرى أن ذلك يتم بعد أن يتحقق الملك لرئيس العصبية البارز بين الجميع؛ عندئذ يقتضي منه خلق الكبر والأنفة المسيطر عليه ــ وهذان الصفتان من خواص الطبيعة الحيوانية ــ إلى السقوط في الغيرة والحرص على الاستحواذ على ما اكتسبه؛ فلا يرضى بمشاركة غيره في ذلك المجد؛ الذي غدا بين يديه؛ وعليه يسعى إلى إبعاد الطامعين في المشاركة، والمزاحمين له في تحقيق المجد؛ ولما يصطدم بمقاومة ما أو أي اعتراض من طرف شركائه في الأمر؛ يحول اهتمامه إليهم، ويسلط آلة القمع والدمار ضدهم.

لذا فلا غرابة أن يكون أول ضحايا القمع المسلط من المهدي هو معاونه وداعيته، وصاحب الفضل عليه أبو عبد الله الشيعي؛ إذ وصل به حد الانتقام إلى قتله؛ بعد عام من بيعته؛ أي في سنة 298هـ(910م). وكان الذي نفذ أمر المهدي في أبي عبد الشيعي هو رفيقه وتلميذه القائد الكتامي عروبة بن يوسف.

---

[1] **المقدمة، ج: 2، ص ص: 649 ــ 650.**

ولما هم بتنفيذ الأمر بالقتل قال له أبو عبد الله الشيعي: ((**لا تفعل يا بني**))، فأجابه عروبة: ((**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك**)).[1] ومن غرائب أمزجة الملوك ما قام به المهدي أيضا؛ إذ انه بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي بأمره؛ تولى بنفسه الصلاة عليه، ثم قال: ((**رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك**)).[2] ومن المفارقات أن يكون عروبة بن يوسف الملوسي ــ ذلك القائد الكتامي العظيم الذي ضرب به المهدي أبا عبد الله الشيعي ــ هو نفسه ضحية سخط وقمع المهدي؛ إذ لم يسلم حتى هو من الانتقام الملكي؛ إذ قتله المهدي بعد فترة قصيرة؛ مع أخيه حباسة ابن يوسف؛ ذلك القائد الذي فتح الإسكندرية.

هذا وقد حدثت ــ نتيجة لمقتل أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، وأصحابه الكتاميين ــ بعض الثورات بين العشائر الكتامية؛ الناقمة والساخطة على المهدي؛ ولكن هذا الأخير استطاع إخماد ثورتهم، والتنكيل بهم؛ فعادوا إلى ديارهم بأرض كتامة؛ حيث أعلنوا العصيان من جديد، ونصبوا صبيا من بينهم؛ وهو كادو بن معارك المدعو بالماوطي؛ مدعين أنه المهدي المنتظر؛ بل يقال أنهم تطرفوا في ادعائهم؛ حتى أنهم زعموا

---

[1] **الكامل، ج: 6، ص: 135. البيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.**

[2] **الكامل، ج: 6، ص: 135. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.**

أنه نبي.[1] ولم تدم هذه الثورة؛ إذ جرد المهدي جيشا بقيادة ولده أبي القاسم محمد بن عبيد الله، وكان جل أفراده من قبيلة كتامة؛ فأخمدوا تلك الفتنة. وبهذا يتضح بأن قبيلة كتامة لم تتأثر بذلك الانقسام؛ إذ سرعان ما عادت إلى الطاعة، وإلى خدمة الدولة الفاطمية. ويبدو أن المهدي قد شغلهم بالفتوحات شرقا وغربا؛ فتركوا المشاغبات؛ واتجهوا صوب الفوائد التي تأتيهم من الحروب الخارجية. وقد كانت أيام الدولة الفاطمية بالمغرب مشحونة بالحروب والفتن والثورات؛ الأمر الذي جعلها لا تهنأ بفترة من الاستقرار والهدوء. وأخطر الثورات على الإطلاق هي التي نشبت في عهد أبي القاسم القائم بأمر الله؛ خليفة المهدي؛ وهي ثورة الخوارج؛[2] بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار؛ إذ كادت هذه الثورة أن تقضي على الدولة الفاطمية نهائيا؛ لولا الانقسامات التي حدثت في صفوف القبائل الثائرة.

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 273. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 166 ــ 167.

[2] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 277 ــ 279. وأخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 29 ــ 34. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ــ 220. والعبر، مج: 4، ص ص: 84 ــ 93. مج: 7، ص ص: 26 ــ 35. واتعاظ الحنفا، ص ص: 109 ــ 125.

هــذا ولــم يهنــأ عبيــد اللـــه طويـــلا؛ إذ انشغــل بعــض الوقــت في إخمــاد ثــورات عديــدة قامــت هنــا وهنـــاك؛ مثـــل ثـــورة الكتاميـــن بالقيـــروان، وثورتهـــم كذلــك ببلادهــم خلــف الصــبي المدعــو كــادو بــن معــارك، وثــورة في صقليــة بقيــادة ابــن وهــب، وثــورة أخــرى بصقليــة كذلــك بقيــادة أحمــد بــن زيــادة اللــه ابــن قــرْهــب وثــورة في تيهــرت قامــت بهــا جماعــة مــن قبيلــة زناتــة، وثــورة هــوارة بطرابلــس بقيــادة أبي هــارون الهــواري، وثــورة أهــل طرابلــس أيضــا بقيــادة محمــد بــن إسحــاق المعــروف بابــن القرليــن وعصيــان مــن طــرف زناتــة ولمايــة. هــذا بالإضافــة إلى الحمــلات العسكريــة الــتي قــام بهــا أبــو عبــد اللــه الشيــعي المغــرب الأوســط، ومــا قــام بــه أبــو القاســم بــن المهــدي مــن حمــلات أيضــا ضــد قبائــل عديــدة هنــا وهنـــاك.

ولــم يكــن هــدف الفاطميــن هــو الاكتفــاء بتشييــد دولــة لهــم ببــلاد المغــرب فحســب ــ كمــا كــان الحــال بالنسبــة للأدارســة ــ بــل كانــوا يتخــذون مــن دولتهــم بالمغــرب خطــوة تكتيكيــة؛ في سبيــل تحقيــق هــدف استراتيــجي؛ وهــو الإطاحــة بالخلافــة العباسيــة، وقيــام دولتهــم بــدلا منهــا. لــذا فقــد شــرع المهــدي منــذ سنــة 301هـ(913م) في غــزو مصــر. وكانــت أولى خطــوات تمــت في هــذا السبيــل؛ هــي أوامــره بخــروج حباســة ابــن يوســف في أسطــول نحــو مصــر؛ حيــث احتــل المــدن المتاخمــة لمصــر في برقــة؛ مثــل ســرت

وإجدابية وبرقة؛ كما اشتبك مع جيش قدم من المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ فانتهى السجال بينهما أخيرا بهزيمة جيش مصر. ثم تقدم إلى الإسكندرية بحرا؛ حيث تغلب عليها. وبعد ذلك تقدم حباسة نحو مصر؛ أين فتح بعض الحصون هناك؛ إلى أن لحق به أبو القاسم بن عبيد الله في جيش عظيم؛ فاحتل الإسكندرية سنة 302هـ(914م)؛ ثم تقدم أبو القاسم إلى الفيوم؛ أين عسكر بها.[1] وهناك وصلته الأخبار بوصول القائد العباسي مؤنس الخادم إلى مصر بغرض محاربة جيش الفاطميين. عندها أرسل أبو القاسم إلى حباسة يطلب منه الالتحاق به، وتسليم أمر الجيش إلى أبي فريدن؛ فغضب حباسة بسبب ذلك؛ وقال: **((لما أشرفت على أخذ البلد؛ يفوز أبو فريدن بخيره وذكره))**.[2]وكان رد فعله أنه عاد مع مجموعة صغيرة إلى المغرب.[3]

---

[1] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 147. واتعاظ الحنفا،، ص ص: 98 ـ 100. والنجوم الزاهرة، ج: 3، ص ص: 172 ـ 173. 186 ـ 187. 196.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 173.

[3] وكانت هذه الحادثة هي السبب في عصيان حباسة وأخيه عروبة؛ إذ خرجا عن طاعة الدولة ؛ فانتهى أمرهما إلى الإعدام.

وكانت هذه ضربة شديدة ثبطت عزيمة أبي القاسم؛ فعاد أدراجه إلى القيروان؛ فانتهز الفرصة مؤنس الخادم فأغار على خلفيات الجيش الفاطمي وساقته.[1] ويرى ابن الأثير هنا أن الجيش الفاطمي تكبد خسائر كبيرة. ثم عاود المهدي في سنة 303هـ(915م) الكرة؛ حيث أمر بإرسال جيش آخر بقيادة أبي مدين ابن فروخ لجس النبض في الحدود المصرية؛ فاحتل برقة في سنة 304هـ(916م)؛ بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا.

ولم يقتصر اهتمام عبيد الله المهدي بمصر والمشرق فحسب؛ بل اهتم ــ في الوقت ذاته ــ بالمناطق الغربية أيضا؛ حيث جرد جيشا بقيادة أمير تيهرت مصالة بن حبوس المكناسي لفتح البلاد الغربية الخاضعة للدولة الإدريسية، وإمارة بني صالح في نكور. وبالفعل فقد تحقق ما كان يرجوه عبيد الله المهدي من تلك الحملة؛ إذ تمكن مصالة من التغلب على مناطق شاسعة في المغرب الأقصى؛ بدولها وقبائلها؛ مثل نكور التي احتلها في سنة 305هـ(917م)؛ وفاس حاضرة الدولة الإدريسية؛ بعد أن أجبر ملكها الإدريسي يحيي بن إدريس بن عمر إلى تقديم الطاعة إلى المهدي إمام الدولة الفاطمية.

---

[1] **تختلف رواية ابن الأثير عن رواية ابن عذاري؛ إذ يرى ابن الأثير أن الذي اشتبك مع مؤنس الخادم هو حباسة؛ ولم يشر إلى أبي القاسم بن عبيد الله. الكامل، ج: 6، ص: 149.**

وفي سنة 306هـ(918م) جهز المهدي ولده أبو القاسم بن عبيد الله وأمره بالزحف ـ مرة ثانية ـ نحو مصر في جيش ضخم من كتامة وبعض قبائل إفريقية؛ فانطلق الجيش عن طريق البر؛ فتغلب على برقة؛ ثم تقدم إلى الإسكندرية فدخلها؛ وتقدم إلى الجيزة؛ فاحتل الأشمونيين وجزء كبير من الصعيد. ثم شحن عبيد الله أسطولا بحريا ـ مشكلا من ثمانين مركبا ـ نحو مصر؛ لدعم ولده أبي القاسم؛ بقيادة يعقوب الكتامي وسليمان الخادم. وبالمقابل بعث الخليفة العباسي مؤنس الخادم برا، وأسطولا من طرسوس ـ مشكلا من خمسة وعشرين مركبا ـ لمواجهة جيوش الفاطميين. وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش الفاطمية؛ التي فتكت بها الأمراض والأوبئة.[1]

ومن طرائف بعض المؤرخين أنهم عللوا زحف أبي القاسم بن عبيد الله نحو مصر والمشرق؛ بأنه لم يكن سوى رد انفعالي على استفزاز العباسيين؛ بعد أن أمر الخليفة العباسي المقتدر ـ كما قالوا ـ الشاعر محمد بن يحيى المعروف بالصولي بأن يكتب قصيدة إلي أبي القاسم ابن المهدي؛ ردا على قصيدة كان قد أرسلها إليه أبو القاسم؛ مفتخرا بما فتح الله عليه؛ ومن قصيدة الصولي هذا البيت:

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 161. واتعاظ الحنفا، ص ص: 103 ـ 104. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 181 ـ 182.

فلوْ كانتِ الدُّنيَا مِثــالاً لِطائِــرٍ
لكانَ لكمْ مِنهَا بِمَا حُزتم الذنــبُ

مــن بيــن أولئــك المؤرخيــن المقريــزي؛ الــذي يكمــل حديثــه فيقــول: ((**فحــرك همتــه** [أي همــة أبي القاســم] **هــذا البيــت؛ فقــال:** "**والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه ــ إن قدرت ــ وإلاّ أهلك دونه".** **وكابــد عــلى ديــار مصــر مــن الحــروب أهــوالا، ومــات ولــم يظفــر بهــا؛ وأوصى ابنــه المنصــور... وكــان الظافــر بهــا المعــز)).**[1] وحــتى أن صحــت حكايــة هــذه القصيــدة؛ فــلا يمكــن أن يقــوم المهــدي وولــده أبــو القاســم بشــن حــرب عــلى دولــة بــني العبــاس امتــدت زمنيــا بعشــرات السنيــن، وكلفــت الدولــة آلاف الأرواح، وأمــوالا لا تحــصى؛ لا لــشيء ســوى أنــه أصــر ــ بعنــاد ونكايــة في القــادر العبــاسي ــ أن يستــولي عــلى صــدر الطائــر ورأســه..!! فهــذا التعليــل فيــه كثيــر مــن الأصبــاغ الأسطوريــة مــا يضحــك. أمــا الحقيقــة فتكمــن في الرغبــة الجامحــة لــدى الفاطمييــن للإطاحــة بالخلافــة العباسيــة ــ الــتي يــرون فيهــا دولــة مغتصبــة لحقــوق العلوييــن ــ حــتى يتســنى لهــم إقامــة الخلافــة الفاطميــة العلويــة الشرعيــة في نظرهــم.

---

[1] **اتعــاظ الحنفــا، ص: 99.**

وبعدها انشغل عبيد الله المهدي بتطويع القبائل المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى؛ كزناتة ومكناسة وهوارة ونفوسة وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**واضطرب المغرب؛ فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكر كتامة أولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة؛ ففر محمد ابن خزر** [الزناتي] **وأصحابه في الرمال. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية، ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها؛ ثم عاج إلى الريف؛ فافتتح بلد نكور من ساحل المغرب الأوسط(!) ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيق عليه، ودوخ أقطار المغرب؛ ورجع ولم يلق كيدا**)).[1]

---

[1] **العبر، مج: 4، ص: 82.**

وفي سنــة 322هـ(933م) تــوفي عبيــد اللــه المهــدي؛ بعــد أن حكــم الدولــة الفاطميــة ببــلاد المغــرب مــدة أربــع وعشريــن سنــة؛[1] فأخــفى ولــده أبــو القاســم خبــر موتــه مــدة مــن الزمــن قيــل أنهــا وصلــت إلى السنــة تقريبــا؛ بينمــا يقــول أبي عبيــد اللــه محمــد الصنهــاجي أنهــا لــم تتجــاوز الشهــر؛ وذلــك خوفــا مــن حــدوث فتنــة أو بعــض الاضطرابــات[2].

ــ حكومـــة القائم بأمر الله أبو القاســم محمد بن عبيد الله:

ثمــة مــن يقــول أن اسمــه عبــد الرحمــن أو نــزار وليــس محمــدا. وتلقــب مــن ألقــاب الخــلافــة بلقــب القائــم بأمــر اللــه. وولــد هــو الآخــر في سلميــة بــأرض الشــام؛ وقــدم إلى المغــرب رفقــة والــده؛ حيــث تعــرض لنفــس الظــروف الــتي عرفهــا والــده؛ مــن خــوف وتستــر وسجــن ..الــخ. تــولى شئــون الدولــة بعــد ممــات والــده؛ دون أن يعلــن موتــه في بدايــة الأمــر؛ خوفــا مــن حــدوث فتــن.

---

[1] **قــال محمــد الصنهــاجي: ((وتــوفي عبيــد اللــه يــوم الإثنيــن الرابــع عشــر مــن ربيــع الأول سنــة 322هـ؛ وكســف القمــر في تلــك الليلــة كسوفــا كليــا (؟!). وعمــره اثنتــان وستــون سنــة ــ أو ثــلاث وستــون ــ وكانــت وفاتــه مــن دواء سقــاه إيــاه ابــن الجــزار؛ يقــال أنــه حــب (السورنجــان)؛ لنقــرس كــان يشكــوه؛ وكــان إسحــاق الإسرائيــلي نهــاه عنــه، وأعلمــه أنــه يجــد عــلى إثــره إفاقــة، ثــم يشتــد عليــه. وقــد يتسبــب في هلاكــك. فلــم يقبــل منــه قولــه؛ لشــدة مــا يجــده؛ فوجــد تلــك الإفاقــة ثــم مــات)) أخبــار ملــوك بــني عبيــد، ص ص: 26 ــ 27.**

[2] **أخبــار ملــوك بــني عبيــد، ص: 27. والكامــل، ج: 6، ص: 238.**

ولم يعلن نبأ وفاة والده حتى تمكن من الأمر،[1] وقبض دفة التسيير بيد ثابتة.[2] ومع هذا فقد وقع ما كان يتوجس منه؛ إذ أنه ما أن أعلن وفاة والده حتى اشتعلت بعض الثورات في عدة جهات؛ كانت أبرزها ـ آنئذ ـ هي الثورة التي قام بها في نواحي طرابلس شخص يدعى ابن طالوت القرشي؛ إذ ادعى أنه ابن المهدي؛ غير أن أمره كشف، واتضح للناس كذبه؛ فقتله من كان في تلك الجهات من الأمازيغ. كما أرسل أبو القاسم جيشا بقيادة ميسور الفتى إلى النواحي الغربية بغرض إخضاع؛ حيث دخل إلى نكور وفاس.

---

[1] قال ابن عذاري: ((ولم يركب أبو القاسم طول إمارته بمظلة. فقام بسيرة أبيه، واظهر من الحزن عليه ما لا يعهد لمثله، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده؛ فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين. وافتتحت في أيامه مدائن كثيرة من مدائن الروم بصقلية، وثار عليه عدة ثوار؛ فأمكنه الله منهم)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 208 209.

[2] يقول ابن الأثير: ((ولما توفي [أي عبيد الله] ملك بعده ابنه أبو القاسم محمد؛ وكان أبوه قد عهد له. ولما أظهر وفاة والده كان قد تمكن، وفرغ من جميع ما أراده، واتبع سنة أبيه. وثار عليه جماعة فتمكن منهم؛ وكان من أشدهم رجل يقال له: ابن طالوت القرشي؛ في ناحية طرابلس؛ وزعم انه ولد المهدي؛ فقاموا معه، وزحف إلى مدينة طرابلس؛ فقاتله أهلها؛ ثم تبين للبربر كذبه؛ فقتلوه، وحملوا رأسه إلى القائم)). الكامل، ج: 6، ص: 238.

ومن جهة أخرى فإنه لم ينس الهدف الرئيسي لوالده؛ وهو فتح الديار المصرية؛ لذا فقد جهز جيشا بقيادة خادمه زيدان فدخل الإسكندرية أيضا؛ ولكنه انهزم في الأخير أمام جيش الإخشيد.[1]

وفي سنة 333هـ(944م) اشتدت الثورة الخارجية في المغرب الأوسط وإفريقية ضد الدولة الفاطمية تلك الثورة التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي؛ المعروف بصاحب الحمار. وكانت هذه الثورة أعنف الثورات وأعتاها على الدولة الفاطمية؛ حتى كادت أن تسقطها نهائيا؛ لولا ضربات من الحظ أنقذتها. وقد انهزمت أمامه جيوش الفاطميين مرات عديدة؛ حتى أن القائم بأمر الله نفسه اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة إلى المهدية.[2] ويعود ـ في الحقيقة ـ ظهور أبي يزيد في الساحة المذهبية إلى عهد عبيد الله؛ وبالتحديد إلى سنة 316هـ(928م)؛ إلا أنه كان يقتصر ـ في نشاطه ـ على الدعوة باللسان؛ دون اللجوء إلى السلاح.

---

[1] الكامل، ج: 6، ص : 238.

[2] قال ابن عذاري: ((وكان أبو يزيد أحد أئمة الإباضية النكار بالمغرب. قال الرقيق: "وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار. وتسمى شيخ المؤمنين." قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنوده، وقام المسلمون معه." وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه؛ سماهم ابن سعدون في كتابه رجلاً رجلاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 217.

ولما مات عبيد الله خرج للعلن؛ رافعا لواء العصيان المسلح ضد الدولة الفاطمية. وبقي يكيل لجيوش الدولة الهزيمة تلو الهزيمة؛ ولم يترك لأبي القاسم فرصة لاسترداد أنفاسه؛ وحصره مدة طويلة في المهدية؛ دون أن يجد سبيلا لفك ذلك الحصار الذي أنهك أهل المدينة، وأوصلهم إلى حافة الهلاك جوعا.[1] بل مات أبو القاسم في الوقت الذي كان فيه أبو يزيد محاصرا لسوسة.[2] ولم تتمكن الدولة الفاطمية من أبي يزيد إلاّ بعد أن انفضت عنه القبائل الزناتية التي كانت تناصره؛ بعد أن انحرف عن الطريق السوي،[3] وبعد أن شعرت تلك القبائل مدى الخطورة هذا الرجل لو

---

[1] يقول ابن خلدون: ((واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي؛ ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي، وفرقها فيهم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخر من سنته [يقصد هنا سنة 334هـ وهذا يخالف التاريخ الذي ذكره ابن عذاري]؛ وبها عسكر القائم؛ وتوفي القائم وهو بمكانه [يقصد أبا يزيد] من حصارها)). العبر، مج: 4، ص: 89. أما ابن عذاري فيقول: ((وفي سنة 335هـ وصل أبو يزيد إلى المهدية. ثم نهض إلى سوسة؛ فناوشه أهلها؛ فقيل فيه (وافر):

أَلَـمَّ بِسُوسَةَ وَبَغَى عَلَيْهَا وَلَكِنَّ الإِلَهَ لَهَا نَصِيرُ

[3] يقول ابن خلدون: ((ثم انتقض البربر عليه [أي على أبي يزيد] بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات، والمنافسة بينهم؛ فانفضوا عنه؛ ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين [وثلاثمائة]. وغنم أهل المهدية معسكره؛ وكثر عبث البربر في أمصار إفريقية وضواحيها؛ وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

استولى على الحكم. وبذلك انتهى أمره إلى الأسر والقتل.[1]

ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله:

ولد المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بالمهدية سنة 299هـ(911م) أو سنة 302هـ. ولما تولى الحكم ـ خلال المحنة التي مرت بها الدولة الفاطمية جراء حصار أبي يزيد لها ـ قام هو بدوره بإخفاء خبر موت والده القائم بأمر الله؛ خوفا من تثبيط عزائم أنصاره وجيوشه من جهة؛ وتشجيع أبي يزيد ـ الذي كان أمره قد استفحل في تلك الأثناء ـ من جهة أخرى؛ حيث كان يقف على أبواب سوسة محاصرا إياها. لذا فقد التزم بكتمان خبر موت والده: **((فلم يُسَمَّ بالخليفة، ولا غيَّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود إلى أن فرغ من أبي يزيد)).**[2] وكان المنصور يتمتع بعزيمة فولاذية، وشجاعة ملحوظة؛ ويبدي عند الحاجة إصرارا شديدا؛ في سبيل تحقيق أهدافه. وكان فصيح اللسان وخطيبا موهوبا؛ إذ يتمتع بقدرة على إنشاء وارتجال الخطبة حاضرا.

---

[1] **قال ابن خلدون في موت أبي يزيد: ((ثم هلك من الجراحة التي به؛ فأمر [المنصور إسماعيل] بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا؛ فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه)). العبر، مج: 4، ص: 93.**

[2] **العبر، مج: 4، ص: 89.**

ومن أهم الأعمال التي قام بها بعد موت أبيه هي المبادرة بإرسال الإمدادات إلى سوسة بحرا؛ في أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والأمتعة والميرة؛ فكانت هذه الخطوة الجريئة والحازمة منه سببا في هزيمة أبي يزيد، وفك الحصار عن المدينة؛ حيث خرج إليه أهلها مع المدد الذي جاءهم؛ فانهزم أبو يزيد أمامهم.[1] ولم يترك المنصور هذه الفرصة تفوت؛ إذ واصل ضغوطه المتتالية على أبي يزيد في كل مكان، وتابع تحركاته أينما سار حتى تمكن من القبض عليه أخيرا في جبل كيانة بالقرب من المسيلة؛ حيث وضع في قفص ونقل إلى المهدية. ويقال أنه سلخ لما مات وحشي جلده تبنا؛ ووضع مع قرد في قفص. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

أمَّا النفاق فقدْ نسَخْ ... وَأَبُو الكبَائر قدْ سُلِخْ
كانَ الفوَيسِقُ مُخلدٌ ... قرْداً وَلَكنْ قدْ مسخْ
لوْ قدْ رَأيتَ محلهُ ... وَبنو الحداية تَصْطرِخْ

---

[1] وفي سوسة يقول أحد شعرائها آنئذ وهو أحمد بن افلح:

أَلَمَّ بِسُوسَة وَبَغَى عَلَيْهَا ... وَلَكِنَّ الإِلَهَ لَهَا نَصِيرُ
مَدِينَة سُوسَة لِلْمَغْرِب ثغْرٌ ... يَدِينُ لَهَا المَدائِنُ وَالثُّغُورُ
لَقَدْ لُعِنَ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيهَا ... كَمَا لُعِنَتْ قُرَيْضَة وَالنَّضِيرُ
أَعَزَّ الدِّينَ خَالِقُ كُلَّ شَيْءٍ ... بِسُوسَة بَعْدَمَا الْتَوَتِ الأُمُورُ

لرَأيتَ مَا عَقَــدَ اللعِيــ ـــنُ بِلُطفِ رَبكَ قَد فُسِخْ

وقـــال أحدهـــم في أخـــرى:

... فَسلَختهُ مِنْ جِلــدِهِ وَحَشَوتهُ حَشْــوَ المَزَاوِدْ
وَضَرَبَتــهُ مَثلاً يَسِيـ ـــر فِي الأقارِبِ وَالأبَاعِدْ
وَرَدَتْ بـــهِ أطماعـــهُ وَظُنونـــهُ شرَّ المــوَارِدْ

وزحــف المنصــور نحــو تيهــرت ــ بعــد القبــض عــلى أبي يزيــد ــ حيــث ضبــط الأمــور بهــا؛ وانتقــم مــن الخارجيــن عــن طاعــة الدولــة الفاطميــة؛ الأمــوات[1] منهــم والأحيــاء. وكذلــك الحــال في القيــروان؛ إذ نقــل ابــن عــذاري عــن ابــن حمــادوه خبــر عمليــات التنكيــل الــتي سلطهــا المنصــور عــلى بعــض سكــان القيــروان.[2] ومــن إنجــازات المنصــور العمرانيــة تشييــده لمدينــة صبــرة الــتي سماهــا المنصوريــة؛ حيــث أمــر بالبــدء في بنائهــا سنــة 336هــ(947م)؛ إذ انتقــل إليهــا تاركــا المهديــة، الــتي تهدمــت جــل أحياؤهــا.

---

[1] قــال محمــد الصنهــاجي: ((ثــم انصــرف إسماعيــل إلى المسيلــة، وتوجــه منهــا إلى تاهــرت يــوم الثلاثــاء، لســت بقيــن مــن صفــر مــن هــذه السنــة؛ فلمــا وصــل إليهــا أمــر بنبــش عظــام مصالــة وفضــل بــني حبــوس، وأحرقهــا بالنــار، وأحــرق منبــر جامعهــا؛ لكونــه خطــب عليــه لعبــد الرحمــن بــن محمــد (الخليفــة الناصــر الأمــوي) وأقــام بهــا أيامــا وولى عليهــا)). أخبــار ملــوك بــني عبيــد، ص: 45.

[2] قال ابــن عــذاري: ((وقــال ابــن حمــادوه: "ولمــا ظفــر بــأبي يزيــد؛ نهــض إلى القيــروان؛ فدخلهــا في هــذه السنــة؛ فقتــل مــن أهلهــا خلقــا، وعــذب آخريــن؛ ولــم يزالــوا معــه في الامتحــان إلى أن هلــك")). البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 220.

ومما نسب للمنصور أيضا سعيه لإعادة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة؛ بعد أن انتزعه منها القرامطة. وهنا يظهر هذا الخبر مغلفا بكثير من الغموض والاضطراب؛ إذ يزعم بعض المؤرخين أن المنصور انتقل بنفسه للمشرق لإعادة الحجر الأسود إلى موضعه؛ بينما يرى آخرون أن القرامطة هم الذين أرجعوه بأنفسهم بعد أن هددهم المنصور؛ ومنهم أيضا من أشار لموضوع إعادة الحجر دون التطرق لدور الفاطميين في ذلك.[1] والخلاصة أن وفاة إسماعيل المنصور حدثت في سنة 341هـ(952م)؛ بينما كان في عز شبابه؛ إذ لم يتجاوز عمره آنئذ تسع وثلاثين سنة. ويقال أن سبب موته هي قرحة في كبده؛ تسببت في حدوث إسهال شديد لديه؛ فتوفي نتيجة لذلك الإسهال الحاد.

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وفي سنة 339 تحرك أبو طاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام؛ وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المُطِيع. وكان الذي اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي ـ لعنه الله ـ في سنة 317؛ في أيام المقتدر العباسي ـ رحمه الله ـ والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علاج ـ لعنه الله ـ ولما مات القرمطي؛ وجه اخوته الحجر؛ فرد إلى موضعه في هذه السنة؛ ووضعه بيده حسين بن المروذي الكناني)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220. غير أن أقوالا أخرى تخالف هذا الرأي؛ وردت في الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 335.

ـ حكومـــة المعـــز لديـــن اللـــه معـــد بـــن إسماعيـــل:

خلــف المعـــز لديـــن اللـــه والـــده إسماعيـــل في ســـدة الملـــك بإفريقيـــة وبـــلاد المغـــرب ســـنة 341هــ(952م) كمـــا جـــاء في أشهـــر الأقـــوال. وكـــان مولـــد هـــذا الخليفـــة بالمهديـــة سنـــة 319هــ(931هــ) ولمـــا ولي الخلافـــة كـــان عمـــره في حـــدود اثنيـــن وعشريـــن سنـــة. ويعتبـــر المعـــز مـــن أشهـــر الخلفـــاء الفاطمييـــن عـــلى الإطـــلاق؛ إذ شـــاع ذكـــره في العالـــم الإســـلامي؛ نظـــرا لكونـــه أول مـــن تغلـــب عـــلى مصـــر بالكامـــل، ونقـــل مركـــز الخلافـــة الفاطميـــة إليهـــا. وتقـــول المصـــادر التاريخيـــة أنـــه بـــدأ عهـــده في سنـــة 342هــ(953م) بالخـــروج إلى جبـــل أوراس في جيـــش عظيـــم؛ بغـــرض تأديـــب وإخضـــاع مـــن بـــقي متمـــردا عـــن الدولـــة؛ مـــن أتبـــاع أبي يزيـــد. فسلـــط غضبـــه عـــلى قبيلـــتي: هـــوارة ومليلـــة المنحازتيـــن ــ سابقـــا ــ إلى أبي يزيـــد؛ ولـــم تثنهـــم موتـــه عـــن مواصلـــة العصيـــان، والخـــروج عـــن طاعـــة الدولـــة الفاطميـــة. وبعـــد أن حقـــق المعـــز هدفـــه نحـــو الخـــوارج ــ مـــن بقايـــا أنصـــار أبي يزيـــد ــ اتجـــه صـــوب المغـــرب الأقـــصى؛ حيـــث بعـــث إلى تلـــك الديـــار سنـــة 347هــ(958م) خادمـــه الـــوفي ــ الـــذي بـــدأ نجمـــه يسطـــع؛ جوهـــر الكاتـــب ــ قصـــد تطويـــع القبائـــل المتمـــردة مـــن زناتـــة ومكناســـة وغيرهمـــا.[1]

---

[1] **قـــال المقريـــزي في تلخيـــص لخبـــر ابـــن الأثيـــر: ((وفي سنـــة سبـــع وأربعيـــن عظـــم أمـــر أبي الحســـن جوهـــر عنـــد المعـــز، وعـــلا محلـــه، وصـــار في رتبـــة الـــوزارة؛ فسيـــره في صفـــر منهـــا عـــلى جيـــش كثيـــف؛ فيهـــم الأميـــر زيـــري بـــن منـــاد**

وفي سنة 355هـ(965م) شرع المعز لدين الله في التمهيد للعمل الهام الذي شغله وحلم به هو آبائه منذ قيام دولتهم؛ ويتمثل ذلك الحلم في السعي بدون كلل للاستيلاء على مصر؛ التي ستكون خطوة أمامية في سبيل إسقاط الخلافة العباسية ببغداد، وقيام الدولة الفاطمية بدلا منها. وعليه فقد أمر بالشروع في حفر آبار الماء بين مصر وإفريقية؛ وكما أمر أن يبنى له عدة قصور على طول الطريق؛ فنفذ ما أمر به. وفي تلك السنة بالذات وصل خبر وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر؛ فازداد المعز لهذا عملا وإصرارا في سبيل تحقيق حلمه؛ فبادر إلى جمع المال والعتاد اللازمين للمهمة الكبرى؛ ويقال أنه خصص سنة 357هـ(967م) للحملة المقبلة على مصر مبلغا من المال يقدر بأربعة وعشرين ألف دينار؛ وضعت كلها تحت تصرف القائد الفاطمي جوهر الصقلي.[1]

الصنهاجي وغيره؛ فسار إلى تاهرت، وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس؛ فنازلها مدة، وسار إلى سجلماسة؛ وقد قام بها رجل وتلقب بالشاكر، وخوطب بأمير المؤمنين؛ ففر من جوهر؛ فتبعه حتى أخذ أسيرا. ومضى جوهر إلى البحر المحيط؛ فأمر أن يُصاد من سمكه، وبعثه في قلال إلى المعز؛ وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها، ثم عاد فقاتل أهل فاس حتى افتتحها عنوة، وقبض على صاحبها، وجعله مع صاحب سجلماسة في قفصين، وحملهما إلى المعز بالمهدية، وعاد في أخريات السنة)). اتعاظ الحنفا، ص ص: 134 ـ 135.

[1] اتعاظ الحنفا، ص ص: 138 ـ 139.

وتحـــرك الجيـــش الفاتـــح مـــن القيـــروان نحـــو مصـــر يـــوم السبـــت رابـــع عشـــر شهـــر ربيـــع الأول مـــن سنـــة ثمـــان وخمسيـــن وثلاثمائـــة؛ فوصـــل إلى مصـــر في يـــوم الثلاثـــاء ثامـــن عشـــر شعبـــان مـــن السنـــة نفسهـــا.[1] وقـــال محمـــد بـــن هـــاني الأندلـــسي مودعـــا الجيـــش ومادحـــا جوهـــر الكاتـــب في قصيـــدة طويلـــة نذكـــر منهـــا:

رَأيتُ بِعيـــنِي فوقَ مَا كنتُ أسمـــعُ
وَقَدْ رَاعـــنِي يوْمٌ مِنَ الحشرِ أرْوَعُ
غـــدَاة كـــأنَّ الأفـــقَ ســـدَّ بمثلـــهِ
فَعَادَ غرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيثُ تَطـــَعُ
فلـــمْ أدْرِ إذْ سلمـــتُ كيـــفَ أشيـــعُ
وَلـــمْ أدْرِ إذْ شيعـــتُ كيـــفَ أوَدِّعُ
وَكيفَ أخُوضُ الجَيشَ وَالجَيشُ لُجَة
وَإنِّي بمنْ قدْ قـــادَهُ الدَّهـــرُ مُولـــعُ
وَأينَ وَمَا لِي بَينَ ذَا الجَمعِ مَسْلـــكٌ
وَلاَ لِجوَادِي فِي البسِيطـــةِ مَوْضِـــعُ
ألاَ إنَّ هذَا حَشـــدُ مَنْ لمْ يـــذُقْ لـــهُ
غِرَارَ الكرَى جَفنٌ وَلاَ باتَ يَهجـــعُ

[1] **النجـــوم الزاهـــرة، ج: 4، ص: 28.**

نَصِيحَتَــهُ لِلمُلــكِ سَدَّتْ مَذَاهِــبِي

وَمَا بَينَ قيدِ الرُّمْحِ وَالرُّمحِ إصْبَــعُ

فقدْ ضَرِعَتْ مِنهُ الرَّوَاسِي لِمَا رَأتْ

فكيفَ قلوبُ الإنس وَالأنسُ أضْــرَعُ

فلاَ عَسْكرٌ مِنْ قَبلِ عَسْكــرِ جَوْهــرٍ

تخبُّ المَطَايــا فِيهِ عَشراً وَتُوضِــعُ

تَسيــرُ الجبــالُ الجامِــدَاتُ بسيــرِهِ

وَتسجدُ مِنْ أدنَى الحَفِيفِ وَترْكــعُ

إذَا حــلَّ فِي أرْضٍ بَناهــا مَدَائنــاً

وَإنْ سَارَ عَنْ أرْضٍ ثوَتْ وَهْيَ بَلقعُ

إلى أن يقــول:

وَنودِيَ بِالترْحَالِ فِي فَحمةِ الــدُّجَى

فَجَاءَتهُ خيلُ النَّصْرِ تَرْدِي وَتَمــزَعُ

فلاَحَ لها مِنْ وَجْهــهِ البدْرُ طالِعــاً

وَفِي خــدِّهِ الشِّعرَى العبورُ تَطلــعُ

وَأضْــحَى مــرَدَّى بِالنجــادِ كأنــهُ

هِزَبرُ عَرِينٍ ضَــمَّ جَنبيــهِ أشجــعُ

فكبــــرَتِ الفرْســــانُ للـــهِ إذْ بـــدَا
وَظَـــلَّ السِّــلاَحُ المُنتضَى يَتقعْقـــعُ

ثـــم أضــاف:

فسِـــرْ أيها الملـــكُ المطاعُ مُؤَيـــداً
فلِدِّيـــــنِ وَالدُّنيـــا إليـــكَ تطلـــــعُ
وَقدْ أشعرَتْ أرْضُ العِرَاقينِ خيفـــة
تَكادُ لَهـــا دَارُ السَّـــلاَمِ تضَعضـــعُ
وَأعطـــتْ فِلسْطِينُ القِيـــادَ وَأهلُهـــا
فلـــمْ يبـــقَ مِنهـــا جَانـــبٌ يَتمَنَـــعُ
وَمَا الرَّمْلة المَقصُورَة الحَظْوِ وَحْدَهَـــا
بأوَّلِ أرْضٍ مَا لهَا عَنَـــكَ مَفـــزَعُ
وَمَا ابْنِ عُبيْدَ اللـــهِ يَدْعوكَ وَحـــدَهُ
غدَاةَ رَأى أنْ ليسَ فِي القوْسِ مَنزَعُ
بَلِ الناسُ، كلُّ الناسِ يَدْعُوكَ، غَيْرَهُ
فـــلاَ أحـــدٌ إلاَّ يـــذِلُّ وَيخضـــعُ
وَإنَّ بأهـــلِ الأرْضِ فقـــراً وَفاقـــة
إلَيـــكَ وَكلُّ الناسِ آتيـــكَ مهطـــعُ

ألاَ إنمَا البُرْهَــانُ مَا أنتَ مُوضِـــحٌ
مِنَ الرَّأيِ وَالمِقدَارُ مَا أنتَ مُزْمِــعُ
رَحَلــتَ إِلَى الفسْطَاطِ أيمنَ رِحْلَــةٍ
بأيمنِ فَــالٍ فِي الذِي أنتَ مُجْمِــعُ
ولَمَّا حَثثْــتَ الجَيْــشَ لاَحَ لأهلِــهِ
طرِيــقٌ إِلَى أقصَى خرَاسَانَ مَهيــعُ

ثـــم قـــال:

وَمَا جهِلتْ مِصرٌ وَقدْ قِيلَ مَنْ لَهَــا
بِأنــكَ ذَاكَ الهبـــرزِيُّ السميـــذَعُ
وَأنــكَ دُونَ النـــاسِ فاتـــحُ قفلِهــا
فأنـــتَ لهـــا المرْجـــوُّ وَالمُتوَقـــعُ
فإنْ يــكُ فِي مِصرٍ رِجالُ حلومِهــا
فقدْ جَاءَهمْ نِيلٌ سِوَى النيــلِ يَهــرَعُ
وَيممهـــمْ مَـــنْ لاَ يَغِيـــرُ بنِعمـــةٍ
فيسْلبهـــمْ لكِـــنْ يَزِيـــدُ فيوسِــــعُ

ويبدو أن الذي شجع المعز لإرسال جيشه إلى مصر هو ما أصبحت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في مصر بعد موت كافور؛ إذ يقال أن بعض المصريين قد بعثوا إليه مستنجدين به، ومحفزين إياه لفتح البلاد، وطرد الاخشيذيين.[1] ولما أصبحت مصر في يد الفاطميين؛ بادر جوهر من يومه الأول إلى رفع الدعوة في المنابر باسم

---

[1] قال يوسف بن تغري بردي: ((كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيذي؛ لما قام على مصر أحمد بن علي بن الإخشيذ وهو صغير؛ فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، والوزير ــ يومئذ ــ جعفر بن الفرات؛ فقلت الأموال على الجند؛ فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله معد؛ وهو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلموا إليه مصر؛ فجهز المعز جوهرا هذا بالجيوش والسلاح في نحو ألف فارس أو أكثر؛ فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية؛ وأرسل إلى أهل مصر؛ فأجابوه بطلب الأمان، وتقرير أملاكهم لهم؛ فأجابهم جوهر إلى ذلك، وكتب لهم العهد. فعلم الإخشيذية بذلك؛ فتأهبوا لقتال جوهر المذكور؛ فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان؛ فاختلفت كلمتهم؛ ثم اجتمعوا على قتاله، وأمروا عليهم ابن الشويزني، وتوجهوا لقتاله نحو الجيزة وحفظوا الجسور؛ فوصل جوهر إلى الجيزة، ووقع بينهم القتال في= =حادي عشر شعبان، ودام القتال بينهم مدة، ثم سار جوهر إلى منية الصيادين، وأخذ مخاضة منية شلقان؛ ووصل إلى جوهر طائفة من العسكر في مراكب؛ فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: "لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله!"فعبر عريانا في سراويل وهو في موكب ومعه الرجال خوضا؛ والتقى مع المصريين، ووقع القتال بينهم، وثبت كل من الفريقين؛ فقتل كثير من الإخشيذية، وانهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم؛ وحضر رسوله ومعه بند وطاف بالأمان ومنع من النهب؛ فسكن الناس وفتحت الأسواق، ودخل جوهر من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده)). النجوم الزاهرة، ج: 4، ص ص: 30 ــ 31.

الخليفـــة المعـــز لديـــن اللـــه الفاطـــمي؛ كمـــا ألـــزم المؤذنيـــن بإتبـــاع نـــص الأذان المتبـــع عنـــد الشيعـــة؛ وأمـــر بتـــرك شعـــار الســـواد، ولبـــس الأبيـــض مـــن اللبـــاس. وبعدهـــا أرســـل بالبشـــرى إلى المعـــز يعلمـــه بما فتـــح اللـــه لـــه. فوصلـــت الأخبـــار إلى القيـــروان في رمضـــان مـــن سنـــة 358هـ(968م).

وبهـــذا يكـــون قـــد امتـــد الزمـــن بالخلفـــاء الفاطمييـــن ببـــلاد المغـــرب؛ حـــتى حـــل عهـــد المعـــز لديـــن اللـــه معـــد بـــن المنصـــور ــ وهـــو رابـــع ملوكهـــم ــ حيـــث استطاعـــت الدولـــة الفاطميـــة ــ في عهـــد هـــذا الخليفـــة ــ تحقيـــق أعظـــم إنجازاتهـــا السياسيـــة؛ إذ تمكنـــت مـــن نشـــر سلطانهـــا عـــلى ديـــار مصـــر كلهـــا؛ ثـــم الحجـــاز وبـــلاد الشـــام بعـــد ذلـــك؛ ومـــن ثمـــة أصبحـــت تهـــدد الخلافـــة العباسيـــة بحـــق. ومـــا أن وصلـــت البشائـــر بالفتـــح؛ حـــتى أنشـــد شاعـــر البـــلاط الفاطـــمي؛ محمـــد بـــن هـــاني الأندلـــسي قصيدتـــه الشهيـــرة الـــتي قـــال فيهـــا مادحـــا الخليفـــة المعـــز:

تقولُ بَنو العَبَاسِ هل فتِحَتْ مِصْـــرُ
فقلْ لِبنِي العبـــاسِ قدْ قضِيَ الأمـــرُ
وَقدْ جـــاوَزَ الإسكِندَرِيـــة جوْهـــرٌ
تُطالعـــهُ البشرَى وَيقدُمـــهُ النصْـــرُ
وَقدْ أوفـــدَتْ مِصـــرٌ إليهِ وُفودَهـــا
وَزِيدَ إلَى المَعْقودِ مِنْ جسْرِها جِسرُ

فما جاءَ هذَا اليــوْمُ إلاَّ وَقدْ غــدَتْ

وَأيدِيكــمُ مِنها وَمِنْ غيرِها صِفــرُ

فلاَ تكثرُوا ذِكرَ الزَّمانِ الذِي خــلاَ

فذَلكَ عصرٌ قدْ تقضَّى وَذَا عصْــرُ

أفِي الجيشِ كنتمْ تَمْترُونَ، رُوَيدَكــمْ

فَهذَا القنا العَرَّاصُ وَالجَحْفلُ المَجــرُ

وَقدْ أشرَفــتْ خيلُ الإلــهِ طوَالعــاً

عَلَى الدِّينِ وَالدُّنيا كَما طلعَ الفجــرُ

وَذَا ابنُ نبيِّ اللـــهِ يطلـــبُ وِتــرَهُ

وَكانَ حــرٍ أنْ لاَ يضيِعَ لــهُ وِتــرُ

ذَرُوا الورْدَ فِي مَاءِ الفرَاتِ لِخيلِــهِ

فلاَ الضَّحلُ مِنهُ تَمنَعُونَ وَلاَ الغمــرُ

أفِي الشمْسِ شكٌ أنها الشَّمسُ بَعدَمَــا

تَجلتْ عِياناً ليسَ مِنْ دُونهــا سِتــرُ

وَمَــا هِيَ إلاَّ آيــة بعــدَ آيـــةٍ

وَنـــذْرٌ لكمْ إنْ كانَ يغنِيكــمُ النــذرُ

فكونوا حَصِيداً خامِدِينَ أوِ ارْعــوُوا

إلَى مَلِكٍ فِي كفــهِ المَوْتُ وَالنشــرُ

أطيعــوا إمامــاً للأئمــةِ فاضــلاً
كما كانتِ الأعمــالُ يفضُلهــا البــرُّ
ردُوا سَاقيــاً لاَ تنزفــونَ حِياضــهُ
جموماً كما لاَ تنزِف الأبحرُ الــذُّرُّ
فإنْ تتبعــوهُ فهوَ موْلاَكــمُ الــذِي
لهُ برَســولِ اللــهِ دُونكــمُ الفخــرُ
وَإلاَّ فبعـــداً لِلبعِيـــدِ فبينـــهُ
وَبينكــمُ مــا لاَ يقرِّبــهُ الدَّهـــرُ
أفِي ابنِ أبِي السِّبطَينِ أمْ فِي طلِيقِكمُ
تنزَّلــتِ الآيــاتُ وَالســوَرُ الغــرُّ؟

ومــا أن استقــر جوهــر في مصــر؛ حــتى بــادر إلى بنــاء جامــع الأزهــر، وبعــض الأحيــاء مــن المدينــة الــتي سماهــا القاهــرة؛ حســب وصيــة المعــز. ثــم جــرد في سنـــة 359هــ(969م) جيشـــا بقيـــادة جعفـــر بـــن فـــلاح الكتــامي لفتــح بــلاد الشــام؛ فكــان لــه ذلــك؛ إذ تمكــن ذلــك القائــد الكتــامي مــن أســر الحســن بــن عبــد اللــه ابــن طغــج بالرملــة؛ ثــم زحــف عــلى طبريــة ودمشــق؛ فصالــح الأولى وتغلــب عــلى الثانيــة بسيــف القــوة والقهــر. وفي سنــة 361هــ(971م) تحــرك المعــز لديــن اللــه نحــو مصــر؛ تاركــا بــلاد المغــرب بيــن أيــدي

الصنهاجيين من بني زيري؛ وذلك أنه قرر نقل سلطات الدولة الفاطمية إلى المشرق بعد أن تم بناء القاهرة؛ من خلال انتقاله هو بنفسه إليها؛ واستقراره بها. وتعتبر هذه الفترة نهاية لمجال هذه الدراسة؛ المخصصة للدول التي قامت وسقطت في المغرب والأندلس لا غير. لذا فأحداث الدولة الفاطمية بالمشرق تخرج عن هذا السياق.

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

وفيما يخص المنجزات الثقافية والحضارية التي تمت في الدولة الفاطمية؛ يمكن استخلاص أن لهذه الدولة مرحلتين متباينتين: الأولى تمتد عبر حياة الدولة في بلاد المغرب، والثانية تمثلها الفترة الزمنية التي انتقل فيها مركز الدولة إلى بلاد المشرق. ومع أن هذه الفترة المشرقية تزخر بالإنجازات الرائعة والأعمال العظيمة إلا أنها خارجة عن اهتمام هذه الدراسة. لذا ستترك لمجال آخر. وأما حياة الدولة في بلاد المغرب فلم تكن كلها حبلى بالأعمال الجليلة؛ من حيث الإنجازات الحضارية والنشاطات الثقافية؛ إذ كانت في معظمها مليئة بالحروب والفتن؛ الأمر الذي لم يسمح للقائمين بشئون الدولة أن يتفرغوا ـ بشكل أوسع ـ للإنجازات الحضارية، والنشاط الثقافي؛ تلك الإنجازات؛ التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل الاستقرار والأمن؛ كما أن النشاط الثقافي لا يتحقق

وينمو إلا عندما تكون الظروف الاقتصادية والاجتماعية في وضع جيد. لذا فقد كانت منجزات الدولة الفاطمية: العمرانية والثقافية في بلاد المغرب؛ تتم في محيط قبلي ضيق، ومنغلق على نفسه؛ وقد ازداد تضييقا وانغلاقا بسبب التوجه المذهبي المتعصب لأصحاب الدولة الفاطمية؛ ذلك التوجه المبني على أساس أن الدولة الفاطمية كانت تستخدم الثقافة باستمرار لتحقيق أغراض سياسية وعسكرية ومذهبية؛ تلك الأغراض التي حرصت الدولة الفاطمية على ترسيخها وتمتين أسسها؛ لكي تحقق سيطرة وهيمنة مذهبها الشيعي في كامل أقطار المغرب.

ويتضح هذا التوجه من خلال ما استحدث وأنجز من منشآت عمرانية في هذه الربوع؛ إذ كل ما أنجز في ظل الدولة الفاطمية ببلاد المغرب؛ يخدم بالأساس أهدافا عسكرية وسياسية قبل كل شيء؛ فالمدن – مثلا – التي بنيت في تلك الفترة كـ: المهدية والمحمدية والمنصورية؛ كلها تدخل في هذا المعنى. وما أستحدِث أيضاَ من أعمال ثقافية؛ كانت كلها تخدم المذهب الشيعي فقط؛ بل كان القائمون على هذه الدولة يقمعون كل إنجاز ثقافي يخالف تعاليم مذهبهم. إذ وصل بهم الحد إلى إتلاف كل الأعمال التي كانت قائمة قبل دولتهم، تلك الأعمال التي تتعارض مع معتقداتهم المذهبية؛ من ذلك مثلا ما قاموا به تجاه مكتبة المعصومة

بتيهـرت؛ الـتي يقـال – إن صـح الخبـر – أن أبـا عبـد اللـه – الداعيـة الشيـعي – أتلـف معظـم مجلداتهـا؛ الـتي تبلـغ نحـو الثلاثمائـة ألـف مـن المجلـدات؛ ولـم يتـرك منهـا سـوى الكتـب الـتي وجـد انـه سيستفيـد منهـا؛ وهي الكتـب ذات الطابـع العلـمي والتقـني؛ ويقـال أن مـا حـدث للمعصومـة حـدث أيضـا لمكتبـة الأغالبـة بالقيـروان. ومـع ذلـك فقـد استفـادت الدولـة الفاطميـة واستعانـت بمـا ورثتـه عـن الـدول الـتي تغلبـت عليهـا في بـلاد المغـرب؛ مثـل: الدولـة الأغلبيـة والدولـة الرستميـة والدولـة المدراريـة والدولـة الإدريسيـة وغيرهـا؛ مـن إنجـازات عمرانيـة، وتـراث علـمي وثقـافي؛ إذ استـولى الفاطميـون عـلى خزائـن الكتـب الـتي وجـدت في تلـك الـدول المنهـارة. كمـا أن جـل علمـاء الدولـة وأدبائهـا وشعرائهـا؛ ورثتهـم عـن دولـة القيـروان؛ وحـتى كبـار موظفيهـا وفقهـائهـا كانـوا مـن أتبـاع الدولـة الأغلبيـة قبـل ذلـك؛ وإن كـان بعضهـم ينتـمي – في السابـق – إلى مذاهـب غيـر المذهـب المالـكي؛ مثـل: الفقيـه إسحـاق بـن أبي المنهـال؛ المتمذهـب بالحنفيـة قبـل ظهـور الشيعـة. والفقيـه عـلي ابـن منصـور الصفـار؛ الـذي كـان مـن أتبـاع سعيـد ابـن الحـداد، والفقيـه عبـد الملـك بـن محمـد الضـبي المعـروف بابـن البـردون؛ الـذي كـان مالكيـا مـن قبـل، والفقيـه أبي بكـر بـن سليمـان؛ الحنـفي المذهـب كذلـك؛ وغيرهـم.

وجملة القول إنه كان لهذه الدولة ببلاد المغرب نشاط ثقافي معين؛ في حدود ما يسمح به المذهب الشيعي؛ حيث عمل أصحاب الدولة على نشر مذهبهم الشيعي بواسطة الدعاة والخطباء؛ وبواسطة المدلرس التي أنشئت في ربوع الدولة؛ بغرض تعليم الصغار والكبار مبادئ المذهب الإسماعيلي؛ وهي المدارس التي عرفت بمدارس الدعوة. كما كان للآداب والشعر حظوة لدى ملوك الدولة وأمرائها. حيث كان أئمة الدولة يقرضون الشعر ويتذوقونه؛ بدءا بعبيد الله المهدي؛ الذي يعتبر هو نفسه من علماء الشيعة الباطنية؛ ويقال أنه ألف بعض الكتب؛ منها كتاب الأسرار. كما كان يقرض الشعر أحيانا. ومن الشعر المنسوب إليه هذه الأبيات التي بعث بها لسعيد بن صالح صاحب نكور يتوعده:

فإنْ تَستقيموا أستقمْ لِصَلاَحكمْ
وَإنْ تعدِلوا عنِّي أرَى قتلكم عدْلاَ
وَأعلو بسيفِي قاهراً لسيوفكم
وَأدْخلها عفواً وَأملؤُها قتلاَ

ثم إن الداعية أبا عبد الله الشيعي ــ أيضا ــ كان من العلماء المتفقهين في المذهب الإسماعيلي؛ وقد عرف بالقدرة على الإقناع؛ والتمكن من فنون الخطابة؛ وحب الآداب. وكان ولده أبو القاسم يقرض الشعر أيضا. كما اشتهر كذلك إسماعيل المنصور بالفصاحة والبيان، وبالتفنن في الخطابة، والقدرة على اختراع الخطبة ارتجالا في حينها. أما المعز لدين الله فقد كان يحسن عدة لغات؛ منها: العربية والأمازيغية واللاتينية والصقلبية والإسبانية والسودانية؛ وكان يقول: ((**والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلم والحكمة**)). ويقول فيه القاضي النعمان: ((**نظر في كل فن وبرع في كل علم**)). وهو إلى جانب كل ذلك يقرض الشعر؛ ومن شعره:

أطلعَ الحسنُ مِنْ جبينكَ شمسا
فوقَ وَرْدٍ فِي وَجنتيك أظلاَّ
وَكأنَّ الجمالَ خافَ عَلَى الوَرْ
دِ جفافاً فمدَّ بالشعرِ ظلاَّ

وتنسب إليه هذه الأبيات أيضا:

لِلهِ مَا صَنعتْ بنا
تلكَ المحاجرِ فِي المعاجرْ

أمضَى وَأقــضَى فِي النفــو

سِ مِنَ الخناجرِ فِي الحناجرْ

وَلَقــدْ تعبـــتُ ببينكـــمْ

تعب المهاجرِ فِي الهوَاجــرْ

هــذا ويحتــل عصــر المعــز ــ في بــلاد المغــرب ــ الــذروة في مجــال نشــر العلــم والأدب والفنــون. ومــع هــذا يبــدو أن الشعــر كــان هــو الفــن الأكثــر حظــوة واستحسانــا لديــه، ولــدى حكــام الدولــة الفاطميــة ببــلاد المغــرب؛ لأنــه ــ في نظرهــم ــ كــان بمثابــة الســلاح الــذي يستخــدم في الدعايــة للدولــة ومذهبهــا؛ كمــا يستخــدم لتشويــه صــور الأعــداء في أذهــان النــاس. وكمــا كــان المعــز شغوفــا بالعلــوم وحفــظ اللغــات، ومحبــا للآداب والشعــر؛ فقــد ســار عــلى نهجــه جــل أبنائــه؛ فهــذا ولي عهــده العزيــز باللــه؛ الــذي ولــد في المهديــة سنــة 344هــ(955م)؛ كــان يجيــد ــ كوالــده ــ لغــات عديــدة؛ ويتمتــع أيضــاً بــذوق فــني رفيــع؛ وقــد أبــدا تسامحــا جليــلا في قضايــا الديــن والمذهــب؛ واعتــنى بنشــر العلــوم؛ إذ يعتبــر هــو صاحــب المبــادرة في جعــل الأزهــر منــارة للعلــم بمصــر.

وكـــان أيضـــاً يجيـد قـــول الشعـــر؛ ومـــن شعـــره هـــذه الأبيـــات الـــتي نظمهـــا في يـــوم عيـــد؛ جلـــس فيـــه للعـــزاء بسبـــب مـــوت ولـــد لـــه:

نحـــنُ بنو المصطفَى ذَوُو إحـــنٍ
جرِّعهـــا فِي الحيـــاةِ كاظِمنـــــا
عجيبـــة فِي الأنـــامِ محنتنـــا
أوّلنـــا مبتـــلى وَآخرُنـــا
يفـــرَحَ هـــذَا الـــوَرَى بعيدِهـــمْ
طـــراً وَأفرَاحنـــا مآتمـــا

واشتهـــر أيضـــا ــ مـــن بيـــن أبنـــاء المعـــز ــ ولـــده تميـــم الـــذي بـــرع في الآداب وتفنـــن في قـــرض الشعـــر؛ وهـــو مـــن مواليـــد المنصوريـــة سنـــة 337هــ(948م). ولكنـــه انغمـــس في اللهـــو والمجـــون؛ وقـــد تعـــددت الأغـــراض الـــتي تناولهـــا في شعـــره؛ ومـــن شعـــره:

مَا بانَ عذْرِي فيـــهِ حـــتَّى عـــذِّرَا
وَمَـــشَى الـــدُّجَى فِي خدِّهِ فتحيَـــرا
همـــتْ تقبلـــهُ عقـــارِبُ صُدْغِـــهِ
فاسْتَـــلَّ ناظِـــرُهُ عليهـــا خِنجـــرا
وَاللـــهِ لـــوْلاَ أنْ يقـــالَ تغيـــرَا
وَصَبَا وَإنْ كانَ التصَـــابِي أجـــدَرَا

لأعــدْتُ تفــاحَ الخـــدُودِ بنفسَجــاً
لثمــاً وَكافــورَ الترَائـــبِ عنبــرَا

ومــن شعــره أيضــا:

أما وَالذِي لاَ يملــكُ الأمــرَ غيــرُهُ
وَمنْ هــوَ بالســرِّ المكتــمِ أعلــمُ
لئــنْ كانَ كتمَانُ المَصَائبِ مُؤلِمــاً
لإعلاَنهــا عنــدِي أشــدُّ وَآلــــمَ
وَبي كلُّ مَا يبــكِي العيــونَ أقلــهُ
وَإنْ كنــتُ منــهُ دَائمــاً أتبســـمُ

ولـــه كذلـــك:

وَمَا أمٌّ خشفٍ ظــلَّ يوْمــاً وَليلــةٍ
ببلقعـــةٍ بيــدَاءَ ظمــآنَ صادِيــا
تَهيــمُ فلاَ تــدرِي إلَى أينَ تنتــهِي
مُوَلهـــة حيــرَى تجوبُ الفيافيــا
أضَّـــرَّ بها حرُّ الهجيــرِ فلمْ تجــدْ
لغلتهــا مِــنْ بــارِدِ المــاءِ شافيــا
فلَمَّا دَنتْ مِنْ خِشْفِهَا انعَطفــتْ لــهُ
فَألفتــهُ ملهــوفَ الجوَانــحِ طاوِيــا

بأوْجـــعَ منِّي يوْمَ شـــدَّتْ حمولهـــمْ

وَنـــادَى منادِي الحيِّ أنْ لاَ تلاَقيـــا

ومـــن شعـــره أيضـــا هـــذه الأبيـــات:

يـــومٌ لنا فِي النيـــلِ مختصـــرٌ

وَلكـــلِّ يـــوْم مســـرَّةٍ قصـــرُ

وَالسفـــنُ تصْعدُ كَالخيولِ بنـــا

فيـــهِ وَجيـــشُ المـــاءِ ينحـــدِرُ

فكأنمـــــا أموَاجـــهُ عكـــــنٌ

وَكأنمـــــا دَارَاتـــــهُ ســـــرَرُ

وممـــا قـــال أيضـــا:

اشرَبْ علَى غيمٍ كصبِغِ الـــدُّجَى

أضحكَ وَجهَ الأرْضِ لما بـــكَى

وَانظـــرْ لماءِ النيـــلِ فِي مـــدِّهِ

كأنمـــا صنـــدل أوْ مسكـــــا

ومـــن شعـــره الـــذي يفتخـــر فيـــه:

أنا ابنُ المعـــزِّ سليـــل العـــلا

وَصِنـــوُ العزِيـــزِ إمام الهـــدَى

سمـــا بي معـــدٌّ إِلَى غايـــةٍ
مِنَ المَجــدِ مَا فوقهـــا مرتـــقَى
فرُحـــتُ بها فاطِـمِيٌّ النجـــارِ
حسينيـــهُ علــــوِيٌّ الجــنى
وَمَا احتجتُ يوْمـــاً إِلَى ناصِـــرٍ
وَلاَ رُحتُ يوْماً ضَعِيف القـــوَى

وقـــد بـــرز في هـــذه الدولـــة كذلـــك شعـــراء محترفـــون، وآخـــرون جعلـــوا مـــن الشعـــر وسيلـــة للترويـــح عـــن النفـــس، والتعبيـــر عمـــا تنطـــوي عليـــه صـــدورهـــم مـــن مشاعـــر وأفكـــار. وضمـــت أيضـــا إليهـــا عـــددا كبيـــرا مـــن العلمـــاء في الديـــن واللغـــة، وقـــادة عسكرييـــن وأمـــراء يهتمـــون بالعلـــم والثقافـــة. وفي هـــذا السيـــاق نذكـــر أهـــم علمـــاء الدولـــة الفاطمييـــن في الفتـــرة المغربيـــة؛ وأولهـــم بالطبـــع هـــو:

ــ أبـــو عبـــد اللـــه الحسيـــن بن أحمـــد بن محمد بن زكريـــاء؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم والداعية الشيـــعي:
ويعتبـــر هـــذا الداعيـــة المتميـــز هـــو المؤســـس الحقيـــقي للدولـــة الفاطميـــة. وكـــان أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي ــ كمـــا لا يخـــفى ــ مـــن العلمـــاء البارزيـــن في المذهـــب الشيـــعي؛ كمـــا كـــان خطيبـــا قـــوي الحجـــة. وقـــد وصفـــه ابـــن الأثيـــر بقولـــه: **((وكـــان لـــه علـــم وفهـــم ودهـــاء**

ومكر)).[1] ويقول المقريزي أن أصله من رَامَ هُرْمُزْ بخراسان؛ وولد بالكوفة؛ غير أن بعضهم كابن الأثير ينسبه إلى اليمن؛ إذ يسميه الصنعاني نسبة إلى صنعاء. وثمة من يقول أنه اشتغل ــ في بداية الأمر ــ في التعليم؛ حيث كان من العلماء المعلمين في مذهب الإمامية الباطنية. بينما يقول آخرون أنه كان محتسبا في سوق الغزل بالبصرة.[2] ويقول عنه القاضي النعمان بن محمد: **((كان أبو عبد الله هذا من الكوفة؛ واسمه الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة؛ وكان أكثر علمه الباطن؛ ونظر في علم الظاهر نظراً لم يبالغ فيه)).**[3] ويقال أنه اتصل بالإمام محمد بن جعفر؛ فأعجب به، وبعثه إلى أبي القاسم بن حوشب داعية الشيعة في اليمن؛ حيث أكمل أعداده هناك للقيام بالمهمة التي تنتظره؛ وذلك ما تجلى من خلال تكليفه بأمر الدعوة في بلاد المغرب.

---

[1] **الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 127.**

[2] **اتعاظ الحنفا، ص: 68.**

[3] **رسالة افتتاح الدعوة، ص: 59.**

وبعد أن اكتمل تكوينه خرج إلى مكة لأداء فريضة الحج؛ أين تعرف على بعض الحجيج من قبيلة كتامة؛[1] فرافقهم إلى المغرب؛ دون أن يفصح عن الغرض الحقيقي لهجرته معهم. ولما حلت الفرصة المناسبة صرح بما تنطوي عليه نفسه، وما ينوي عمله. فلقي استجابة لدى مضيفيه، ونهضوا معه ضد الدولة الأغلبية؛ ودام الصراع مدة طويلة بين الدولة والقبائل المؤيدة لأبي عبد

---

[1] يقول ابن عذاري في هذا: ((فلما وصل للموسم ــ لا للحج؛ لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد؛ بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده ــ فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب؛ فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيل كتامة؛ ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم؛ فأخبروه بصفتها؛ وسألهم عن مذهبهم؛ فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي عن المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة؛ فدخل عليه من هذه الثُّلْمَة؛ ولم يزل يستدرجهم، ويَخْلُبهم بما أوتِيَ من فضل اللسان والعلم والجدل؛ إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم؛ سألوه عن أمره وشأنه؛ فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق؛ وكنت أخدم السلطان؛ ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البِرّ؛ فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال؛ فلم أرَ لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان؛ فسألت: أين يتأتى لي ذلك تأتيا حسنا؛ فذكر لي بلاد مصر". فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر؛ وهي طريقنا؛ فكن في صحبتنا إليها". ورغبوا منه في ذلك؛ فصحبهم في الطريق؛ فكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء؛ إلى أن أشربت قلوبهم محبته؛ فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم؛ فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي، أقمت بها؛ وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان". فلما وصلوا مصر، غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم اجتمعوا به وسألوه؛ فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد". فرغبوه أن يصحبهم؛ فأنعم لهم بذلك)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 124 ــ 125.

اللـــه؛ حـــتى انتـــهى الأمـــر بسقـــوط الدولـــة الأغلبيـــة السنيـــة وإعـــلان قيـــام الدولـــة الفاطميـــة الشيعيـــة.

ــ ثـــم أبـــو جعفـــر محمـــد بـــن عمـــر بـــن يحـــيى بـــن عبـــد الأعـــلى المَـــرْورُذي أو مـــرُّوذي: وهـــو منســـوب إلى مَـــرْو الـــروذ في خراســـان. وقـــد اختلفـــت المصـــادر في رســـم اسمـــه وفي تسلســـل آبائـــه؛ ويقـــال أنـــه كـــان مـــن جنـــد خراســـان. وقـــد كـــان مـــن علمـــاء المذهـــب الحنـــفي في القيـــروان[1] قبـــل ظهـــور الفاطمييـــن؛ إلا أنـــه أصبـــح مـــن المتعصبيـــن للمذهـــب الشيـــعي؛ عندمـــا تغلـــب الفاطميـــون عـــلى القيـــروان؛ خاصـــة وأن لـــه ــ مـــن قبـــل ــ ميـــلا للشيعـــة. ولمـــا دخـــل أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي للقيـــروان مسقطـــا بذلـــك دولـــة الأغالبـــة؛ ولاه ــ مؤقتـــا ــ قضـــاء القيـــروان؛ ثـــم أقـــره في منصبـــه عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ ولكنـــه انقلـــب عليـــه فيمـــا بعـــد؛ خاصـــة بعـــد مقتـــل عبيـــد اللـــه الشيـــعي؛ وذلـــك بعـــد اتهامـــه بانتقـــاد الدولـــة ومعارضـــة المهـــدي؛ لـــذا فقـــد قبـــض عليـــه ورمي في إسطبـــل مقيـــد الأيـــدي والأرجـــل؛ فقتلتـــه الـــدواب بحوافرهـــا. وهكـــذا مـــات تحـــت العـــذاب في محبســـه برقـــادة سنـــة 303هــ(919م) عـــلى الرغـــم مـــن ولائـــه وإخلاصـــه وتفانيـــه في نشـــر المذهـــب الشيـــعي. ويقـــول فيـــه ابـــن عـــذاري: ((**ولَّى أبـــو عبـــد اللـــه عـــلى قضـــاء مدينـــة القيـــروان محمـــد بـــن عمـــر بـــن يحـــيى بـــن عبـــد**

---

[1] **تراجـــم أغلبيـــة، ص: 516.**

الأعلى المروذي؛ من جند خراسان؛ يوم الخميس لاثني عشر ليلة بقيت من شعبان؛ فقعد في الجامع، وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان؛ واحتج في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الإقتداء بفعل عمر بن الخطاب في القيام، وتركهم الإقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة "حي على خير العمل" في الآذان؛ وقال لهم: "اعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول". فلما كان في أول يوم من شهر رمضان؛ أقبل المروذي إلى المسجد الجامع؛ فوجد في حائط المسجد في القبلة، في موضع جلوسه مكتوبا: "وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِها" إلى آخر الآية. فلما رآه سأل القَوَمَة؛ هل رأوا من جلس في ذلك الموضع؛ فقالوا: "لا" فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوما على المرُّوذي رجُلٌ مُحمَقٌ خليعٌ، والناس حوله؛ فقال له: "قد لطفتَ لنا ـ أصلحك الله ـ في قطع قيام شهر رمضان؛ فلو احْتلتَ في ترك صيامه؛ لَكفيتنا مؤُونتهُ كلّها". فقال له المروذي "اذهب عنِّي يا ملعون"، وأمر بدفعه)).[1] وكان المروذي شديد التعصب ضد الفقهاء المالكية؛ إذ تسبب في قتل عدد منهم والتنكيل بآخرين.

[1] **البيان المغرب،، ج: 1، ص ص: 151 ـ 152.**

ـ ثـم إسحـاق بـن أبي المنهـال: وهـو مـن أسـرة معروفـة بالعلـم والجـاه في القيـروان، ومـن العامليـن في خدمـة الدولـة الأغلبيـة؛ وكـان مـن قبـل حنـفي المذهـب، ثـم تحـول إلى المذهـب الإسماعيـلي؛ مثلـه مثـل المـروذي وبعـض فقهـاء الحنفيـة الآخريـن. ويقـال أنـه ولي قضـاء صقليـة أيـام بـني الأغلـب؛ قبـل أن يلتحـق بخدمـة الدولـة الفاطميـة؛ في المنصـب نفسـه بصقليـة عنـد قيـام الدولـة؛ ثـم ولاه عبيـد اللـه المهـدي خطـة القضـاء ـ بعـد المـروذي ـ في فترتيـن: الأولى مـن 307هـ(919م) إلى 311هـ(923م)؛ والثانيـة مـن 312هـ(924م) إلى أن مـات في عهـد ولـده أبي القاسـم. وذكـر ابـن عـذاري السبـب في عزلـه مـن منصبـه وعودتـه إليـه؛ فقـال: **((وفي سنـة 311هـ عـزل عبيـد اللـه إسحـاق بـن المنهـال عـن قضـاء مدينـة القيـروان؛ يـوم السبـت لعشـر بقيـن مـن جمـادى الآخـرة؛ وأخـرج إليـه عبيـد اللـه مـن قـال لـه: "لـم نعزلـك عـن حرجـة؛ وإنمـا عزلنـاك للينـك ومهانتـك". وولى قضـاء مدينـة القيـروان محمـد بـن عمـران النفـطي؛ وكـان قبـل ذلـك في قضـاء مدينـة إطرابلـس؛ فجمـع بهـا أمـوالا كثيـرة مـن الـرِّشى والأحبـاس، ورفعهـا إلى عبيـد اللـه؛ فكانـت لـه وسيلـة إليـه)).**[1]

[1] البيـان المغـرب،، ج: **1**، ص: **188.**

أمــا عودتـــه إلى منصبـــه فيقـــول ابـــن عـــذاري عنـــه: **((وفي هــذه السنـــة [سنـــة 312هــ] مـــات بالقيـــروان القـــاضي محمـــد بـــن عمـــران النفـــطي؛ في شهـــر ربيـــع الأول؛ وكـــان يرتـــشي عـــلى الأحكـــام، ويستهتـــر في ضـــروب المنكـــر. فـــولى عبيـــد اللـــه القضـــاء مكانـــه إسحـــاق ابـــن أبي المنهـــال مـــرة ثانيـــة؛ وكتـــب في عهـــده: "وإنمـــا كنـــا عزلنـــاك للينـــك ومهانتـــك؛ ورددنـــاك لدينـــك وأمانتـــك"))**.[1] وتجمـــع جـــل المصـــادر عـــلى أن إسحـــاق ابـــن أبي المنهـــال هـــذا قـــد ســـار عـــلى نهـــج المـــروذي في اضطهـــاد فقهـــاء المالكيـــة والتنكيـــل بهـــم.

ــ ثـــم أبـــو حنيفـــة القـــاضي النعمـــان بـــن محمـــد بـــن حيـــون المغـــربي: ولـــد هـــذا الفقيـــه بالقيـــروان سنـــة 302هــ(914م) ضمـــن أســـرة تنتهـــج المذهـــب المالـــكي؛ ولنكـــه اختـــار ــ عندمـــا كبـــر ــ المذهـــب الإسماعيـــلي؛ حيـــث أصبـــح أبـــرز فقيـــه إسماعيـــلي بالمغـــرب؛ بـــل أهـــم منظـــر في أصولـــه؛ إذ كـــان المجتهـــد الأول في الفقـــه الإسماعيـــلي أيـــام الدولـــة الفاطميـــة؛ حيـــث يعتبـــر هـــو الواضـــع الحقيـــقي لأســـس الفقـــه الإسماعيـــلي؛ وذلـــك ضمـــن كتابـــه دعائـــم الإســـلام. هـــذا وقـــد شغـــل في الدولـــة الفاطميـــة وظيفـــة قـــاضي القضـــاة في عهـــد الخليفـــة المعـــز لديـــن اللـــه؛ علمـــا بأنـــه عمـــل في ميادـــين علميـــة عديـــدة خـــلال الفتـــرة المغربيـــة مـــن حكـــم آبـــاء

---

[1] **البيـــان المغـــرب،، ج: 1، ص: 189.**

المعــز. ومــن مؤلفاتــه: رسالــة افتتــاح الدعــوة، وكتــاب دعائــم الإســلام في ذكــر الحــلال والحــرام والقضايــا والأحكــام، وشــرح الأخبــار في فضائــل الأئمــة الأطهــار، وتأويــل دعائــم الإســلام، وتأويــل الشريعــة، وكتــاب الهمــة في آداب أتبــاع الأئمــة، وكتــاب المجالــس والمسايــرات. هــذا وكانــت وفاتــه بمصــر سنــة 363هـ(973م).

ـ ثــم أبــو اليَســر إبراهيــم بــن محمــد الشيبــاني البغــدادي المعــروف بالريــاضي: وهــو مــن الأدبــاء البارزيــن في القيــروان. ويرجــع في أصولــه إلى بغــداد. وكــان مكلفــا ـ في زمــن الأغالبــة ـ بديــوان الرسائــل؛ ثــم وأسندت إليــه مهمــة الإشــراف عــلى بيــت الحكمــة؛ وذلــك إلى جانــب ديــوان الإنشــاء. وذكــر ابــن عــذاري حكايــة طريفــة وقعــت لــه عندمــا ذهــب إلى الأندلــس؛ قــال فيهــا: ((**وكــان** [أي أبــو اليســر] **ظريفــا، أديبــا، مُرَســلاً، شاعــرا، حســن التأليــف؛ وقــدم الأندلــس عــلى الإمــام محمــد بــن عبــد الرحمــن** [الأمــوي] **ـ رحمــه اللــه ـ بكتــاب اخترقــه إليــه عــلى ألسِنــةِ أهــل الشــام؛ فتقبلــه الإمــام محمــد، وأنزلــه، ووســع عليــه، ووصلــه؛ وأطلــع عــلى أن الكتــاب مختــرَقٌ مصنــوع؛ فلمــا أراد أبــو اليســر الانصــراف؛ دُفــع إليــه كتــابٌ مختــومٌ؛ جوابــاً عــن كتــاب أهــل الشــام فيمــا أرى.**

فلمـــا جـــاز البحـــر؛ فـــك أبـــو اليســـر الكتـــاب ليقـــرأه؛ فـــإذا هـــو بيـــاضٌ؛ وليـــس فيـــه إلاَّ: "بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم". فعلـــم أنَّ تمويهـــه لـــم يَجـــزْ؛ وأن الـــذي أعـــطِيَ وحـــبي عـــن تكـــرم وفضـــل؛ وعظـــم في عينـــه ملـــوك الأندلـــس ورجالـــه؛ وحـــدث بمـــا عـــرض لـــه، وعجـــب النـــاس منـــه. وكتـــب أبـــو اليســـر لبـــني الأغلـــب حـــتى انصرمـــت أيامهـــم؛ ثـــم كتـــب لعبيـــد اللـــه حـــتى مـــات. ولـــه مؤلفـــات حســـان في فنـــون مـــن العلـــم، ومسنـــد في الحديـــث، وكتـــاب في القـــرآن سمـــاه "ســـراج الهـــدى"، ولـــه كتـــاب "لقيـــط المرجـــان" ورسالـــة "الوحيـــدة المؤنســـة"، و"قطـــب الأدب"؛ وغيـــر ذلـــك مـــن الأوضـــاع)).[1] هـــذا وتـــوفي أبـــو اليســـر في سنـــة 298هـــ(910م)

ــ ثـــم أبـــو جعفـــر محمـــد بـــن أحمـــد بـــن هـــارون البغـــدادي: كـــان هـــذا الرجـــل بمثابـــة وزيـــر في دولـــة عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ وقـــد لعـــب دورا أساسيـــا في الإيقـــاع بـــأبي عبـــد اللـــه الشيـــعي وأخيـــه أبي العبـــاس. ويقـــال أنـــه كـــان ــ مـــن قبـــل ــ يشتغـــل في ديـــون بـــني العبـــاس ببغـــداد؛ ثـــم فـــر إلى عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ حيـــث انضـــم إليـــه قبـــل قيـــام الدولـــة الفاطميـــة؛ فكلفـــه بمهمـــة القيـــام بنشـــر الدعـــوة في بـــلاد الأندلـــس؛ ولمـــا نشـــأت الدولـــة الفاطميـــة برقـــادة التحـــق بهـــا. وقـــد تـــولى ــ في

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 162 ــ 163.**

البداية ــ المهام التي كانت مسندة إلى أبي اليسر بعد وفاته سنة 298هـ(910م)؛ منها الكتابة وديوان البريد؛ ثم كلفه ــ بعد قتل أبي عبد الله الشيعي ــ بتسيير شئون الدولة؛ الأمر الذي جعله بمثابة الوزير. وكان أبو جعفر البغدادي هذا شديد الذكاء والدهاء؛ كما عرف بالعلم والتمكن من فنون الأدب؛ ولقد تمكن ــ بدهائه ــ من تصفية كثير من المقربين من المهدي كـ: أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس؛ والقاضي أبي جعفر المروذي وغيرهم.

وظهر ــ إلى جانب هؤلاء الفقهاء والعلماء ــ في الفترة المغربية للدولة الفاطمية أدباء وشعراء عديدون نذكر عينة من شعرهم الذي قيل بدءا بعهد عبيد الله المهدي وانتهاء بعهد المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر:

ــ أبو عثمان سعدون بن سعيد الورجيني: وهو من موالي بني الأغلب، ومن شعرائهم المعدودين. ولما تغلب الفاطميون على الأغالبة التحق بشراء البلاط الفاطمي. ومما قاله فيه القاضي النعمان: ((**وكان أول من مدحه** [أي عبيد الله] **منهم** [أي الشعراء] **وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني؛ وكان شاعرا يمدح بني الأغلب، ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي؛ واستؤذن له في الدخول عليه** [أي عبيد الله]

وإنشاده ما قال فيه؛ وكان ذلك بعقب وصول الحرم وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم؛ فدخل إليه وأنشده الشعر الذي يقول فيه:

قفْ بِالمطِيِّ عَلَى مرَابعِ دُورٍ
لبسَتْ مَعالِمهنَّ ثوبَ دُثُورِ
لَعِبتْ بِها حتَّى مَحَتْ آثارَها
رِيحانُ: رِيحِ صَبا وَرِيحِ دُبورِ

فلما انتهى إلى قوله:

وَسَفِيهةٍ هبتْ تَصُدُّ عَنِ النوَى
وَيدُ النوَى مَلكتْ عنَانَ مَسِيرِي
خافتْ عَليَّ مِنَ الخطوبِ لأنني
مِنْ قبلُ غِبتُ فأبتُ بَعدَ دُهورِ
ثمَّ اجتمَعنا بَعدَ ذَاكَ فيَالها
مأسورَة جمعتْ عَلَى مَأسُورِ

فلما قال هذا استعبر المهدي عليه السلام وتلقى دموعه بكمه؛ فسكت سعدون، وأومأ إليه أن قل؛ فمر فيها حتى انتهى إلى قوله:

أعَنِ ابْنِ فاطِمَةٍ تَصُدِّينَ امرءاً
بنتِ النبِيِّ وَعترَةِ التطهيرِ

كــفِّي عَــنِ التثبيــطِ إنِّيَ زَائــرٌ

مِنْ أهلِ بَيــتِ الوَحْيِ خيرَ مُــزُورِ

فقــال لــه أبــو عبــد اللــه ــ وكــان بيــن يــدي المهــدي ــ صدقــت هــو افضــل العالميــن؛ فقبــل سعــدون الأرض بيــن يــدي المهــدي عليــه الســلام، ومــرّ فيهــا حــتى انتــهى إلى قولــه:

هذَا أميــرُ المُؤمنيــنَ تَضَعْضَعــتْ

لقدُومِــهِ أركــانُ كــلّ أميــــرِ

هذَا الإمــامُ الفاطــميُّ وَمَــنْ بــهِ

أمنــتْ مغاربهــا مِــنَ المَحــذُورِ

وَالشــرقُ ليسَ لشَامِــهِ وَعِرَاقــهِ

مِنْ مَهرَبٍ مِنْ جَيشِــهِ المَنصُــورِ

حَتَّى يَفــوزَ مِنَ الخِلاَفــةِ بِالمــنَى

وَيفــازَ مِنــهُ بعدلــهِ المَنشــورِ

فقــال أميــر المؤمنيــن: "مــا شــاء اللــه"؛ ومــرّ فيهــا إلى أن ذكــر أبــا عبــد اللــه فقــال:

يا مَنْ تَخيــرَ مِنْ خِيارِ دُعَاتــهِ

أرْجاهــمُ لِلعسْــرِ وَالميســـــورِ

حَتَّى استمـــالَ إليـــهِ كـــلَّ قَبيلـــةٍ
ورَمَى إليـــهِ قيـــادَ كـــلِّ عثـــورِ
أشْبَهـــتَ مُوسَى وَهوَ حَيتكَ الـــتِّي
تلـــقَى فتلقـــفُ كلَّ إفـــكِ سُحـــورِ

فنظـــر المهـــدي إلى أبي عبـــد اللـــه وتبســـم؛ فقبـــل أبـــو عبـــد اللـــه الأرض؛ قـــال للورجيـــني: "أنـــا دون ذلـــك بعـــد مـــا بيـــن السمـــاء والأرض". فأمـــر لـــه [أي للشاعـــر] **أميـــر المؤمنيـــن بصلـــة جزيلـــة، وبـــأن يجـــرى عليـــه لكـــل عـــام؛ ووصلـــه أبـــو عبـــد اللـــه أيضـــا)).**[1]

وكـــان سعـــدون الورجيـــني هـــذا قـــد تعـــرض ــ أيـــام الأغالبـــة ــ للأســـر مـــن طـــرف النصـــارى؛ ثـــم وجـــد مـــن افتـــداه. فلمـــا وصـــل إلى صقليـــة مـــن القسطنطينيـــة؛ وهـــو في حـــال يـــرثى لهـــا؛ تمكـــن مـــن الدخـــول عـــلى والي صقليـــة أبي الحسيـــن محمـــد بـــن الفضـــل؛ وكـــان هـــذا الـــوالي مـــن أفاضـــل القـــوم ومـــن أدبائهـــم وشعرائهـــم المجيديـــن؛ فواتتـــه فرصـــة ذهبيـــة حيـــن عـــرض كاتـــب ابـــن الفضـــل بيتيـــن قالهمـــا سيـــده عـــلى الشعـــراء الجالسيـــن؛ طالبـــا منهـــم الزيـــادة عليهمـــا بأبيـــات تناسبهمـــا. والبيتـــان همـــا:

---

[1] **رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 254 ــ 256.**

تَثـــنَى فَقلتُ: الغُصْن مِنــهُ تعلمـــا

وَأَزْرَى بِحُسنِ البـــدْرِ حينَ تبَسَّمـــا

هـــلاَلٌ كأنَّ اللـــه نـــاجَى جمالـــهُ

بتصويِـــرهِ إيـــاهُ لمـــا تجسمـــا

فبـــادر سعـــدون الورجيـــني فـــورا قائـــلا:

تناثـــرَ مِنـــهُ الـــدُّرُّ لمـــا تكلمـــا

وَأبصـــرَهُ بـــدْرُ السمـــاءِ فأظلمـــا

هـــلاَلٌ كستـــهُ الشَّمسُ حلة وَجْهـــهِ

وَأهـــدَى إليهِ الغصْـــنُ قداً منعمـــا

سقـَــانِي بكفِّ الحُسنِ كأسَ صُبابـــةٍ

ووَكـــلَ بِي قلبـــاً عليـــلاً متيمـــا

فما زِلـــتُ أشْكوهُ إلَى حُسنِ وَجْهـــهِ

بخطِّ يدِي حتَّى بـــكَى قلـــبِي دَمـــا

وَمسمعـــة لمـــا رَأتْ ذُلَّ موقـــفِي

لديَـــهِ تغنـــتْ كَيْ يـــرَقَّ وَيرْحمـــا

((تثـــنَى فقلتُ: الغُصْن مِنهُ تعَلَّمـــا

وَأَزْرَى بِحسنِ البـــدْرِ حينَ تبسمـــا))

فقلتُ لها مَنْ ذَاكَ؟ قالــتْ مُجيبــة

وَأَوْميــت بعينيهــا إلي ليفهمــا

((هلاَلٌ كأنَّ اللــه نــاجَى جمالــهُ

بتصوِيــرِهِ إيــاهُ لمــا تجسمــــا))

فأعجــب كاتــب محمــد بــن الفضــل ببديهتــه وحســن طريقتــه؛ فكافــأه بصــرة مــن الدنانيــر؛ أصلحــت حالــه، وفكــت حاجتــه.

ويبــدو أن سعــدون الورجيــني هــذا كــان مــن الشعــراء المعروفيــن في الدولــة الأغلبيــة؛ وقــد ورد ذكــره في ريــاض النفــوس للمالــكي، وفي مــدارك القــاضي عيــاض؛ حيــث نشــرت فيهمــا قصيــدة لــه رثــا بهــا العالــم الصالــح الزاهــد يحــيى بــن عمــر بــن يوســف الأندلــسي؛ جــاء فيهــا:

عيــنُ ألــمَّ بهــا وَجــدٌ فلــمْ تنــمِ

تبكِي بدَمْــعٍ كنظمِ الــدرِّ منسَجــمِ

مدَامع الصَّــبِّ أقــلاَمٌ تخــطُّ بهــا

أيدِي الصَّبابةِ مَا بِالقلــبِ مِنْ سَــدَمِ

لفــظُ الضَّمِيرِ لِسَانُ الدَّمعِ ترْجمَــهُ

حَتَّى بَــدَا كلُّ سِــرٍّ فِيــهِ مُنكتِــمِ

لوْلاَ المَدَامِــعُ لــمْ يعْلــمْ بلوْعتــهِ
يُخفِي تباريحَ وَجدٍ غيــر مُنْصــرمِ
وَهلْ تلـــذُّ بطعمِ النوْمِ مُقلـــة مَـــنْ
كستـــهُ كــفُّ الرَّزَايــا حلة السَّقــمِ
وَكلُّ جَارِحَـــةٍ مِنْ جسْمِـــهِ قدَحــتْ
فِيها يـــدُ البـــثِّ نيرَانـــاً مِنَ الألــمِ
لمْ يعـــدَمِ الحـــزْنَ إلاَّ أنَّ مهجتـــهُ
قدْ أبدِلتْ مِنْ سُرُورِ العَيْشِ بِالعَـــدَمِ
تأبَى الليالِي علَينا أنْ تـــدُومَ عَـــلَى
جَمعٍ مِنَ الشمْلِ أوْ سَـــدٍّ مِنَ الثلــمِ
لاَ لوْمَ إنْ كنتُ بَعدَ الثكـــلِ لمْ أنــمِ
لوْ ذَاقَ مَنْ لاَمنِي مَا ذُقـــتُ لمْ ينـــمِ
أنَّى يجيبُ إلَى جَنبِ الكرَى رَجُـــلٌ
قدْ أفرَدَتهُ المَنايا مِـــنْ ذَوِي الرَّحِــمِ
عَجبتُ أنْ لمْ أمُتْ حُزناً وَقدْ دَفنـــتْ
كفَايَ فِي التربِ أتقَى العُربِ وَالعَجَمِ
يا مَـــوْتُ أثكلتِنـــا يَحيَى وَكانَ لنـــا
فِي بَلدَةِ الغربِ مِثل البَدرِ فِي الظلمِ

يَنجابُ عَنا بهِ غيــمُ الخنـــا ومَــتَى

نقِــسْ بهِ الناسَ فَضلاً كانَ كَالْعَلَــمِ

مَا كانَ إلاَّ سرَاجاً يُستضـــاءُ بـــهِ

فِي العِلمِ يُسْمَعُ مِنهُ العِلمُ فِي الحُلُــمِ

وَكانَ يَحْيَى ــ إذَا خفنا ــ لنا حَرَماً

نلجَأ إليهِ، فقــدْ صِرنا بـــلاَ حَــرَمِ

وَكانَ يَحيَى لنا سَيفـــاً يُعــزُّ بهِ الــ

ــدِّينُ الحَنِيفُ وَيُحمَى كلُّ مُهتضــمِ

وَكانَ يَحــيَى لنا فِي الزَّائِغيــنَ إذَا

ضَلَوا لِسانـــاً يُبينُ الحــقَّ عَنْ أمَــمِ

وَكانَ يَحيَى لنا حِــرْزاً، وكانَ لنـــا

كنـــزاً، وكانَ لنا كالغيــثِ فِي الأزَمِ

لتبكِ يَحــيَى عيــونٌ بِالدَّمــعِ فـــإنْ

غاضـــتْ مَدَامِعهـــا فلتبكــهِ بـــدَمِ

أبكِي عَلى العِلمِ وَالتقوَى بِهِ اجْتمَعـَـا

وَمَنْ مَضَى وَهوَ أوفَى الناسِ بالذِّممِ

أبكِي عَلَى الحِلمِ ثــوْبٌ كانَ يَلبَسُــهُ

أبكِي عَلَى طاهِرِ الأخـــلاَقِ وَالشيــمِ

أبكِي فتى الدَّهرِ، أبكِي شَيْخَ كلِّ حِجَى
أبْكِي أخَا الفَضْلِ، أبكِي مَعدَنَ الكرَمِ
مَنْ كانَ مِنْ بَعدِ سَحْنــون لنا خلفــاً
مَنْ كانَ فِي الحَقِّ مِثْلُ الصَّارِمِ الخذِمِ

إلى أن يقــول:

مَا كانَ أشجعـــهُ، مَا كانَ أوْرَعـــهُ
مَا كان أفصَحهُ فِي مَحفــلِ الكلــمِ
مَا كانَ أرْغبهُ فِي سنـــةِ درَســـتْ
يُشيِدُهـــا ببنـــاءِ الحـــاذِقِ الفهــمِ
مَا كانَ أفقهـــهُ، مَـــا كـــانَ أعلمـــهُ
مَا كانَ أحماهُ عِندَ الخـــوْفِ لِلحـــرَمِ
مَا كانَ أطهرَ تِلكَ النفس مِنْ رِيَـــبٍ
مَا كانَ أكتـــبَ تِلكَ الكـــفّ بِالقلـــمِ
سَقاكَ يَا قبرَ يَحيَى عَـــارِضٌ لجـــبٌ
سمحُ الـــرَّذَاذِ كرِيمُ الوَبـــلِ وَالدِّيـــم
مُبارَكُ الظلِّ يكسو الأرْضَ أرْدِيـــةٍ
كالوَشْيِ يُلقَى عَلَى القِيعَانِ وَالأكـــمِ

يا رَبّ! صَاحِبُ هذَا القبـــرِ خادِمـــ

ـــكَ المَعْرُوفِ بالنُّصْحِ وَالإحْسَانِ وَالخدَمِ

أتاكَ ضيفاً فلاَ تجعـــلْ قـــرَاهُ سِـــوَ

ى الرِّضْوانِ، إنّكَ ذُو فَضْلٍ وذُو كرَمِ

ـ **ثـــم محمـــد بـــن رمضـــان النفـــطي**: كـــان يعتنـــق المذهـــب الشيـــعي قبـــل ظهـــور أبي عبـــد اللـــه داعيـــة الفاطميـــن بالمغـــرب. ويبـــدو أنـــه كـــان مـــن المتأثريـــن بالدعـــوة الـــتي بثهـــا أبـــو سفيـــان؛ الـــذي استقـــر في تالـــة أو **(تـــالا)** جنـــوب الكـــاف. وتقـــول المصـــادر أن أهـــل نفطـــة تشيعـــوا بتأثيـــر منـــه.[1] وكـــان محمـــد بـــن رمضـــان شاعـــراً؛ فاتخـــذ مـــن شعـــره وسيلـــة للدعـــوة ونشـــر مـــا يتناقلـــه أهـــل الحدثـــان عـــن المهـــدي المنتظـــر. ومـــن شعـــره في هـــذا البـــاب قولـــه:

ســـلاَ ظبيـــة القنـــاصِ أينَ احتلاَلهـــا

فقـــدْ هاجـــنِي تفتِيرُهـــا وَامذِلاَلهـــا

لعـــلَّ الـــتِي عنهـــا تفـــرِّقَ أهلهـــا

فبـــادَتْ مَغانيهـــا وَطَـــالَ احتيَالهـــا

أرَقـــتُ لها مِـــنْ بعدِ أنْ نـــامَ إنسهـــا

خناطِيـــلُ آرَامِ الظبـــــاءِ جمالهـــــا

---

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 54 ـــ 55.

فعـدِّ عنِ الـدَّارِ الـتِي بـانَ أهلهـا
وَعَنْ كَيفَ مِنْ بَعْدِ البلَى صَارَ حَالُهَـا
فهـذَا أوَانُ الحـقِّ قـدْ حـانَ حِينـهُ
وَدَوْلـة أهـلِ البـغْيِ آنَ زَوَالهـا
كأنِّي بشَمْسِ الأرْضِ قدْ طلعـتْ لنـا
مِنَ الغـرْبِ مقرُونـاً إليهـا هِلاَلهـا
فيمـلأ أرْضَ اللـهِ قسطـاً بعدْلـهِ
بمـا ضـمَّ مِنهـا سَهلهـا وَجبالهـا
وَآمـنُ فيهـا مـا أخـافُ وَأتـقِي
وَأظفـرُ بالزُّلـفَى بـه وَأنالهـا

ويقـول القـاضي النعمـان أن محمـد بـن رمضـان هـذا أدرك أيـام عبيـد اللـه المهـدي؛ بعـد أن وصـل مـن العمـر عتيـا؛ وبعـد أن خـرف؛ ومـع هـذا فقـد ولاه المهـدي قضـاء ميلـة؛ وبـقي في منصبـه حـتى مـات. كمـا أورد القـاضي النعمـان ـ أيضـا ـ حكايتـه مـع الأميـر الأغلـبي إبراهيـم بـن أحمـد؛ حيـث هجـاه محمـد بـن رمضـان؛ بعـد المجـزرة الـتي قـام بهـا في حـق أهـل بلزمـة؛ إذ غـدر بهـم وقتـل منهـم ألـف رجـل ببـرودة وبشاعـة؛ وكـان محمـد بـن رمضـان في تلـك الأثنـاء ببلزمـة في جـوار أهلهـا وفي ضيافتهـم؛ فقـال:[1]

[1] رسالـة افتتـاح الدعـوة ، ص ص: **88 ــ 90**.

جلَّ المصَابُ لئِنْ كانَ الذِي ذَكــرُوا
مِمــا أتتنــا بـــهِ الأنبــاءُ وَالخبــرُ
عَنْ ألفِ أرْوعٍ كالآســـادِ قدْ قتلــوا
لِساعَـــةٍ مِنْ سوَادِ الليلِ إذْ غـــدِرُوا
لوْ كانَ مَنْ بيـــتَ الآســـادَ أيقظهـــمْ
حلـــتْ بـــهِ منهمُ الأحدَاثُ وَالغِيـــرُ
قلْ لابـــنِ أحمـــدَ ابرَاهِيـــم مألكـــة
عَنِ الخبيـــرِ بما يـــأتِي وَما يـــذَرُ
عَنِ المشرَّدِ فِي حبِّ الأئمـــةِ مِـــنْ
آلِ النبيِّ وَخيـــرِ الناسِ إنْ ذُكِـــرُوا
اعلمْ بأنَّ شِـــرَارَ النـــاسِ أطوَلهـــمْ
يداً بمكرُوههـــمْ يوْمـــاً إذَا قـــدِرُوا
لاَ سِيمَا الضيْفُ وَالجَارُ الغرِيبُ وَمَنْ
أعطـــوْهُ ذِمتهمْ مِنْ قبلِ مَا خفـــرُوا
فما اعْتـــذَارُكَ مِنْ عارٍ وَمنقصـــةٍ
أتيتهـــا عامِـــداً إنْ قـــامَ مُعتـــذِرُ
جرَّعتَ ضَيفكَ كأساً أنتَ شارِبهـــا
عمـــا قليـــلٍ وَأمـــرُ اللـــهِ ينتظِـــرُ

فدَوْلة القائمِ المهــدِيِّ قــدْ أزِفــتْ
أيامُهــا وَالــذِي أنبــا بـــهِ الأثـــرُ
عنِ النـــبيِّ، وَفيهــا قطـــعُ مدَّتكـــمْ
يا آلَ أغلبَ أهلَ الغدْرِ فاقتصِـــرُوا
وَقطـــعُ أمرِ بنِي العَبـــاسِ بعدَكـــمُ
وَقطعُ آلِ بنِي مَـــرْوَانَ إذْ بطـــرُوا

ولمـا علـم إبراهيـم بـن أحمـد بالقصيـدة؛ أراد خداعـه واستدراجـه؛ إذ قـال: ((**لعـن اللـه مـن طلبـه وشـرده؛ فمـا مثـل هـذا يـؤذى؛ ولـو أتانـا لصفحنـا عنـه وأحسنـا إليـه؛ ولقـد أحسـن في الوفـاء لمـن أجـاره، وصنـع المعـروف إليـه؛ ومثـل هـذا تزكـو عنـده الصنائـع، ومـا ينتقـم عليـه تشيعـه؛ بـل ذلـك مـا يقربـه منـا ويدنيـه عندنـا؛ فأبلغـوه عنـا ذلـك؛ فـإن أحـبَّ القـدوم إلينـا فهـو آمـن، ولـه عندنـا ــ مـع ذلـك ــ الحبـاء والإكـرام**)). ولمـا وصـل قولـه إلى محمـد بـن رمضـان؛ لـم تنطـل عليـه الخدعـة؛ وعلـم بالفـخ الـذي نصبـه لـه إبراهيـم؛ فقـال:

لوْ لمْ أعاينهُ يَصيِـدُ بِحبـهِ للقطتُ حبـهْ
مَنْ ذَا يغـرُّ بغـادرٍ ما إنْ يخافُ اللهَ رَبهْ

ـ **ثم علي بن محمد الإيادي**: كان من شعراء بني الأغلب قبل أن يتغلب عليهم الفاطميون؛ ثم أصبح من شعراء البلاط الفاطمي بعد ذلك. وله قصائد في مدح عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، ثم إسماعيل المنصور بن أبي القاسم. وتوفي الإيادي في سنة 365هـ(975م). ومن شعره في وصف قصر صبرة:

وَلَما استطالَ المَجدُ وَاستَوْلتِ العلاَ
عَلَى النّجمِ وَامتدَّ الرِّوَاقُ المرَوّقُ
بنَى قبة للمُلكِ فِي وَسطِ جنةٍ
لَها مَنظرٌ يزْهَى بهِ الطرْفُ مونقُ
وَإنْ صَافَحتها لاَحتْ كأنها
فرِندٌ عَلَى تاجِ المعزِّ وَرَونقُ
كأنَّ شرُفاتِ المقاصرِ حوْلها
عذَارَى عَليهنَّ مِلاء الممنطق

ومن شعره في وصف الأسطول الفاطمي في عهد إسماعيل المنصور:

أعجب لأسطولِ الإمامِ محمدٍ
وَلحسنهِ وَزَمانهِ المستغربِ

لبسَــتْ بهِ الأموَاجُ أحسَــنَ مَنظــرٍ

يبــدُو لعيــنِ الناظِــرِ المتعجــبِ

مِنْ كـــلِّ مُشرِفـــةٍ عَلَى مَا قابلــتْ

اشرَافُ صَدْرِ الأجــدَلِ المنتصِــبِ

دَهمـــاء قدْ لبســتْ ثيــابَ تصَنــعٍ

تســبِي العقولَ عَلَى ثيــابٍ ترْهــبِ

ـ **ثــم أيــوب بــن إبراهيــم**: يبــدو أنــه كــان مــن أعــوان الدولــة الفاطميــة وأتباعهــا المخلصيــن. ولــم نعثــر عــلى مــا يفيــد عنــه؛ أكثــر مــن هــذه الأبيــات الشعريــة الــتي مــدح بهــا أبــا طاهــر إسماعيــل المنصــور؛ وهي:

يا ابْنَ الإمَامِ المُرتضَى وَابنِ الوَصِيِّ

المُصْطــفَى وَابنِ النــبيِّ المرْســلِ

اللـــهُ أعطـــاكَ الخلاَفـــة وَاهبـــاً

وَرَآكَ للإســـلاَمِ أمنـــعَ معقـــــلِ

نلتَ الخِلاَفـــة وَهْيَ أعظـــمُ رُتبـــةٍ

نِيلتْ، ولَيسَـــتْ مِنْ علاَكَ بِأفضَـــلِ

فمَنَعتَ حوْزَتَهَــا وَحطــتَ حَرِيمَهَـــا

بالمَشرَفيـــةِ وَالوَشِيـــجِ الذُبـــلِ

ـ **ثـم أبـو العبـاس خليـل بـن إسحـاق**: وهـو مـن القـادة العسكريين والأمـراء الذين يتكـل عليهـم إمـام الدولـة الفاطميـة؛ وقـد ولاه الخليفـة أبـو القاسـم صقليـة فظـل بهـا أربـع سنـوات تقريبـا؛ حيـث أظهـر فيهـا سـوء سيـرة، إذ ارتكـب جرائـم شنيعـة في حـق الرعيـة. ومما جـاء في مجمـوع المكتبـة العربيـة الصقليـة: **((وفي سنـة 325هـ قـدَّم أبـو القاسـم بـن عبيـد اللـه الشيـعي عـلى صقليـة خليـل بـن إسحـاق؛ فعمـل بهـا مـا لـم يعملـه أحـد قبلـه ولا بعـده مـن المسلميـن؛ أهلكهـم قتـلا وجوعـا حـتى فـروا إلى بـلاد الـروم، وتنصـر كثيـر منهـم؛ وبـقي بصقليـة أربعـة أعـوام؛ ولمـا قـدم منهـا سنـة 329هـ؛ قـال يومـا مفتخـرا بظلمـه في مجلـس حـَضَـرَهُ جماعـة مـن وجـوه النـاس؛ تكلمـوا فيـه معـه في أمـور شـتَّى؛ ثـم جـرى ذكـر خروجـه إلى صقليـة؛ فقـال: "إنِّي قتلـت ألـف ألـف ـ يقـول المُكثـرُ؛ والمُقلـلُ يقـول مائـة ألـف ـ في تلـك السفـرة"؛ ثـم قـال: "لا واللـه الآ أكثـر". فقـال لـه أبـو عبـد اللـه المـؤَدِّب: "يـا أبـا العبـاس لـك في قتـل نفـس واحـدة مـا يكفيـك".**

وكـــان خليـــل هـــذا يكـــنى أبـــا العبـــاس؛ وكـــان عبيـــد اللـــه الشيـــعي يصرفـــه في الأعمـــال وجبايـــات الأمـــوال ومحاسبـــة الدواويـــن والعمـــال؛ ثـــم وقعـــت فيـــه أقـــوال فكرهـــه عبيـــد اللـــه وأبغضـــه؛ ولـــولا ابنـــه أبـــو القاســـم لأهلكـــه)).[1] ومـــن شعـــره الـــذي قالـــه في عبيـــد اللـــه المهـــدي:

إنَّ الإمـــامَ أقـــامَ سنـــة جـــدِّهِ
للمسلمينَ كما حـــذَوْتَ نِعالهـــا
أحيَى شرَائعـــهُ وَقَـــوَّمَ كتبهـــا
وَفرُوضها وَحرَامهـــا وَحلاَلهـــا

وقـــال أيضـــا هـــذه الأبيـــات الشعريـــة عندمـــا بعثـــه إسماعيـــل المنصـــور لقتـــال أبي يزيـــد؛ وهي:

وَمَا وَدَّعـــتُ خيـــرَ الخلـــقِ طـــراً
وَلاَ فارَقتـــهُ عَـــنْ طِيـــبِ نفـــسِ
وَلَكِـــنِّي طلبـــتُ بـــهِ رِضَـــاهُ
وَعَفـــوَ اللـــهِ يوْمَ حُلـــولِ رَمـــسِ
فعـــاشَ مُلكـــاً مَـــا لاَحَ نجـــمٌ
عَـــلَى الثقليـــنِ مِـــنْ جـــنٍّ وَإنـــسِ

---

[1] **البيـــان المغـــرب، ج:1، ص: 215. والمكتبـــة العربيـــة الصقليـــة (نصـــوص في التاريـــخ والبلـــدان والتراجـــم والمراجـــع)، جمـــع: المستشـــرق الإيطـــالي ميخائيـــل أمـــاري، ص ص: 368 ــ 369.**

ـ ثم أبو جعفر بن أحمد بن محمد المروذي:

على الرغم من توافق اسم هذا الرجل مع اسم سابقه قاضي القيروان محمد بن عمر المروذي؛ الذي توفي سنة 303هـ من شدة العذاب الذي سلطه عليه عبيد الله المهدي؛ إلا أن العلاقة الأسرية بين الرجلين ليست واضحة ـ بالضبط ـ إذ يبدو أن هذا الشاعر الزجال المدعو أحمد بن محمد المروذي ربما كانت له صلة قرابة مع ذلك القاضي. المهم إن المصادر التاريخية ترسم اسمه ـ كسابقه ـ أحيانا بالمروذي، وأحيانا أخرى بالمروزي، وفي بعض الحالات الموزي. وعليه تشدنا فكرة أنه ربما كان من أبناء القاضي المذكور؛ تبعا لتوافق الأسماء ولحظوة المروذي الشاعر في بلاط الفاطميين. وجملة القول لم يصل إلينا عنه سوى بعض الأبيات المتواضعة المتناثرة هنا وهناك؛ وهي لا تدل على شاعرية كبيرة أو على تمكن من علوم اللغة؛ لذا لم نر له قدرة كبيرة في ابتكار وابتداع الصور الشعرية الجميلة؛ إذ كان شعره ـ في الحقيقة ـ عبارة عن تسجيل للأحداث بواسطة النظم الشعري. ومما قاله في أرجوزة عن

وصـــول إسماعيـــل المنصـــور بجيشـــه إلى مدينـــة المحمديـــة أثنـــاء مطـــاردة أبي يزيـــد؛ قولـــه:

ثمَّ إلَى مَدِينـــةٍ مرْضِيـــهْ
أسَّتْ عَلى التقوَى محَمدِيهْ
أقبل حتّى حلَهـــا عَشِيـــهْ
بِالنورِ مِنْ طلعَتِهِ المُضيهْ
فَحلَّ فِي عَسْكرِهِ المَسِيلـــهْ
فِي هيـــأةٍ كامِلةٍ جَمِيلـــهْ

وقـــال أيضـــا في أخـــرى عـــن حركـــة إسماعيـــل ومطاردتـــه لأبي يزيـــد:

لقدْ تَاهـــتْ بِطلعتِـــكَ الغـــرُوبُ
كما ابتهجتْ بدَوْلتِـــكَ القلـــوبُ
لقدْ زَهتِ الخِلاَفـــة إذْ حدَاهـــا
نَجيـــبٌ رَاحَ بِحملِـــهِ النَّجيـــبُ

وقال عند الوصول إلى طبنة أثناء مطاردة أبي يزيد أيضا:

سِرنا وَقدْ حلَّ بقرْبِ طبنهْ
وَصَارَ مِنها أهلها فِي مِحنهْ
فأعظمَ اللهُ العزِيزُ المنهْ
وَبدَّلوا مِنْ بعدِ نارٍ جنهْ

ـ **ثم محمد بن المنيب**: كان في جيش إسماعيل المنصور؛ عندما طارد أبا يزيد في المغرب الأوسط؛ ولم نعثر في المصادر أكثر من اسمه وقصيدته هذه:

حَلَّ البَلاَءُ بمخلدٍ
وَجَميعِ شِيعتِهِ النوَاكِرْ
أمسَى بأرْضِ كيانةٍ
قدْ بانَ مِنهُ كلُّ ناظِرْ
يرنو بطرفٍ خاشِعٍ
نَظرَ المُحَاصَرِ للمُحَاصِرْ
يرنو إلَى عدَدِ الحَصَى
وَالرَّمْلِ مِنْ تِلكَ العَسَاكِرْ

يـــا مُخلـــدُ بـــنِ سَبيكـــةٍ

يا شَرَّ بيتٍ فِي العشائِـــرْ

ذُقْ مَا جَنتـــهُ يَدَاكَ قـــبـــ

ـــلُ مِنَ الكَبَائِرِ وَالصَّغائِرْ

ذُقْ هَـــولَ شقـــكَ لِلبطـــو

نِ وَمَا ارتَكَبْتَ مِنَ الجَرَائِرْ

يـــا شـــرَّ مَـــنْ بكيانـــةٍ

وَكيَانـــة شـــرُّ البرَابـــرْ

أنظرْ إلَى القفـــصِ الـــذِي

لاَ بدَّ فِيـــهِ أنتَ صَائِـــرْ

أنظـــرْ إلَى يَدَيـــكَ فيـــ

ـــهِ وَمؤنِسِيكَ وَمَنْ تجَاوِرْ

قدْ طـــالَ شوقِهمَـــا إليْـــ

ـــكَ فزُرْهمَا يَا شرَّ زَائر

ـ ثـم أبـو القاسـم محمـد بـن هـاني بـن سعـدون الأندلـسي: ولـد بإشبيليـة ـ في عهـد الخليفـة الأمـوي الناصـر لديـن اللـه بيـن سنـتي: 322هـ و 326هـ ـ مـن أسـرة كانـت تسكـن المهديـة بإفريقيـة. وينسـب ابـن هـاني في أصولـه الأولى إلى قبيلـة الأزد اليمنيـة

العربيــة. ويقــال أنــه منحــدر مــن أسـرة يزيــد بــن حاتــم بــن قبيصــة. كمــا تذكــر المصــادر أنــه تأثــر بالمذهــب الشيــعي منــذ صبــاه في الأندلــس؛ إذ تشبــع بالأفكــار الفلسيــة ذات المنطلــق العقــلاني المعتــزلي.

ويكــون ابــن هــاني قــد تــرك الأندلــس، وانتقــل إلى الضفــة المغربيــة سنــة 347هــ(958م)؛ حيــث التحــق ببــني بــني عــلي بــن حمــدون: جعفــر ويحــيى؛ أمــراء المسيلــة؛ فلمــا علــم بــه المعــز لديــن اللــه الفاطــمي بعــث يطلبــه؛ جاعــلا منــه شاعــر البــلاط الفاطــمي الأول. فقــدم غليــه حيــث حــلاه بأفضــل مــا قيــل في مــدح الملــوك؛ مــن غــرر الأشعــار؛ لــولا بعــض الغلــو الــذي نســب إليــه، والــذي يدخــل في سيــاق الكفــر وكبائــر القــول. أمــا خبــر وفاتــه فقــد اكتنفــه غمــوض كبيــر؛ ســواء مــن حيــث المضمــون والتفاصيــل أو في تحديــد تاريــخ وقوعهــا. وكــل مــا يمكــن قولــه هنــا أنــه قتــل، أو مــات في برقــة بينمــا كــان متوجهــا إلى مصــر ليلحــق بالمعــز هنــاك. وقــال عنــه ابــن خلكــان: **((ولمــا بلــغ المعــز وفاتــه وهــو بمصــر تأســف عليــه كثيــرا وقــال: "هــذا الرجــل كنــا نرجــو أن نفاخــر بــه شعــراء المشــرق؛ فلــم يقــدر لنــا ذلــك". ولــه في المعــز المذكــور غــرر المدائــح ونخــب الشعــر... وفي هــذا الأنمــوذج دلالــة عــلى علــو درجتــه وحســن طريقتــه. وديوانــه كبيــر؛ ولــولا مــا فيــه مــن الغلــو في المــدح المفــضي إلى الكفــر لكــان مــن أحســن الدواويــن؛ وليــس في المغاربــة مــن هــو في طبقتــه: لا مــن متقدميهــم ولا**

من متأخريهم؛ بل هو أشعرهم على الإطلاق؛ وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة؛ وكانا متعاصرين؛ وإن كان في المتنبي مع أبي تمام من الاختلاف ما فيه...

ويقال أن أبا العلا المعري كان إذا سمع شعر ابن هانيء يقول: "ما أشبهه إلاّ برَحَى تطحن قرونا"؛ لأجل القعقعة التي في ألفاظه؛ ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ؛ ولعمري ما أنصفه في هذا القول؛ وما حمله على هذا إلاّ فرط تعصبه للمتنبي؛ وبالجملة فما كان إلاّ من المحسنين في النظم)).[1]

ومن شعر ابن هاني هذه القصيدة؛ وهي أولى القصائد التي مدح بها المعز؛ فور قدومه من المحمدية. ويقال أنه كافأه عليها بدست ثمنه ستة آلاف دينار؛ فقال ابن هاني: "يا أمير المؤمنين ما لي موضع يسع الدست إذا بسط"؛ فأمر له ببناء قصر؛ فغرم عليه ستة آلاف دينار، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار. وقد رأيت أنه من الأفضل أن أثبت معظم أبياتها هنا؛ نظرا لما تشتمل عليه من أفكار ومعان توضح ما يتضمنه المعتقد الشيعي الفاطمي آنئذ؛ وقد بدأها بهذا المطلع:

---

[1] وفيات الأعيان، ج: 4، ص ص: 423 ـ 424.

هــلْ مِــنْ أعِقــةِ عالــجٍ يبرِيــنُ

أمْ مِنهمَــا بقــرُ الحــدُوجِ العِيــنُ[1]

ولَمــنْ ليــالٍ مَــا ذَممنــا عَهدَهــا

مــذْ كــنَّ إلاّ أنهــنَّ شجــونُ[2]

المشرِقــاتُ كأنهــنَّ كوَاكــــبٌ

وَالناعمــاتُ كأنهــنَّ غصــــونُ

بيــضٌ ومَا ضَحِكَ الصَّباحُ وَإنهَــا

بِالمِسْكِ مِنْ طرَرِ الحِسَــانِ لَجُــونُ[3]

أدْمَى لَها المَرْجــانُ صَفحَــة خــدِّهِ

وَبــكَى عليْهــا اللؤْلــؤُ المَكنــُونُ

أعْدَى الحَمَــامَ تــأوُّهِي مِنْ بعدِهــا

فكأنــهُ فيمــا سَجعــنَ رَنيــــنُ

بَانــوا سرَاعــاً لِلهــوَادِجِ زَفــرَة

ممــا رَأيــنَ وَلِلمــطِيِّ حَنيــــنُ

---

[1] الأعقــة: جمــع عقيــق؛ أي الــوادي. وعالــج: موضــع مــا في الباديــة. يبريــن: مكــان في البحريــن بــه رمــال كثيــرة. بقــر العيــن: تشبيــه للنســوة ذات العيــون الجميلــة. الحــدوج: جمــع حــدج وهــو عبــارة عــن مركــب تركبــه النســاء.

[2] الشجــون: الهمــوم.

[3] جــون: شديــد الســواد.

فَكَأنَّمَـــا صَبَغـُـوا الضُّحَى بِقبَابِهِــمْ
أوْ عَصفْــرَتْ فِيها الخدُودَ جُفُــونُ[1]
مَاذَا عَلى حُلـــلِ الشَّقِيقِ لـــَوْ انَّهـــا
عَـــنْ لاَبِسِيهـــا فِي الخـــدُودِ تبيـــنُ[2]

وهنـــا يشـــرع في مـــدح المعـــز بطريقتـــه المستفـــزة؛ المليئـــة بالمبالغـــة الغريبـــة، والغلـــو الفاضـــح؛ وهـــو مـــا رفضـــه معظـــم المسلميـــن مـــن أهـــل السنـــة ونـــددوا بـــه؛ وفي ذلـــك يقـــول:

هـــذَا معـــدٌ وَالخلاَئـــقُ كلهـــــا
هـــذَا المعِـــزُّ متوَّجـــاً وَالدِّيـــــنُ
هذا ضَمِيـــرُ النشـــأةِ الأولَى الـــتِي
بـــدَأ الإلـــهُ وَغيبهـــا المكنـــونُ
مِنْ أجـــلِ هذَا قـــدِّرَ المقـــدُورُ فِي
أمِّ الكتـــابِ وَكـــوِّنَ التكوِيـــــنُ

[1] أي احمـــر الضـــحى مـــن احمـــرار قبابهـــم. وصبغـــت دموعهـــم الداميـــة خدودهـــم.
[2] حلـــل الشقيـــق: الثيـــاب الحمـــر الـــتي تشبـــه شقائـــق النعمـــان.

وَبَـــذَا تلــــــقى آدَمٌ مِـــنْ رَبَــــــهِ

عفـــواً وَفَـــاءَ لِيونـــسَ اليقطِيـــنُ

يَا أرْضُ كَيفَ حَمَلتِ ثِـــنْيَ نِجَـــادِهِ

وَالنَّصـْـرُ أعظـــمُ مِنـــكِ وَالتمْكِيـــنُ[1]

حَاشَـــا لِمَا حُمِّلْـــتِ تَحمِـــلُ مِثلـــهُ

أرْضٌ وَلَكـــنَّ السمـــاءَ تعيـــــنُ

وَلَوْ يَلتـــقِي الطُّوفانُ قَبْـلُ وَجُـــودُهُ

لمْ يُنْـــجِ نوحـــاً فلكـــهُ المَشحُـــونُ

لوْ أنَّ هَذَا الدَّهـــرَ يَبْطـــشُ بَطشَـــهُ

لمْ يَعْقـــبِ الحَركـــاتِ مِنهُ سُكـــونُ

الـــرَّوْضُ ما قـــدْ قيـــلَ فِي أيامـــهِ

لاَ أنـــــهُ وَرْدٌ وَلاَ نسْرِيـــــنُ

وَالمِسْكُ مَا لَثمَ الثرَى مِـــنْ ذِكْـــرِهِ

لاَ أنَّ كـــلَّ قـــــرَارَةٍ دَارِيَـــــنِ[2]

---

[1] الثـــني: الطـــي. تقـــول: "أرسلتـــه ثـــني كتـــابي" أي طي كتـــابي. النجـــاد: حمائـــل السيـــف؛ لأنـــه يعلـــو العاتـــق. يقـــال: "هـــو طويـــل النجـــاد" كنايـــة عـــن انـــه طويـــل القامـــة.

[2] داريـــن: موضـــع بالبحريـــن؛ وهـــو همـــزة وصـــل لجلـــب المســـك مـــن الهنـــد.

مَلَــكٌ كمــا حُدِّثْــتَ عنــهُ رَأفــةً

فالخمــرُ مــاءٌ وَالشرَاســة ليــنُ

شِيــمٌ لوْ أنَّ اليــمَّ أعــطِيَ رفقهــا

لمْ يَلتقــمْ ذَا النــونِ فِيــهِ النــونُ[1]

تاللــهِ لاَ ظلــلُ الغمــامِ معاقِــلٌ

تــأبَى عليهِ وَلاَ النُّجــومُ حُصُــونُ

وَوَرَاء حَقٍّ ابْنِ الرَّسولِ ضَرَاغــمٌ

أسْــدٌ وَشَهبــاءُ السِّــلاَحِ منــونُ

الطالبــانِ: المِشرَفيــــة وَالقنــــا

المدْرِكــانِ: النصْــرُ وَالتمكِيــــنُ

ثــم يضيــف قائــلا:

أنظــرْ إلى الدُّنيــا بإشفــاقٍ فقــــدْ

أرْخَصْــتَ هذَا العِلــقَ وَهوَ ثمِيــنُ

لوْ يَسْتَطِيعُ البَحْرَ لاستَعْــدَى عَــلى

جــدْوَى يَدَيــكَ وَإنــهُ لقميــــنُ

[1] ذا النــون: النــبي يونــس عليــه الســلام. والنــون الحــوت الــذي التهمــه.

أمـــددهُ أوْ فاصْفَــحْ لـــهُ عنْ نيلِـــهِ
فلقــدْ تَخــوَّفَ أنْ يقــالَ ضَنِيـــنُ
وَأذَنْ لـــهُ يغــرِقْ أميـــة معلِنـــــاً
مــا كــلُّ مــأذُونٍ لــهُ مــأذُونُ
وَاعــذِرْ أميـــة أنْ تغــصَّ برِيقهـــا
فالمهـــلُ مَـــا سُقِيتـــهُ وَالغِسْلِيـــنُ[1]
ألقـــتْ بِأيْدِي الذُّلِّ مُلـــقَى عَمْرِهَـــا
بِالثـــوْبِ إذْ فغــرَتْ لـــهُ صِفيـــنُ[2]
قـــدْ قـــادَ أمْرَهـــمُ وَقلـــدَ ثغرَهـــمُ
مِنهـــمْ مهيـــنٌ لاَ يكـــــادُ يبيـــــنُ

ويقـــول أيضـــا:

وَرَمَى إلَى البلـــدِ الأمِيـــنِ بِطرفـــهِ
ملـــكٌ عَـلَى ســـرِّ الإلـــهِ أمِيـــنُ
لمْ يَـــدْرِ مَا رَجــمُ الظنـــونِ وَإنمَـــا
دُفِـــعَ القضَـــاءُ إليـــهِ وَهـــوَ يقيـــنُ

---

[1] المهـــل: الصديـــد والقيـــح. الغسليـــن: مـــا يسيـــل مـــن جلـــود أهـــل جهنـــم.
[2] عمرهـــا: المقصـــود هنـــا عمـــرو بـــن العـــاص؛ وأراد بعبـــارة ملـــقى: مـــا جـــرى لـــه حيـــن طعنـــه عـــلي بـــن أبي طالـــب فألقـــاه أرضـــا في موقعـــة صفيـــن.

كذِبتْ رجَالٌ مَا ادَّعَـــتْ مِنْ حَقكُـــمْ
وَمِـــنَ المقـــالِ كأهلـــهِ مأفـــونُ
أبـــنِي لـــؤَيٍّ أينَ فضـــلُ قدِيمكـــمْ
بلْ أيـــنَ حِلـــمٌ كَالجبـــالِ رَصِيـــنُ[1]
نازَعتـــمُ حـــقَّ الـــوَصِيِّ وَدُونـــهُ
حـــرَمٌ وَحِجـــرٌ مانـــعٌ وَحجـــــونُ[2]
نَاضَلَتمُـــوهُ عَـــلَى الخِلاَفـــةِ بِالـــتِي
رُدَّتْ وَفِيكـــمْ حَدُّهـــا المسْنُـــونُ
حَرَّفْتُمُوهَا عَنْ أبِي السِّبْطَيْـــنِ عَـــنْ
زَمَـــعٍ ولَيـــسَ مِنَ الهجـــانِ هجيـــنُ[3]
لـــوْ تتقـــونَ اللهَ لـــمْ يَطمـــحْ لَهـــا
طـــرَفٌ ولَمْ يَشمـــخْ لَهـــا عرنِيـــنُ[4]

---

[1] بنـــو لـــؤي: قريـــش.

[2] الـــوصي: عـــلي بـــن أبي طالـــب.

[3] السبطيـــن: الحســـن والحسيـــن. عـــن زمـــع: أي عـــن إصـــرار ومضـــاء في الأمـــر. الهجـــان مـــن كـــل شـــيء: خيـــاره. والهجيـــن: مـــن كـــان أبـــوه عـــربي وأمـــه أمـــة.

[4] العرنيـــن: الأنـــف كلـــه؛ جمعـــه عرانيـــن.

لكِنكـــمْ كنتـــمْ كَأهـــلِ العِجْـــلِ لـــمْ
يُحفــظْ لمــوسَى فِيهــمُ هـــارُونُ[1]
لوْ تَسْألـــونَ القبـــرَ يَـــومَ فرِحتـــمُ
لأجـــابَ أنَّ محمـــداً محـــــزُونُ
مَاذَا ترِيـــدُ مِنَ الكِتـــابِ نوَاصِـــبٌ
وَلـــهُ ظهـــورٌ دُونهـــا وَبطـــونُ[2]
هِيَ بُغيَـــة أضْللتمُوهَـــا فَارْجِعُـــوا
فِي آلِ يَاسيـــنٍ ثـــوَتْ ياسِيـــــنُ
رُدُّوا عليْهـــمْ حكمَهـــمْ فَعَليهـــــمُ
نـــزَلَ البيـــانُ وَفِيهـــمُ التبييـــــنُ
البَيْـــتُ بَيْـــتُ اللـــهِ وَهـــوَ معَظـــمٌ
وَالنـــورُ نـــورُ اللـــهِ وَهـــوَ مبيـــنُ
وَالسِّترُ سِترُ الغيْـــبِ وَهْوَ مُحَجَّـــبٌ
وَالسِّـــرُّ سِرُّ الوَحْيِ وَهْوَ مصُـــونُ
النـــورُ أنـــتَ وَكـــلُّ نـــورٍ ظلمـــة
وَالفـــوقُ أنـــتَ وَكـــلُّ فـــوقٍ دُونُ

---

[1] أهـــل العجـــل: بنـــو إسرائيـــل.

[2] النواصـــب: الذيـــن ينصبـــون لعـــلي بـــن أبي طالـــب العـــداء.

لـــوْ كانَ رَأيــكَ شَائِعـــاً فِي أمـــةٍ

علِمُـــوا بما سَيَكـــونُ قبْـــلَ يكـــونُ

أوْ كَانَ بِشرْكَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ لـــمْ

يُكْسَفْ لَهَا عِنـــدَ الشُّـــرُوقِ جَبيـــنُ

أوْ كَانَ سُخطكَ عدْوَةً فِي السُّمِّ لـــمْ

يَحْمِلـــهُ دُونَ لَهاتـــهِ التنِيـــنُ

لـــمْ تسْكـــنِ الدُّنيَـــا فـــوَاقَ بَكِيـــةٍ

إلاَّ وَأنـــتَ لِخوفهـــا تأميـــنُ

اللـــهُ يَقبَـــلُ نُسكنـــا عنـــا بمـــا

يُرْضيـــكَ مِنْ هـــدْيٍ وَأنتَ مُعِيـــنُ

فَرْضَانِ مِنْ صَوْمٍ وَشُكـــرِ خلِيفـــةٍ

هـــذَا بهـــذَا عِندَنـــا مَقـــرُونُ

فَارزُقْ عِبَـــادَكَ مِنكَ فَضْلَ شَفَاعَـــةٍ

وَاقـــرُبْ بهمْ زُلـــفَى فأنـــت مَكِيـــنُ

لـــكَ حمْدُنـــا لاَ أنـــهُ لـــكَ مَفخـــرٌ

مَـــا قـــدْرُكَ المَنثـــورُ وَالمَـــوزُونُ

قْد قالَ فِيـــكَ اللـــهُ مَـــا أنـــا قائـــلٌ

فكـــأنَّ كـــلَّ قصِيـــدَةٍ تَضْمِيـــنُ

اللـــهُ يَعْلَمُ أنَّ رَأيــكَ فِي الـــوَرَى
مَأمـــونُ حـــزْمٍ عِنـــدَهُ وَأمِيـــــنُ
وَلأنتَ أفضَـــلُ مَنْ تشِيـــرُ بِجَاهِـــهِ
تحْــتَ المِظلـــةِ بِالســـلاَمِ يَمِيـــنُ

ومـــع مـــرور الوقـــت، وتفـــاوت الزمـــن؛ بـــدأت أعـــراض الشيخوخـــة تـــدب في كيـــان الدولـــة الفاطميـــة؛ وذلـــك بعدمـــا فســـدت عصبيتهـــا، وتلاشـــت قوتهـــا؛ بافتـــراق الأنصـــار، وزوال الدعـــوة الصادقـــة، وانعـــدام الدعـــاة الأكفـــاء. وتلـــك هي سنـــة اللـــه في الحيـــاة، وذلـــك مـــا تقتضيـــه طبيعـــة الـــدول. وعليـــه فقـــد انتـــهى الأمـــر بالدولـــة الفاطميـــة ــ كمـــا انتـــهى بـــدول أخـــرى في ذلـــك العصـــرـــ إلى السقـــوط والاندثـــار في القاهـــرة سنـــة 567هــ(1171م)؛ بواسطـــة صـــلاح الديـــن الأيـــوبي.

وعنـــد المقابلـــة بيـــن الدولتيـــن: الإدريسيـــة والفاطميـــة؛ ضمـــن منظـــور يبـــرز إنجازاتهمـــا الحضاريـــة والثقافيـــة. سرعـــان مـــا يتضـــح قصـــور الأدارســـة، وعجزهـــم، وضيـــق إمكاناتهـــم أمـــام الفاطمييـــن. لأنهـــم لـــم يتمكنـــوا مـــن إنجـــاز معالـــم حضاريـــة ذات قيمـــة كبيـــرة؛ تضـــاهي المعالـــم الحضاريـــة الفاطميـــة. وقـــد يعـــود السبـــب ــ عـــلى مـــا يبـــدو ــ إلى الوســـط القبـــلي الكثيـــف الـــذي يكتنـــف الدولـــة الإدريسيـــة، وإلى عجزهـــا عـــن التخلـــص منـــه. أمـــا الدولـــة الفاطميـــة؛ فقـــد شـــرع حكامهـــا في بعـــث بـــوادر حضاريـــة وثقافيـــة منـــذ البدايـــة.

ولكن في حدود ضيقة؛ لأن شدة الفتن القبلية وتلاحقها الواحدة بعد الأخرى في بداية عهدهم خلال المرحلة المغربية عطلت حركتها التنموية. ولم تتمكن هذه الدولة من تشييد حضارتها الممتازة إلا بعد التخلص من الوسط القبلي؛ الذي نشأت فيه ببلاد المغرب، أي بعد انتقالها إلى وسط آخر؛ يختلف عن الأول؛ في كونه انتقال من طور القبلية؛ إلى طور المؤسسات المتمدنة.

****

وهكذا نكتفي بهذا القدر من المعلومات التي تخص دول: الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. على أنه من الواجب التنبيه هنا إلى أن اهتمام هذا البحث كان محصورا ضمن فترة زمنية محددة؛ وعليه فقد تكون بعض الدول والإمارات التي ظهرت في فترات زمنية متأخرة لم يرد ذكرها في هذا البحث؛ وذلك تبعا لأسباب منهجية لا غير. على أن ذلك متروك للذين يرغبون في استكمال الموضوع حسب وجهة نظرهم.

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

المصـــادر والمراجـــع العربيـــة:

ــ **آراء الخـــوارج الكلاميـــة:** (تحقيـــق وتقديـــم عمـــار طالـــبي لكتـــاب الموجـــز لأبي عبـــد اللـــه الكـــافي التنـــاوتي الإبـــاضي)، الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1978م.

ــ **الإباضيـــة بالجريـــد في العصـــور الإسلاميـــة الأولى:** صالـــح باجيـــة، دار بوسلامـــة للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع، تونـــس، 1976م.

ــ **الإباضيـــة في موكـــب التاريـــخ (الحلقـــة الثانيـــة: الإباضيـــة في ليبيـــا):** عـــلي يحـــيى معمـــر، مكتبـــة وهبـــه، القاهـــرة.

ــ **ابـــن هـــاني:** أحمـــد خالـــد، الشركـــة التونسيـــة للتوزيـــع، تونـــس، والشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1976م.

ــ **إتحاف أهـــل الزمـــان بأخبـــار ملـــوك تونـــس وعهـــد الأمـــان،** أحمـــد بـــن عمـــر بـــن أبي الضيـــاف، (ت: 1291هــ/1845م): الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، والـــدار التونسيـــة للنشـــر، تونـــس، 1976م.

ـ **إتعـاظ الحنفـا بأخبـار الأئمـة الفاطميـين الخلفـاء**: أحمـد ابـن عـلي المقريـزي، (ت: 845هـ/1441م)؛ تحقيـق جمـال الديـن الشيـال، دار الفكـر العـربي، القاهـرة، 1948م.
ـ **الإحاطـة في أخبـار غرناطـة**: لسـان الديـن ابـن الخطيـب، (ت: 776هـ/1374م)؛ تحقيـق: محمـد عبـد اللـه عنـان، مكتبـة الخانـجي بمصـر، القاهـرة، ج: 1، ط: 2، 1973م، ج: 2، ط: 1، 1974م، ج: 3، ط: 1، 1975م، ج: 4، ط: 1، 1977م.
ـ **أحـزاب المعارضـة السياسيـة والدينيـة في صـدر الإسـلام (الخـوارج والشيعـة)**: فلهـوزن؛ بوليـوس: ترجمـة عبـد الرحمـن بـدوي، مكتبـة النهضـة المصريـة، القاهـرة، 1958م.
ـ **أخبـار مجموعـة في فتـح الأندلس وذكـر أمرائهـا يرحمهـم اللـه والحـروب الواقعـة بهـا بينهـم**: لمجهـول، مكتبـة المثـني، بغـداد، طبـع بمطبعـة رِبَـدَنَـيَـرَ Rivadeneyra بمدريـد 1867م.
ـ **أخبـار ملـوك بـني عبيـد**: محمـد بـن عـلي بـن حمـاد الصنهـاجي، (ت: 626هـ/1230م)؛ تحقيـق جلـول البـدوي، المؤسسـة الوطنيـة للكتـاب، الجزائـر، 1984م.
ـ **أخبـار وتراجـم أندلسيـة (مستخرجـة مـن معجـم السِّـفـر للسِّـلـفِي)**: أحمـد بـن محمـد **ال**سِّـلـفِي (ت: 576هـ/1180م)؛ تحقيـق إحسـان عبـاس، دار الثقافـة، بيـروت، 1963م.

ـ **الأدب المغربي**: محمد بن تاويت، و محمد عفيفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1969م.

أزهار الرياض في أخبار عياض: أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت:1041هـ/1631م)؛ تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1892م ـ 1942م.

ـ **الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**: أحمد بن خالد الناصري السلاوي، (ت: 1315هـ/1897م)؛ تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب بالمغرب، الدار البيضاء، 1954 ـ 1956م.

ـ **الإسلام في إسبانيا**: لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 1، 1958م.

ـ **الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العب والمستعربين والمستشرقين)**: خير الدين الزركلي، مطبعة كوستا تسوماس وشركاه، 1954م ـ 1959م).

ـ **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم المخصص لتاريخ إسبانيا الإسلامية)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956م.

ـ **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي)**؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

ـ **الأغالبة، نظامهم الاداري والسياسي**: محمد المسعود الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، (سلسلة اعلم)، 1970م.

ـ **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**: حسن بن رشيق القيرواني (قد تكون وفاته في سنة 456هـ/1063م)؛ تحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

ـ **الأنيس المطرب بروض القرطاس**: علي بن عبد الله بن أبي زرع، أو عبد الحليم بن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ثم نسخة مطبوعة حجريا؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال، السويد، 1943م.

ـ **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد:** يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م)؛ تحقيق ألفرد بل،

والغوثي أبو علي، مطبعة فنطانة الشرقية، الجزائر، ج: 1، 1903م، وج: 2، 1910م، والنسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

ــ **بغية الملتمس في تلريخ رجال أهل الأندلس**: أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت: 599هـ/1202م)؛ مكتبة المثنى، بغداد، وطبع بمطبعة روخس، مدريد، 1884م.

ــ **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي**: إبراهيم العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

ــ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**: محمد بن عذاري المراكشي (ت: 669هـ/1272م)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

ــ **تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)**: إحسان عباس؛ دار الثقافة، بيروت، 1978م.

ــ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**: حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج: 1 ــ 2، ط: 7، 1964، ج: 3، ط: 7، 1965م، ج: 4، ط: 1، 1968م.

ـ **تاريـــخ افريقيـــة والمغـــرب**: إبراهيـــم بـــن القاســـم المعـــروف بالرقيـــق القيـــرواني (ت: بعـــد 417هــ/1026م)؛ تحقيـــق المنـــجي الكعـــبي، نشـــر رفيـــق السقـــطي، تونـــس، 1968م.

ـ **تاريـــخ الأمـــم والملـــوك**: محمـــد بـــن جريـــر الطبـــري (ت: 310هــ/923م)، مكتبـــة خيـــاط، بيـــروت.

ـ **تاريـــخ الجزائـــر العـــام**: عبـــد الرحمـــن الجيـــلالي، دار الثقافـــة، بيـــروت، 1980م.

ـ **تاريـــخ الجزائـــر في القديـــم والحديـــث**: مبـــارك بـــن محـــمد الميـــلي، الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1976م.

ـ **تاريـــخ الدولـــة الفاطميـــة في المغـــرب ومصـــر وسوريـــة وبـــلاد العـــرب**: حســـن إبراهيـــم حســـن، مكتبـــة النهضـــة المصريـــة، القاهـــرة، ط: 3، 1964م.

ـ **تاريـــخ صقليـــة الإسلاميـــة**: عزيـــز أحمـــد، الـــدار العربيـــة للكتـــاب، طرابلـــس، ليبيـــا، 1980م.

ـ **تاريـــخ علمـــاء الأندلـــس**: عبـــد اللـــه بـــن محمـــد الأزدي بـــن الفـــرضي (ت: 403هــ/1012م)، الـــدار المصريـــة للتأليـــف والترجمـــة، 1966م.

ـ **تاريـــخ الفـــرق الإسلاميـــة ونشـــأة علـــم الكـــلام عنـــد المسلميـــن**: عـــلي مصطـــفى الغـــزالي، مكتبـــة ومطبعـــة محمـــد عـــلي صبيـــح وأولاده، القاهـــرة، 1959م.

ـ **تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)**: علي بن عبد الله النُّباهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا (ج: 1، الحروب الأهلية)**: دوزي؛ رينهارت؛ ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.
ـ **تاريخ المغرب الكبير**: محمد علي دبوز، طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م ـــ 1974م.
ـ **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر**: محمد بن عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.
ـ **تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض)**: القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: 544هـ/1149م)؛ تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، 1968م.
ـ **التكملة لكتاب الصلة**: محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956م.

ــ **تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)**: محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ــ **الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحواله السياسية)**: خليل إبراهيم صالح السامرائي، جامعة بغداد، 1976م.
ــ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**: محمد ابن أبي نصر الحميدي الأزدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
ــ **جمهرة أنساب العرب**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون.
ــ **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول**: شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.
ــ **حضارة العرب في الأندلس**: خير الله طلفاح، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.
ــ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**: محمد بن محمد السراج الأندلسي (ت: 1149هـ/1736م)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 ــ 1973م.
ــ **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس)**: محمد بن محمد الأصفهاني (ت:

597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971ـ 1972ـ 1973م.
ـ **الخوارج في المغرب الإسلامي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا)**: محمود إسماعيل.
ـ **دائرة المعارف الإسلامية**: محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.
ـ **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**: أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
ـ **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي**: جمع وتعليق: محمد رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966م.
ـ **دليل المؤرخ في المغرب الأقصى**: عبد السلام بن سودة؛ دار الكتاب، المغرب، الدار البيضاء، 1960م.
ـ **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي**: محمد بن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

ـ **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة:** إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **دولة الإسلام في الأندلس (العصور: الأول، والثاني، والثالث، والرابع):** محمد عبد الله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960م ـ 1969م.

ـ **الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي):** محمد الطالبي؛ ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

ـ **الدولة العربية في إسبانيا:** إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **ديوان ابن هاني الأندلسي:** دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:** علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (ت: 542هـ/1147م)؛ تحيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، 1975م ـ 1979م.

ـ **رسالة افتتاح الدعوة:** القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون (ت: 363هـ/973م)؛ تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

ـ **رسائل بن حزم الأندلسي**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م.
ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام)**: محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.
ـ **السجلات المستنصرية**: تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.
ـ **السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي**: محمد الصالح مرمول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.
ـ **شذرات الذهب في من أخبار من ذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
ـ **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء**: أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

ـ **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية:** عبد العزيز المجدوب، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.

ـ **صلة الصلة:** أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت: 708هـ/1308م)، مكتبة خياط، بيروت.

ـ **ضحى الإسلام:** أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10.

ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس:** أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني (ت: 333هـ/944م)؛ تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن الباني، الدار التونسية للنشر، 1968م.

ـ **طبقات المشائخ بالمغرب:** أحمد بن سعيد الدرجيني (ت: 670هـ/1271م)؛ تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.

ـ **ظهر الإسلام:** أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952 ـ 1959م

ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر:** عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

ـ **عصر هشام بن عبد الملك**: عبد المجيد محمد صالح الكبيسي، جامعة بغداد، بغداد، 1975م.

ـ **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية**: عبد الكريم جودت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**: عبد العزيز فيلالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

ـ **فتوح مصر والمغرب**: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت:257هـ/871م)؛ تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961م.

ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10، 1969م.

ـ **فجر الأندلس**: حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.

ـ **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**: ألفرد، بل؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1181م.

ـ **فوات الوفيات والذيل عليها**: محمد بن أحمد بن شاكر الكتبي (ت: 764هـ/1362م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973 ـ 1974م.

ـ **في التاريـــخ العبـــاسي والفاطـــمي**: أحمـــد مختـــار العبـــادي، دار النهضـــة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر، بيـــروت، 1971م.

ـ **في تاريـــخ المغـــرب والأندلـــس**: أحمـــد مختـــار العبـــادي، دار النهضـــة العربيـــة للطباعـــة والنشـــر، بيـــروت، 1978م.

ـ **القبائـــل الأمازيغيـــة**: بـــوزيـــاني الـــدراجي؛ دار الكتـــاب العـــربي، الجزائـــر، (ج: 1: 1999م ـ وج: 2: 2000م).

ـ **قلائـــد العقيـــان في محاســـن الأعيـــان**: الفتـــح بـــن محمـــد بـــن خاقـــان الإشبيـــلي (ت: 529هـ/1134م)؛ تحقيـــق: محمـــد العنـــابي، المكتبـــة العتيقـــة، تونـــس، 1966م.

ـ **القيـــروان عبـــر عصـــور ازدهـــار الحضـــارة الإسلاميـــة في المغـــرب العـــربي**: الحبيـــب الجنحـــاني، الـــدار التونسيـــة للنشـــر، 1968م.

ـ **الكامـــل في التـــاريـــخ**: عـــلي بـــن أبي المكـــارم الجـــزري المعـــروف بابـــن الأثيـــر (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتـــاب العـــربي، بيـــروت، 1983م.

ـ **كتاب الجغرافيا**: عـــلي بـــن مـــوسى بـــن سعيـــد (ت: 685هـ/1274م)؛ تحقيـــق إسماعيـــل العـــربي، ديـــوان المطبوعـــات الجامعيـــة، الجزائـــر، 1982م.

ـ **كتـــاب ريـــاض النفـــوس في طبقـــات علمـــاء القيـــروان وإفريقيـــة**: عبـــد اللـــه بـــن محمـــد المالـــكي (قـــد تكـــون وفاتـــه في سنـــة 474هـ/1081م)؛ تحقيـــق بشيـــر البكـــوش، ومحمـــد

العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1981م ـ 1983م.
ـ **كتاب سير الأئمة وأخبارهم:** أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الورجلاني (ت: 471هـ/1078م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.
ـ **كتاب الصلة:** خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت: 578هـ/1182م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
ـ **كتاب فتوح البلدان:** أحمد بن يحي البلاذري (ت: 279هـ/892م)؛ تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
ـ **كتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل:** علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ ج:1، 1317هـ، ج: 2 ـ 3، 1320هـ، المطبعة الأدبية بمصر، ج: 4، 1321هـ، مطبعة التمدن بمصر، ج: 5، 1321هـ، مطبعة الموسوعات بمصر.
ـ **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي):** شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1966م.
ـ **مجموعة الوثائق الفاطمية:** جمال الدين الشيال، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط: 2، 1965م.

ـ **مختصر تاريخ الإباضية**: سليمان الباروني (ت: 1359هـ/1940م).
ـ **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.
ـ **مصر في عصر الدولة الفاطمية**: محمد جمال الدين سرور؛ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة؛ (سلسلة 1000 كتاب)، 1960م.
ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**: عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.
ـ **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**: عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.
ـ **معجم البلدان**: أبو عبد الله الرومي البغدادي المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.
ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

ـ **المغـرب الإسـلامي منـذ بنـاء معسكـر القـرن حـتى انتهـاء ثـورات الخـوارج (سياسـة ونظـم)**: مـوسى لقبـال، الشركـة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع، الجزائـر، 1981م.
ـ **المغـرب في حـلى المغـرب**: أبـو محمـد الحجـاري، وعبـد الملـك بـن سعيـد، وآخـرون؛ تحقيـق شـوقي ضيـف، دار المعـارف بمصـر، 1964م.
ـ **المغـرب عبـر التاريـخ**: إبراهيـم حركـات، مطبعـة دار السلـمي بالمغـرب، الـدار البيضـاء 1965م
ـ **المغـرب العـربي تاريخـه وثقافتـه**: رابـح بونـار، الشركـة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع، الجزائـر، 1969م.
ـ **المغـرب في ذكـر بـلاد إفريقيـة والمغـرب (جـزء مـن أجـزاء كتـاب المسالـك والممالـك)**: عبـد اللـه بـن عبـد العزيـز البكـري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيـق مـاك قوكيـن دي سـلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبـة أمريكـا والشـرق، ببـاريـس، Librairie D’Amérique et D’Orient, Paris، 1965م.
ـ **المقتبـس في أخبـار بلـد الأندلـس**: حيـان بـن خلـف بـن حسيـن بـن حيـان القرطـبي (ت: 479هـ/1076م)؛ القطعـة الـتي حققهـا عبـد الرحمـن عـلي حـجي، دار الثقافـة، بيـروت، 1965م.

ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**: حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ وهي القطعة التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.

ـ **مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)**: محمد بن عبد الله الحمودي الإدريسي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/ 1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **مقدمة ابن خلدون**: عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1965م، وج: 2، 1966م، وج: 3، 1967م، وج: 4، 1968م.

ـ **المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)**: أماري؛ ميخائيل: مكتبة المثنى، بغداد و PRESSO F. A. BROCKHAUS Libraio Della Societa LIPSIA. 1857.

ـ **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري**: إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

ـ **الملـل والنحـل**: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: 548هـ/1153م)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1975م.
ـ **المهدي المنتظر بين العقيدة الدينية والمضمون السياسي**: حجاب؛ محمد فريد؛ المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1984م.
ـ **نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر**: لمجهول عاش في سنة 712هـ (وربما كان لأبي علي صالح بن عبد الحليم؛ حسب تحقيق موسى لقبال)؛ تحقيق ليفي بروفنسال 1934م.
ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: أبو المحاسن يوسف الأتابكي ابن تَغْرِي بَرْدِي (ت: 874هـ/1469م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.
ـ **نظم الحكم والرسوم في دولة بني عبد الواد الزيانية**: بوزياني؛ الدراجي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.
ـ **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم مما مضى**

من الزمان: محمد بن عبد الله التلمساني التنسي (ت: 899هـ/1493م)، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.
ـ **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**: عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م.
ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**: أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت: 1041هـ/1631م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،
ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**: أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: 733هـ/1332م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمصر، 1954م.
ـ **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**؛ أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)؛ تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959م.
ـ **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي**: محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1974م.
ـ **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**: حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس، 1966 ـ 1972م.

ـ **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي**: محمد حمدي المناوي، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1970م.
ـ **وصف إفريقيا**: الحسن بن محمد الوزان الفاسي الشهير بليون الأفريقي (ت: بعد 957هـ/1550م)؛ ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م.
ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: أحمد بن محمد بن خلكان (ت: 681هـ/1282م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر ببيروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 1971، 7م، ج: 8، 1972م.

المراجع باللغة الأجنبية:

- ABOU OBEID EL-BEHRI: - **Description de l'afrique septenrionale**. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.
- BEL - ALFRED: - **La religion musulmanes en Berbérie** (Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.
- BOURDIEU. PIERRE: - **Sociologie de L'Algérie**. Presses Universitaires de Paris, 1970.
- BOUSQUET (G.H.): - **Les Berberes**. Presses Universitaires de france 1967.
- BREMOND. C.R (Général): - **Berbères et Arabes**, Payot, Paris, 1950.

- FARHAT. DACHRAOUI: - **LE CALIFAT FATIMIDE au MAGHREB.** S. T. D. TUNIS. 1981.
- GAUTIER. (EMILE .F.): - **Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)** Payot , Paris, 1952.
- IDRIS. Hady Roger: - **La Berbérie Orientale .Sous les Zirides (Xème - XIIème Siècles).** Librairie D'Amérique et D'Orient Adrien - Maisonneuve , Paris, 1981.
- JEAN LEON LAFRICAIN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- MARCAIS GEORGES: - **La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,** Editions Montaigne , Paris. 1946. et
-MARCAIS GEORGES: **Les Arabes en Berbérie**

فهرس المحتويات